المُستَطرَف

فى كلّ فنّ : مستظرف

تأليف

﴿ شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبشيهى المحلى ﴾

﴿ ٧٩٠ – ٨٥٠هـ ﴾

ثمرات الاوراق فى المحاضرات

الجزء الأول

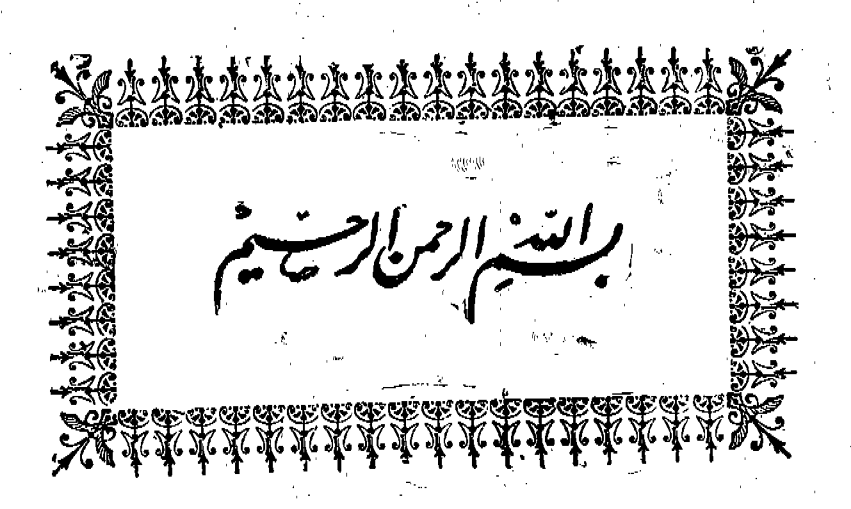
لتقى الدين أبى بكر بن على بن محمد بن حجة الحموى القادرى الحنفى

ويليه ذيلان

١ – لابن حجة الحموى ٢ – لمحمد بن ابراهيم الأحدب

الناشر
مكتبة الجمهورية العربية
لصاحبها ، عبد الفتاح عبد الحميد مراد
شارع الصنادقية بجوار الأزهر - مصر

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾



الحمد لله الملك العظيم الكبير ❊ الغنى الحميد اللطيف الخبير ❊ المنفرد بالعز والبقاء والإرادة والتدبير الحى العليم الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ❊ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ❊ أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير ❊ وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويسر من عسير ❊ وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له ولا مشير ❊ ولا ظهير له ولا وزير ❊ وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير ❊ المبعوث إلى كافة الخلق من غنى وفقير ❊ ومأمور وأمير ❊ ﷺ وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير ❊ وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير ❊ وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير ❊ (أما بعد) فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم ❊ جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم ❊ وبسطوا مجلدات فى التواريخ والنوادر والأخبار والحكايات واللطائف ورقائق الاشعار وألفوا فى ذلك كتبا كثيرة ❊ وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن فى غيره من الكتب محصورة ❊ فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف ❊ وجعلته مشتملا على كل فن ظريف ❊ (وسميته المستطرف ❊ فى كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم وأحاديث صحيحة من أحاديث النبى الكريم ❊ وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار ❊ ونقلت فيه كثيرا مما أودعه الزمخشرى فى كتابه ربيع الابرار ❊ وكثيرا مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ❊ ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد ❊ وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة ❊ من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة ❊ وأودعته من الأحاديث النبوية والأمثال الشعرية ❊ والألفاظ اللغوية ❊ والحكايات الجدية ❊ والنوادر الهزلية ❊ ومن الغرائب والدقائق والأشعار والرقائق ❊ ما تشنف بذكره الاسماع وتقر برؤيته العيون ❊ وينشرح بمطالعته كل قلب محزون (شعر)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (قال) الشيخ الإمام حجة العرب وترجمان الأدب تقى الدين أبو بكر بن حجة الحنفى منشىء دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية تغمده الله برحمته (أما بعد) حمدا لله الذى فكهنا بثمار أوراق العلماء ❊ والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة ❊ وأغصانها التى دنت لهذه الأمة قطوفها المثمرة ❊ فانى وريت بتسمية هذا الكتاب بثمار الاوراق عالما أن قطوفه لم تدن إلا من ذوى الأذواق (فمن ذلك) ما نقلته من درة الغواص لأبى محمد القاسم بن على الحريرى صاحب المقامات أن أبا العباس المبرد روى أن بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازنى فى قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار فى تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك واحتياجك

من كل معنى يكاد الميت يفهمه   حسنا ويعشقه القرطاس والقلم

(وجعلته) يشتمل على أربعة وثمانين بابا من أحسن الفنون متوجة بألفاظ كأنها الدر المكنون كما قال بعضهم شعرا فى المعنى

ففى كل باب منه در مؤلف   كنظم عقود زينتها الجواهر

فإن نظم العقد الذى فيه جوهر   على غير تأليف فما الدر فاخر

(وضمنته) كل لطيفة ونظمته بكل ظريفة وقرنت الأصول فيه بالفصول ورجوت أن يتيسر لى مارمته من الوصول (وجعلت) أبوابه مقدمة وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه ويعرف مكانه بالاستدلال عليه فيجد كل معنى فى بابه إن شاء الله تعالى والله المسؤل فى تيسير المطلوب وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه الموفق للصواب

(الباب الأول) فى مبانى الإسلام وفيه خمسة فصول (الباب الثانى) فى العقل والذكاء والحمق والذم وغير ذلك (الباب الثالث) فى القرآن العظيم وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم (الباب الرابع) فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم (الباب الخامس) فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك (الباب السادس) فى الأمثال السائرة وفيه فصول (الباب السابع) فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول (الباب الثامن) فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك (الباب التاسع) فى ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد (الباب العاشر) فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادى عشر) فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب (الباب الثانى عشر) فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك (الباب الثالث عشر) فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول (الباب الرابع عشر) فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته (الباب السادس عشر) فى الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك (الباب السابع عشر) فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر (الباب الثامن عشر) فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول (الباب التاسع عشر) فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك (الباب العشرون) فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك (الباب الحادى والعشرون) فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان (الباب الثانى والعشرون) فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم (الباب الثالث والعشرون) فى محاسن الأخلاق ومساويها (الباب الرابع والعشرون) فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك (الباب الخامس والعشرون) فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين وفيه فصلان (الباب السادس والعشرون) فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان (الباب السابع والعشرون) فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبهه (الباب الثامن والعشرون) فى الفخر

إليها فقال أبو عثمان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة حديث كذا وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق من شعر الوجى

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من بالحضرة فى إعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم إن ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بإشخاصه قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل قلت من مازن يا أمير المؤمنين قال أى الموازن قلت من مازن ربيعة فكلمنى بكلام قومى وقال با سمك لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كانت فى أول الأسماء فكرهت أن أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر فقلت بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه منى ذلك ثم قال ما تقول فى قول الشاعر.

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلم

والمفاخرة والتفاضل والتفاوت (الباب التاسع والعشرون) فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة (الباب الثلاثون) فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين (الباب الحادى والثلاثون) فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم (الباب الثانى والثلاثون) فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة (الباب الثالث والثلاثون) فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد (الباب الرابع والثلاثون) فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وماجاء عنهم (الباب الخامس والثلاثون) فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك (الباب السادس والثلاثون) فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وماأشبه ذلك (الباب السابع والثلاثون) فى الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية الذمم (الباب الثامن والثلاثون) فى كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه (الباب التاسع والثلاثون) فى الغدر الخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول (الباب الاربعون) فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصول (والباب الحادى والأربعون) فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن (الباب الثانى والأربعون) فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول (الباب الثالث والأربعون) فى الهجاء ومقدماته (الباب الرابع والأربعون) فى الصدق والكذب وفيه فصلان (الباب الخامس والأربعون) فى بر الوالدين ودم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الانساب وفيه فصول (والباب السادس والأربعون) فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس وماأشبه ذلك (والباب السابع والأربعون) فى ذكر الحلى والمصوغ والطيب والتطيب وماجاء فى التختم (الباب الثامن والأربعون) فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب التاسع والأربعون) فى الأسماء والكنى والالقاب وما استحسن منها (الباب الخمسون) فى الأسفار والاغتراب وماقيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الاقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إلى الأوطان (الباب الحادى والخمسون) فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه (الباب الثانى والخمسون) فى ذكر الفقر ومدحه (الباب الثالث والخمسون) فى ذكر التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد (الباب الرابع والخمسون) فى ذكر الهدايا والتحف وماأشبه ذلك (الباب الخامس والخمسون) فى العمل والكسب والصناعات والحرف والعجز والتوانى وماأشبه ذلك (الباب السادس والخمسون) فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول (الباب السابع والخمسون) فيماجاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والسرور بعد الحزن ونحو ذلك (الباب الثامن والخمسون) فى ذكر العبيد والاماء والخدم وفيه فصلان (الباب التاسع والخمسون) فى أخبار العرب وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم (الباب الستون) فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا (الباب الحادى والستون) فى الحيل والخدائع المتوصلة بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر ونحو ذلك (الباب الثانى والستون) فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات مرتبا على حروف المعجم) الباب الثالث والستون) فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم (الباب الرابع والستون) فى خلق الجان وصفاتهم (الباب الخامس والستون) فى ذكر البحار ومافيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول (الباب السادس

والستون)

أترفع رجلا أم تنصبه فقلت الوجه النصب ياأمير المؤمنين قال ولم ذاك فقلت إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم فأخذ الزيدى فى معارضتى فقلت هو بمنزلة قولك إن ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه أن الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار قال أبو العباس المبرد فلما عاد أبو عثمان إلى البصرة قال لى كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا ألفا (ونقلت من درة الغواص أيضا) أن حامد بن العباس سأل على بن عيسى فى ديوان الوزارة مادواء الخمار وكان قد علق به فأعرض عن كلامه وقال ما أنا وهذه المسألة فخجل حامد منه والتفت إلى قاضى القضاة أبى عمر فسأله عن ذلك فتنحنح لاصلاح صوته ثم قال: قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال النبى صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها والاعشى هو المشهور بهذه الصناعة فى الجاهلية حيث قال

والستون) فى ذكر عجائب الأرض ومافيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول (الباب السابع والستون) فى ذكر المعادن والاحجار وخواصها (الباب الثامن والستون) فى ذكر الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس ومن كرهه واستحسنه (الباب التاسع والستون) فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء (الباب السبعون) فى ذكر القينات والأغانى (الباب الحادى والسبعون) فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار به والعفاف وأخبار من مات بالعشق ومافى معنى ذلك وفيه فصول (الباب الثانى والسبعون) فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والقومة والالغاز ومدح الاسماء والصفات وفيه فصول (الباب الثالث والسبعون) فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن ومايمدح ومايذم من عشرتهن وفيه فصول (الباب الرابع والسبعون) فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها (الباب الخامس والسبعون) فى المزاح والنهى عنه وماجاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول (الباب السادس والسبعون) فى النوادر والحكايات وفيه فصول (الباب السابع والسبعون) فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول (الباب الثامن والسبعون) فى القضاء والقدر وأحكامهما والتوكل على الله تعالى (الباب التاسع والسبعون) فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار (الباب الثمانون) فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء من السنة والعيادة وثوابها وماأشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادى والثمانون) فى ذكر الموت ومايتصل به من القبر وأحواله (الباب الثانى والثمانون) فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول (الباب الثالث والثمانون) فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ونحو ذلك (الباب الرابع والثمانون) فى فضل الصلاة على النبى ﷺ وهو آخر الأبواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد

(الباب الأول فى مبانى الإسلام وفيه خمسة فصول)

(الفصل الأول فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه)

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لاشريك له فرد لامثل له صمد لاندله أزلى قائم أبدى دائم لاأول لوجوده ولاآخر لأبديته قيوم لايفنيه الأبد ولا يغيره الأمد بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن منزه عن الجسمية ليس كمثله شىء وهو فوق كل شىء فوقيته لاتزيده بعدا عن عباده وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شىء شهيد وهو معكم أينما كنتم لايشابه قربه قرب الأجسام كما لايشابه ذاته ذوات الأجرام منزه عن أن يحده زمان مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الابرار فى دار القرار على مادلت عليه الآيات والأخبار حى قادر جبار قاهر لايعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم له الملك والملكوت والعزة والجبروت خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لاتحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مريد للكائنات مدبر للحادثات لايجرى فى ملكه قليل ولا كثير ولا جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته فاشاء كان ومالم يشأ لم يكن فهو المبدى المعيد الفاعل لما يريد لامعقب لحكمه ولاراد لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا سميع بصير متكلم بكلام لايشبه كلام خلقه

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها ثم تلاه أبو نواس فى الإسلام فقال

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

فاصفر حينئذ وجه حامد وقال لابن عيسى ماضرك ياباردأن تجيب ببعض ماأجاب به مولانا قاضى القضاة وقد استظهر فى جواب المسألة بقول الله تعالى أولا ثم بقول النبى صلى الله عليه وسلم ثانيا وأدى المفى وخرج من العهدة فكان خجل ابن عيسى أكثر من خجل حامد لما ابتدأه بالمسألة . انتهى .

* ويضارع هذه الحكاية فى لين بعض القضاة المتقشفين وإذ عانهم مع الزهد والتقشف للمستفتين مانقلته من درة الغواص للحريرى أيضا قال اجتمع قوم على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان

أن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل كلتاهما حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاهما للمفصل

فقال بعضهم امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن علة هذا الشعر كيف قال إن التى فوحد

وكل ماسواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك دالة على وحدانيته قال الله تعالى إن في خلق السموات والأرض الآية وقال أبو العتاهية

فيا عجبا كيف يعصى الإله … أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية … تدل على أنه الواحد
ولله في كل تحريكة … وتسكينة في الورى شاهد

وقال غيره

كل ماترتقي إليه بوهم … من جلال وقدرة وسناء
فالذي أبدع البرية أعلى … منه سبحان مبدع الاشياء

وقال علي رضي الله عنه في بعض وصاياه لولده اعلم يابني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد لايضاده في ملكه أحد وعنه عليه الصلاة والسلام كل مايتصور في الأذهان فالله سبحانه بخلافه وقال لبيد بن ربيعة

ألا كل شيء ماخلا الله باطل … وكل نعيم لامحالة زائل
وكل ابن أنثى لو تطاول عمره … إلى الغاية القصوى فللقبر آيل
وكل أناس سوف تدخل بينهم … دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوما سيعرف سعيه … إذا حصلت عند الإله الحصائل

وروى أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر إن أشعر كلمة قالتها العرب ألا كل شيء ماخلا الله باطل ثم بعد هذا الاعتقاد الاقرار بالشهادة بأن محمدا رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في الحشر وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق وأن الميزان حق والصراط حق والحساب حق وأن الجنة حق والنار حق وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لايبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ويحسن الظن بجميعهم على ماوردت به الاخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك مؤمنا به موقنا فهو من أهل الحق والسنة مفارق لعصابة الضلال والبدعة رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها إنه سميع مجيب فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا

(الفصل الثاني في الصلاة وفضلها) قال الله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو فقيل هو من الدعاء وتسمية الصلاة دعاء معروفة في كلام العرب فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى إن الله وملائكته يصلون على النبي فهي من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومن الناس دعاء قال ﷺ اللهم صل على آل أبي أوفى أي ارحمهم وقيل سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود إذا قومته والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه قال الله تعالى إن الصلاة تنهى

عن

ثم قال كلتاهما فثنى فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ماكانوا فيه ومضوا يتخطون القبائل إلى بني شقرة فوجدوا عبيد الله ابن الحسن يصلي فلما فرغ من صلاته قالوا له قد جئناك في أمر دعتنا إليه الضرورة وشرحوا له الخبر وسألوه الجواب فقال مع زهده وتقشفه إن التي ناولتني فرددتها عني بها الخمرة الممزوجة بالماء ثم قال كلتاهما حلب العصير يريد الخمرة المتحلبة من العنب والماء المتحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات انتهى (قال الحريري) وقد بقي في الشعر ما يحتاج إلى تفسيره أما قوله إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلت فإنه خاطب به الساقي الذي ناوله كأسا ممزوجة لأنه يقال قتلت الخمرة إذا مزجتها فأراد أن يعلمه أنه فطن لما فعله ثم مااقتنع بذلك منه حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل يعني الصرف التي لم تمزج وقوله أرخاهما للمفصل يعني به اللسان وسمي

عن الفحشاء والمنكر وقيل لأنها صلة بين العبد وربه وعن رسول الله ﷺ قال علم الإيمان الصلاة فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك قال لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه وقيل للحسن ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره وقال بعضهم لا تفوت أحداً صلاة فى جماعة إلا بذنب * وكانت رابعة العدوية تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وتقول والله ما أريدها ثوابا ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها فى اليوم والليلة * وقال بعضهم صليت خلف ذى النون المصرى فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال الله ثم بهت وبقى كأنه جسد لا روح فيه اعظاما لربه جل وعلا ثم قال أكبر فظننت أن قلبى انخلع من هيبة تكبيره * وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود كذب من ادعى محبتى وإذا جن عليه الليل نام عنى أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه * ولعبد الله ابن المبارك رضى الله تعالى عنه

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمر فى الدنيا هجوع

وكان سيدى الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم النحرير رحمه الله كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات

يا أيها الراقد كم ترقد ... قم يا حبيبى قد دنا الموعد وخذ من الليل ولو ساعة
تحظى إذا ما هجع الرقد ... من نام حتى ينقضى ليله لم يبلغ المنزل لو يجهد

وكان سيدى أويس القرنى لا ينام ليله ويقول ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر وقال حذيفة رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وقال هشام بن عروة كان أبى يطيل المكتوبة ويقول هى رأس المال وقال أبو الطفيل سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها سمعت رسول الله ﷺ يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر * وجزأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه وعلى أخته الليل أثلاثا فماتت أخته فجزأه عليه وعلى أمه فماتت فقام الليل كله * وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى فى بيته يقول لأهله تحدثوا فلست أسمع حديثكم * وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة فما شعر به حتى أطفئ * وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير فى المسجد الحرام يحسبه جذعا منصوبا لطول انتصابه فى الصلاة وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط * وختم القرآن فى ركعة واحدة أربعة من الأئمة عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم ورأى الأوزاعى شابا بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال

عند الصباح يحمد القوم السرى * فقال يا ابن أخى لك ولأصحابك لا للعالمين وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه فى الصلاة فقيل له كيف تصبر فقال بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور وأنا بين يدى ربى أفلا أصبر على ذباب يقع على وقال أبو صفوان بن عوانة ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فى القمر كأنه يشبه الملائكة وقال الحسن ما كان فى

مفصلا بالكسر لأنه يفصل بين الحق والباطل قال الحريرى وليس على ما اعتمده القاضى عبيد الله من الاستماح وخفض الجناح ما يقدم فى نزاهته ويغض من نبله ونباهته والله أعلم * ونقلت من درة الغواص أن عروة بن أذينة الشاعر وفد على هشام ابن عبد الملك فى جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل * لقد علمت وما الإسراف من خلقى * أن الذى هو رزقى سوف يأتينى * أسعى إليه فيعيينى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعنينى وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق فقال له يا أمير المؤمنين زادك الله بسطة فى العلم والجسم ولا رد وافدك خائبا والله لقد بالغت فى الوعظ وأذكرتنى ما أنسانيه الدهر وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وتوجه راجعا إلى الحجاز فلما كان فى الليل ذكره هشام وهو فى فراشه فقال رجل من قريش قال حكمة ووفد إلى فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع ذلك

هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ كانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان * هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الاجلال والإكرام وشرف المقام فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له ادع الله أن يجعلنى رفيقك فى الجنة فقال أعنى على نفسك بكثرة السجود وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى فاتتنى صلاة الجماعة مرة فعزانى أبو إسحق البخارى وحده ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا وكان السلف رضى الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى وسبعا إذا فاتتهم الجماعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما ركعتان مقتصدتان فى تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه (وأنشد بعضهم)

خسر الذى ترك الصلاة وخابا ... وأبى معادا صالحا ومآبا
إن كان يجحدها فحسبك أنه ... أضحى بربك كافراً مرتابا
أو كان يتركها لنوع تكاسل ... غطى على وجه الصواب حجابا
فالشافعى ومالك رأيا له ... إن لم يتب حد الحسام عقابا
والرأى عندى للإمام عذابه ... بجميع تأديب يراه صوابا

اللهم أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين (ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل) ذكر شىء من فضل السواك والأذان (أما السواك) فقد قال الرسول ﷺ لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عن كل صلاة وقال أيضا صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاص فاه بالسواك وقال ﷺ السواك مطهر للفم مرضاة للرب وعنه ﷺ أنه قال لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه وقال أيضاً أفوهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها والاختيار فى السواك أن يكون بعود الأراك ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضا مبتدئا بالجانب الأيمن من فيه وينوى به الاتيان بالسنة والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الاسنان وقال الأصحاب يقول عند السواك اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين ويستاك فى ظاهر الاسنان وباطنها ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمراراً لطيفا ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين فإن اشتد يبسه لينه بالماء وقد قيل إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح (وأما الأذان) فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه قيل فى قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا نزلت فى المؤذنين وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال يغفر الله للمؤذن مدى صوته ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس وعن معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة رواه مسلم وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين رواه البخارى ومسلم وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة رواه البخارى والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم

(الفصل الثالث فى الزكاة وفضلها) قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه

شاعر لا آمن ما يقول فلما أصبح سأل عنه فأخبر بإضرابه وقال لا جرم ليعلم أن الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له وأعطاه ألفى دينار وقال إلحق بهذه ابن أذينة وأعطه إياها قال فلم أدركه إلا وقد دخل بيته فقرعت الباب عليه فخرج إلى فأعطيته المال فقال أبلغ أمير المؤمنين قولى سعيت فأكديت ورجعت إلى بيتى فأتانى رزقى (ويضارع هذه الحكاية) ما حكى عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما فى الأرض فنظر إلى المأمون فقال أما شبعت يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين ولكن حدثنى حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من التقط ما تحت مائدته أمن الفقر فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءنى ومعه منديل فيه ألف دينار فناولنى إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك * انتهى (ومن لطائف ما جنيت

قال

قال الله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقال تعالى ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة وعن بريدة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال ماحبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال ماخالطت الزكاة مالاقط إلا أهلكته وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال من كان عنده مايزكى ولم يزك ومن كان عنده مايحج ولم يحج سأل الرجعة يعنى قوله تعالى رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (وانلحق) بهذا الفصل ذكر شىء من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء قال الله تعالى إن الله يجزى المتصدقين وقال تعالى المتصدقين والمتصدقات الآية والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة وروى الترمذى فى جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره وفى صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما ماتقص مال من صدقة أو قال مانقصت صدقة من مال ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزا وماتواضع عبد إلا رحمه الله تعالى (ودخلت) امرأة شلاء على عائشة رضى الله عنها فقالت كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها لم تتصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأن أمى قد غطت عورتها بالخلقة وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسق الناس فطلبت منه قدحا من ماء فسقيت أمى فنوديت من فوق ألا من سقاها شل الله يدها فانتبهت كما ترين (ووقف) سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفت وقالت يارب ولدى فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولاضرر فقال لها هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل (وعشش) ورشان فى شجرة فى دار رجل فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مرارا وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال يارسول الله أردت أن يكون لى فراخ فقال سليمان لشيطانين اذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة أعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين ألم تفعلا ماأمرتكما به فقال اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين (وقال) النخعى كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشىء دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائما بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل وقال رسول الله ﷺ الصدقة تسد سبعين بابا من الشر وعنه ﷺ قال ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام وروى عنه ﷺ أنه قال ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق وعنه أيضا ﷺ اتقوا النار ولو بشق تمرة وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه من ردسائلا خائبا لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده وعنه ﷺ مامن مسلم يكسو مسلما ثوبا إلا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة وقال عبد العزيز بن عمير الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه وعن الربيع بن خيثم أنه خرج فى ليلة شاتية وعليه برنس خز فرأى سائلا فأعطاه إياه وتلا قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وروى عن رسول الله ﷺ

من ثمرات الأوراق) أن رجلا من الحذاق كان يكتب كتابا وإلى جانبة آخر فانتهى فى كتابه إلى اسم عمرو فكتبه بغير واو فقال يامولانا زدها واوا للفرق بينها وبين عمر فقال له والله لقد تفوضل مولانا بزيادة الواو بمعنى تفضل (قلت) وبعضهم يرى أن الواو تزاد بعد لا النافية فى الجواب إذا قيل هل فعلت كذا وكذا فيقول لا وعافاك الله. قال أبو الفرج بن الجوزى روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لرجل عربى أكان كذا وكان فقال لا أطال الله بقاءك فقال الامام عمر رضى الله عنه قد علمتم فلم تتعلموا هلا قلت لا وعافاك الله (وحكى) عن الصاحب بن عباد أنه قال هذه الواو هنا أحسن من واوات الاصداغ فى وجنات الملاح (قلت) وهذه الواو أعنى واو عمرو نظم فيها الشعراء كثيرا منهم أبو نواس قال يهجو أشجع السلمى

قل لمن يدعى سليمى سفاها . لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليمى كواو . ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

(وقال أبو سعيد الرسمى وأجاد)

فى الحق أن يعطى ثلاثون شاعرا
ويحرم مادون الرضا شاعر مثلى

قال لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء والصدقة تدفع ميتة السوء. وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة وعن عمر رضي الله عنه أن الأعمال تباهت فقالت الصدقة أنا أفضلكن وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم وعن عبيد بن عمير قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم لله أشبعه الله ومن سقى لله سقاه الله ومن كساه كساه الله وقال الشعبي من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فان لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنا أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شيء أعطاه كحلا أو أخرج ابرة وخيطا فرقع بهما ثوب السائل. ووجه رجل ابنه في تجارة فقضت أشهر ولم يقع له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم فلما كان بعد سنة قدم ابنه غانما رابحا فسأله أبوه هل أصابك في سفرك بلاء قال نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر وغرقت في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقالا لي قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك . وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج اليه فاغتنم حمله إياه ولله در القائل حيث قال

يبكي على الذاهب من ماله ... وإنما يبقى الذي يذهب

(وحكى) أن رجلا عبد الله سبعين سنة فبينما هو في معبده ذات ليلة اذ وقعت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت اليها وأقبل على عبادته فولت المرأة فنظر اليها فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه فترك العبادة وتبعها وقال إلى أين فقالت إلى حيث أريد فقال هيهات صار المراد مريدا والاحرار عبيدا ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشي عليه فلما أفاق قالت له يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري وأنا ما عصيت الله مع غيرك واني أرى في وجهك أثر الصلاح فبالله عليك اذا صالحك مولاك فاذكرني قال فخرج هائما على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز فمد ذلك الرجل العاصي يده فأخذ رغيفا فبقي منهم رجل لم يأخذ شيئا فقال اين رغيفي فقال الغلام قد فرقت عليكم العشرة فقال أبيت طاويا فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق أن أبيت طاويا لأني عاص وهذا مطيع فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعا وقالت ملائكة العذاب بل هو رجل عاص فأوحى الله تعالى اليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليالي فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة فأوحى الله اليهم أن زنوا معصية السبع ليالي بالرغيف الذي آثر على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته (وحكى) أن رجلا جلس يوما يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج اليه وانتهره فذهب فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الايام وبين أيديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعي اليه هذه الدجاجة فخرجت بها اليه فاذا هو زوجها الأول فدفعت اليه الدجاجة ورجعت وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكرت له قصتها

كما ساعوا عمرا بواو مزيدة (١٠) وضويق بسم الله في ألف الوصل (ومن لطائف المجتنى) ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب قيل إنه قال يوما للقاضي الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف امض إليه وتفقد أحواله فلما دخل الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فأنشد

ما ناصحتك خبايا الورد من رجل ... ما لم ينلك بمكروه من العذل
محبتي فيك تأبى عن مسامحتي ... بأن أراك على شيء من الزلل

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه وأقلع ولم يعد إلى شيء من ذلك ألبتة (ومن اللطائف) ما نقل عن الملك الظاهر رحمه الله تعالى قيل إنه استعرض الأمير بدر الدين يلبك الخازندار ليشتريه قال له أنا حر يا مولانا السلطان وأحسن الكتابة فأحضرت له دواة فكتب يقول

لولا الضرورة ما فارقتكم أبدا ... ولا تنقلت من ناس إلى ناس

فأعجبه الاستشهاد بهذا البيت ورغبه ذلك في مشتراه (ويضارعه ما حكى عن الصاحب كمال الدين بن العديم) قيل إن انسانا رفع رقعة إلى الصاحب المشار اليه فأعجبه خطها فأمسكها وقال لرافعها هذا خطك قال لا ولكن

مع

مع ذلك السائل الذى انتهره زوجها الأول فقال لها زوجها أنا والله ذلك السائل (وذكر) مكحول أن رجلا أتى إلى أبي هريرة رضى الله عنه فقال ادع الله لابنى فقد وقع فى نفسى الخوف من هلاكه فقال له ألا أدلك على ماهو أنفع من دعائى وأنجع وأسرع اجابة قال بلى قال تصدق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك وسلامة مامعه فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بدرهم وقال هذا خلاص ولدى وسلامته وما معه فنادى فى تلك الساعة مناد فى البحر ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال ياأبت لقد رأيت فى البحر عجبا يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا وهو اليوم الذى تصدق فيه والده عنه بالدرهم وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف فسمعنا صوتا من الهواء ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين والآثار والحكايات فى ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى وأن ليس للانسان إلا ماسعى والله أعلم

(الفصل الرابع فى الصوم وفضله وما أعده الله للصائم من الأجر والثواب) قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون قيل للصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص ٭ فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوه ٭ وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ٭ وصوم خصوص الخصوص هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية ٭ قال رسول الله ﷺ زكاة الجسد الصيام وعنه ﷺ أنه قال للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه وقال وكيع فى قوله تعالى كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية إنها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال من أفطر يوما فى رمضان من غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر وروى فى صحيح النسائى عنه أيضا ﷺ انه قال إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين وروى الزهرى أن تسبيحة واحدة فى شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة فى غيره وروى عن قتادة أنه كان يقول من لم يغفر له فى شهر رمضان فلن يغفر له فى غيره وقال رسول الله ﷺ لو يعلم الناس مافى شهر رمضان من الخير لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة كلها ولو أذن الله للسموات والارض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة وقال ﷺ ليس من عبد يصلى فى ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفا وخمسمائة حسنة وبنى له بيتا فى الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصرعان من ذهب وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام وقال ﷺ إن لكل صائم دعوة فاذا أراد أن تقبل فليقل فى كل ليلة عند فطره ياواسع المغفرة اغفرلى وعن عبيد الله بن مسعود رضى الله عنه من صام يوما من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فاذا انسلخ عنه الشهر وهو حى لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول ومن عطش نفسه لله فى يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة وقال بعضهم الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى وروى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وعنه ﷺ أنه قال صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر وهى الايام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر وفى صحيح البخارى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ٭ وفضل الصوم

هذا خطك قال نعم قال فهذه طريقتى من هو الذى أظهرك عليها فقال يامولانا كنت إذا وقعت لأحد على رقعة أخذتها منه وسألته المهلة حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة فأمره أن يكتب بين يديه ليراه فكتب

وما تنفع الآداب والعلم والحجى ٭ وصاحبها عند الكمال يموت

فكان إعجاب الصاحب بالاستشهاد أكثر من الخط ورفع منزلته بعد ذلك

(وأذكرنى اتفاق التورية فى الكمال هنا) ماحكى عن القاضى فخر الدين لقمان والقاضى تاج الدين أحمد بن الأثير رحمهما الله أنهما كانا صحبة السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور وناداه ياطنبا فقال له نعم ولم يأته وكانت ليلة مطرة مظلمة فأخرج فخر الدين ابن لقمان رأسه من الخيمة فقال تقول نعم ولم أرك فقال القاضى تاج الدين

فى ليلة من جمادى ذات أندية ٭ لايبصر الكلب فى أرجائها الطنبا

(ومن اتفاق التورية) أيضا ٭ ماكتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة ملغزا فى باب إلى والده ٭ ماواقف فى المخرج ٭ يذهب طورا ويجى

عز وجل لأنه خصه الله تعالى بالاضافة إليه كما ثبت فى الصحيح من الحديث عن النبى ﷺ أنه قال مخبرا عن ربه عز وجل كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به وقد يكتفى فى فضله بهذا الحديث الجليل وحسبنا الله ونعم الوكيل

(الفصل الخامس فى الحج وفضله) قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا وقال رسول الله ﷺ من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة وقال ﷺ من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا وفى الحديث إن من الذنوب ذنوبا لايكفرها إلا الوقوف بعرفة وفيه أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم فى الدنيا وفى الخبر أن الحجر الاسود ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق وجاء فى الحديث الصحيح ان آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وقال مجاهد ان الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الابل وصالحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا وكان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام وعن النبى ﷺ ان الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فان نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة وان الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها (وحكى) أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلثمائة فصارت تاريخا مذكورا وقيل انها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال أعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ولم تستصبح فيها وعندها الا بشموع العنبر وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتى جارية وأغنت الفقراء والمجاورين * ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت وقال يارب ان لكل عامل أجرا فما أجر عملى قال إذا طفت به غفرت لك ذنوبك قال زدنى قال جعلته قبلة لك ولاولادك قال يارب زدنى قال أغفر لكل من استغفرنى من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك قال يارب حسبى * وفى الحديث الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة وقيل للحسن ما الحج المبرور قال أن ترجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة وأول من كسا الكعبة بالديباج عبدالله بن الزبير وكانت كسوتها المسح والانطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول لااله إلا الله وحده لاشريك له نعم الرب ونعم الاله أحبه وأخشاه * وروى الحسن بن على رضى الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خده على المقام فجعل يبكى ويقول عبيدك ببابك خويدمك ببابك سائلك ببابك مسكينك ببابك يردد ذلك مرارا ثم انصرف رضى الله عنه فر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام فجلس معهم وقال لولا أنه صدقة لأكلت معكم ثم قال قوموا بنا الى منزلى فتوجهوا معه فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم (وحج) عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكا وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفا وقال اعتقتهم لله تعالى لعله يعتقنى من النار وقال الحسن بن على رضى الله عنهما انى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش الى بيته فمشى من المدينة الى مكة أربعين مرة * ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد اليه الحجاج شيئا

كان

لست أخاف شره فالم يكن يرتج فكتب إليه والده فى الجواب ذهاب وإياب وحروف وشر هذا باب مخصومة والسلام (قيل) إن الصاحب جمال الدين ابن مطروح كتب لبعض الرؤساء رقعة الى صديق له يشفع فيها عنده فكتب ذلك الرئيس هذا الأمر على مافيه من مشقة فكتب ابن مطروح فى جوابه لولا المشقة فلما وقف عليها فهم الاشارة إلى قول المتنبى

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والإقدام قتال * وقضى الشغل على الفور انتهى

(قيل) ان يوسف الصديق عليه السلام كتب على باب السجن لما خرج منه هذا قبر الاحياء وشماتة الأعداء وتجربة الاصدقاء (وقال الشاعر) دعوى الاخاء على الرخاء كثيرة بل فى الشدائد تعرف الاخوان

(ولله در يزيد بن المهلب) من ذى مروءة وسخاء وتصديق أمل فانه كان فى سجن الحجاج يعذب فدخل عليه يزيد بن الحكم وقد حل عليه نجم وكانت نجومه فى كل أسبوع ستة عشر ألف درهم فقال له

أصبح فى قيدك السماحة والجود وفضل السماح والحسب

لا تضجرن ان تتابعت نقم وصارف فى البلاء تحتسب

كان حجيج الآن لم يقربوا منى ولم يحملوا منها سواكا ولا نعلا
أتونا فما جادوا بعود إراكة ولا وضعوا فى كف طفل لنا نقلا

(وقال غيره) يحجون بالمال الذى يجمعونه حراما إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهمو أن وزره يحط ولكن فوقه فى جهنم

(وقال آخر) حج فى الدهر حجة حج فيها وأحرما وأتانا من الحجاز كما
راح محرما فهو ذو الحجة الذى ما توقى محرما

وتخاصم بدوى مع حاج عند منصرف الناس فقيل له أتخاصم رجلا من الحجاج فقال

يحج لكيما يغفر الله ذنبه ويرجع قد حطت عليه ذنوب

وقال أبو الشمقمق إذا حججت بمال أصله دنس فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله إلا كل طيبة ما كل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم

(الباب الثانى فى العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك)

نص الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون وروى عن النبى ﷺ أنه قال أول ماخلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال عز من قائل وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا أعز على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب وقال أهل المعرفة والعلم العقل جوهر مضىء خلقه الله عز وجل فى الدماغ وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة (واعلم) أن العقل ينقسم إلى قسمين قسم لايقبل الزيادة والنقصان وقسم يقبلهما فأما الأول فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء وأما الثانى فهو العقل التجريبى وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلا وأتم دراية وإن صاحب التجارب أكثرهما وأرجح معرفة ولهذا قيل من بيضت الحوادث سوادلمته وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته كان جديرا برزانة العقل ورجاحة الدراية وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحا على ذوى التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به فى محكم كتابه العزيز حيث يقول وآتيناه الحكم صبيا فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه وأسفر عن وجه الإصابة ظنه وإن كان حديث السن قليل التجربة كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال أحدهما ان هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته وأكلته ولم تبق لى فيه شيئا فقال داود عليه السلام الغنم لصاحب الحرث عوضا عن حرثه فلما خرجا من عنده مرعلى سليمان عليه السلام وكان عمره اذذاك على مانقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما ماحكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فعاد إلى داود عليه السلام وقال له ماقاله ولده سليمان عليه السلام

ونصبر على العذاب إلى البيت الآخر (قال الأصمعى) حضرت مجلس الرشيد وفيه مسلم بن الوليد إذ دخل أبو نواس فقال له الرشيد ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس فقال يا أمير المؤمنين ولو فى الخمر فقال قاتلك الله ولو فى الخمر فأنشد

ياشقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنم

حتى انتهى إلى آخرها فقال

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فقال أحسنت والله ياغلام أعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فأخذها وخرج قال الأصمعى فلما خرجنا من عنده قال لى مسلم بن الوليد ألم تر إلى الحسن بن هانىء كيف سرق شعرى وأخذ به مالا وخلعا فقلت له وأى معنى سرق لك قال قوله فتمشت فى مفاصلهم البيت فقلت وأى شىء قلت فقال

كأن قلبى وشاحاها إذا خطرت وقلبها قلبها فى الصمت والخرس
تجرى محبتها فى قلب وامقها جرى السلامة فى أعضاء منتكس

(ترجمة المعتزلة) المعتزلة طائفة من المسلمين يرون أن أفعال الخير من الله وأفعال الشر من

فدعاه داود عليه السلام وقال له ماهو الأوفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الغنم إلى صاحب الحرث وكان الحرث كرما قد تدلت عناقيده فى قول أكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكرم الاغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به فاذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم اليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته فقال له داود القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام وفى هذه القصة نزل قوله تعالى وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة بل حصلت بعناية ربانية وألطاف الهية وإذا قذف الله تعالى شيئا من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ورجح على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الاسباب ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه فان العقل معنى لا يمكن مشاهدته فان المشاهدة من خصائص الأجسام فأقول يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الاعمال ورغبته فى اسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عارا ويورثه سوء السمعة وقد قيل لبعض الحكماء بم يعرف عقل الرجل فقال بقلة سقطه فى الكلام وكثرة إصابته فيه فقيل له فان كان غائبا فقال باحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته فان رسوله قائم مقام نفسه وكتابه يصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها وقيل من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى فانه روى عن النبى ﷺ أنه قال من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق وقالوا العاقل الذى يحسن المداراة مع أهل زمانه وقال رسول الله ﷺ الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس وقال على بن عبيدة العقل ملك والخصال رعية فاذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل اليها فسمعه أعرابى فقال هذا كلام يقطر عسله وقيل بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس وكل شىء إذا كثر رخص إلا العقل فانه كلما كثر علا وقيل لكل شىء غاية وحد والعقول لا غاية له ولا حد ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج واختلف الحكماء فى ماهيته فقال قوم هو نور وضعه الله طبعا وغريزة فى القلب كالنور فى العين وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود كما يدرك بالبصر شواهد الأمر كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور وعمى القلب كعمى البصر قال الله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى فتكون لهم قلوب يعقلون بها وبقوله تعالى إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل وقالوا التجربة مرآة العقل ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة (قال الشاعر)

ألم تر أن العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

(وقال آخر) إذا طال عمر المرء فى غير آفة ... أفادت له الأيام فى كرها عقلا

(وقال) عامر بن عبد قيس إذا عقلك عقلك عما لا يعنيك فأنت عاقل ويقال لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس وقيل يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان قال الشاعر

إذا لم يكن للمرء عقل فانه ... وان كان ذا فضل على الناس هين

الإنسان وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وأن الله تعالى غير مرئى فى يوم القيامة وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب مثل شرب الخمر كان فى منزلة بين منزلتين يعنون بذلك أنه ليس بمؤمن ولا كافر وإن إعجاز القرآن فى الصرفة لا أنه فى نفسه معجز ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه وأن من دخل النار لم يخرج منها وإنما سموا معتزلة لأن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه فلما ظهر الخلاف وقالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر وقال الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر خرج واصل عن الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بل هو فى منزلة بين منزلتين فطرده الحسن رضى الله تعالى عنه عن مجلسه فاعتزل عنه فقيل لأتباعه معتزلة ولم يزل مذهب الاعتزال ينمو إلى أيام الرشيد فظهر بشر المريسى وأحضر الشافعى مكبلا فى الحديد فسأله بشر والسؤال ما تقول يا قرشى فى القرآن فقال إياى تعنى قال نعم قال مخلوق خلى عنه وأحس الشافعى رضى الله عنه بالشر وأن الفتنة تشتد فى اظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد إلى مصر ولم

ومن

ومن كان كل عقل أجل لعقله … وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا العاقل لا تبطره المنزلة السنية كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح وقيل لعلي رضي الله تعالى عنه صف لنا العاقل قال هو الذي يضع الشيء مواضعه قيل فصف لنا الجاهل قال قد فعلت يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه وقال المنصور لولده خذ عني ثنتين لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال أردشير أربعة تحتاج إلى أربعة الحسب إلى الأدب والسرور إلى الأمن والقرابة إلى المودة والعقل إلى التجربة وقال كسرى أنوشروان أربعة تؤدي إلى أربعة العقل إلى الرياسة والرأي إلى السياسة والعلم إلى التصدير والحلم إلى التوقير وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه وقيل ثلاثة هن رأس العقل مداراة الناس والاقتصاد في المعيشة والتحبب إلى الناس وقيل من أعجب برأي نفسه بطل رأيه ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال أهل مصر أعقل الناس صغارا وأرحمهم كبارا وقيل العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق وقيل لا ينبغي للعاقل ان يمدح امرأة حتى تموت ولا طعاما حتى يستمرئه ولا يثق بخليل حتى يستقرضه وقيل طول اللحية أمان من العقل وسئل بعضهم أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف قال الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الجبن وقيل غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه قال لي رسول الله ﷺ يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربا قلت بأبي وأمي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلا ثم تنفل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من الله قربا وعزا ٭ وحكى بعض أهل المعرفة قال حياة النفس بالروح وحياة الروح بالذكر وحياة القلب بالعقل وحياة العقل بالعلم ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها

إن المكارم أخلاق مطهرة … فالعقل أولها والدين ثانيها والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والعرف سادسها … والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم أني لا أصدقها … إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها … ولست أرشد إلا حين أعصيها

(وقال) بعض الحكماء العاقل من عقله في إرشاد ورأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في أغراء فقوله سقيم وفعله ذميم ولا يكفي الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته ونظافة بزته إذ كم كنيف مبيض وجلد مفضض وقد قال الأصمعي رأيت بالبصرة شيخا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة حوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج فأردت أن أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له ما كنية سيدنا فقال أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين قال الأصمعي فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله وقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرموقا بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله وقيل إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلا أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسا فيه جملة من الذهب ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده فجاء إلى القاضي إياس وقص عليه القصة فقال

رشيد رحمه الله بخلق القرآن فكان الأمر بين أخذ وترك إلى أن ولي المأمون فقال بخلق القرآن وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى في الدعوة إلى ذلك إلى أن قوي عزمه في السنة التي مات فيها وطلب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فأخبر في الطريق أنه توفي فبقي الامام محبوسا بالرقة حتى بويع المعتصم فأحضر إلى بغداد وعقد له مجلس المناظرة وفيه عبد الرحمن ابن اسحق والقاضي أحمد ابن أبي دؤاد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام فلم يقطع في بحث وسفه أقوال الجميع فأمر به فضرب بالسياط إلى أن أغمي عليه ورمي على بادية وهو مغشي عليه ثم حمل وصار إلى منزله ولم يقل بخلق القرآن ومكث في السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل يحضر الجمعة ويفتي ويحدث حتى مات المعتصم وولي الواثق فأظهر ما أظهر من المحنة وقال للامام أحمد لا تجمعن إليك أحدا ولا تساكني في بلد أنا فيه فاختفى الإمام أحمد لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوكل فأحضره وأكرمه وأطلق له مالا فلم يقبله وفرقه وأجرى على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ولم تزل جارية إلى أن مات المتوكل وفي أيامه

القاضى هل أخبرت بذلك أحدا غيرى قال لا قال فهل علم الرجل أنك أتيت إلى قال لا قال [illegible] واكتم أمرك ثم عد إلى بعد غدفانصرف ثم إن القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيء لها موضعا حصينافضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضى اياس امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك فان جحدك فقل له امض معى إلى القاضى اياس أتحاكم أنا وأنت عنده فلما جاء اليه دفع اليه وديعته فجاء إلى القاضى وأعلمه بذلك ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضى طامعا له تسليم المال فسبه القاضى وطرده وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره (ولما مات) بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقال الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وعقدوا لذلك المنشورات وتراجعوا فيه بالمناظرات وأجمعوا على أنه فرصة الدهر وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الرأى فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال لا أرى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال فى غد أخبركم إن شاء الله تعالى فلما أصبحوا أتوا اليه وقالوا قد وعدتنا أن تخبرنا فى هذا اليوم بما عولنا عليه فقال سمعا وطاعة وأمر باحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما ثم حرش بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبا كان قد أعده لذلك فلما أبصراه تركا ماكانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لايزال الهرج بين المسلمين مالم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء

(وأما ذم الحمق) فقد قال ابن الاعرابى الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأى فلا يشاور ولا يلتفت إلى أمر من الأمور والحمق غريزة لاتنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم قال رسول الله ﷺ الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى اذ حرمه أعز الاشياء عليه وهو العقل ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ فمن أفرط فى طول لحيته قل دماغه ومن قل دماغه قل عقله ومن قل عقله فهو أحمق وأما صفته من حيث الافعال فترك نظره فى العواقب وثقته بمن لايعرفه والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب وكثرة الالتفات والخلو من العلم والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء إن استغنى بطر وإن افتقر قنط وإن قال أفحش وان سئل بخل وان سأل ألح وإن قال لم يحسن وإن قيل له لم يفقه وان ضحك قهقه وإن بكى صرخ وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها فى كثير من الناس فلايكاد يعرف العاقل من الأحمق قال عيسى عليه السلام عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما وعالجت الأحمق فأعيانى والسكوت عن الأحمق جوابه ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال حجر على حجر (وحكى) أن أحمقين اصطحبا فى طريق فقال أحدهما للآخر تعالى نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى قطائع غنم انتفع بلبنها ولحمها وصوفها وقال الآخر أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئا قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ثم تواصيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكما

ظهرت السنة وكتب إلى الآفاق برفع ماوقع من المحنة واظهار السنة وتكلم فى مجلسه بالسنة ول[illegible]

اعنى المعتزله فى قوة إلى أيام المتوكل ولم يكن فى هذه الأمة الاسلامية أهل بدعة أكثر منهم (ومن) مشاهيرهم على ماذكروا من الفضلاء الأعيان الجاحظ وواصل بن عطاء والقاضى عبد الجبار والرمانى النحوى وأبو على الفارسى وأقضى القضاة الماوردى الشافعى وهذا غريب ومن المعتزلة أيضا الصاحب بن عباد وصاحب الكشاف والفراء النحوى والسيرافى وابن جنى والله أعلم (ومما جنيته من ثمرات الأوراق) أن الرشيد سأل جعفرا عن جواريه فقال ياأمير المؤمنين كنت فى الليلة الماضية مضطجعا وعندى جاريتان وهما يكبسانى فتناومت عنهما لأنظر صنيعهما وإحداهما مكية والأخرى مدنية فمدت المدنية يديها إلى ذلك الشىء فلعبت به فانتصبت قائما فوثبت المكية وقعدت عليه فقالت المدنية أنا أحق به لأنى حدثت عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحيا أرضا ميتة فهى له فقالت المكية وأنا حدثت عن معمر عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الصيد لمن أثاره إنما

بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحمقين وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء وأعشبت الأرض فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا فبلغ ذلك بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فهم أن يدعو عليه فأوحى الله اليه لاتدع فاني أجازي العباد على قدر عقولهم ويقال فلان ذو حمق وافر

وما هوجي ياهند الا سجية أجر لها ذيلي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه ولا طمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لاينطح ولا يرمح والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثالث في القرآن وفضله وحرمته وما أعده الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم)

قال الله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وسمى الله تعالى القرآن كريما فقال تعالى إنه لقرآن كريم وسماه حكيما فقال تعالى يس والقرآن الحكيم وسماه مجيداً قال تعالى ق والقرآن المجيد أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الانبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فكان من أعظم معجزاته ان أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الاتيان بآية من مثله قال تعالى قل فأتوا بسورة من مثله وقال تعالى قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فهو النور المبين والحق المستبين لاشيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألذ من تلاوته قال رسول الله ﷺ القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم وقال أيضا ﷺ أصفر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى وقال الشعبي الذي يقرأ القرآن انما يحدث عن ربه عز وجل ووفد غالب ابن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له من أنت قال غالب بن صعصعة قال ذو الإبل الكثيرة قال نعم قال فما فعلت بإبلك قال اذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق قال ذلك خير سبلها ثم قال له يا أبا الأخطل من هذا الذي معك قال ابني وهو شاعر قال علمه القرآن فهو خير له من الشعر فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لايحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال

وما صب رجلي في حديد مجاشع مع القيد إلاحاجة لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ يابني لاتغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت فان القرآن يحيي القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر (وحكى) الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار قال ومن حكايات الحشوية ماقيل إن ابراهيم الخواص مر بمصروع فأسر في أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى اذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن وكان الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى اذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على القراءة في المصحف وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة وقال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا وقال الشعبي اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك وقال رسول الله ﷺ من قرأ القرآن ثم رأى أن

الصيد لمن أخذه فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه وقال هل من سلوة عنهما فقال جعفر هما ومولاهما بحكم أمير المؤمنين وحملهما إليه (ومن ذلك) ماحكى عن بعض المطربين أنه غنى في جماعة عند بعض الأمراء

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبل ولو نظرت شزرا اليك القبائل
وان فوق الأعداء نحوك أسهما ثنتها على أعقابهن المناصل

فطرب الأمير إلى الغاية ولما زاد طربه قال لبعض مماليكه هات خلعة لهذا المغني ولم يفهم المغني مايقوله الأمير فقام لقلة حظه إلى بيت الخلاء وفي غيبته جاء المملوك بالخلعة فوجد المغني غائبا وقد حصل في المجلس عربدة وأمر الأمير باخراج الجميع فقيل للمغني بعدما خرج إن الأمير كان قد أمر لك بخلعة فلما كان بعد أيام حضر المغني عند ذلك الأمير وغنى فقال

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبل ولو نظرت شزرا اليك القبائل

بفتح التاء وضم الباء فأنكروا عليه فقال نعم لاني لما بلت في ذلك اليوم فاتتني السعادة من الامير فاوضحوا له القصة فضحك وأعجبه ذلك وأمر له بخلعة (ومن المنقول)

أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله وعنه ﷺ أنه قال إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل يارسول الله وماجلاؤها قال قراءة القرآن وذكر الموت وقال عمر بن ميمون من نشر مصحفا حتى يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا وقال على كرم الله وجهه من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه فى غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات وقال ابن عباس رضى الله عنهما لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة وقال رسول الله ﷺ اقرؤا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزنى قال قرأت القرآن على رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى ياصالح هذه القراءة فأين البكاء وكان عثمان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم وموسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس وعن على رضى الله عنه لاخير فى عبادة لافقه فيها ولاخير فى قراءة لاتدبر فيها وكان عكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنه ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمى عليه ويقول هو كلام ربى وأبطأت عائشة رضى الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال ماحبسك قالت قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه فقام فاستمع إليه طويلا ثم قال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله وقال ابن عيينة رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت يارسول الله قد اختلفت على القراءات فعلى قراءة من تأمرنى فقال على قراءة أبى عمرو * وعن أبى عمرو انى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فقرأت عليهم فاشدد بها يدك فينبغى للانسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلا ونهارا سفرا وحضرا * وقال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى فى كتابه الاذكار قد كان للسلف رضى الله عنهم عادات مختلفة فى القدر الذى يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون فى كل شهر ختمة وآخرون فى كل عشر ليال ختمة وآخرون فى كل ثلاث ليال ختمة وكان كثيرون فى كل يوم وليلة ختمة وختم جماعة فى كل يوم وليلة ختمتين وختم بعضهم فى اليوم والليلة ثمان ختمات أربعا فى الليل وأربعا فى النهار وروى أن مجاهدا رحمه الله تعالى كان يختم القران فى شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء وأما الذين ختموا القرآن فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنهم وروينا فى مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته واتقانه وبراعته أبى محمد الدارمى رحمه الله عن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال اذا وافق ختم القران أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح واذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى قال الدارمى هذا حديث حسن عن سعد وأفضل القراءة ما كان فى الصلاة وأما فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل والنصف الأخير منه أفضل من الأول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهة فى وقت من الأوقات ولا فى أوقات النهى عن الصلاة ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة وقيل ان الدعاء يستجاب عند ختم القرآن وان الرحمة تنزل عند ختمه ويستحب الدعاء عقب الختم استحبابا مؤكدا تأكيدا شديدا ويجب على القارىء الإخلاص فى قراءته وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لايقصد بها توصلا الى شىء سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر فى ذهنه أنه يناجى ربه سبحانه وتعالى ويتلو كتابه ويقرأ على حالة من يرى الله تعالى فانه ان لم يكن يراه فان الله يراه وينبغى للقارىء إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن

أن عبد الله بن المعتز من خلفاء بنى العباس مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل منغصا فى مدة حياته بويع له بالخلافة وظن أن الحظ قد تنبه له فلم يتم الأمر له إلا يوما واحدا ثم قبض عليه وقتل رحمه الله تعالى على أنه ماوافق على ولاية الأمر حتى اشترط عليهم أن لايسفكوا فى واقعته دما ومحله من الأدب لايخفى وشمة فضله كالصبح لاتغطى ولاتطفى وقد قيل

لله درك من ميت بمضيعة ... ناهيك فى العلم والعلياء والحسب
مافيه لو ولا ليت فتنقصه ... وإنما أدركته حرفة الأدب

(وقال ابن الساعاتى)

عفت القريض فلا أسمو له أبدا ... حتى لقد عفت أن أرويه فى الكتب
هجرت نظمى له لامن مهانته ... لكنها خيفة من حرفة الأدب.

قلت ومابرح الزمان مولعا بخمول أهل الادب وحمود نارهم كان الملك الافضل نور الدين على ابن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الادب وكان حسن السيرة متدينا قل أن عاقب على ذنب وله المناقب الجميلة وكان أكبر اخوته ومع كمال صفاته وآدابه التى سارت بها الركبان ماصفا له الدهر ولاهناه بالملك بعد أبيه السلطان صلاح

يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب وبه تنشرح الصدور ويتيسر المرغوب ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وقد كان الواحد من السلف رضى الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ويستحب البكاء والتباكى لمن لايقدر على البكاء فان البكاء عند القراءة صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين قال الله تعالى ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ٭ وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه دواء القلب خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلو البطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الإسرار قال العلماء إن أراد القارىء بالاسرار بعد الرياء فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك فان لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لايؤذى غيره من مصل أو نائم أو غيرهما والأحاديث فى فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ومن أراد الزيادة فلينظر فى كتاب التبيان فى آداب حملة القرآن لشيخ المشايخ الاسلام محيي الدين النووى قدس الله روحه ونور ضريحه وقد جاء فى فضل القرآن أحاديث مشيرة ٭ وروى فى فضل قراءة سور من القرآن فى اليوم والليلة فضل كبير منها يس وتبارك الملك والواقعة والدخان فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول ﷺ أنه قال من قرأ يس فى يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له وفى رواية له من قرأ سورة الدخان فى ليله أصبح مغفورا له وفى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم سمعت رسول الله ﷺ يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة وعن جابر رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لاينام كل ليلة حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الملك وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال من قرأ فى ليلة إذا زلزلت الأرض كانت له كعدل نصف القرآن ومن قرأ قل ياأيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن ومن قرأ قل هو الله أحد كانت كعدل الثلث والأحاديث بنحو ماذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ الباب الرابع فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم ﴾

قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء وقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل الجنة والمؤنس فى الوحدة والمحدث فى الخلوة والجليس فى الوحدة والصاحب فى الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء والزين عند الأخلاء والسلاح على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الاخيار فى الدرجات العلى ومجالسة الملوك فى الدنيا ومرافقة الابرار فى الآخرة والفكر فى العلم يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام وبالعلم توصل الارحام وتفصل الاحكام وبه يعرف الحلال والحرام وبالعلم يعرف الله ويوحد وبالعلم يطاع الله ويعبد (قيل) العلم درك حقائق الاشياء مسموعا ومعقولا وقال النبى ﷺ خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل وعنه عليه الصلاة والسلام يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ولغزوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ولايخرج أحد فى طلب العلم الاوملك موكل به يبشره بالجنة ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة وقال على كرم الله وجهه أقل الناس قيمة أقلهم علما وقال أيضا رضى الله عنه العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون فى سفن النجاة يسيرون وقال موسى عليه السلام فى مناجاته إلهى من أحب الناس اليك قال عالم يطلب علما وقال

الذين رحمه الله تعالى لبث مدة يسيرة بدمشق المحروسة ثم حضر اليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك العزيز عثمان فأخرجاه من ملكه بدمشق إلى صرخد ثم جهزه إلى سميساط وفى ذلك كتب إلى الإمام الناصر ببغداد : مولاى إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد منعا بالسيف حق على

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى ٭ من الأواخر مالاقى من الأول

فكتب الناصر الجواب ولكن الفرق مثل الصبح : وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا بالصدق يخبر أن أصلك طاهر غصبوا عليا حقه إذ لم يكن

بعد النبى له بيثرب ثائر فاصبر فان غدا عليه حسابهم

وابشر فناصرك الامام الناصر

ولم ينصره الإمام الناصر بل توفى فجأة بسميساط رحمه الله تعالى ومن شعره ماذكره ابن واصل فى مفرج الكروب

يامن يسود شعره بخضابه

فصاه من أهل الشبيبة بحصا ٭ مافاخضبن بسواد حظى مرة ولك الأمان بابه لاينصل

(قلت) ومثله الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان

داود صاحب الكرج مابرح مع كمال فضله مكدا منتنا فى البلاد توجه إلى بغداد ومعه نحو

بعض السلف رضي الله عنهم العلوم أربعة الفقه للأديان والطب للابدان والنجوم للازمان والنحو للسان وقيل العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرىء غيره وسئل الشعبى عن مسألة فقال لا علم لى بها فقيل له ألا تستحي فقال ولم أستحي مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لا علم لنا وعن النبي ﷺ فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم وروى كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وقال على كرم الله وجهه من نصب نفسه للناس إماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه وقيل مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم وأنشدوا .

يا أيها الرجل المعلم غيره ۞ هلا لنفسه كان ذا التعليم ۞ تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم ۞ ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ۞ أبدا وأنت من الرشاد عديم فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ۞ فإذا انتهت عنه فأنت حكيم ۞ فهناك يقبل ماتقول ويهتدى بالقول منك وينفع التعليم ۞ لاتنه عن خلق وتأتى مثله ۞ عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال بعضهم إنى رأيت الناس فى عصرنا لايطلبون العلم للعلم

إلا مباهاة لأصحابه وعدة للغش والظلم

(نظر) رجل إلى امرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها أنت طالق إن صعدت وطالق إن نزلت وطالق إن وقفت فرمت نفسها إلى الأرض فقال لها فداك أبى وأمى إن مات الإمام مالك احتاج اليك أهل المدينة فى أحكامهم وقال النبي ﷺ هلاك أمتى فى شيئين ترك العلم وجمع المال ۞ وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال العلم بالله والفقه فى دينه وكررها عليه فقال يارسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم فقال إن العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل وقال عيسى عليه السلام من علم وعمل عد فى الملكوت الأعظم عظيما ۞ وقال الخليل عليه السلام العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها وعنه عليه السلام زلة العالم مضروب بها الطبل وزلة الجاهل يخفيها الجهل وقال الحسن رأيت أقواما من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون من عمل بغير علم كان مايفسده أكثر مما يصلحه والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم وقال يزيد بن ميسرة من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد اليه ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ألا أخبركم بأجود الأجواد قالوا بلى يارسول الله قال الله أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم وأجود من بعدى رجل علم علما فنشره يبعث يوم القيامة أمة وحده ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل وقال الثورى كان يقال العالم الفاجر فتنة لكل مفتون وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا فانا لله وإنا إليه راجعون فأعظم بها مصيبة والله أعلم وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وقد أحسن كل الإحسان كانما طرزت فى خلع حسان شعر

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما ۞ بدا طمع صيرته لى سلما ۞ ولم ابتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأخدما ۞ أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ۞ إذا فابتياع الجهل قد كان سلما فان قلت زند العلم كاب فانما ۞ كبا حين لم نحرس حماه وأظلما ۞ ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو

القضاة بن بصاقة والشيخ شمس الدين الخرشاهى وقد استصحب جواهر نفيسة والتجأ إلى الإمام الناصر وطلب الحضور بين يديه ليشاهده فى الملا فاقدر له ذلك ولاوافق الخليفة عليه حتى امتدحه بقصيدته البائية التى مطلعها

ودان ألمت بالكثيب ذوائبه ۞ وجنح الدجى وحف تجول غياهبه ۞ تقهقه فى تلك الربوع رعوده ۞ وتبكى على تلك الطلول سحائبه

(وقال منها فى حكاية حاله مع الخليفة)

أيحسن فى شرع المعالى ودينها ۞ وأنت الذى تعزى اليه مذاهبه بأنى أخوض الدو والدو مقفر سباريته مغبرة وسباسبه ويأتيك غيرى من بلاد قريبة له الأمن فيها صاحب لايجانبه فيلقى دنوا منك لم ألق مثله ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه وينظر فى لألاء قدسك نظرة فيرجع والنور الإمامى صاحبه

ولو كان يعلو فى نفسه ورتبة وصدق ولاء لست فيه أصاقبه

ولو عظموه فى النفوس لعظما ولكن اهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما وقيل من لم يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره وقال الفضيل شر العلماء من يجالس الأمراء وخير الأمراء من يجالس العلماء وقال لقمان جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بماء السماء وقيل من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا رأى طالبى العلم قال مرحبا بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة خلقان الثياب جدد القلوب رياحين كل قبيلة وقال على رضى الله عنه كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب اليه وعن النبى ﷺ ما آتى الله أحدا علما إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدا ودعا بعضهم لآخر فقال جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية وممن يطهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله وعن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال على باب الجنة شجرة تحمل أثمارا كثدى النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب والناس عطاش وعن ابن مسعود رضى الله عنه من تعلم بابا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيا وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ويل لأمتى من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم

(شعر)

العلم أنفس شىء أنت داخره ... من يدرس العلم لم تدرس مفاخره

أقبل على العلم واستقبل مقاصده ... فأول العلم إقبال وآخره

(قال) الشعبى دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألنى عن اسمى فأخبرته ثم قال ياشعبى كيف علمك بكتاب الله قلت عنى يؤخذ قال كيف علمك بالفرائض قلت إلى فيها المنتهى قال كيف علمك بأنساب الناس قلت أنا الفيصل فيها قال كيف علمك بالشعر قلت أنا ديوانه فقال لله أبوك وفرض لى أموالا وسودنى على قومى فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان وخرجت وأنا سيدهم (قال البستى)

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى ... وسيرته عدلا وأخلاقه حسنا

فبشره أن الله أولاه فتنة ... تغشيه حرمانا وتوسعه حزنا

وقال الهيثم بن جميل شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى ثنتين وثلاثين منها لا أدرى وقال الأوزاعى شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى الله اليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه وقال على رضى الله عنه من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض ولصالح اللخمى شعر

تعلم إذا ما كنت لست بعالم ... فما العلم الا عند أهل التعلم

تعلم فان العلم أزين للفتى ... من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلى على المهدى فى القراء فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل فى الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل فى المغنين فاخذ كذلك ثم دخل فى القصاص فأخذ كذلك فقال المهدى لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله فى أحد منك وملَّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه فى بيت فرقى السطح وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله ذلك فجعله إمام الحكماء لا يختلفون فى شىء الا صدروا عن رأيه وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له استعن على الحفظ بترك المعاصى فأنشأ يقول

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فارشدنى إلى ترك المعاصى

الناصر يشير إلى مظفر الدين كوكبورى بن كوجك فانه قدم إلى الديوان أن نطلب الحضور فاذن له وبرزله الخليفة وشاهد وجهه ولما وقف الخليفة على هذه القصيدة أعجبته غاية الاعجاب وهى من النظم البديع فى غاية لا تدرك فاستدعاه بعد شطر من الليل واجتمع به خلوة وما تم له ما ظفر به مظفر الدين المذكور وسبب ذلك أن الخليفة راعى عمه المذكور والذى ثبت عند أهل التاريخ أن عمه العادل ما فعل ذلك إلا حسدا له على كمال أدواته وبلاغة آدابه وقيل إنه كتب خطا منسوبا أزرى بالحدائق المدبجة (وحكى صاحب الريحان والريمان) قال حضر شاب ذكى بعض مجالس الأدب فقال بعضهم ما تصحيف نصحت فخنتنى قال تصحيف حسن فاستغرب اسراعه وكان بالمجلس شاعر من أهل بلنسيه فاتهم الشاب وقال مختبرا له ما تصحيف بلنسية فاطرق ساعة ثم قال أربعة أشهر فجعل البلنسى يموِّه صدق ظنى انك تدعى وتنتحل ما تقول والفتى يضحك ثم قال له أشعرت أنت ياشاعر فقال له وأى نسبة بين أربعة أشهر وبين بلنسية فقال له إن لم يكن فى اللفظ فهو فى المعنى ثم قام وهو

وذلك أن حفظ العلم فضل وفضل الله لايؤتى لعاصى

ووجد فى بعض الآثار عن بعضهم أنه قال إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة فى كل شىء أردت بسم الله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (وقيل) وإذا أردت أن لاتنسى حرفا فقل قبل القراءة اللهم افتح علينا حكمتك وانشر علينا رحمتك ياذا الجلال والإكرام وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة آمنت بالله الواحد الأحد الحق لاشريك له وكفرت بماسواه (ومن فوائد سيدى الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى فى الحفظ) يقرأ فى كل يوم عشر مرات ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما إلى قوله تعالى وكنا فاعلين ياحى ياقيوم يارب موسى وهارون ويارب إبراهيم ويارب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ألزمنى الفهم وارزقنى العلم والحكمة والعقل برحمتك ياأرحم الراحمين وعن أبى يوسف قال مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفا أن يفوتنى منه يوم وقال محمد بن اسحق بن خزيمة مارأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ولا أحفظ له من محمد بن اسماعيل البخارى حتى كان يقال إن حديثا لايعرفه محمد بن اسماعيل ليس بحديث وقال البخارى رحمه الله تعالى أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح وقال ماوضعت فى كتابى الصحيح حديثا الا واغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وقال أخرجته من ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى وقال مجاهد أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه وكان يقال الليث بن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته والله لأنت أعلم من مالك وانما أصحابك ضيعوك وقال الليث بن سعد ماهلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس ويقال إذا سئل العالم فلاتعجب أنت فان ذلك استخفاف بالسائل والمسؤل وقالوا من خدم المحابر خدمته المنابر (شعر)

لاتدخر غير العلوم فانها نعم الذخائر فالمرء لو ربح البقاء مع الجهالة كان خاسر

وللشافعى رضى الله تعالى عنه شعر

أخى ان تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال الزهرى العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبى بالكوفة والحسن البصرى بالبصرة ومكحول بالشام وقال بعضهم العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضىء به أهل عصره وقيل لإبراهيم بن عيينة أى الناس أطول ندامة قال أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى من لايشكره وأما فى الآخرة فعالم مفرط . (شعر)

كن عالما وارض بصف النعال ولاتكن صدرا بغير الكمال
فان تصدرت بلا آلة صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال يانبى الله إن هذا العصفور يقول ياموسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لايعلمه الخضر والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لاتعلمه وأنت وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لانعلمه أنت ولا الخضر وماعلمى وعلمك وعلم الخضر فى علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر قال الله تعالى ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وقال تعالى ومايعلم جنود

يقول ذلك فتنبه بعض الحاضرين ونظر فاذا أربعة أشهر ثلث سنة وهو تصحيف بلنسيه لخجل الشاعر المنازع ومضى إلى الشاب معترفا ومعتذرا انتهى وهذا المعنى فى بلنسية نظمه الشيخ بدر الدين الدماميني أحجية فقال

أياواحد العصر مابلدة محاسنها فى الورى تذكر
حجى مابرادف تصحيفها وحقك أربعة أشهر

(ومن الغريب) مانقل عن الفقيه عمارة اليمنى الشاعر أنه مر بمصلوب فقال:

ومد على صليب الصلب منه يمينا لاتطول إلى الشمال . ونكس رأسه لعتاب قلب . دعاه إلى الغواية والضلال

فلم يمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين مع الجماعة الغرماء (وكان) الفقيه نجم الدين عمارة أديبا ماهرا فقيها شافعى المذهب من أهل السنة قدم فى دولة الفاطميين إلى الديار المصرية وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن رزيك فكان عندهم فى أكرم محل وأعز جانب واتحد به على ماكان بينهما من الاختلاف فى العقيدة ثم رحل إلى اليمن وعاد إلى مصر وأقام بها إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورثى أهل القصر بقصيدته التى أولها

ربك

ربك إلا هو قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما خلق الله تعالى أربعين عالما الإنس والجن عالمان والبواقى لايعلمها إلا هو وقال موسى عليه السلام يارب قد قلت للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فلولم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلا بهما قال ياموسى كنت آمر دابة من دوابى أن تبتلعهما قال موسى يارب وأين تلك الدابة قال فى مرج من مروجى قال موسى يارب وأين ذلك المرج قال فى علم من علومى لايعلمه إلا أنا وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى فكرة فقال فيم تفكرون تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فإن الله خلق من جانب الغرب أرضا يقال لها البيضاء تقطعها الشمس فى أربعين يوما فيها خلق ماعصوا الله طرفة عين فقال ابن عمر يارسول الله أين ابليس منهم قال ماعلموا بابليس خلق أم لا قال أمن بنى آدم قال ماعلموا بآدم خلق أم لا فهذه كلها بما أعدها الله فى علم غيبه إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون وقال قتادة لوكان أحدمنا مكتفيا من العلم لاكتفى نبى الله موسى عليه السلام إذ قال هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا وقال الحكماء أفضل العلم وقوف العالم عند علمه وقال بعضهم ليس العلم ماخزنته الدفاتر وإنما العلم ماخزنته الصدور وقيل العلم يؤدى إلى التصديق وقيل من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله وقيل من برق عليه برق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالا اكتسب به جاها العلم نور وهدى والجهل غى وردى وقال بعضهم العالم يعرف الجاهل والجاهل لايعرف العالم لأن العالم كان جاهلا والجاهل لم يكن عالما وقيل أربعة يسودون العبد : العلم والادب والصدق والأمانة وقيل أهل العراق أطلب الناس للعلم وقال حماد بن سلمة مثل الذى يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لاشعير فيها ولإبراهيم بن خلف المهرانى

النحو يصلح من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منهـــا مقيم الألسن

وقال على بن بشار

رأيت لسان المرء آية عقله وعنوانه فانظر بماذا تعنون ولا تعد إصلاح اللسان فإنه يخبر عما عنـده ويبين ويعجبنى زى الفتى وجماله فيسقط من عينى ساعة يلحن

ودخل أعرابى السوق فوجدهم يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال لم لاتنظر فى العربية فقال بلغنى أن من نظر فيها قل كلامه فقال ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ وكان يقال مجالسة الجاهل مرض للعاقل وقال أبو الأسود الدؤلى إذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا وقال الشاعر

جهلت ولا تدرى بأنك جاهل ومن لى بأن تدرى بأنك لاتدرى

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس قال لاتقل هذا قال فخذ على كلمة واحدة قال هذه واحدة وأبو جهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم فقال حسان رضى الله تعالى عنه

الناس كنوه أبا حكم والله كناه أبا جهل

(وأما ماجاء فى الأدب) فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج إلى مادة الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام وقال على كرم الله وجهه الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة صاحب فى المجلس أنيس فى الوحدة تعمر به القلوب الواهية وتحيا به الألباب الميتة وينال به الطالبون ماحاولوا وقيل عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح (وحكى) أن رجلا تكلم بين يدى المأمون فأحسن فقال ابن من أنت

قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن تمامها أنها جاءت ولم أسل. يالائمى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة ان قصرت فى عذل بالله زر ساحة القصرين وابك معى عليهما لاعلى صفين والجمل ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة بنسل آل أمير المؤمنين على وهى طويلة فى غاية الحسن فلما بلغت السلطان صلاح الدين تغير عليه (وقيل) إنه استفتى عليه فى قوله من قصيدته الميمية وكان مبدأ هذا الأمر من رجل سعى فأصبح يدعى سيد الأمم فأفتى الفقهاء بقتله وقالوا إن هذا الكلام رأى الفلاسفة فى النبوات وأنها بالتكتسب وهى إحدى المسائل التى كفروا بها والصحيح أنه يجتبى من رسله من يشاء ولم يكن أحد من الأنبياء عنده شعور بأنه يكون فيما بعد نبيا والذى يظهر أن هذا مفتعل على الفقيه عمارة نظمه بعض أعدائه على لسانه ودسه فى تلك القصيدة وما يبعد أن القاضى الفاضل رحمه الله كان

قال ابن الأدب يا أمير المؤمنين قال نعم النسب انتسبت إليه ولهذا قيل المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ومن حيث يوجد لا من حيث يولد.قال الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبى

وقال بعض الحكماء من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعا وبعد صيته وإن كان خاملا وساد وإن كان غريبا وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً قال بعض الشعراء

لكل شىء زينة فى الورى ... وزينة المرء تمام الأدب

قد يشرف المرء بآدابه ... فيناوإن كان وضيع النسب

وقال بعض الاعاجم مفتخراً ... مالى عقلى وهمتى حسبى ... ما أنا مولى وما أنا عربى

إذا انتمى منتم إلى أحد ... فإننى منتم إلى أدبى

وقيل الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب وقيل المرء بفضيلته لا بفصيلته وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بثيابه وقيل لرجل من أدبك قال رأيت جهل الجهال قبحا فاجتنبته فتأدبت ومن أدب ولده صغيرا سر به كبيرا ومن عرف الأدب اكتسب به المال والجاه خير الخلال الأدب وشر المقال الكذب وقيل لبقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له قال كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق ودخل أبو العالية على ابن عباس رضى الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالا من قريش تحته فرأى سوء نظرهم إليه وحموضة وجوههم فقال مالكم تنظرون إلى نظر الشحيح إلى الغريم المفلس هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى ويقعد العبيد على الأسرة وقال جالينوس إن ابن الوضيع إذا كان أديبا كان نقص أبيه زائدا فى منزلته وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدا فى سقوطه وقيل أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه وسمع معاوية رجلا يقول أنا غريب فقال كلا الغريب من لا أدب له ويقال إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ولعبد الملك بن صالح

فى الناس قوم أضاعوا مجد أولهم ... مالى المكارم والتقوى لهم أرب

سوء التأدب أرداهم وأرذلهم ... وقد يزين صحيح المنصب الأدب

وقيل أربعة تسود العبد الأدب والعلم والصدق والأمانة وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم إلا بخمسة لا يتم الحسب إلا بالأدب ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ولا يتم الغنى إلا بالجود ولا يتم البطش إلا بالجراءة ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق والله تعالى أعلم

(الباب الخامس فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك)

قال الحكماء إذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه الطاعة وألزمه القناعة وفقهه فى الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف وإذا أراد به شرا حبب إليه المال وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ووكله إلى هواه فركب الفساد وظلم العباد الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أو فى عمل من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ من سره الفساد ساءه المعاد كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة من أطاع هواه باع دينه بدنياه ثمرة العلوم العمل بالمعلوم من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه خير الناس من أخرج الحرص من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف البخيل حارس

له ميل إلى هلاكه لأنه ينبح قال فيسجن قال يرجى له الخلاص قال فيقتل قال كذا الملوك إذا أرادوا شيئاً فعلوه ونهض فأمر فصلبه مع الغرماء فلما أمسكوه مروا به على باب الفاضل فلما رآه مقبلا قام ودخل إلى بيته وأغلق الباب فقال الفقيه عمارة عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب

(نكتة أدبية)

قال ابن سناء الملك من أبيات

صلى وهذا الحسن باق فربما ... يعزل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضى الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة وكتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل وما قلت هذه الغاية إلا وتعلمنى أنها البداية ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا وتلاها بعده وما نريهم من آية أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ولا عيب فى هذه المحاسن إلا قصور الافهام وتقصير الأنام وإلا فقد لهج الناس بما تحتها ونواما دونها والقصيدة فائقة فى حسنها بديعة فى فنها ولكن بيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها انتهى فأجاب ابن سناء الملك

نعمته وخازن لورثته من لزم الطمع عدم الورع إذا ذهب الحياء حل البلاء علم لا ينفع كدواء لا ينجع من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه ويهين نفسه فى إكرام دنياه أيام الدهر ثلاثة يوم مضى لا يعود إليك ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ويوم مستقبل لا تدرى ما حاله ولا تعرف من أهله من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك فى صحة ومن عمرك فى فسحة عظ المسىء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك إياك وفضول الكلام فانه يظهر من عيوبك ما بطن ويحرك من عدوك ما سكن لا يجد العجول فرحا ولا الغضوب سرورا ولا الملول صديقا حسن النية من العبادة حسن الجلوس من السياسة من زاد فى خلقه نقص فى حظه من ائتمن الزمان خانه أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء لا يكمل للانسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس ويسمع شتم نفسه ويصبر ويحب للناس ما يحب لنفسه ويثق بمواعيد الله إياك والحسد فانه يفسد الدين ويضعف اليقين ويذهب المروءة قيل لأفلاطون ما الشىء الذى لا يحسن أن يقال وإن كان حقا قال مدح الإنسان نفسه أربعة تؤدى إلى أربعة الصمت إلى السلامة والبر إلى الكرامة والجود إلى السيادة والشكر إلى الزيادة من ساء تدبيره أهلكه جده الغرة ثمرة الجهل آفة القوة استضعاف الخصم آفة النعم قبيح المن آفة الذنب حسن الظن الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد من قرب السفلة واطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان من عفا تفضل من كظم غيظه فقد حلم من حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل كل امرىء يعرف بقوله ويوصف بفعله فقل سديدا وافعل حميدا من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته وقلت ندامته كن صموتا وصدوقا فالصمت حرز والصدق عز من أكثر مقاله سئم ومن أكثر سؤاله حرم من استخف باخوانه خذل ومن اجترأ على سلطانه قتل ما عز من أذل جيرانه ولا سعد من حرم اخوانه خير النوال ما وصل قبل السؤال أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه إذا اصطنعت المعروف فاستره وإذا اصطنع اليك فانشره من جاور الكرام أمن من الأعداء من طاب أصله زكا فرعه من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة من من بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره من رضى من نفسه بالاساءة شهد على أصله بالرداءة من رجع فى هبته بالغ فى خسته من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم من كبرت همته كثرت قيمته من ساء خلقه ضاق رزقه من صدق فى مقاله زاد فى جماله من هان عليه المال توجهت اليه الآمال من جاد بماله جل ومن جاد بعرضه ذل خير المال ما أخذ من الحلال وصرف فى النوال وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف فى الآثام أفضل المعروف إغاثة الملهوف من تمام المروءة أن تنسى الحق لك وتذكر الحق عليك وتستكبر الإساءة منك وتستصغرها من غيرك من أحسن المكارم عفو المقتدر جود الرجل يحببه إلى أصدقائه وبخله يبغضه إلى أولاده لا تسىء إلى من أحسن اليك ولا تعن على من أنعم عليك من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه من طال تعديه كثرت أعاديه شر

قائلا قد علم المملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت مستجليا له معجبا به معتقدا أن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه فى الكنس الا ابن المعتز حيث يقول

وقوامى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرحل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر وما مال المملوك إلا إلى طريق من ميله اليه طبعه ولا سار إلا إلى من دله عليه سمعه ورأى المملوك أباعبادة قد قال

ويا عاذلى فى عبرة قد سفحتها لبين وأخرى قبلها للتحبب

تحاول منى شيمة غير شيمتى ويطلب منى مذهبا غير مذهبى

وقال

وما زارنى الا ولهت صبابة اليه وإلا قلت أهلا ومرحبا

فعلم المملوك أن هذه طريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك وغاية لا تدرك ووجد المملوك أبا تمام قد قال

سلم على الربع من سلمى بذى سلم

الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم من حفر حفيرا لأخيه كان حتفه فيه من سل سيف العدوان أغمد فى رأسه من لم يرحم العبرة سلب النعمة ومن لم يقل العثرة سلب القدرة لا تحاج من يذهلك خوفه ويملكك سيفه صمت تسلم به خير من نطق تندم عليه من قال لاينبغى سمع مالا يشتهى جرح الكلام أصعب من جرح الحسام من سكت عن جاهل فقد أوسعه جوابا وأوجعه عتابا من أمات شهوته أحيا مروءته من كثرت عوارفه كثرت معارفه من لم تقبل توبته عظمت خطيئته إياك والبغى فانه يصرع الرجال ويقطع الآجال الناس فى الخير أربعة أقسام منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم يتركه حرمانا ومنهم من يتركه استحسانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه حرمانا فهو شقى ومن تركه استحسانا فهو دنى من سالم سلم ومن قدم الخير غنم من لزم الرقاد عدم المراد ومن دام كسله خاب أمله العجول مخطىء وإن ملك والمتأنى مصيب وإن هلك من أمارات الخذلان معادات الاخوان استفساد الصديق من عدم التوفيق الرفق مفتاح الرزق من نظر فى العواقب سلم من النوائب ومن أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب من ركب العجل أدركه الزلل من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه من قلت فضائله ضعفت وسائله من فعل ما شاء لقى ما ساء من كثر اعتباره قل عثاره من ركب جده غلب ضده القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير ظن العاقل أصح من يقين الجاهل قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته من خاف سطوتك تمنى موتك إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة لاتشتك ضعفك إلى عدوك فانك تشمته بك وتطمعه فيك من لم يعمل لنفسه عمل للناس ومن لم يصبر على كده صبر على الافلاس من أفشى سره أفسد أمره الحازم من حفظ مافى يده ولم يؤخر شغل يومه لغده من طلب مالا يكون طال تعبه لا تفتح بابا يعييك سده ولا ترم سهما يعجزك رده سوء التدبير سبب التدمير أغمد سيفك ما ناب عنك لسانك ليس العجب من جاهل يصحب جاهلا ولكن العجب من عاقل يصحبه لأن كل شىء يفر من ضده ويميل إلى جنسه إذا نزل القدر بطل الحذر رب عطب تحت طب ومنية تحت أمنية لايخلو المرء من ودود يمدح وعدو يقدح الجوع خير من الخضوع الكذوب منهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته من طاوعه طرفه اشتد حتفه من لم تسر حياته لم تغم وفاته من أعظم الذنوب تحسين العيوب الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل من ساءت أخلاقه طاب فراقه من حسنت خصاله طاب وصاله بعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده الكلام سهم نافذ لا يمكن رده من اطلع على جاره انهتكت حجب أستاره أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه أظهر الناس نفاقا من أمر بالطاعة ولم يأتمر بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها من سلا عن المسلوب كان كمن لم يسلب ومن صبر على النكبة كان كمن لا ينكب الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراهة الدواب من زادت شهوته نقصت مروءته من عرف بشىء نسب اليه ومن اعتاد شيئا حرص عليه عند الجدال يظهر فضل الرجال من أخر الأكل لذ طعامه ومن أخر النوم طاب منامه موت فى دولة وعز خير من حياة فى ذلة وعجز مقاساة الفقر هى الموت الأحمر ومسئلة الناس هى العار الأكبر حق يضر خير من باطل يسر كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر ومرهوب منه ينفع ولا يضر عثرة الرجل تزيل القدم وعثرة اللسان تزيل النعم المزاح يورث الضغائن من حلم ساد ومن تفهم ازداد معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب شرما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده اليأس خير

ووجدته أيضا قد قال • خشنت عليه أخت بنى خشين • فاشمأز من هذا اللفظ طبعه واقشعر منه فهمه ونبا عن ذوقه وكأن سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال

وقفت بالربع أشكو فقد مشبهه ... حتى بكت بدموعى أعين الزهر
لولم أعرها دموع العين تسفحها ... لرحمتى لاستعارتها من المطر

وقد قال

قدك غصن لا شك فيه كما ... وجهك شمس نهاره جسدك

فوجد المملوك طبعه إلى هذا الأمر مائلا وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا فنسج على هذا الاسلوب وغلب على خاطره مع علمه أنه المغلوب وحبك الشىء يعمى ويصم فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليدا لابن المعتز قالها وحل أثقالها وهى زلة تغتفر فى جنب حسناته وأما المملوك فهى عورة ظهرت فى أبياته (فأجابه الفاضل بقوله) ولا حجة فيما احتجه بابن المعتز عن الكنس فى بيته فانه غير معصوم من الغلط ولا يقلد إلا فى الصواب فقط وقد علم مما ذكره

من

من التضرع إلى الناس لاتكن ضاحكا في غير عجب ولا ماشيا في غير أرب من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه أشرف الغنى ترك المنى من ضاق خلقه مله أهله الحسد للصديق من سقم المودة كل الناس راض عن عقله دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه استر سوأة أخيك لما يعلم فيك خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم العجلة أخت الندامة من كرم أصله لان قلبه ومن قل لبه زاد عجبه ربما أدرك بالظن الصواب ليس لمعجب رأى ولا لمتكبر صديق سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار لاتعادين أحدا فانك لاتخلو من عداوة جاهل أو عاقل فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه من قل سروره كان الموت راحته لاتردن على ذي خطأ خطأه فيستفيد منك علما ويتخذك عدوا استحى من ذم من لو كان حاضرا لبالغت في مدحه ومدح من لو كان غائبا لسارعت إلى ذمه وقيل المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب الرفعة والجود يوجب المدح والبخل يوجب الذم والتواني يوجب التضييع والحزم يوجب السرور والحذر يوجب السلامة واصابة التدبير توجب بقاء النعمة وبالتأني تسهل المطالب وبحسن المعاشرة تدوم المحبة وبخفض الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيل عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تجلب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبصالح الاخلاق تزكو الأعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك مالا يعنيك يتم لك الفضل * واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر في العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة وزارع البر يحصد السرور وصاحب العقل مغبوط وصداقة الجاهل تعب إذا جهلت فاسأل وإذا زللت فارجع وإذا أسأت فاندم وإذا ندمت فاقلع المروآت كلها تبع للعقل والرأى تبع للتجربة والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة والأعمال كلها تتبع القدر واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب فمن التوراة من قنع شبع ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن الزبور من سكت سلم ومن القرآن ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات لاتحمل بطنك مالا يطيق ولا تعمل عملا لاينفعك ولا تغتر بامرأة ولا تثق بمال ولو كثر والله تعالى أعلم

(الباب السادس في الأمثال السائرة وفيه فصول)

(الفصل الأول فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم)

(اعلم) أن الأمثال من أشرف ماوصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم في ايراده واصداره من مثل يعجز عن مبارته في البلاغة كل بطل وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب المولدين والعامه * فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الآن حصحص الحق قضى الأمر الذي فيه تستفتيان أليس الصبح بقريب ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ليس لها من دون الله كاشفة أتأمرون الناس بالبر

ابن رشيق في العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه فذكر من محاسنه مالا يعلق معه كتاب ومن بارده وغثه مالا تلبس عليه الثياب وقد تعصب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه حظه وأما البحتري فأعطا أكثر من حقه وقال

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى
فؤادي ولكن للعتاب مواضع

(قال) الشيخ صلاح الدين الصفدي لما وقف على هذا الفصل رأيت ابن سناء الملك استعمل هذه اللفظة في غير هذا الموضع ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى فقال

وخلصني من يدي عشقه
ظلام على خده حندسه
كنست فؤادي من حبه
ولحيته كانت المكنسه

(قلت) مابرح الشيخ صلاح الدين غفر الله له يذوق تقليدا كقوله عن ابن سناء الملك لما استعمل في هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكنسة ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى أما نقد الفاضل على ابن سناء الملك بوضع المكنسة على وجنة معشوقته التي ليس للعذار بوجنتها شعور فنقد صحيح وأما وضع مكنسة اللحية على وجنة من

طلعت لحيته وكان جاءوا على عاشقه وسبكها هنا فى قالب الهجو فهو نوع من المرقص والمطرب ولو
وقف الفاضل على هذه المكنسة لاعدها الأبياته انتهى (ومن لطائف المنقول) ماحكى عن الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد والد قاضى القضاة تقى الدين محمد تغمده الله برحمته ورضوانه وهو أن الشيخ مجد الدين المشار اليه كان كثير الاحسان إلى أصحابه يسعى لهم على قدر استحقاقهم فيمن يصلح للحكم وفيمن يصلح للعدالة فجاءه بعض طلبته وشكا اليه رقة الحال وكثرة الضرورة فقال له أكتب قصتك وأنا أتحدث مع الولد فكتب ذلك الطالب المملوك فلان يقبل الأرض وينهى أنه فقير ومظرور بالظاء القائمة وقليل الحض بالضاد وناولها للشيخ فلما قرأها تبسم وقال يافقير سبحان الله ضرك قائم وحظك ساقط انتهى * ومن لطائف المنقول عن قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان رحمه الله تعالى أنه كان يهوى بعض أولاد الملوك وله فيه الاشعار الرائقة يقال ان أول يوم زاره بسطه الطرحة وقال ماعندى أعز من هذه طأ عليها ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعوه من الركوب فكتب اليه

ياسادتى انى قنعت وحقكم ... فى حبكم منكم بأيسر مطلب

وتنهون أنفسكم وحيل بينهم وبين مايشتهون لكل نبأ مستقر قل كل يعمل على شاكلته وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها كل نفس بما كسبت رهينة حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ماعلى الرسول إلا البلاغ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ماعلى المحسنين من سبيل تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى هل جزاء الإحسان إلا الاحسان ولا ينبئك مثل خبير ولو علم فيهم خيرا لأسمعهم كل حزب بمالديهم فرحون لايكلف الله نفسا إلا وسعها لايستوى الخبيث والطيب ففررت منكم لما خفتكم وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين لايجليها لوقتها الا هو فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى كل يوم هو فى شأن فبأى حديث بعده يؤمنون وما ربك بغافل عما تعملون واهجرهم هجرا جميلا من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها إن هى الافتنتك فاعتبروا ياأولى الأبصار وانه لقسم لو تعلمون عظيم ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ولتعلمن نبأه بعد حين وكان بين ذلك قواما لمثل هذا فليعمل العاملون كل من عليها فان كل نفس ذائقة الموت أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون (ومن) الامثال من الحديث النبوى انما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى نية المرء خير من عمله آفة العلم النسيان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه أنزلوا الناس منازلهم اليد العليا خير من اليد السفلى من مات غريبا مات شهيدا مطل الغنى ظلم يد الله مع الجماعة الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق من غشنا فليس منا سيد القوم خادمهم الحياء شعبة من الإيمان تخيروا لنطفكم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول حدث عن البحر ولا حرج المجالس بالأمانات كل ميسر لما خلق له اطلبوا الخير من حسان الوجوه إياك وما يعتذر منه الوحدة خير من الجليس السوء استعينوا على الحوائج بالكتمان الندم توبة لايكون المؤمن طعانا ولا لعانا دع مايريبك إلى مالا يريبك من كثر سواد قوم فهو منهم انصر أخاك ظالما أو مظلوما انتظار الفرج عبادة كاد الفقر أن يكون كفرا نعم صومعة الرجل بيته الأعمال بخواتيمها

(الفصل الثانى فى أمثال العرب) إن من البيان لسحرا ان الجواد قد يعثر إن البلاء موكل بالمنطق أن أخا الهيجاء من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك أنف فى السماء واست فى الماء ان الذليل الذى ليست له عضد أى الرجال المهذب انما هو كبرق خلب اذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم إياك أعنى فاسمعى ياجارة إن لم يكن وفاق ففراق انك لاتجنى من الشوك العنب إذا حان القضاء ضاق الفضاء ان المناكح خيرها الأبكار اذا كنت مناطحا فناطح بذوات القرون أوى إلى ركن بلا قواعد اياك أن تضرب بلسانك عنقك أكل وحمد خير من أكل وذم آفة المروءة خلف الوعد اذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن اذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلاتقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. اتق شر من تحسن اليه الناس اخوان وشتى فى الشيم بلغ السيل الزبى أجع كلبك يتبعك حافظ على الصديق ولو فى الحريق اشتدى أزمة تنفرجى أتبع السيئة الحسنة تمحها الخيل أعرف بفرسانها رمتنى بدائها وانسلت رب رمية من

غير رام الرباح مع السماح رب أكله تمنع أكلات استراح من لاعقل له رب أخ لم تلده أمك رب طمع أدى إلى عطب ربما كان السكوت جوابا رب ملوم لاذنب له رب عين أنم من لسان رحم الله من هدانى إلى عيوبى ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس سبق السيف العذل زوج من عود خير من قعود سبلك من بلغك السب سحابة صيف عن قليل تقشع شر أيام لديك يوم تغسل رجليك طاعة النساء ندامة أطلب تظفر طرف الفتى يخبر عن لسانه ظاهر العتاب خير من باطن الحقد عند الصباح يحمد القوم السرى الظلم مرتعه وخيم عند النطاح يغلب الكبش الأجم

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامه

اعقل وتوكل العتاب قبل العقاب عند الرهان تعرف السوابق عند الامتحان يكرم المرء أويهان عند النازلة تعرف أخاك فى القمر ضياء والشمس أضوأ منه القول ماقالت حزام لقد أسمعت لو ناديت حيا أقلل طعامك تحمد منامك كل فتاة بأبيها معجبة كل كلب ببابه نباح كاد العروس أن يكون ملكا كثرة العتاب توجب البغضاء أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع الكلام أنثى والجواب ذكر كل إناء يرشح بمافيه كما تزرع تحصد كل امرىء فى بيته صبى كلب جوال خير من أسد رابض لقد ذل من بالت عليه الثعالب ليس الخبر كالعيان لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة لكل قادم دهشة لعل له عذرا وأنت تلوم لكل ساقطة لاقطة لكل مقام مقال لك لسان من رطب ويدان من خشب للباطل جولة ثم يضمحل ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة لكل غد طعام لكل دهر دولة ورجال لاعطر بعد عروس لايلدغ المؤمن من جحر مرتين لايضر السحاب نباح الكلاب لاتقتن من كلب سوء جروا ومقتل الرجل بين فكيه ماحك جلدك مثل ظفرك عن عتب على الدهر طال عتبه معاتبة الإخوان خير من فقدهم النفس مولعة بحب العاجل هذه بتلك والبادى أظلم ياحبذا الامارة ولو على الحجارة يكسو الناس وأسته عارية يدك منك وإن كانت شلاء

(الفصل الثالث فى أمثال العامة والمولدين) التساط على المماليك دناءة اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر ولاتجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية الحاجة تفتق الحيلة الحاوى لاينجو من الحيات الحبة تدور وإلى الرحى ترجع المؤذى ردى كلما جلوته صدى الأسواق وائد الله فى أرضه السلامة إحدى الغنيمتين الشاة المذبوحة لايؤلمها السلخ الطير بالطير يصاد اطلع القرد فى الكنيف فقال هذه المرآة لهذا الوجه الظريف العادة طبيعة خامسة الغائب حجته معه الخضوع عند الحاجة رجولية الناس أتباع لمن غلب النكاح يفسد الحب النصح بين الملأ تقريع الحر حر وإن مسه الضر والعبد عبد وإن ملك الدر الثقيل إذا تخفف صار طاعونا أضيع من حلى على زنجية العمل للزرنيخ والاسم للنورة أنشط من شىء دخل نصفه البغل الهرم لايفزعه صوت الجلجل بدن وافر وقلب كافر تزاوروا ولاتجاوروا تعاشروا كالاخوان وتعاملوا كالاجانب ثمرة العجلة الندامه جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة حيثما سقط لقط خذ اللص قبل أن يأخذك خذ القليل من اللئيم وذمه ذل من لاسفيه له ريق العدو سم قاتل رب ساع كقاعد زكاة البدن العلل زلق الحمار وكان من سهوة المكارى زلة الرجل عظم يجبر وزلة اللسان لاتبقى ولاتذر سلطان غشوم خير من فتنة تدوم سراة قوله وبوله سفير السوء يفسد ذات البين شهر ليس لك فيه رزق لاتعد أيامه صديق الوالد عم الولد ضرب الطبل تحت الكسا طاعة الولاة بقاء العز طفيلى ويقترح عناية القاضى خير من شاهدى عدل دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الألسن وصفحات الوجوه غنى المرء فى الغربة وطن فر من الموت وفى الموت وقع فم يسبح وقلب يذبح فلان

إن لم تجودوا بالوصال تعطفا ورأيتم هجرى وفرط تجنبى
لاتمنعوا عينى القريحة أن ترى
يوم الخميس جمالكم فى الموكب
لو كنت تعلم ياحبيى ماالذى . ألقاه من كمد إذا لم تركب . لرحمتنى ورثيت لى . من حالة لولاك لم يك حملها من مذهبى
قسما بوجهك وهو بدر طالع
وبليل طرتك التى كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب
وركبت من أخطارها فى الحب أصعب مركب
لولم أكن فى رتبة أرعى لها الـ
العهد القديم انه للمنصب
لهتكت سترى فى هواك ولذلى
خلع العذار ولج فيك مؤنبى لكن خشيت بأن تقول عواذلى
قد جن هذا الشيخ فى هذا الصبى
فارحم فديتك حرقة قد قاربت
كشف القناع بحق ذاك النبى
(قال الشيخ جمال الدين) ابن عبد القادر التبريزى الذى يهواه القاضى شمس الدين بن خلكان رحمه الله الملك المسعود ابن الملك الظاهر وكان قد تيمه حبه وكمت أنام عنده بالعادلية فتحدثنا فى بعض الليالى إلى أن ذهب الناس فقال لى نم أنت ههنا وألق على فروة

كالكعبة يزار ولا يزور قيل للزمار تهيأ للزمر قال المزمار في كمي والريح في فمي كل قليلا تعش كثيرا كلامه ريح في قفص كالابرة تكسو الناس وهي عريانة كلمة حكمة من جوف خرب كاد المريب يقول خذوني كنت سندالا فصرت مطرقة كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة كلما طار قصوا جناحه لو كان المزاج خلا لم ينتج إلا شرا لسان الجاهل مفتاح حتفه لكل جديد لذة لو ضاعت صفعة ما وجدت إلا في قفاه لو كان في اليوم خير ما فات الصياد من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا وبالله التوفيق

(الفصل الرابع في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم)

(حرف الألف)

الا كل شيء ما خلا الله باطل — وكل نعيم لا محالة زائل — إذا جاء موسى وألقى العصا
فقد بطل السحر والساحر — إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنا — فأبعدكن الله من شجرات
إذا كنت في فكري وقلبي ومقلتي — فأي مكان من مكانك ألطف — إذا أراد كريم منع صاحبه
فليس يخفى عليه كيف ينفعه — إذا ما أتيت الأمر من غير بابه — ضللت وأن تقصد إلى الباب تهتد
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته — على طرف الهجران إن كان يعقل — إذا لم يكن عندي نوال هجرتني
وإن كان لي مال فأنت صديق — الناس في طلب المعاش وإنما — بالجد يرزق منهم من يرزق
أيها السائل عما قد مضى — هل جديد مثل ملبوس خلق — إنما أنفسنا عارية
والعواري حكمها أن تسترد — أن العدو وإن أبدى مسالمة — إذا رأى منك يوما غرة وثبا
أتمنى على الزمان محالا — أن ترى مقلتاي طلعة حر — إذا ملك لم يكن ذا هبه
فدعه فدولته ذاهبه — إذا ثارت خطوب الدهر يوما — عليك فكن لها ثبت الجنان
إذا كنت لا ترضى بما قد ترى — فدونك الحبل به فاختنق — إن الأمور إذا بدت لزوالها
فعلامة الادبار فيها تظهر — إذا ضاع شيء بين أم وبنتها — فإحداهما لا شك ذاك آخذه
إذا كان رب البيت بالطبل ضاربا — فلا تلم الصبيان فيه على الرقص — إذا ما أراد الله إهلاك نملة
سمت بجناحيها إلى الجو تصعد — إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى — أصبت حليما أو أصابك جاهل
إذا لم تستطع أمرا فدعه — وجاوزه إلى ما تستطيع — إذا صوت العصفور طار فؤاده
ولكن حديد الناب عند الثرائد — أهن عامرا أتكرم عليه فإنما — أخو عامر من مسه بهوان
إذا محاسني اللاتي أتيت بها — عدت ذنوبا فقل لي كيف أعتذر — أخوان صدق ما رأوك بغبطة
فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى — إذا اعتاد الفتى خوض المنايا — فأيسر ما يمر به الوحول
ألم تر أن المرء تدوى يمينه — فيقطعها عمدا ليسلم سائره — إذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما
يسوءك أبعدت الدواء عن السقم — إذا أنت حملت الخؤن أمانة — فإنك قد أسندتها شر مسند
أكل خليل هكذا غير منصف — وكل زمان للكرام بخيل — إذا أنت عبت المرء ثم أتيته
فأنت ومن تزرى عليه سواء — أسأت إذ أحسنت ظني بكم — والحزم سوء الظن بالناس
الحادثات إذا ألم خطوبها — فلها مساو مرة ومحاسن — الخير لا يأتيك متصلا
والشر يسبق سيله مطره — العلم ينهض بالخسيس إلى العلا — والجهل يقعد بالفتى المنسوب
الكفر بالنعمة يدعو إلى — زوالها والشكر أبقى لها — أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا — أقلب طرفي لا أرى غير صاحب — يميل مع النعماء حيث تميل
إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن — قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

قرظ وقام يدور حول بركة العادلية ويقول في دورانه أنا والله هالك آيس من سلامتي أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي (وقيل) إن قاضي القضاة شمس الدين المشار إليه رحمه الله سأل بعض أهل دمشق المحروسة وكان المسئول من خواص أصحابه عن ترجمته عند أهل دمشق فاستعفاه من ذلك فألح عليه فقال أما العلم والفضل فهم مجمعون عليه وأما النسب فيدعون فيه الادعاء ويقولون إن مولانا يأكل الحشيش ويحب الغلمان (فقال) أما النسب والكذب فيه فهذا نوع من الهذيان ولو أردت أن أنتسب إلى العباس أو إلى علي بن أبي طالب أو إلى أحد من الصحابة لأجازوا ذلك وأما النسب إلى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم وإذا كان ولابد فكنت أشرب الخمر فإنه ألذ وأما محبة الغلمان فإلى غد أجيبك عن المسألة انتهى (ومما يناسب لطيفة قاضي القضاة شمس الدين ما نقلته من روض الجليس ونزهة الأنيس) حكي عن سليمان بن محمد المدي الصقلي قال كان بأفريقية رجل نديه شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانه فاشتد كلفه به وكان

الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيرا فبينما هو ذات ليلة وقد اتقد بنفسه ليترب الخمر إذ ذكر محبوبه لجرى بخاطره ما يفعله به من التجنى فزاد سكره وقام من الفور وقد غلب عليه سكر الغرام وسكر المدام فأخذ قبس نار وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر الناس باطفائها واعتقلوه فلما أصبحوا نهضوا به إلى القاضى فأعلموه بفعله فقال له القاضى لأى شىء أحرقت باب هذا الغلام فأنشد على الفور

لما تمادى على بعادى
وأضرم النار فى فؤادى
ولم أجد من هواه بدا
ولا معينا على السهاد
حملت نفسى على وقوفى
ببابه وقفة الجواد
فطار من بعض نار قلبى
أقل فى الوصف من زناد
فأحرق الباب دون علمى
ولم يكن ذاك من مرادى

قال فاستظرف القاضى واقعته واستملح شعره ورق لحكاية حاله وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام وأطلقه (ومما يناسب هذه اللطائف) قيل إنه رفع إلى المأمون أن حائكا يعمل السنة كلها لا يتعطل فى عيد ولا جمعة فإذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عال فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحوا ... ما دام للورد أزهار ونوار

(حرف الباء الموحدة)	بنا فوق ما تشكو فصبرا لعلنا	نرى فرجا يشفى السقام قريبا
	بالملح نصلح ما نخشى تغيره	فكيف بالملح إن حلت به الغير
	بنى عمنا إن العداوة شأنها	ضغائن تبقى فى نفوس الأقارب
(حرف التاء المثناة الفوقية)	نحن اليه أفئدة البرايا	وتهواه الخلائق للسماع
نلوم على القطيعة من أتاها	وأنت سننتها للناس قبلى	تلجى الضرورات فى الأمور إلى
سلوك ما لا يليق بالأدب	تفرقت الظباء على خراش	وما يدرى خراش ما يصيد
	تجتلى الأذن منه أحسن مما	تجلى العين من وجوه البدور
(حرف الجيم)	جن له الدهر فنال الغنى	آه لمن أغفله الدهر
	جربت أهلى وأهليه فما تركت	لى التجارب فى ود امرئ غرضا
(حرف الحاء المهملة)	حياك من لم تكن ترجو تحيته	لولا الدراهم ما حياك إنسان
(حرف الخاء المعجمة)	خفض الجأش واصبرن رويدا	فالرزايا إذا توالت تولت
خليلى إن الحب صعب مراسه	وإن عزيز القوم فيه يهان	خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة
ان الجلوس مع العيال قبيح	خيالك فى عينى وذكرك فى فمى	ومثواك فى قلبى فأين تغيب
	خن من أمنت ولا تركن إلى أحد	فما نصحتك إلا بعد تجريبى
(حرف الدال المهملة)	داود محمود وأنت مذمم	عجبا لذاك وأنتما من عود
	دعينى أنهب الأموال حتى	أعف الأكرمين عن اللئام
(حرف الذال المعجمة)	ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله	وأخو الجهالة فى الشقاء منعم
(حرف الراء)	رب مهزول سمين عرضه	وسمين الجسم مهزول الحسب
ردوا على صحائفا سودتها	فيكم بلا حق ولا استحقاق	رضيت ولا أرضى إذا كان مسخط
من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر	رب يوم بكيت منه فلما	صرت فى غيره بكيت عليه
(حرف الزاى)	زنيم ليس يعرف من أبوه	بغى الأم ذو حسب لئيم
(حرف السين المهملة)	سرورى أن تبقى بخير ونعمة	وإنى من الدنيا بذلك قانع
سوء حظى أنالنى منك هجرا	فعلى الحظ لا عليك العتاب	سبكناه ونحسبه لجينا
فأبدى الطير عن خبث الحديد	ستذكرنى إذا جربت غيرى	وتعلم أننى نعم الصديق
(حرف الشين المعجمة)	شفيعى إليك الله لا رب غيره	وليس إلى رد الشفيع سبيل
	شكرتك قبل الخير إن كنت واثقا	بأنى بعد الخير لا شك شاكر
(حرف الصاد المهملة)	صح لنا والده أولا	وأنت فى حل من الوالدة
(حرف الضاد المعجمة)	ضاقت ولو لم تضق لما انفجرت	والعسر مفتاح كل ميسور
(حرف الطاء المهملة)	طويل عمر المعالى والندى أبدا	قصير عمر الأعادى والمواعيد
	طوبى لأعين قوم أنت بينهم	القوم فى نزهة من وجهك الحسن
(حرف الظاء المشالة)	ظهرت خيانات الثقات وغيرهم	حتى اتهمنا رؤية الأبصار
	ظلمت امرأ كلفته غير خلقه	وهل كانت الأخلاق إلا غرائزا
(حرف العين المهملة)	علم الله كيف أنت فأعطا	ك المحل الجليل من سلطانه
على المرء أن يسعى لما فيه نفعه	وليس عليه أن يساعده الدهر	عسى فرج يأتى به الله إنه
له كل يوم فى خليقته أمر	عتبت على عمرو فلما تركته	وجربت أقواما بكيت على عمرو

أشرب على الورد من حمراء صافية شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا

ولا يزالون فى صبوح وغبوق مابقيت وردة فاذا انقضى الورد عاد إلى عمله وغرد بصوت عال

فان يبقنى ربى إلى الورد أصطبح
ان مت والهفى على الورد والخمر
سألت إله العرش جل جلاله
يواصل قلبى فى غبوق إلى الحشر

فقال المأمون لقد نظر هذا الرجل إلى الورد بعين جليلة فينبغى أن نعينه على هذه المروءة فأمر أن يدفع له فى كل سنة عشرة آلاف درهم فى زمن الورد

(ومن اللطائف ماحكى عن مجير الدين الخياط الدمشقى) قيل إنه كان يهوى غلاما من أولاد الجند فشرب مجير الدين فى بعض الليالى وسكر فوقع فى الطريق فمر الغلام عليه بشمعة وهو راكب فرآه فى الليل مطروحا على الطريق فوقع عليه بالشمعة ونزل فأقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على وجهه ففتح عينيه فرأى محبوبه على رأسه فاستيقظ وأنشد

يا محرقا بالنار وجه محبه
مهلا فان مدامعى تطفيه
أحرق بها جسدى وكل جوارحى
واحذر على قلبى فانك فيه

(ومن اللطائف ماحكاه الأصمعى) ولاخير

(حرف الغين المعجمة)

(حرف الفاء)

فنفسك أكرمها فانك ان تهن
إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره
فان كانت الأجسام منا تباعدت
ولكن حمد المرء غير مخلد

(حرف القاف)

قد زال ملك سليمان فعاوده
وقد يكون مع المستعجل الزلل

(حرف الكاف)

كفى زاجرا للمرء أيام دهره
فهم كربتى فأين الفرار
كل المصائب قد تمر على الفتى
فأنت إلى كل الانام حبيب

(حرف اللام)

لعمرى ماضاقت بلاد بأهلها
من فاته اليوم سهم لم يفته غدا
لو كان ما بى فى صخر لأنحله
فما اسطعت من معروفها فتزود

(حرف الميم)

من لم يعدنا إذا مرضنا
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
من الناس من يغشى الاباعد نفعه
فانه فى المسجد الجامع

نسود أعلاها ونأبى أصولها
نعاف مالابد من شربه

(حرف الهاء)

هل بالحوادث والأيام من عجب
أليس مصير ذاك إلى الزوال
هم يحسدونى على موتى فواحزنى

(حرف الواو)

وإذا خشيت من الأمور مقدرا
ويبيت بوابا بباب الأحمق

غنى بلا مال عن الخلق كلهم
غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه
فلم أر كالأيام للمرء واعظا
عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما
فما أكثر الأصحاب حين تعدهم
فان المدى بين القلوب قريب
فان تفق الأنام وأنت منهم
قد يجمع المال غير آكله
والشمس تنحط فى المجرى وترتفع
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه
كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا
تروح له بالواعظات وتغتدى
كانوا بنى أم ففرق شملهم
فتهون غير شماتة الاعداء
كالكلب ان جاع لم يعدمك بصبصة
لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتقى
ولكن أخلاق الرجال تضيق
لو أن خفة عقله فى رجله
فكيف يحمله خلق من الطين
لكل امرىء حالان بؤس ونعمة
من يحمد الناس يحمدوه
ان مات لم نشهد الجنازة
من كان فوق محل الشمس رتبته
ويشقى به حتى الممات أقاربه
ما قام عمرو فى الولا

(حرف النون)

وليس إلى رد الشباب سبيل
ندمت ندامة الكسعى لما
هناكم الله بالدنيا ومتعكم
أم هل إلى رد ما قد فات من طلب
هنيئا لمن لاذاق للدهر لوعة
حتى على الموت لا أخلو من الحسد
ولم أر كالمعروف أما مذاقه
وهربت منه فنحوه تتوجه
ولا يغرورك طول الحلم منى

وليس الغنى إلا عن الشىء لا به
ولم يأته من شطر أم ولا أب
ولا كصروف الدهر للمرء هاديا
فصبر جميل ان فى اليأس راحة
ولكنهم فى النائبات قليل
فلو كان حمدا يخلد المرء لم يمت
فان المسك بعض دم الغزال
ويأكل المال غير من جمعه
قد يدرك المتأنى نجح حاجته
خلق وجيب قميصه مرقوع
فان على الخلاق رزقكم غدا
كنت من كربتى أفر اليهم
عدم العقول وخفة الأحلام
كأنك من كل النفوس مركب
وان ينل شبعا ينبح من الاشر
إذا هو لم يجعل له الله واقيا
للموت فينا سهام وهى صائبة
سبق الغزال ولم يفته الأرنب
لعمرك ما الأيام إلا معارة
وأفظعهم فى النائبات أقاربه
والناس من يعبهم يعاب
متى يبلغ البنيان يوما تمامه
فليس يرفعه شىء ولا يضع
ما كان فى الخدع من أمركم
ية قائما حتى قعد

نحن بنو الموتى فما بالنا
رأت عيناه ماصنعت يداه
بما نحب لكم منها وترضاه
هب الدنيا تقاد اليك عفوا
ولم تأخذ الأيام منه نصيبا

لحلو وأما وجهه فجميل
والرزق يخطىء باب عاقل قومه
فما أبدا تصادفنى حليما

ولاخير فيمن لايوطن نفسه   على نائبات الدهر حين تنوب   وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل   وما للمرء خير في حياة   إذا ما عد من سقط المتاع
وما المرء الا كالهلال وضوؤه   يوافي تمام الشهر ثم يغيب   وقد تسلب الأيام حالات أهلها
وتعدو على أسد الرجال الثعالب   ومن يأمن الدهر الخئون فانني   برأى الذي لا يأمن الدهر أقتدى
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد   ذخرا يكون كصالح الأعمال   ومن يكن الغراب له دليلا
يمر به على جيف الكلاب   ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا   من الزاد يطرح نفسه كل مطرح
ولربما منع الكريم ومابه   بخل ولكن سوء حظ الطالب   ولا بات يسقينا سوى الماء وحده
وهذا جزا من بات ضيف الضفادع   ومن عاش في الدنيا فلا بد أن يرى   من العيش ما يصفو وما يتكدر
لو دامت الدولات دامت لغيرنا   رعايا ولكن مالهن دوام   وأحسن فان المرء لا بد ميت
وإنك مجزى بما كنت ساعيا   ولا ترين الناس الا تجملا   وإن كنت صفر الكف والبطن طاويا
ومالامرىء طول الخلود وإنما   يخلده طول الثناء فيخلد   ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرج   وكان رجائي أن أعاد ممتعا   فصار رجائي أن أعود مسلما
وتجلدي للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع   ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع   وهون حزني عن خليلي أنني   إذا شئت لاقيت الذي مات صاحبه

ويوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

(حرف اللام الف)

لاتنظرن إلى الجهالة والحجى   وأنظر إلى الاقبال والادبار   لاتسأل المرء عن خلائقه
في وجهه شاهد من الخبر   لا يصبر الحر تحت ضيم   وإنما يصبر الحمار
لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم   لايبالي الشتم عرض
كله شتم وذم   لاتنظرن إلى امرىء ماأصله   وانظر إلى أفعاله ثم أحكم
لا يسكن المرء في أرض يهان بها   الامن العجز أومن قلة الحيل   لايقبلون الشكر مالم ينعموا
نعما يكون لها الثناء تبيعا   لاأسأل الناس عما في ضمائرهم   ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

(حرف الياء المثناة التحتية)

يفر من المنية كل حي   ولاينجي من القدر الحذار   يريك الرضا والغل حشو جفونه
وقد تنطق العينان والفم ساكت   يهمهم للسهام إذا رآه   ويعبس إن رأى وجه اللجام
يفارقني من لاأطيق فراقه   ويصحبني في الناس من لاأريده   يزيد تفضلا وأزيد شكرا
وذلك دأبه أبدا ودأبي   يواسي الغراب الذئب في كل صيده   وما صارت الغربان في سعف النخل
يهون علينا أن تصاب جسومنا   وتسلم أعراض لنا وعقول   يغر الفتى مر الليالي سليمة
وهن به عما قليل غوائر   يغيظني وهو على رسله   والمرء في غيظ سواه حليم

يريك البشاشة عند اللقا ويبريك في السر بري القلم

﴿ الفصل الخامس في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم ﴾

(حرف الألف)

ان كنت ما تعمل جميلا اعمل كما يعمل معك . إذا أبغضك جارك حول باب دارك. إذا كان صاحبك عسلا فلا تلحسه كله. المستعجل والبطى عند المعدية يلتقى. ألف ذقن ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقني. إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله إذا كنت أعمى وأطرش شم رائحة النقوش إذا كان النبيذ دردى والعشيق كردى والقبول فول حار والعشا بيسا رايش يكون

قال مررت بكناس يكنس كنيفا وهو يغني ويقول أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر
فقلت له أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد الكنيف فمعلوم قال الاصمعي وكنت حديث السن فأردت العبث به فأعرض عني مليا ثم أقبل على وأنشد

وأكرم نفسي أنني إن أهنتها
وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت وأي كرامة حصلت لها منك وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به فقال بل لا والله من الهوان ماهو أكثر وأعظم مما أنا فيه فقلت له وما هو فقال الحاجة إليك وإلى أمثالك فقال فانصرفت وأنا أخزى الناس

(ذكرت) بقول الكناس غريم الاصمعي ما يضارع ذلك أعني قوله

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

قيل إنه كان لأبي حنيفة رضي الله عنه جار إسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جنه الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك فيطبخ اللحم ويشوي السمك فاذا دب فيه السكر أنشد

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه

الحال. إذا كان القطن أحمر والمغسل أعور والدكة مخمة والنعش مكسر اعلم أن الميت من أهل سقر والوادى الاحمر إيش ينفع الظراط عند طلوع الروح قال تقريب للحاضرين وتفريق للملائكة القشر والنشر والعشا خبيزة أكل الدقة والنوم فى الأزنة ولا دجاجه محمرة يعقبها مشقة. إيش انت فى الحارة يامنخل بلا طاره. الرجم بالطوب ولا الهروب إذ وقعت يافصيح. لاتصنيح أفرع يقرل لا افرع امش بنا نزوع. فى بركة القرعان إيش مايطلع يطلع النصف لى والربع لى والثمن لى والثمن الآخر لك ولى العدو مابيقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب اقعد ياحمار حتى ينبت لك الشعير أى موضع راح الحزين يلقى جنازة قال الشاعر .

إن دام هذا السير يامسعود ... لاجمل يبقى ولا قعود

(غيره) إذا لم تكن لى والزمان شرم برم ... فلاخير فيك والزمان ترللى

(غيره) إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة ... وإن أدبرت كادت تقد السلاسل

(حرف الباء الموحدة)

بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته بينما يسعد المقتر فرغ عمره بينما أصل قبره نسيت همه بينما يعدل المفتر حاله جاء الموت شاله بينما يخاص ربناحتى انفرقعت جوزة حلقى بينما يقطع الجريد يفعل الله مايريد بينما يجىء الدرياق من العراق يكون الملسوع مات بين حانه وبانه حلقت لحانه بدوى مقروح لقى التمر مطروح أين يحلى ويروح بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على رأسك بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص ياعريان بدال لحمتك الثلاثة هات لك شد ياسمانه بقى للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية بقى للخرا مرا ويحلف بالطلاق بعد الجوع والقملة بقى لك حمار وبغلة

(حرف التاء المثناة فوق)

تموت الحداى وعينها فى الصيد تعالوا بنا نفتح ونرجع غدا نصطلع تدحرج ... لعند البعر قال له إيش أنت قال له بزم فردف ترك الفضول من حزم العقول تراب العمل ولا زعفران البطالة تسكر وتخانق ماهو شىء موافق تجارة الأحمق على أهل بيته تضارب الريح مع الموج جاء لهم على النواتيه تزاوروا ولا تجاوروا تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها .

(حرف الثاء المثلثة)

ثوب العيرة مايدفى ثقيل واسمه صخر بن جبل ثور علفوه أغمى عليه قال حتى يطلع شىء يرشوه عليه ثور عاجز مايدور ساقية ثقيل من أولاد الزنا مر العنا ثوب عليه وثوب على الوتد قال أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد

(حرف الجيم)

جور القط ولاعدل الفار جمل موضع يبرك جهد المقل دموعه جمل بحنه قال وأين المحبة حيث اصطاد صادونى جار له حق وجار ماله حق وجار لاصحبته عافيه جارك مرآتك إن لم ينظر وجهك ينظر قفاك جا كتاب من عند خاله قال كل من هو فى حاله جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهى بهمه جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها جوزوها له مالها إلا له جوز ومشكاح لربة ماعلى الاثنين قيمة

(حرف الحاء المهملة)

حاجة لاتهمك وصى عليها جوز أمك حول حبيبى ماعونه وقدرته مع كانونه حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا حب وواري واكره وداري حدثتنى ونصحتنى عايرتنى . فرحتنى حط فليسانك فى كمك واشتر أبوك وأمك حبة قرض تخرب أرض

(حرف الخاء المعجمة)

خدينى وارغبي فيه آناحصاد ملوخية وعند الخبز آكل ميه وعند الشغل مالى نية خبثت لى وصلحت لك

فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى الإمام الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير فقال ائذنوا له وأقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط فلما دخل على الأمير اجلسه مكانه وقال ماحاجة الإمام فقال لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر بتخليته فقال نعم وكل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب الإمام وتبعه جاره الاسكاف فلما وصل إلى داره قال له الامام أبو حنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا عن صحبة الجوار ورعايته ولله على أن لا أشرب بعدها خمرا فتاب من يومه ولم يعد إلى ماكان عليه انتهى (ومما يناسب هذه اللطائف) ماذكره الحريرى فى كتابه الموسوم بتوشيح البيان نقل أن أحمد بن المعذل كان يجد بأخيه عبدالصمد وجدا عظيما على تباين طريقهما لأن أحمد كان صواما قواما وكان عبدالصمد سكيرا خموريا وكانا يسكنان دارا واحدة ينزل أحمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد فى أسفلها فدعا عبد الصمد ليلة

خذ الصبي فوق صبيانك تمام لاحزانك خزينة فى جره وماحه فى صره خبزه بلاادام ويهوم على الجيران

(حرف الدال المهملة)

دار الظلم خراب ولو بعد حين درهم لك ودرهم عليك لابك ولا عليك دواء مالانشتهى النفوس تعجيل الفراق

(حرف الذال المعجمة)

ذا درب ه يسد ربع ذى ماحى رمانة إلا دلوب ملانة ذالى وذا أيدى عليه ذى مائدة مايقعد عليها طفيلى ذا الخبز ماهو من ذا العجين الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها ذكروا المدن جاءت القرى تحجل

(حرف الراء المهملة)

راح ذاك الزمان بناسه، وجا هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه أو أحجار راكب حيط قالوا إلى أين ياحجار قال مسافر قالوا من كانت هذه المطية مطيته لايشرق ولا يغرب رأوا سكران يقرأ قالوا عن تشاكل روحك رأواشيخا يتهجى قالوا يختم على الصراط رأوا وردا أنه على سنداس قالوا مالذى الفسقية إلاذى البلاطية رأوا على قبر مكتوب باسمادة ساكنه قالوا أبصر من يزاحمه راكب بلاش وبناغش مراة الريس ركبتك ورأى حطيت يدك فى الخرج راح الجندى وخلى خلقه عندى رزق الكلاب على الجائين راحين فى عمامة مايكون راحت على جمل وجات على قطه قال مالذى الشيلة الاذى الحطة قال الشاعر

راح الذى كنا نعيـ ه ش بفضله بين الورى ه وبقى الذين حياتهم ه ووجودهم مثل ..

(حرف الزاى المعجمة)

زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة زاوية بلا عيش بنيت ليش زوج القصيرة يحسبها صغيرة زوجت بنتى أقعد فى دراها جاتنى وأربعة وراها قال الشاعر

زوجت بنت تستر ه ويمثلى بيتى قماش ه جاغز لها فى أكلها ه زواجها طلع بلاش

زنبور زن على حجر مسن قال له إيش تريد قال أحسك قال انا الحسن اليولاد زنبور زن على فلس جحش قال له إيش تطلب قال له عسل قال له قصدت معدن يادندن

(حرف السين المهملة)

سل المجرب ولا تسل الطبيب سموك مسحر فان فرغ رمضان سموك حبل وإن طولت سموك راجح قال إن شاء الله تجى الحق سبع وزر ولا استتر (قال الشاعر)

سيغنى الله عن بقراط دن ه ويأتى الله باللبن الحليب

(وقال آخر) سيغنى الله عن زيد وعمرو ه ويأتى الله بالفرج القريب

(حرف الشين المعجمة)

شره ووضيع ويغضب سريع شىء مانابه و قطعت ثيابه شعر يحلق وشعر مايحلق شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل شمى ولاتدعكنى شىء مايجى على القلب هنايته صعبة شرا العبد ولاتربيته شخت بقلة عامت زبلة ركبت خنفسة زمر زنبور قال ماذا الجوق الجيل إلا لمقطعات النيل

(حرف الصاد المهملة)

صام سنة وقطر على بصلة صبرى على الحبيب ولافقده صاحب يضر عدو مبين صباح الفوال. ولا صباح العطار صباحك يا أعور قال زى خناقه بايته صباح الخير ياجارى أنت فى دارك وأنا فى دارى (حرف الضاد المعجمة) ضرب الحبيب كأكل الزبيب ضربتين فى الراس تعمى ضرب وبكى وسبق يشتكى ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حما ضمنوا حداية لغراب قال الكل يطيروا ضربوا بياع الكسبرة جرى بياع الثوم قال دى داهية جات على الخضرية.

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض فرفع عبد الصمد رأسه وقال ماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وذكرت) بهذ الاقتباس الذى خلب القلوب هنا بحسن موقعه اقتباسا خلب قلوب الناس لعظم موقعه وماذاك إلا أن الحاكم الفاطمى على ماذكر لما بنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح قيل إنه فسد حاله فى آخر أمره وادعى الألوهية وكتب باسم الحاكم الرحمن الرحيم وجمع الناس إلى الإيمان به وبذل لهم نفائس وكان ذلك فى فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفعه ولا يندفع فقرأ فى ذلك الوقت بعض القراء وكان حسن الصوت ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز فاضطربت الأمة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة فى حكاية الحال حتى كأن الله أنزلها تكذيبا للحاكم فيا ادعاه وسقط الحاكم من فوق سريره

بعض الجزائر وأمر باغراقه وروى بعد ذلك فى المنام فقيل له ما وجدت فقال ماقصر معى صاحب السفينة أرسى بى على باب الجنة (ومن الاقتباسات التى وقعت للمتاخرين فى أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال) ما سمعت وشهدت حكاية حاله بالجامع الأموى وما ذاك إلا أن قاضى القضاة علاء الدين أبا البقاء الشافعى رحمه الله تعالى كان قد عزل من وظيفة قضا القضاة بدمشق المحروسة فعاد إلى وظيفته وألبس التشريف من قلعة دمشق وحضر إلى الجامع على العادة ومعه أخوه قاضى القضاة بدر الدين الشافعى بالديار المصرية فاستفتح الشيخ معين الدين الضرير المقرى وقرأ قالوا يا أبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا إلى آخر الآية فحصل بالجامع الأموى ترنم صفق له النسر بجناحيه (وروى المرزبان) باسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له يمتار من وادى القرى فمر بجبلى نعمان فقالوا إن هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلهما قال فأى ريح يهب من نحو أرضها إلى هذا المكان فقالوا

(حرف الطاء المهملة) طارت الطيور بأرزاقها طفيلى ويجلس فى الصدر طفيلى ويقترح طويل الكم خنطار قليل الفرح فى الدار طبق وجارية على صحن يسار به طلبوا جاكم عثمان يدمن وراويد من قدام طعامك ماجانى ودخانك عمانى طار طيرك وأخذه غيرك طول ماأعيش يكفينى رعى الحشيش طول لغيبه وجانا بالخيبة (حرف الظاء المعجمة)

ظهرك عندى نصف الليل

(حرف العين المهملة) عنقود مدلى فى الهوى من لايصل إليه يقول حامض ولا استوى عشق بداله لاأباله عاشق مايسمع بكا صغير عاشق ما يسمع كلام مفارق عاشق مقل شىء مازرع إيش جا يستغل غزومه حسبت عليك كل وبحلق عينيك عند المخاضه يبان القليط عند الطعان يبان الفارس من الجبان عريان التينه وفى جرامه سكينه عريان وفى كمه ميزان

(حرف الغين المعجمة) غابت السباع ولعبت الضباع غربه وكربه مايحمل الحال غنا ش وقلقاس نحسين فى قدره غالى السوق ولا رخيص البيت

(حرف الفاء) فرجه بلا كسر تعمى البصر فقير ونفير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يحى ذوق الشراطه ملخ أودانه فارس خرا ويسوق فى الوحل فارس خرا واسمه عنتر فارس خايب ويسابق الخيل فرد ضربه فى الراس تكفى فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد فرغت الرعانة ياجانم (حرف القاف)

قالوا للأعمى زوق عصاتك قال هو وأنا محب فيها أبا قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحلى ماينطلى . قالوا للقرد شب يادى ملاح وتمسك الماصول . قالوا للقرد اطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه يبسط . قالوا للجمل زمر قال لاشفف ملمومه ولا أيادى مفرودة قالوا للدبة طرادى قالت ذى خفة أيادى . قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الأذى طبعى . قالوا لبقر الديوان إذا متم يكفنوكم فى حرير قالوا اشتهينا نروح بجلودنا قالوا للغزالة ارحلى حركت ذنبها قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف . (حرف الكاف) كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع ، ككار دايم ولا علامة مقطوعة ، كل كرها واشرب كرها ولا تعاشر كرها كل هم كاوى عند همى ياوى ، كل شىء لايشبه دانيه حرام ، كل مائة عصفور مايجو حدايه ، كل ألف مصه مايجو بغصه ، كل ألف بوسة مايجو بعبوسه ، كملت ياحيان بالشعرة والصنان كل حبيبى كل المعانى اعرج وقيليط ومعجبانى كل حبيبى وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل ... ، كأنه خان الفجر لايوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر ، كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار كأنه عصفور ينيك بلاش ويأوى فى الأعشاش (حرف اللام)

لولاك ياكمى ماكلت يافمى لولاك يالسانى ما نسكيت ياقفانى لولا الغيره والحسد كانت عجوزه كفت بلد لولا أختك ماصرت ابن عمتك لوقلبناها بلنه ماجات هكذا لو كان فيها خير مارماها طير لك وعليك مايصعب عليك لك أسوة بغيرك لقمه بدقه ولا خروف بزته لقمه تحت حيطه ولا خروف بعيطه لو سلم السكرم من حارسه طابت مغارسه لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعة مايخليها لو عمل لى من الذهب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة لو شال راسه إلى السما كأنه عصيده بما لو نظر الجمل اصنمه كان كدمه لولا البكشط والبرايه ماكانت أولاد الخرا كتاب

(حرف الميم)

محبة بلاحبة ماتساوى حبة ملشلتك يادمعتى إلا لشدتى من عاشر غير جنسه دق الهم صدره من قدم النحس تعب فى تأخيره من عاشر الحداد احترق بناره من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوى استه وهزه من لايحط يده لزنده مايعرف حره من برده مار أيتك يانور حتى ابيضت العيون مالى على فراقكم جلد الاهاجى من البلد ما كفاناهم أبو ناقام ابو ناجاب أبوه قال خذوا جدكم ربوه من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح ما تنقدوم كلهم زغليه مافيهم من يعجب النقاد

(حرف النون)

نواية تسند الجره قال وتسند الزير الكبير نفسك أتلفت أى شىء أخلقت نصف البلا ولا البلا كله ناقصٌ ونحاس ناموسه باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أى ورقة نيتك مطيتك نسيت يافلاح ماكنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه هيك حتى تبقى ديك

(حرف الهاء)

هانت الزلابية حتى اكلها بنواتل هان المسك وانتثوهداية تعرقومها تخليتها ولالومها هدية الأحباب على ورق السداب قال ... رأعمى عن ورق الموز هو عرس تأكل وتغسل أهدوا هدايه وأعينهم فيها يقول الله ردها هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل

(حرف الواو)

واحد نتفه وآخر لففه وقال آخر ياقريب الفرج واحد بيخطبوا له وهو قائم عليه قال أنا فى حاجتك واحد جائز رأى قرد يحرش ترمس قال ماالذى الفاكهة البدرية الادئ الصورة القمرية احدسموه عنز وصنعته سرباتى قال الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعه وحش ويكش ويعقد فى الوش ويغنى بلينا بكم وقت أكل الدجاج مايفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك وإش قام على نرمه بقصل الحكومة وقت الشوا واليخنى ماقلت ياأخى الحقنى ووقت ضرب الدرد فات اصفعوا واصفعنى

(حرف اللام ألف)

لاتميرنى ولا أعيرك الدهر حيرنى وحيرك لاأصل شريف ولا وجه ظريف لاآخوك ولاابن عمك تشق ثوبك على إيش لا عاش بليق لا حراس ولادراس ولاعاش العار ولا بنى له دار لارجع ثوابه ولاخلاه لأصحابه لا فى الفراق تجدراحة ولا فى الوصل لا تشكرن فتى حتى تجربه لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى لا يضر السحاب نبح الكلاب لا يغرك تطريق الأصل فى ريق

(حرف الياء)

ياشب مليح ماأحسنك وصفك لافى يدك ولافى طرفك ياويل من ذاق الغنى بعد جوعه يموت وفى قلبه من الهم واجس ياطارق الباب بعد العشى لاتطرق الباب ماتم شىء يامن قليا ما كان حلنا السلطا لنا فى العشرة سنه يهنيكم قدومه قدجاكم بشومة ياليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا ياويل من كان عيشه من بيت أخيه ياطالب الشر بلا أصل تعالى للصائم بعد العصر

(امثال النساء حرف الألف)

أحبك ياسرارى مثل معصى المدى الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل إن كنتى حره لاتضيعى نقابك بره إن لم تعطى وتفتخرى ولا العدى وانظرى إن كانت للدابة أحن الوالد قال ذى داهية عياره الكلام لك ياجارة إلا أنت حماره إيش تعمل الماشطة فى الوجه المشوم إيش قام على الحرينة بالنفش

الصبا فقال والله لاأبرح حتى تهب الصبا فاقام فى باحية من الجبل ومضوا فامتاروا له ولهم ثم اتوا لحبسهم حتى هبت الصبا ورحل معهم وفى ذلك يقول

أيا جبلى نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة
على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت
على نفس مهموم تجلت همومها

وضمن البيت الأول الشيخ صفى الدين الحلى فى مليح اسمه نعمان

أقول وقد عانقت نعمان ليلة
ببو ومحياه أثار أدنيها
وقد أرسلت ألياه نحوى قسوة
يروع ر كريب المستهام شميمها
أيا جبلى نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

(وكان) لا بن الجوزى رحمه الله تعالى زوجة اسمها نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منه على التلف فحضرت فى بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها فاتفق أنه جاءت امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عنه فأنشد فى الحال

(قلت) وعلى ذكر نعمان

أيا جبلى نعمان بالله خليا . نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

والربة إيش ينفع النفخ فى الوجه الأصم أرمله عدس ومتزوجه عدس اقعدى بمدسكى اسم ازوج ولطعم الترمل فينا تزنى بيقطينا إذا كان زوجى راضى إيش فضول القاضى استعارت الرعنه شيء حسنته لما أخذت المقس ودارته لها اقعدى، فى عشك حتى يجى حد ينشك

(حرف الباء الموحدة)

بعد أن كنتى لى وحدى بقيت أسمع أخبارك بعدستة وشهرين جابت بنت بشهرين بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها بعدمشيك فى الحلفه بقالك ـلالموغرقة واسمك ستيه، بعدأمى وأختى الكل جيرانى بينما تنقلب الحوله انصرف القاضى بنت الدون تزف لابن الدون بدف باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من درى بك قبله بدال ماتمشى وتهزى كتفك رقمى فردة خفك بنجاسة وتراحم نا البوس بقى لام سيسى برقع وللضفدعة زماره بعد مشيك فى الحلاف لبستى الصافى بعيد على الجزينة تستعمل الزينة

(حرف التاء)

تابت القحبة يوم وليلة قالت مابقى فى البلد حكام تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنة من حقا تضارب وتتعرى تصيح ياقلة رجالى تأخذوا أبونا وتكابرونا رتانه وبيبانه ومفاتيح الخزانه تباهت الرعنه بشعر بنت أختها تخلونى وإلا أستحا بجارنا قالت إذا كان ذا فى قلبك خذيه بلا استحلال تتغمى بالخرج ولا تخلى الفنج تقعد عيوشه فى ديارتها مالا حد حاجة فى زيارتها

(حرف الثاء) ثوب سيدى ثوب حبيبى ثوب ستى ثوب قحبه

(حرف الجيم) جاره بجاره والعـــداوة خسارة جانى عذولى ورتالى ماهى محبة الاشماته لى جاريه وزبديه على باذنجانه مقلية جاتنا العدوه مكحلة قطران لاغيره وقلبها فرحان جاب ثيابه يفساهم بلا صابونة معهم

(حرف الحاء المهملة)

حوله وتنقب بنخ حزانى ماعندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق حزانى ماعندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية حزينه وواعية حبله ومرضعه وعلى كتفها أربعة وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل حوله ونصرانية لا مليحه ولا أصل طيب حزينة ملها ملوك سمت زنبورها خوشكلد حزينة مالها ملك اكترت لها بواب حزينة مالها كاملبه طلبت لها خف وشعربه

(حرف الخاء المعجمة)

خطبوها تعززت وكان زمان البوار ذبلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب خذى قطيفه واكشفى سرى قالت مايطامرعنى قلبى خلب مايعنيها واتبعت حك رجليها

(حرف الدال المهملة)

هدى زوجك بكنيتك تمى نهارك مع ليلتك دق من أسفل ولا تطلع ماأنت على القلب.

(حرف الذال المعجمه) ذكرت العجوز اطلالها

(حرف الراء)

رتهتى ماأحستتى كان قعادك أجل رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم رأوا جاموسة منقبة بحصير قالوا مالذا مالذا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع راحت تبيع ربه، غابت جمعه راحت رجال الهبية وبقيت رجال الخيبة راحت رجال اللحم والفلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس رأوا خنفسة على مكنسة قالوا مالذى الصيفه إلا ذا الحار الأزعر

(حرف الزاى)

زمر بالزميميزه تبان لك العاقلة من الجنينة زوجى ماحكم على قام لى عشيقى بشمعة زوجوا بنت نشادى

الجليس ونزهة الأنيس وهو أن بعض الرؤساء قال أخبرنى بعض الأصحاب قال كنت يوما جالسا عند صديق لى بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديق له وفيه تشوق وفيه عتاب بهذا البيت

تناسيتم العهد القديم كأننا
على جبلى نعمان لن نتجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتز له فقلت بالله عليك أسألك شيئا لا تخفه قال سل قلت هذه معشوقتك صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيها من وراء الدار فقال أى والله ومن أين علمت ذلك فقلت من البيت لأنها ذكرتك فيه بجبلى نعمان وهما كناية عند الظرفاء من أهل الأدب عن جانبى الكفل للمليح والمليحة فقال والله ما أدركت ما أدركت

(ونقلت من اللطائف المسبوكة فى قالب التورية) أن بعض الكتاب دخل يسلم على بعض فضلاء النحاة وكان من أصحابه فوجده قائما ... بأحد الغلمان الملاح من طلبته فى قراءة النحو ولم يره الغلام لمجلس النحوى فى مكانه وبقى الغلام

لسرباتي قالوا قليلات الخرا تتدحرج لبعضها

(حرف السين المهملة) سواد وتنقش بسباخ سودا منقبة قفل على خزانة سألوها عن أبيها قالت جدي شعيب

(حرف الشين المعجمة) شدي قرطاسك من عند موسه قالوا داشي مفرحتي به وأتى عروسة شامتة ومعزيه

(حرف الصاد المهملة) صارت القحبة واعظة صارت القويقة شاعرة

(حرف الضاد المعجمة) ضحك ابن سنة غمي على أمه قالت ما أخف دمه

(حرف الطاء المهملة) طلعت ترحم نزلت تتوحم

(حرف الظاء المعجمة) ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة

(حرف العين المهملة) عميا تحفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة عاقلة وجابت طفلة وجابتها خطار واشتروا لها قلقاس ذكر وحطب أخضر في نهار مطر وقالوا لها اطبخي على قدر لحه تقع الصلحة عجوزة وجابت غلام إذا جئت لاتلام عجوزة وخرفانه دي داهية كأنه

(حرف الغين المعجمة) غيرك بقوم مقامك عايش قلبي أعذبه

(حرف الفـــاء) فرحت حزينة خربت مدينة

(حرف القاف) قالوا للبغلاني اتزوقوا قلبوا عصايبهم قحبة ما كنست بيتها كنست المسجد قالوادي قحبة تطلب الثواب

(حرف الكاف) كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها كبرتي يا برقوقة وبقى لك دبوقة كانوا معاني فصاروا ملاهي لاراحت ولاجات كاهي كلي قلبه وباني هنية كأنها من الباسطية قماش على جريده كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة كأنها من بيت الوالي مايتحدث فيها سوى الحاشية كناهاضبة جعيدي مخلوعة ولا تأخذ شيء

(حرف اللام) لوكان ماينقش إلا السمان بارت المواشط من زمان للساعة ماحبلت جابت المرسين لولا المعاير ماكانت الحراير

(حرف الميم) ماشطه وتمشط بنتها افتكرنا يا ياسمنا مانسينا

(حرف النون) نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير

(حرف الهاء) هش يادبانا أناحبلى من مولانا

(حرف الواو) وجه لايرى الذهب يشترى

(حرف اللام ألف) لاإني مليحة ولاتغني بايش تدلي

(حرف الياء) يعيش المدلل بلا مكلل ياغزالة الأقمار أين كنتي بالنهار ياما تحت النقاب والشعرية من بلية يامن ملنا ماكان جلنا للساعة مالنا في العشرة سنه

(الباب السابع في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول)

(الفصل الأول في البيان والبلاغة أما البيان فقد قال الله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان وقال ﷺ إن من البيان لسحرا قال ابن المعتز البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول وأما بعده فقد قال الجاحظ البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله قال الله تعالى فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف وقال بعض المفسرين في قوله تعالى أم لكم أيمان علينا بالغة أي وثيقة كأنها

واقفا مبهوتا فقال الكاتب للنحوي مالي أرى هذا الغلام واقفا فقال النحوي وقع عليه الفعل فانتصب (ومثل ذلك) قصة ابن عنين مع الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل لما كتب إليه في مرضه

انظر إلي بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي احتاج مايحتاجه فاغنم دعائي والثناء الوافي

فحضر إليه المعظم بنفسه ومعه ثلثمائة دينار وقال له أنت الذي وأنا العائد وهذه الصلة (وظرف من قال)

وذي أدب بارع لكنه أولجت فيه قدا عتف
فقلت فديتك أعصر عليه ففيه اللذاذ لوتعترف
فقال أجدت ولكن لحنت لقولك أعصر بفتح الألف
فقلت لك الويل من أحمق فقال وأحمق لاينصرف

(وأظرف منه قول الحسين بن الريان)

أتنت حانة خمار وصاحبها مماجن متقن للنحو ذولسن
وحوله كل هيفاء منعمة وكل علق رشيق أهيف حسن
فقال لي إذ رأى عيني قد انصرفت إلى النساء كلام الحاذق الفطن
أنث وذكر وصف واعدل بمعرفة واجمع وزد واسترح من عجمة وزن

(ومثله ماحكى) أن بعض الفقراء

قد بلغت النهاية وقال اليوناني البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة وقال الهندي البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام وقال الكندي يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني وقيل إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس فقال أقلهم لفظا وأسهلهم معنى وأحسنهم بديهة ولولم يكن في ذلك الفخر الكامل المخصص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة * وقيل ثلاثة تدل على عقول أصحابها الرسول على عقل المرسل والهدية على عقل المهدي والكتاب على عقل الكاتب * وقال أبو عبد الله وزير المهدي البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة وقال البحتري خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل * وقالوا البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان ولا يسلك إلا ببصائر البيان وقال الشاعر

لك البلاغة ميدان نشأت به ... وكلنا بقصور عنك نعترف

مهد لي العذر في نظم بعثت به ... من عنده الدر لا يهدى له الصدف

(وروى) أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال يا غلام اذهب إلى فلان فقل له يقطع لسانها قال فطلب حجاما فقالت ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة في اللفظ ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل * وقال الثعالبي البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني ويخيط الألفاظ على قدر المعاني والكلام البليغ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى عليه في حد البلاغة أنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والتطويل الممل ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق

(الفصل الثاني في الفصاحة) قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى عليه اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح * وقال يحيى بن خالد ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم فإن كان فصيحا عظم في صدري وإن قصر سقط من عيني * وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم من قال إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني ومنهم من قال إنها لا تخص الألفاظ وحدها واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح وهذه الألفاظ فصيحة ولا نرى قائلا يقول هذا معنى فصيح فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني وإن قلنا أنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحا حسنا * ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة وللعيب من ذلك كقول القائل

لو كنت كتمت الحب كنت كما ... كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضا

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ... ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر: وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

النحوي لغلامه اعط وقف على باب نحوي فقرعه فقال النحوي من بالباب فقال سائل فقال ينصرف فقال اسمي أحمد فقال سيبويه كسره (ومثله قول ابن عنين)

شكا ابن المؤيد من عزله ... وذم الزمان وأبدى السفه

فقلت له لا تذم الزمان ... فتظلم أيامه المنصفه

ولا تعجبن إذا ما صرفت ... فلا عدل فيك ولا معرفه

(وألطف منه قول القائل)

ورقيع أراد أن يعرف النحو ... يزى العيار لا المستفتي

قال لي لست تعرف النحو مثلي ... قلت سلني عنه أجب في الوقت

قال ما المبتدأ وما الخبر المجرور ... أوجز فقلت ذقنك في استي

(وأحسن منه وأبدع قول الشيخ زين الدين بن الوردي)

وشادن يسألني ... ما المبتدأ والخبر

مثلهما لي سرعا ... فقلت أنت القمر

(ومن النكت المسبوكة في قالب التورية أيضا) ما قيل إن شهاب الدين القوصي حضر عند الملك الأشرف وقد دخل إليه سعد الدين الحكيم فقال الملك الأشرف لشهاب الدين ما تقول في سعد الدين الحكيم فقال يا مولانا السلطان إذا كان بين يديك فهو سعد الدين وعلى السماط سعد بلع وفي الخباء عن الضيوف سعد الأخبية وعند قيل

قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلا في النطق به وقيل من عرف فصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار * وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاما فصيحا فقال بارك الله لك يا عم في جمالك أي فصاحتك (وعرضت) على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها أحمد الله كثيرا * فقالت حيث أنشأك ضريرا * فقال يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها. فاشترها وقال فيلسوف كما أن الآنية تمتحن بأطنانها فيعرف صحيحها من مكسورها فكذلك الانسان يعرف حاله من منطقه * وقال المبرد قلت للمجنون أجزني هذا البيت

أرى اليوم يوما قد تكاثف غيمه ... وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال وقد حجبت فيه السحائب شمسه ... كما حجبت ورد الخدود المحاجر

وقال عبد الملك لرجل حدثني فقال يا أمير المؤمنين افتتح فان الحديث يفتح بعضه بعضا * وقال الهيثم ابن صالح لابنه يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب قال يا أبت فان أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاما وصوابا قال يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك * وقال الشعبي كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول أجزها أصلحك الله فان الحديث من وراء ذلك فيقول والله لحديثك أحب إلي منها * وقال ابن عيينة الصمت منام والنطق يقظة ولا منام بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام قال ابن المبارك

وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يدل الرجال على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه أتبيعه فقال لا رحمك الله فقال أبو بكر لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلا قلت لا ورحمك الله (ومنه) ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال لا وأيد الله أمير المؤمنين فقال المأمون ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها * وكان الصاحب يقول هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ ويقال اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم وقال بعضهم شعرا

سحبان يقصر عن بحور بيانه ... عجزا ويغرق منه تحت عباب

وكذاك قس ناطق بعكاظه ... يعيا لديه بحجة وجواب

(وقيل) انه خرج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا قد أبرقنا وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن فرأيا قبة فيها امرأة فقالا بارقة وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر بل صاعقة * وكان أصحاب ابن علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون حجة فعرضت لهم قبيحة فقالوا داحضة وكتب إبراهيم بن المهدي إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك العناء الأكبر وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل ويقال القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع وقال الأحنف سمعت كلام ابي بكر حتى مضى وكلام عمر حتى مضى وكلام عثمان حتى مضى وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة وقال معاوية رضي الله تعالى عنه ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها ما أغلقت بابا فأرادت فتحه إلا افتحته ولا فتحت بابا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته (ومن غريب) الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة

مرض المسلمين سعد الذابح قال فضحك الملك الأشرف واستحسن اتقانه البديعي (وأبدع منه) في هذا الباب ما نقل عن الشيخ نظام الدين قيس قيل انه لقي الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور فسأله الصاحب عن حاله فقال

حال متى علم ابن منصور بها ... جاء الزمان إلي منها تائبا

(قلت) إن نظام الدين أحق من أبي الطيب بهذا البيت (ومن النكت بالتورية أيضا) قيل إن بعض الماجنات أرادت السفر فلنبها بعض المجان فقال لها خذي معك هذا الكتاب وأشار إلى ذكره فقالت له على الفور إن لم آت أمك أعطه أختك (ومثل ذلك أن الشيخ بدر الدين بن الصاحب لقي شخصا ومعه مليحان فقال ما اسمك فقال عبد الواحد فقال أخرج منهما فأنا عبد الاثنين (ومثله) أن ابن نقيلة المغني مرض وأشرف على الموت فجاء إليه ابن الصاحب يعوده فقال له كيف حال النقيلة فقال ما أخوفني أن تصير مدفوتة (ومثله) أن بعض المجان رأى امرأة حاملة سرموجة فقال لها متى زوجك حملك تركاشه فقالت له ح لا رميك منه بفردة (ومثله) ان بعضهم راى امراة حاملة فردة سقان لتخطبه فقال لها أعتق هذا السفر اب

ماحكى أن رجلا كان أسيرا فى بنى بكر بن وائل وعزموا على غزو قومه فسألهم فى رسول يرسله إلى قومه فقالوا لانرسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم لجاء وابعبد أسود فقال له أتعقل ما أقوله لك قال نعم إنى لعاقل فأشار بيده إلى الليل فقال ماهذا قال الليل قال ما أراك إلا عاقلا ثم ملأ كفيه من الرمل وقال كم هذا قال لا أدرى وإنه لكثير فقال أيما أكثر النجوم أم النيران قال كل كثير فقال أبلغ قومى التحية وقل لهم يكرموا فلانا يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بنى بكر بن وائل فإن قومه لى مكرمون وقل لهم أن العرفج قد دنا وشكت النساء وأمرهم أن يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملى الأصهب بامارة ما أكلت معكم حيسا واسألوا عن خبرى أخى الحرث فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا لقد جن الأعور والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة فقال قد أنذركم أما قوله قد دنا العرفج يريد أن الرجال قد استلاموا ولبسوا السلاح وأما قوله شكت النساء أى أخذت الشكان للسفر وأما قوله أعروا ناقتى الحمراء أى ارتحلوا عن الدهنا واركبوا الجمل الأصهب أى الجبل وأما قوله أكلت معكم حيسا أى أن اخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا وأسرت طيء غلاما من العرب فقدم أبوه ليفديه فاشتطوا عليه فقال أبوه والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندى غير ما بذلته ثم انصرف وقال لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خير فهمه فكأنه قال له الزم الفرقدين يعنى فى هروبك على جبل طيء ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجاء وكانت علية بنت المهدى تهوى غلاما خادما اسمه طل فحلف الرشيد ان لا تكلمه ولا تذكره فى شعرها فاطلع الرشيد يوما عليها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة فان لم يصبها وابل فالذى نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم تركت فلانا يأمر وينهى وهو على شرف الموت اى يأمر بالوصية وينهى عن النوح ويقال ما رأيت فلانا أى ما ضربته فى رئته ولا كلمته أى ما جرحته فان الكلوم الجراح وما رأيت ربيعا فالربيع حظ الارض من الماء والربيع النهر وما رأيت كافرا ولا فاسقا فالكافر السحاب والفاسق الذى تجرد من ثيابه وما رأيت فلانا راكعا ولا ساجدا ولا مصليا فالراكع العاثر الذى كبا لوجهه والساجد المدمن النظر والمصلى الذى يجيء بعد السابق وما اخذت لفلان دجاجة ولا فروجا فالدجاجة الكبة من الغزل والفروجة الدارعة وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا فالبقرة العيال الكثيرة يقال جاء فلان يسوق بقرة أى عياله والثور القطعة الكبيرة من الاقط (وحكى) ان معاوية رضى الله تعالى عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وكان آخر كلامه أن لعن عليا رضى الله تعالى عنه ولعن لاعنه فقال الأحنف يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليا رضى الله تعالى عنه فلقد لقى ربه وأفرد فى قبره وخلا بعمله وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته فقال معاوية يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعا أو كرها فقال له الاحنف يا أمير المؤمنين إن تعفنى فهو خير لك وان تجبرنى على ذاك فو الله لا تجرى شفتاى به أبدا فقال قم فاصعد قال أما والله لانصفنك فى القول والفعل قال وما أنت قائل إن انصفتنى قال اصعد المنبر فأحمد الله واثنى عليه وأصلى على نبيه محمد ﷺ ثم أقول ايها الناس ان أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن العن عليا الا وان معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما انه مبغى عليه وعلى فئته فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية

اللهم

فقالت له رح لاسيبه يتفسرك (ومثله) أن الشيخ بدر الدين المذكور أولا حضر إلى مجلس قاضى القضاة ناصر الدين المالكى فذكروا محاسن القاضى محب الدين ناظر الجيشين وحسن اخلاقه ثم ذكروا محاسن الشعر فأنشده قاضى القضاة

فكم أب قد علا بابن ذوى شرف ... كما علت برسول الله عدنان

فكل من الجماعة أثنى على هذا البيت فقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب والقاضى محب الدين يحب هذا البيت فطربوا له (ومما وقع له بذلك المجلس) أنه لما قدم المشروب على العادة كان قد تولى السقيا مملوك له اسمه يكتمر فلما شرب الشيخ بدر الدين قال له قاضى القضاة ماتقول ياشيخ قال رأيت ملك العلماء يكتمر الساقى (ومثله) أن الصاحب ابن سكر أراد قارئا يقرأ بالمدرسة التى أنشأها بالقاهرة فاختاروا له رجلين أحدهما اسمه زيادة والآخر مرتضى فوقع فى ظهر القصة مرتضى زيادة وزيادة مرتضى (مثله) أن أبا الحسن الخراز جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فأذن للناس فى الدخول ولم يأذن له فكتب فى ورقة

الناس كلهم كالأ... قد دخلوا ... والعبد مثل الخصي ملقى على الباب

اللهم العنهم لعنا كثيرا أمنوا رحمكم الله يامعاوية لاأزيدعلى هذا ولاأنقص حرفا ولوكان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية إذا نعفيك ياأبا بحر * وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب إن عليا قدقطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلاأن تلعنه على المنبر قال أفعل فصعد المنبر ثم قال بعدأن حمدالله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قدأمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله ثم نزل فقال له معاوية إنك لم تبين من لعنت منهما بينه فقال والله لازدت حرفا ولانقصت حرفا والكلام إلى نية المتكلم ودخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت ياأمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقدحكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فمردود إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال أتدرون ماقالت هذه المرأة فقالوا مانراها قالت إلاخيرا قال ماأظنكم فهمتم ذلك أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قوله تعالى حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا فتعجبوا من ذلك (وحكى) أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له أطال الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومي قبل يومك والله ليسرني مايسرك فأحسن إليه وأجازه على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية وأما قوله وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها وأما قوله وجعل يومي قبل يومك أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار وأما قوله انه ليسرني مايسرك فإن العافية تسره كما تسر الآخرة فانظر إلى الاشتراك وفائدته ولولا الاشتراك ماتهيأ لمنتزر مراد ولاسلم له في التخلص قياد وكان حماد الرواية لايقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف فصحف في نيف وعشرين موضعا من جملتها قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاعن موعدة وعدها إياه بالباء الموحدة ليكون لهم عدوا وحزنا بالباء الموحدة وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار بالجيم والباء الموحدة هم أحسن أثاثا ورئيا بالزاي وترك الهمزة عذابي أصيب به من أشاء بالسين المهملة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة بالنون والعين المهملة سلام عليكم لانبتغي بإسقاط التاء بل الذين كفروا في عزة وشقاق بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة وهذا لايقع إلا من الأذكياء (وحكى) أن المأمون ولى عاملا على بلد وكان يعرف منه الجور في حكمه فأرسل إليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن إليه وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد وعمر منهم المساجد الداثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال وقوله قدعدل بين رعيته وساوى

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه اخرج إلى الباب وقل ياخصي الأدخل فدخل أبو الحسين وهو يقول هذا دليل على السمة (ومن التنكيت والحشمة بالتورية) أن الشيخ صلاح الدين الصفدي قال أخبرني الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بالقاهرة قال قلت للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد إن بهاء الدين بن النحاس يرجح أبا تمام على المتنبي فما رأيك أنت فسكت فقلت ثانيا فقال كنت كذا في الأول قال الشيخ صلاح الدين ولما حكيت للشيخ جمال الدين بن نباتة قال أنا على رأي ابن دقيق العيد قال الشيخ صلاح الدين وممن رأيته يعظم أبا تمام شيخنا أثير الدين ويرجحه على المتنبي فعذلنا في ذلك فقال أنا ما أسمع عذلا في حبيب اهـ (ونقلت) من خط الصاحب فخر الدين ابن مكانس رحمه الله قال سافرت سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين ابن قزوينة إلى دمشق المحروسة وقد ولي نظر مملكتها والدي رحمه الله اقتناها وكان له دوادار يسمى صبيحا وهو من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنام وكان نظيفا كثير النوادر فاتفق أن جمال الدين بن الرهاوي موقع دست الوزارة ركب يوما فتقنطر به

في أقضيته أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير وقوله عمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم
من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئاً من الدنيا ومعنى قوله
تريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله
عنهم لوقته وولى عليهم غيره (ومن ذلك ما حكي) أن القاضي الفاضل كان له صديق خصيص به
وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوقع بينه وبين الملك أمر
فغضب عليه وهم بقتله فتسحب إلى البلاد التتر وتوصل إلى أن صار وزيرا عندهم وصار يعرف التتر كيف
يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب إليه كتابا تعرفه فيه أني
أرضى عليه وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل
بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب إليه كتابا واستعطفه غاية الاستعطاف
ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب
إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب فشدد إن ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في
غاية الكمال وما فهم إن وكان قصد الفاضل أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فلما وصل الكتاب إلى الرجل
فهمه وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلا فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون
وجعل في آخرها ألفا وأراد بذلك انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم
الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك (وحكي) أن بعض الملوك طلع يوما إلى أعلى
قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها
فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها لمن هذه فقالت يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز قال فنزل الملك
وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له يا فيروز قال لبيك يا مولاي قال خذ هذا الكتاب
وامض به إلى البلد الفلانية وائتني بالجواب فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت
رأسه وجهز أمره وبات ليلته فلما أصبح ودع أهله وسار طالبا لحاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك وأما
الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا إلى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا فقالت امرأة
فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا
فقال زائرا فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وما أظن فيها خيرا فقال لها ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك
وما أظنك عرفتني فقالت بل عرفتك يا مولاي ولقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل في قولهم

سأترك ماءكم من غير ورد ... وذاك لكثرة الوراد فيه
إذا سقط الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن ... ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر

قل للذي شفه الغرام بنا ... وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبدا ... قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه قال فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها
فنسي نعله في الدار هذا ما كان من الملك وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم
يجده معه في رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من
داره فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله فسكت
ولم يبد كلاما وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز
إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهيأ هدية حسنة وأتى زوجته فسلم عليها وقال لها قومي إلى

الفرس وداس على رأس إحليله فحمل إلى داره وأقام أياما إلى آن عوفي وحضر مجلس الوزارة وهو
غاص بالناس فقال الصاحب ما سبب تأخرك فقال تقنطر بي الفرس وداس رأس إحليلي فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء فقال له صبيح الحمد لله على سلامة الخصى فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوي وانصرف (وحكي) أن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما فوجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فسأله عن غيظه فقال هذا العبد النحس فعل بالخويدم الصغير فقال بل مولانا السيد الكبير فخجل منه وأبرزها في قالب المجون (وأنشد ابن الجوزي في بعض مجالس وعظه)

أصبحت ألطف من مر النسيم على ... زهر الرياض يكاد الوهم يؤلمني
من كل معنى لطيف أجتلي قدحا ... وكل ناطقة في الكون تطربني

فقام إليه إنسان فقال يا سيدي الشيخ فإن كان الناطق حمارا فقال أقول له يا حمار اسكت (ويعجبني) قول برهان الدين القيراطي

صاح هذي قباب طيبة لاحت

زيارة أبيك قالت وماذاك أن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك قالت حبا وكرامة ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها فأتى إليه أخوها وقال له يا فيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك وإما أن تحاكمنا إلى الملك فقال إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها على حقا فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسا إلى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضي القضاة أني أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء عين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره فالتفت القاضي إلى فيروز وقال له ما تقول يا غلام فقال فيروز أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان فقال القاضي هل سلم إليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده قال القاضي ما قولك قال والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه وإنما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان إكراما للأسد قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنا مطمئنا فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ولا شيئا ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس ووالله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره قال فرجع فيروز إلى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم . وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ومنه ما يجده المتبسر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب كما روى في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال له النبي ﷺ من ماء فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله فإن الله عز وجل قال فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق وكما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار هو رجل يهديني السبيل وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السبيل ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام وكما حكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن فقال الشافعي إياي تعني قال نعم قال مخلوق فرضي خصمه منه بذلك ولم يرد الشافعي إلا نفسه وكما حكي عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة فقيل له من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم علي رضي الله عنهما فقال أفضلهما بعده من كانت بنته تحته فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله ﷺ والشيعة ظنوا أن الضمير ابنته تعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها وكانت تحت علي رضي الله عنه فهذه منه حيدة حسنة وكلمة بانت في جفون الفريقين منها وسنة والله أعلم

(الفصل الثالث في ذكر الفصحاء من الرجال) دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم فأحب الحسن أن يتكلم فزجره وقال يا صبي تتكلم في هذا المقام فقال يا أمير المؤمنين إن كنت صبيا فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال أحطت بما لم تحط به ثم قال ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى (ولما)

(بطريق ما حكاه أبو الفوارس بن إسرائيل والدمشقي) قال كنت يوما عند السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب لحضر رسول صاحب المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ومعه هدايا فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا أحد من بني أيوب يحمل مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول يا مولانا السلطان لا تعجل قبل تأملها وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فإذا عليها مكتوب

أنا من نخلة تجاور قبرا ساد من فيه سائر الناس طرا

شملتني عناية القبر حتى صرت في راحة ابن أيوب أقرا

وإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول ﷺ فقلبها السلطان صلاح الدين ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة النبوية صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة

(وأحسن ما سمع فيها) قول عرفلة الدمشقي

ومحبوبة في القيظ لم تخل من يد وفي القر تسلوها اكف الحبائب

إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا

أفضت الخلافه إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال ليتكلم من هو أسن منك فإنه أحق بالكلام منك فقال الصبي يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك قال صدقت فتكلم فقال يا أمير المؤمنين إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي من علينا بك ماقدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام فقال له عمر رضي الله عنه عظني يا غلام فقال يا أمير المؤمنين إن ناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

(وحكى) أن البادية قحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس ابن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه ماشاء أحد أن يدخل علي إلا دخل حتى الصبيان فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا فقال يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرا وطيا وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته فأعجبه كلامه وقال له انشره لله درك فقال يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة دقت العظم وفي أيديكم فضول مال فإن كانت لله ففرقوها على عباده وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فإن الله يجزي المتصدقين فقال هشام ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم ثم قال له ألك حاجة قال مالي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم (وقيل) إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال مهلا أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه إن نطق نطق ببيان وإن صال صال بجنان ثم أنشأ يقول

يا أيها الملك المرجو نائله ... إني لمن معشر شم الذرى زهر
فلا تغرنك الأجسام إن لنا ... أحلام عاد وإن كنا إلى قصر
فكم طويل إذا أبصرت جثته ... يقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فإن ألم به أمر فأفظعه ... رأيته خاذلا بالأهل والزمر

فقال صدقت فهل لك علم بالأمور قال إني لأنقض منها المفتول وأبرم منها المحلول وأجيلها حتى تجول ثم انظر فيها إلى ما تؤول ليس للدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب قال فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ثم أمر له بألف ناقة وقال له يا سعد إن أقمت واسيناك وإن رحلت وصلناك فقال قرب الملك أحب إلي من الدنيا ومافيها فأنعم عليه وأدناه وجعله من أخص ندمائه و(حكى) أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء وعن دين لا يقبل الله غيره وعن مفتاح الصلاة وعن غرس الجنة وعن صلاة كل شيء وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء وعن رجل لا أب له وعن رجل لا أم له وعن قبر جرى بصاحبه وعن قوس قزح ماهو وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها وعن ظاعن ظعن مرة واحدة لم يظعن قبلها ولا بعدها وعن شجرة نبتت من غير ماء وعن شيء تنفس ولا روح له

وعن

أتت بالهوى الممدود من كل جانب

(وقال غيره وأجاد)

ومروحة أهدت إلى النفس روحها ... لذي القيظ مبعوثا بإهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها ... على ضعفه مستخرجا من صحيحها

(نقل الحافظ) اليعمري أن أبا نصر المنذري واسمه أحمد ابن يوسف دخل على أبي العلاء المعري في جماعة من أهل الأدب فأنشد كل واحد منهم من شعره ماتيسر فأنشد أبو نصر

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء أنت من بالشام ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد فدخل المنازي عليه في جماعة من أهل الأدب ببغداد وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدا فأنشد كل واحد ماحضره من شعره

حتى جاءت نوبة التتارى فأنشد لقد عرض الحمام لنا بسجع

وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد وعن البرق والرعد وصوته وعن المحو الذى فى القمر فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت فى شىء من ذلك سقطت من عينه فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل فكتب إليه فأجابه أما الشىء فالماء قال الله تعالى وجعلنا من الماء كل شىء حى وأما لاشى فإنها الدنيا تبيد وتفنى وأما دين لايقبل الله غيره فلا إله إلا الله وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر وأما غرس الجنة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأما صلاة كل شىء فسبحان الله وبحمده وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا من أصلاب الرجال وأرحام النسا فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسمعيل وأما الرجل الذى لاأب له فالمسيح وأما الرجل الذى لاأم له فآدم عليه السلام وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل وأما الطاعن الذى طعن مرة ولم يطعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سينا كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال فلما عصت بنو إسرائيل اطاره تعالى بجناحين فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معذرين فرده الله تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم الآية وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام وأما الشىء الذى تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى والصبح إذا تنفس وأما اليوم فعمل وأمس فمثل وأما غد وبعد غد فأمل وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره وأما المحو الذى فى القمر فقول الله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل * ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال تمم الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه (وحكى) أن الحجاج سأل يوما الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له من أكرم الناس قال أفقههم فى الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين وأطعمهم للمساكين قال فمن ألأم الناس قال المعطى على الهوان المقتر على الإخوان الكثير الألوان قال فمن شر الناس قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدهم قسوة قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف وأقراهم للضيف وأتركهم للحيف قال فمن أجبن الناس قال المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف قال فمن أثقل الناس قال المتفنن فى الملام الضنين بالسلام المهذار فى الكلام المقبقب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم إحسانا وأقومهم ميزانا وأدومهم غفرانا وأوسعهم ميدانا قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب أحسيب هو أم غير حسيب قال أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداورته على أصله فالعاقل البصير بالاحساب يعرف بشمائله والنذل الجاهل بجهله فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لايعرفها ازدراها وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة فقال الحجاج لله أبوك فما العاقل والجاهل قال أصلح الله الأمير العاقل الذى لايتكلم هذرا ولاينظر شزرا ولايضمر غدرا ولايطلب عذرا والجاهل هو المهذار فى كلامه المنان بطعامه الضنين بسلامه المتطاول على إمامه الفاحش على غلامه قال لله أبوك فما الحازم الكيس قال المقبل على شأنه التارك لما لايعنيه قال فما العاجز قال المعجب

إذا لغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلى فقيل غنى
وبرح بالشجى فقيل ناحا
وكم للشوق فى أحشاء صب
إذا اندملت أجدها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى
وسكران الفؤاد وإن تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة
كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء ومن بالعراق عطفا على قوله من بالشام انتهى (نادرة) مشى البيدق البزيدى مع شاب موسوم بالجمال فقال له شمس الدين بن المنجم الشاعر أراك يا بيدق تفرزنت حول هذه النفس فقال وإذا كان قال أخشى عليك من ذلك الرخ لايقطعك من الحاشية ويرميك عن الفرس ويقطع عليك الرقعة ولو كان كفك الفيل (ومثله فى الظرف) أن بعض الأجناد كان كثير اللعب بالشطرنج وكان الجندى بليغا ظريفا فأعطاه الأمير فى بعض الأيام فرسا وقال له لاتفرط فيها فقال نعم وبعد ذلك التقاه الأمير وهو لابس جوخة فقال ويلك أين الفرس فقال ياخوند ضربنى الشتاء

بآرائه المتفت إلى ورائه قال هل عندك من النساء خبر قال أصلح الله الأمير إنى بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى أن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ومن شاورهن كدرن عيشه وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فأكرمهن أعفهن وأفخر أحسابهن العفة فإذا ذلن عنها فهن أنتن من الجيفة فقال له الحجاج ياغضبان انى موجهك إلى ابن الأشعث وافدا فماذا أنت قائل له قال أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه فقال إنى أظنك لا تقول له ما قلت وكأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا قال كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لسانى وأجريه فى ميدانى قال فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان فلما توجه الى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أى جاسوسا وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له إن الحجاج قد هم بخلعك وعزلك فخذ حذرك وتغد به قبل أن يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف راجعا فأتى إلى رملة كرمان فى شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمىء ظمأ شديدا فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا أعرابى قال أصابتنى الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيممت قبتك أرجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم قلت أيتهن تعنى قال قبة الأمير بن الأشعث قال تلك لا يوصل إليها قال إن هذه أمنع منها فقال الأعرابى ما اسمك يا عبد الله قال آخذ فقال وما تعطى قال أكره أن يكون لى اسمان قال بالله من أين أنت قال من الأرض قال فأين تريد قال أمشى فى مناكبها فقال الأعرابى وهو يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة الحر أتقرض الشعر قال إنما يقرض الفأر فقال أفتسجع قال إنما تسجع الحمامة فقال يا هذا ائذن لى أن أدخل قبتك قال خلفك أوسع لك فقال قد أحرقتنى الشمس قال مالى عليها من سلطان فقال الرمضاء أحرقت قدمى قال بل عليها تبرد فقال إنى لا أريد طعامك ولا شرابك قال لا تتعرض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك فقال الأعرابى سبحان الله قال نعم من قبل أن تطلع أضراسك فقال الأعرابى ما عندك غير هذا قال بلى هراوة أضرب بها رأسك فاستغاث الأعرابى ياجار بنى كعب قال الغضبان بئس الشيخ أنت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث فقال الأعرابى ما رأيت رجلا أقسى منك أتيتك مستغيثا فحجبتنى وطردتنى هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض قال مالى بمحادثتك من حاجة فقال الأعرابى بالله ما اسمك ومن أنت فقال أنا الغضبان بن القبعثرى فقال اسمان منكران خلقا من غضب قال قف متوكئا على باب قبتى برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله إن لم تكن خيرا من رجلك هذه الشنعاء فقال الغضبان لو كنت حاكما لجرت فى حكومتك لأن رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرمضاء قائمة فقال الأعرابى إنى لأظنك حروريا قال اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده فقال إنى لأظن عنصرك فاسدا قال ما أقدرنى على إصلاحه فقال الأعرابى لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول

لا بارك الله فى قوم تسودهم ... إنى أظنك والرحمن شيطانا
أتيت قبته أرجو ضيافته ... فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابى قال له الحجاج يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان قال أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف

شاه مات فتسترت بالفرس (ويعجبنى قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب) تامل تر الشطرنج كالدهر دولة نهارا وليلا أبؤسا ثم أنعما
محركها باق وتفنى جميعها وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما

(قلت) ويشبه هذا القول الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعانى الخيال أعنى خيال الظل ليفرجه عليه فقام الفاضل عند الشروع فى عمله فقال له الناصر إن كان حراما فما نحضره وكان حديث العهد بخدمته قبل أن يلى السلطان فما أراد أن يكدر عليه فقعد إلى آخره فلما انقضى ذلك قال له الملك الناصر كيف رأيت ذلك قال رأيت موعظة عظيمة رأيت دولا تمضى ودولا تأتى ولما طوى الإزار إذا المحرك واحد فأخرج بيلاغه هذا الجد فى هذا الهزل انتهى (وللشيخ بدر الدين) الصاحب مضمنا فى الشطرنج

أميل لشطرنج أهل النهى ... وأسلوه من ناقل الباطل
وكم رمت تهذيب ألعابها ... وتأبى الطباع على الناقل

ويعجبنى قول الشيخ عز الدين الموصلى حيث قال

جاهل شطرنج ينادى وقد ... أمات نفس اللعب من عكسه
ما تفعل الأفعال فى جاهل ... ما يفعل الجاهل فى نفسه

هؤلاء إن كثروا جاءوا وإن قلوا ضاعوا فقال له الحجاج ألست صاحب الكلمة التى بلغتنى أنك قلت لابن الاشعث تغدبالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لأحبسنك عن الوساد ولأنزلنك عن الجياد ولأشهرنك فى البلاد قال الامان أيها الأمير فوالله ماضرت من قيلت فيه ولانفعت من قيلت له فقال له ألم أقل لك كأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا اذهبوا به إلى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قبتى هذه وبناءها فقالوا أيها الأمير انها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم تخبرونى بنصح قالوا لا يصفها لك إلا الغضبان فبعث إلى الغضبان فأحضره وقال له كيف ترى قبتى هذه وبناءها قال أصلح الله الأمير بنيتها فى غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن فلما حملوه قال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه فلما أنزلوه قال رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين فقال اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فقال جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم فقال الحجاج ويلكم اتركوه فقد غلبنى دهاء وخبثا ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله (وحدث الزبير) قال دخل محمد بن عبد الملك ابن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت فقال السلام عليك ياأمير المؤمنين محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك أتأذن له فى الكلام فقال تكلم فقال الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمتع لله لحياطة ديننا ودنيانا ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك ياأمير المؤمنين ونسأل الله أن يمد فى عمرك من أعمارنا وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا فان الحق لا تعفو آثاره ولا ينهدم مناره ولا ينبت حبله ولا يزول مادمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده ياأمير المؤمنين هذا المقام مقام العائذ بظلك الهارب إلى كنفك الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكلب الدهر وذهاب النعمة وفى نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ويبرد غليل القلوب وقد نفذ أمر أمير المؤمنين فى الضياع التى أفادناها نعم آبائه الطيبين ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين وقد قمت مقامى هذا متوسلا إليك بآبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين والمهدى ناصر المسلمين والمنصور منكل الظالمين ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفا إليك بالطاعة التى أفرع عليها غصنى واحتنكت بها سنى وريش بها جناحى متعوذا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومفارقة الشدة بعد الرخاء ياأمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين وعرفه وقد أثبت الله الحق فى نصابه وأقره فى داره وأربابه ياأمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال وقد يقلب حالا بعد حال فارحم ياأمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرا بعد صفو ومرا بعد حلو وهبنا نعم آبائك اللاتى غذتنا صغارا وكبارا وشبانا وأشياخا وأمشاجا فى الاصلاب ونطفا فى الارحام وقدمنا فى القرابة حيث قدمنا الله منك فى الرحم فان رقابنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا ياأمير المؤمنين إن الله قد سهل بك الوعر وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور بك تردع الفاسق ويقمع بك المنافق فارتبط بعلم الله عندك بالعفو والإحسان فان كل راع مسئول عن رعيته وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها ياأمير المؤمنين إنه لاعفو أعظم من عفو امام قادر عن مذنب عاثر وقد قال الله جل ثناؤه وتعالت قدرته وليعفوا وليصفحوا

عينا ه منصوبة للقلب غالبة
والخد فيه لقتل النفس شامات

(نادرة لطيفة)

حكى أن السراج الوراق جهز غلاما له يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به لفتا فأحضره وقلبه على اللفت فوجده زيتا حارا فأنكر على الغلام ذلك فأخذه وجاء إلى البياع وقال له لم تفعل مثل هذا فقال له والله ياسيدى مالى ذنب لأنه قال أعطنى زيتا للسراج انتهى (ومثله ما حكاه الصاحب فخر الدين ابن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصى أنه كان حصل له طلوع فى جسده له فتردد إليه المزين وصنع له فتائل على العادة قال فقلت له يوما كيف الحال ياسراج الدين فقال كيف حال سراج فيه سبع فتائل (ورأيت له) فى ديوانه يداعب سراج الدين المذكور بقوله

ياذا السراج اشترى ... فأنت به
أولى وذلك الأمر الذى وجبا
سكندرى وتدعى بالسراج وذا
مثل المنار إذا ماقام وانتصبا

(نادرة لطيفة)

اجتمع محدث ونصرانى فى سفينة فصب النصرانى من

ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافى ومنعه الكافى ثم أنشد يقول

أمير المؤمنين أتاك ركب ... لهم قربى وليس لهم تلاد
هم الصدر المقدم من قريش ... وأنت الرأس تتبعك العباد
لقد طابت بك الدنيا ولذت ... وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين ... وكيف يقل سوددك البلاد

قال استحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأدناه ودفع اليه من المال ما أغناه (ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء) ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله على ما يتمناه فقام اليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا أمير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دمغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف أساس منخر نغنوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال هات ولك ما تتمناه فابتدأ يقول أنف أسنان أذن بطن بهر بزة ترقوه تمرة تينة ثغر ثنايا ثدى جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ دردار ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة زند زردمة زب فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق سرة سبابة شفة شفر شارب صدر صدغ صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظهر ظفر ظلم عين عنق عانق غبب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغنوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدى أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيدنا عليها شيئا أعطوه ما يتمناه ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ فى الإحسان اليه (وكان) الحجاج بن يوسف الثقفى من الفصحاء وكان على عتوه وإسرافه جوادا وكان إذا ضحك واستغرق فى الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات وكان على على ألف خوان وكان يطرف على الموائد ويقول يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود اليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك فى كل يوم وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامى فقيل له إنهم يكرهون الحضور قبل إن يدعوا فقال قد جعلت رسولى اليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت (حكى) عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده وقال ايها الناس إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأمر عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر اخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن جامع وقلب ذكى وأنف حمى فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوى الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الصمصام والهزبر الهشام أنا الحجاج ابن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال اجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالى أرى الرءوس مطرقة والألسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام اليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق قال ومن أنت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن

النصرانى جعلت فداك هذا خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامى من خمار يهودى وحلف أنها خمر عتيق فشربها بالعجلة وقال للنصرانى أنت أحمق نحن أصحاب الحديث تروى عن الصحابة والتابعين أفتصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودى والله ماشربتها إلا لضعف الاسناد (نادرة لطيفة) نظر طفيل إلى قوم ذاهبين فلم يشك أنهم فى دعوة ذاهبون إلى وليمة فقال وتبعه فاذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما انشد كل واحد شعره وأخذ جائزته لم يبق إلا الطفيلى وهو جالس ساكت فقال له أنشد شعرك فقال لست بشاعر قال فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى فى حقهم والشعراء يتبعهم الغاوون فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء (وحكى) الهيثم ابن عدى قال ماشيت الإمام أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه فى نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلا وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا أتنا

يوسف معدن العفو والعقوبة وآفة الكفر والريبة قال إليك عني وذاك فلست هناك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال أنا للعراق فقال اذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فإن كنت للأعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين فإن الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك أنت لها فالذي تحتاج إليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذ أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن ضابي التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن ضابي وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يرد أحد عليه شيأ فقال إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله إني لأرى رؤوسا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها وإني لأرى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت فإياي وهذه الزرافات والجماعات وقيلا وقالا وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس مني الاهدار والاكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني لأقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيأ فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه شيئا هذا أدبكم الذي تأدبتم به أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله

بغداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فتمطى المريض وقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج انتهى (ومن غرائب المنقول) أن يحيى بن اسحق كان طبيبا حاذقا صانعا بيده وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزروه نقل عنه من حدثه أنه أتى إليه بدوي على حمار وهو يصيح على باب داره أدركوني وكلموا الوزير بخبري فلما دخل عليه قال ما بالك قال ورم بإحليلي منعني النوم منذ أيام وأنا في الموت فقال اكشف عنه فإذا هو وارم فقال الرجل الذي جاء معه احضر لي حجرا أملس فطلبه فوجده فقال له ضع عليه الأحليل فلما تمكن أحليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده وضرب الأحليل ضربة غشي على الرجل منها ثم اندفع الصديد يجري فلما انقطع جريان الصديد فتح الرجل عينيه ثم بال في أثر ذلك فقال له اذهب فقد برأت علتك وأنت رجل عابث واقعت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها ولجت في عين الاحليل فورم لها وقد خرجت في الصديد فقال له الرجل قد فعلت ذلك وهذا يدل على الحذق المفرط (ومثله)

يوسف بن أيوب وحظى في أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الأمر ، ومما نقل عنه في حذقه أنه كان جالسا في دكان وقد مرت عليه جنازة فلما نظر إليها صاح ياأهل الميت إن صاحبكم لم يمت ولايحل ان تدفنوه حيا فقال بعضهم لبعض هذا الذي يقوله لايضرنا ويتعين ان نمتحنه فان كان حيا فهو المراد وان لم يكن حيا : فما يتغير علينا شيء فاستدعوه إليهم وقالوا بين ماقلت فأمرهم بالعود إلى البيت وأن ينزعوا أكفانه فلما فرغوا من ذلك ادخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه ونطله فظهر فيه أدنى حس وتحرك حركة خفيفة فقال ابشروا بعافيته ثم تمم علاجه إلى ان أفاق وصحى فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الحذق والعلم ثم انه سئل بعد ومن أين علمت أن في ذلك الميت بقية روح وهو في الأكفان محمول فقال نظرت إلى قدميه وجدتهما قائمتين وأقدام الموتى منبسطة فحدست أنه حي وكان حدسي صائبا

(نادرة لطيفة)

قيل إن المنصور ابن أبي عامر الأندلسي كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسر إلى الغزاة إلا من الجامع فاتفق أنه

سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعد مافرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير انى على الضعف كما ترى ولى ابن هو أقوى منى على الاسفار أفتقبله بديلا منى فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن صابىء الذي يقول

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ... تركت على عثمان تبكى حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول فوطىء في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان مافعلت يوم قتل في الدار إن قتلك أيها الشيخ اصلاح المسلمين ياسياف اضرب عنقه فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ماعرف وسطر ومن حكايات الحجاج) ماحكى أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد فقد بلغنى عنك إسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيى فانما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فان كنت أردت الناس لى فما أغنانى عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عنى أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ... وتطلب رضائى بالذى أنا طالبه
فان ترمنى في غفلة قرشية ... فيارب ما قد غص بالماء شاربه
وإن ترمنى في وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمننى والحوادث جمة ... فانك تجزى بالذى أنت كاسبه
فلا تعدما يأتيك منى وان تعد ... يقمن به يوما عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقا علمته ... ولا تعطين ماليس للناس واجبه
فانك ان تعطى الحقوق فانما ... نوافل شيء لايثيبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر اسرافى وتبذيرى في الاموال ولعمرى مابلغت في عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فان كان قتلى العصاة إسرافا واعطائى المطيعين تبذيرا فليمض لى أمير المؤمنين ماسلف والله ماأصبت القوم خطأ فأوديهم ولاظلمتهم عمدا فأفاديهم وماقتلت إلا لك ولا أعطيت الافيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب

إذا أنا لاأبغى رضاك وأتقى ... أذاك فليلى لاتوارى كواكبه
ومالامرىء بعد الخليفة جنة ... تقيه من الأمر الذى هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ... لقامت عليه بالصياح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... وأقص الذى تسرى إلى عقاربه
وأعط المواسى في البلاء عطية ... لرد الذى ضاقت على مذاهبه
فمن يتق بؤسى ويرجو مودتى ... ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمرى إليك اليوم ماقلت قلته ... وما لم تقله لم أقل مايقاربه
ومهما أردت اليوم منى أدته ... وما لم ترده اليوم إنى مجانبه
وقف بى على حد الرضا لاأجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا فدعنى والأمور فاننى ... شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتى ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى فمن يلومنى على محبته ياغلام اكتب إليه الشاهد يرى مالا يرى الغائب وأنت على عيننا بما هناك (وفي مروج الذهب للمسعودى) أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ولدته مشوها لادبر له فثقب له

دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعيا ثم أمره فيقال إن الشيطان تصور له في صورة الحرث بن كلدة حكيم العرب فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله فقال لهم اذبحوا له تيسا وألعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم اطلوا به وجهه ففعلوا ذلك فقبل الثدي فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة فدخل عليها يوما وما في السحر فوجدها تخلل أسنانها فطلقها فسألته عن السبب فقال إن أخرت العشاء فأنت شرهة وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة فقالت كل ذلك لم يكن وإنما تخللت من شظايا السواك فقال قضى الأمر فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج * وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة ومات وله ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة وثقل الوطأة وظلم الرعية والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ووجد في سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد وقيل للشعبي أكان الحجاج مؤمنا قال نعم بالطاغوت وقال لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم وأنا قائل إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان

(ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن)

(حكى) عن أبي عبد الله النميري أنه قال كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل فأشرف على نهر ماء من الفرات فإذا هو بجارية عربية خماسية القد قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه وبيدها قربة ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها يا أبت أدرك فاها قد غلبني فوها لا طاقة لي بفيها قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها فقال لها المأمون يا جارية من أي العرب أنت قالت أنا من بني كلاب قال وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب فقالت والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ثم قالت يا فتى من أي الناس أنت فقال أوعندك علم بالأنساب قالت نعم قال لها أنا من مضر الحمراء قالت من أي مضر قال من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا قالت ممن قال ممن تهابه مضر كلها قالت أظنك من كنانة قال أنا من كنانة قالت فمن أي كنانة قال من أكرمها مولدا وأشرفها محتدا وأطولها في المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخافه فقالت إذن أنت من قريش قال أنا من قريش قالت من أي قريش قال من أجملها ذكرا وأعظمها فخرا ممن تهابه قريش كلها وتخشاه قالت أنت والله من بني هاشم قال أنا من بني هاشم قالت من أي هاشم قال من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ممن تهابه هاشم وتخافه قال فعند ذلك قبلت الأرض وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين قال فعجب المأمون وطرب طربا عظيما وقال والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم ووقف حتى تلاحقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهي والدة ولده العباس والله أعلم (وحكى) أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنها فأنفذ إليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها ثم انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت

في بعض حركاته للغزاة توجه إلى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة فرفع حامل اللواء اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليه الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقال رجل أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة وغنيمة سارة فقد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فاستحسن المنصور ذلك واستبشر وكانت الغزوة من أبرك الغزوات (ومثل هذا) لما خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده فأخذه بعض الأولياء فمسحه وقال

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

قال فضحك المنصور وقال لم لا قلت فألقى موسى عصاه فقال يا أمير المؤمنين العبد تكلم بما عنده من إشارات المتأدبين وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين فكان الأمر على ما ذكره وأخذه الحصن حصل الظفر بأبي يزيد (حكى) أن الشيخ شهاب الدين بن محمود قال عدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في دمشق بالمدرسة النجيبية سنة إحدى وثمانين وستمائة فأنشدني لبعض أهل

هند فصيحة أديبة فأقام الحجاج بالمعرة مدة طويلة ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ماشاء الله ثم دخل فى بعض الأيام وهى تنظر فى المرآة وتقول

وما هند إلا مهرة عربية سليله أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحلا فلله درها وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد الله ابن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه وقال يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت وهذه المائتا الف درهم التى كانت لك قبله فقالت اعلم يا ابن طاهر أنا والله كنا فما حمدنا وبنا فما ندمنا وهذه المائتا الف درهم التى جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها فأرسل اليها يخطبها فأرسلت اليه كتابا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب اليها يقول إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب فاغسلى الإناء يحل الاستعمال فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت اليه بعد الثناء عليه يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت ماهو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملى من المعرة إلى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها أولا فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك شديدا وانفذ إلى الحجاج وأمره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت هند فى محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم قالت للهيفاء يا داية اكشفى لى سجف المحمل فكشفته فوقع وجهها فى وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول

فإن تضحكى منى فيا طول ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته هند تقول

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعز مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة فرمت بدينار على الأرض ونادت يا جمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه الينا فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارا فقال إنما هو دينار فقالت بل هو درهم قال بل دينار فقالت الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان وقد وجدت فى بعض النسخ ماهو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم ه وقيل إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لمولاها خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول فقال قولى فأنشدت تقول

ماسلم الظبى على حسنه كلا ولا البدر الذى يوصف

الظبى فيه خنس بين والبدر فيه كلف يعرف

قال فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها وقيل عرضت على المأمون جارية بارعة فى الجمال فائقة فى الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها فقال لمولاها خذ بيدها وارجع فلولا عرج بها لاشتريتها فقالت الجارية يا أمير المؤمنين إنه فى وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها ه (ومن ذلك)

الأدب فى نقيب الأشراف بالمدائن رثاء خلت وهو يقول تدقلت للرجل المولى غسله ه ملأطاع وكنت من نصحائه

جنبه ماءك ثم غسله بما

اذرت عيون المجد عند بكائه

وأزل أفاويه الحنوط ونحها

عنه وحنطه بطيب ثنائه

ومر الملائكة الكرام بنقله

شرفا ألست تراهم بإزائه

لا توه أعناق الرجال بحمله

يكفى الذى حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوقع فى نفسى أنه أحق الناس بهذا الرثاء وأنه نعى فمات فى ذلك الأسبوع برد الله مضجعه

(نكتة لطيفة) قيل إنه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردى رحمه الله من الشام إلى بغداد وجلس على عادته أخذ يقلل أحوال الناس ويهضم جانب الرجال ويقول إنه ما بقى من يجارى وقد خلت الدنيا وأنشد

مافى الصحاب أخو وجد نطارحه

حديث نجد ولا خل نجاريه

فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوتة فقال يا شيخ كم تنتقص بالقوم والله أن فيهم من لم يرض أن يجاريك وقصاراك أن تفهم ما يقول هلا قلت

مافى الصحاب وقد سارت حمولهم إلا محب له فى الركب محبوب

ماحكى

ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوما تحت جوسق ببستان فرأى جارية ذات وجه زاهر وكمال باهر لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر اليها ذهل عقله وطار منه فعاد إلى منزله وأرسل اليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه وكانت الجارية عزبا وكتب اليها رقعة يعرض اليها بالزيارة فى جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ثم أرسلت اليه مع العجوز عنبرا وجعلت فيه زر ذهب وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز هذا جواب رقعته فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير فى أمره وكانت له ابنة صغيرة السن فلما رأت أباها متحيرا فى ذلك قالت له يا أبت أنا علمت معناه قال وما هو لله درك قالت

تـ ـلك العنبر فى جوفه ... زر من التبر خفى اللحام
فالزر والعنبر معناهما ... زر هكذا مختفيا فى الظلام

قال فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها (وحكى) أن طائفة من بنى تميم كانوا يكسرون أول الفعل فرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب اليهم من كسر الفعل فقال لأى شىء يا بنى تميم ياتكنتون فقالت ولم لا نكتنى وكسرت الفعل فضحك عليها وقال أفعل إن شاء الله فخجلت من قوله وتغير وجهها وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له هل تحسن شيئا من العروض قال نعم قالت قطع لى حولوا عنا كنيستكم يا بنى حمالة الحطب فقطعه فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال ويحك لم تبرحى حتى أخذت بثارك (وحكى) إن شاعرا كان له عدو فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هو بعدوه فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة فقال له يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتنى امض إلى دارى وقف بالباب وقل ألا أيها البنتان ان أباكما فقال سمعا وطاعة ثم إنه قتله فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال ألا أيها البنتان ان أباكما وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل ، ألا أيها البنتان أن أباكما ، أجاباه بفم واحدة قتيل خذا بالثار ممن أتاكما ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره بقتله فقتله والله أعلم ، وقيل بينما كثير عزة مار بالطريق يوما إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى فقال لها تنحى عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال أنا كثير عزة قالت قبحك الله وهل مثلك يتنحى له عن الطريق قال ولم قالت ألست القائل

وما روضة بالحسن طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا ... إذا أوقدت بالجمر اللدن نارها

ويحكم يا هذا لو تبخر بالجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها لم لا قلت مثل سيدك امرىء القيس

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقا ... وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابا ، وقيل أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه ما تقولون فيها قالوا عاجلها بالقتل أيها الأمير فقالت الخارجية لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك يا حجاج قال ومن هو صاحبى قالت فرعون استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا أرجه وأخاه ، وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر اليه فقيل لها الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه فقالت إنى لأستحى أن أنظر إلى من لا ينظر الله اليه (وحكى) ابن الجوزى فى كتابه المنتظم فى مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة بلغه أن صداق أزواج النبى ﷺ خمسمائة درهم وأن فاطمة رضى الله عنها كان صداقها من على بن أبى طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضى الله عنها

كأنما يوسف فى كل راحلة ... والحى فى كل بيت منه يعقوب فصاح السهروردى ونزل على الكرسى وطلب الشاب فلم يجده (حكى) عن ابن الطرزى الشاعر أنه مر وفى رجله نعل بالية بالشريف الرضى فأمر باحضاره وقال انشدنى أبياتك التى تقول فيها

إذا لم تبلغنى اليك ركائبى ... فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأنشده إياها فلما انتهى إلى هذا البيت أشار إلى نعله البالية وقال هذه كانت ركائبك فأطرق ابن الطرزى ساعة ثم قال لما عادت هبات مولانا الشريف إلى مثل قوله

وخذ النوم من جفونى فانى ... قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبى إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل. فخجل الشريف وقابله بما يليق من الاكرام (قلت) وأما الأجوبة الهاشمية وبلاغتها فهى فى المحل الأرفع (فمن ذلك) أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة ابن أبى سفيان والمغيرة ابن شعبة فقالوا يا أمير المؤمنين ابعث لنا إلى الحسن بن على فقال لهم فبم فقالوا كى نوبخه ونعرفه أن أباه قتل عثمان فقال

فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليها وقال أيها الناس لاتزيدوا فى مهور النساء على أربعمائة درهم فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت مال المسلمين فهاب الناس أن يكلموه فقامت امرأة فى يدها طول فقالت له كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول وإن آتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا فقال عمر رضى الله عنه امرأة أصابت ورجل أخطأ * وقيل جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فقالت ياأمير المؤمنين ان زوجى يصوم النهار ويقوم الليل ويقول لها نعم الرجل زوجك وكان فى مجلسه رجل يسمى كعبا فقال ياأمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها فى أمر مباعدته إياها عن فراشه فقال له كما فهمت كلامها احكم بينهما فقال كعب على بزوجها فأحضر فقال له إن هذه المرأة تشكوك قال أفى أمر طعام أم شراب قال بل فى أمر مباعدتك إياها عن فراشك فأنشدت المرأة تقول

يأيها القاضى الحكيم رشده ... ألهى خليلى عن فراشى مسجده
نهاره وليله لا يرقده ... فلست فى أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول

زهدنى فى فرشها وفى الحلل ... أنى امرؤ أذهلنى ماقدنزل
فى سورة النمل وفى السبع الطول ... وفى كتاب الله تخويف بجل

فقال له القاضى

إن لها عليك حقا لم يزل ... فى أربع نصيبها لمن عقل
* فعاطها ذاك ودع عنك العلل *

ثم قال إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة فقال عمر رضى الله عنه لاأدرى من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة

(حكاية المتكلمة بالقرآن) قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا فى بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولا من رب رحيم قال فقلت لها يرحمك الله ماتصنعين فى هذا المكان قالت ومن يضلل الله فلا هادى له فعلمت انها ضالة عن الطريق قلت لها اين تريدين قالت سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فعلمت إنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس فقلت لها أنت منذكم فى هذا الموضع قالت ثلاث ليال سويا فقلت ماأرى معك طعاما تأكلين قالت هو يطعمنى ويسقين فقلت فبأى شىء تتوضئين قالت فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فقلت لها أن معى طعاما فهل لك فى الأكل قالت ثم أتموا الصيام إلى الليل فقلت ليس هذا رمضان فقالت ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم فقلت قد أبيح لنا الافطار فى السفر قالت وأن تصوموا خير لكم أن كنتم تعلمون فقلت لم لاتكلمينى مثل ماأكلمك قالت مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فقلت فمن أى الناس أنت قالت ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا فقلت قد أخطأت فاجعلينى فى حل قالت لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة قالت وما تفعلوا من خير يعلمه الله قال فأنخت ناقتى قالت قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبى فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم فقلت لها اصبرى حتى أعقلها قالت ففهمناها سليمان فعقلت الناقة وقلت لها اركبى فلما ركبت قالت سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت واقصد فى مشيك واغضض من صوتك فجعلت أمشى رويدا رويدا وأترنم بالشعر فقالت فاقرؤا ماتيسر من القرآن فقلت لها لقد

أوتيت

لهم نسكم الاانتصفون منه ولا تقولون شيئا الاكذبكم الناس ولا يقول لكم شيئا ببلاغته الاصدقه الناس فقالوا أرسل اليه فانا سنكفيك أمره فارسل اليه معاوية فلما حضر قال ياحسن إنى لم أرسل اليك ولكن هؤلاء أرسلوا اليك فاسمع مقالتهم وأجب ولا تخرمنى فقال الحسن عليه السلام فليتكلموا ونسمع فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه قال هل تعلم ياحسن أن أباك أول من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به ثم قام الوليد بن عقبة بن أبى معيط فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يابنى هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان فنعم الصهر كان يفضلكم ويقربكم ثم بغيتم عليه فقتلتموه ولقد أردنا ياحسن قتل أبيك فأنقذه الله منا ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب ثم قام عقبة فقال تعلم ياحسن أن أباك بغى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبها ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ثم قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كله سبا لعلى وتعظيما لعثمان فقام الحسن عليه السلام فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال بك أبدأ يامعاوية لم يشتمنى هؤلاء ولكن أنت تشتمنى بغضا وعداوة وخلافا

أوتيت خيرا كثيرا قالت وما يذكر إلا أولوا الألباب فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج قالت أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت المال والبنون زينة الحياة الدنيا فعلمت أن لها أولادا فقلت وشأنهم فى الحج قالت وعلامات وبالنجم هم يهتدون فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت واتخذ الله إبراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما يا يحيى خذ الكتاب بقوة فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدى فقالت كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية فقلت الآن طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثانى فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك﴾

(قيل) إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به ... شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله

مازلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع * ووفد بن أبى محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له أنت الذى أوصاك أبوك بقوله

إذا مت فادفنى بجانب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى ... أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

قال بل أنا الذى يقول أبى لا تسأل الناس ما مالى وكثرته وسائل الناس ما جودى وما خلقى أعطى الحسام غداة الروع حصته وعامل الرمح أرويه من العلق وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق وأنت تعلم أنى من سراتهم إذا سما بصر الرعديد بالفرق فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبى محجن وأمر له بصلة وجائزة (وقيل) أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى فقال له ألست القائل ومنا شريد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب فقال يا أمير المؤمنين إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب وأردت بذلك مناداة لك فكان ذلك سببا لنجاته * ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك فقال له إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول

أيشتمنى معاوية بن حرب ... وسيفى صارم ومعى لسانى
وحولى من ذوى يزن ليوث ... ضراغم تهش نحو الطعان
يعير بالدمامة من سفاه ... وربات الحجال من الغوانى

جدى صلى الله عليه وسلم ثم التفت إلى الناس وقال أنشدكم الله أتعلمون أن الرجل الذى شتمه هؤلاء كان أول من آمن بالله وصلى للقبلتين وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله وكان معه لواء النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين ثم قال أنشدكم الله والإسلام أتعلمون أن معاوية كان يكتب الرسائل لجدى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يوما فرجع الرسول وقال هو يأكل فرد الرسول إليه ثلاث مرات كل ذلك وهو يقول هو يأكل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا أشبع الله بطنه أما تعرف ذلك فى فى بطنك يا معاوية ثم قال وأنشدكم الله أتعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه هذا كله ذلك يا معاوية وأما أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك شبه ألأمهم حسبا وشرهم منصبا ثم قمت وسط قريش فقلت أنى شانئ فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم إن شانئك هو الأبتر ثم هجوت محمدا صلى الله عليه وسلم بثلاثين بيتا من

الشعر فقال النبي ﷺ اللهم انى لاأحسن الشعر ولكن العن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة ثم انطلقت إلى

ودخل يزيد أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج فقال له سليمان قبح الله رجلا أجرك رسنه وأولاك أمانته فقال ياأمير المؤمنين رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر فلو رأيتنى وهو على مقبل لاستكبرت منى مااستصغرت واستعظمت منى مااستحقرت فقال سليمان أترى الحجاج استقر فى جهنم فقال ياأمير المؤمنين لاتقل ذلك فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابر وهو يجىء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك فحيثما كانا كان ٭ وقال يهودى لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه مالكم لم تلبثوا بعد نبيكم الاخمس عشرة سنة حتى تقاتلتم فقال على كرم الله وجهه ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ٭ ووجد الحجاج على منبره مكتوبا قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار فكتب تحته قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ٭ ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم فقال له عقيل وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم ٭ وقيل اجتمعت بنو هاشم يوما عند معاوية فأقبل عليهم وقال يابنى هاشم إن خيرى لكم لممنوح وإن بابى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم ويرد بابى دونكم ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا انكم ترون أنكم أحق بما فى يدى وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا فصرت كالمسلوب والمسلوب لاحمد له هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم قال فاقبل عليه ابن عباس رضى الله عنهما فقال والله مامنحتنا شيئا حتى سألناه ولافتحت لنا بابا حتى قرعناه ولئن قطعت عنا خيرك لخير الله أوسع منك ولئن أغلقت دوننا بابا لنكفن أنفسنا عنك وأما هذا المال فليس لك منه الا ماللرجل من المسلمين ولولا حقنا فى هذا لم يأتك منه زائر يحمله خف ولاحافر أكفاك أم أزيدك قال كفانى ياابن عباس ٭ وقال معاوية يوما أيها الناس إن الله حبا قريشا بثلاث فقال لنبيه ﷺ وأنذر عشيرتك الأقربين ونحن عشيرته الأقربون وقال تعالى وانه لذكر لك ولقومك ونحن قومه وقال تعالى لإيلاف قريش إيلافهم ونحن قريش فأجابه رجل من الأنصار فقال على رسلك يامعاوية فان الله تعالى يقول وكذب به قومك وهو الحق وأنتم قومه وقال تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وأنتم قومه وقال تعالى وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة لو زدتنا لزدناك ٭ وقال معاوية أيضا لرجل من اليمن ما كان اجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة فقال أجهل من قومى قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم ولم يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ٭ وقال يوما لجارية قدامه ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية فقال ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية وهى الأنثى من الكلاب قال اسكتى لاأم لك قالت أم لى ولدتنى أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا والسيوف التى قاتلناك بها لفى ايدينا وإنك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة ولكنك أعطيتنا عهدا وميثاقا وأعطيناك سمعا وطاعة فان وفيت لنا وفينا لك وإن نزعت إلى غير ذلك فانا تركنا وراءنا رجالا اشدادا واسنة حدادا فقال معاوية لاأكثر الله فى الناس مثلك ياجارية فقالت له قل معروفا فان شر الدعاء محيط أهله ٭ وخطب معاوية يوما فقال إن الله تعالى يقول وإن من شىء الاعندنا خزائنه وما ننزله الابقدر معلوم فعلام تلومونى إذا قصرت فى عطاياكم فقال له الأحنف وانا والله لانلومك على مافى خزائن الله ولكن على ما أنزله الله من خزائنه فجعلته فى خزائنك حلت بيننا وبينه وقيل دخل مجنون الطاق يوما إلى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضى الله

عنه

النجاشي بما عملت وعملت فأكذبك الله وردك خائبا فأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام فلم نلمك على بغضك وأما أنت ياابن أبى معيط فكيف الومك على سبك لعلى وقد جلد ظهرك فى الخمر ثمانين سوطا وقتل أباك صبرا بأمر جدى وقتله جدى بأمر ربى ولما قدمه للقتل قال من للصبية يامحمد فقال لهم النار فلم يكن لكم عن النبى إلا النار ولم يكن لكم عند على غير السيف والسوط وأما أنت ياعتبة فكيف تعد أحدا بالقتل لم لاقتلت الذى وجدته فى فراشك مضاجعا لزوجتك ثم أمسكتها بعد أن بغت وأما أنت ياأعور ثقيف ففى أى ثلاث تسب عليا أفى بعده من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم فى حكم جائر أم فى رغبة فى الدنيا فان قلت شيئا من ذلك فقد كذبت وأكذبك الناس وإن زعمت أن عليا قتل عثمان فقد كذبت وأكذبك الناس وأما وعيدك فانما مثلك كمثل بعوضة وقفت على نخلة فقالت لها استمسكى فانى أريد أن أطير فقالت لها النخلة ماعلمت بوقوعك

عنه وكان فى الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون متى أعماك الله قال حين هتك سترك (ومن ذلك) ماحكى أن الحجاج خرج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فاذا هو بشيخ من بنى عجل فقال له من أين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم قال شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك فى الحجاج قال ذاك ماولى العراق شر منه قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال أنا الحجاج قال جعلت فداك أو تعرف من أنا قال لا قال أنا فلان بن فلان مجنون بنى عجل أصرع فى كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة ٭ وقال رجل لصاحب منزل أصلح خشب هذا السقف فانه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح قال إنى أخاف أن تدركه رقة فيسجد ٭ وقالت عجوز لزوجها أما تستحى أن تزنى ولك حلال طيب قال أما حلال فنعم وأما طيب فلا ٭ وقال ملك لوزيره ماخير ما يرزقه العبد قال عقل يعيش به قال فان عدمه قال أدب يتحلى به قال فان عدمه قال مال يستره قال فان عدمه قال فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد ٭ وتنبأ رجل فى زمن المنصور فقال له المنصور أنت نبى سفلة فقال جعلت فداك كل نبى يبعث إلى شكله (ومن الاجوبة المسكنة المتسحسنة) ماذكر أن إبراهيم مغنى الرشيد غنى يوما بين يديه فقال له أحسنت أحسن الله إليك فقال ياأمير المؤمنين إنما يحسن الله إلى بك فأمر له بمائة ألف درهم ٭ وقال رجل لبعض العلوية أنت بستان فقال العلوى وأنت النهر الذى يسقى منه البستان ٭ وذبحت عائشة رضى الله تعالى عنها شاة وتصدقت بها وأبقت منها كتفا فقال لها النبى ﷺ ماعندك منها فقالت مابقى منها إلا الكتف فقال كلها بقى إلا الكتف وقال عبدالله بن يحيى لأبى العيناء كيف الحال قال أنت الحال فانظر كيف أنت لنا فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته وكان عمرو بن سعد بن سالم فى حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس فقال لعمرو من أنت قال عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلمك الله قال أنت تكلؤه الليلة قال الله يكلؤك ياأمير المؤمنين وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار قال عمرو وددت لو أن الأبيات طالت وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبى صغير أرأيت يافتح أحسن من هذا الفص لفص كان فى يده قال نعم ياأمير المؤمنين اليد التى هو فيها أحسن منه فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة ٭ وقيل ان رجلا سأل العباس رضى الله أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندى أأنت سعيد قال أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة وقال المأمون للسيد بن أنس أأنت السيد قال أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه أأنا أطول أم أنت قال الأمير أطول وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكنى اقتصرت على هذا وأوجزت وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية

(الباب التاسع فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد) قيل خطب المأمون فقال اتقوا الله عباد الله أنتم فى مهل بادروا الاجل ولا يغرنكم الأمل فكأنى بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله وتولت عنه فواضله وهيئت أكفانه وبكاه جيرانه وصار إلى التراب الخالى بجسده البالى فهو فى التراب عفير وإلى ماقدم فقير ٭ وقال الشعبى ماسمعت أحدا يخطب إلا تمنيت إن يسكت مخافة أن يخطئ ماخلا زيادا فانه لايزداد إكثارا الا ازداد

معاوية ألم قل لكم انكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم على البيت حتى قام فليس فيكم بعد اليوم خير انتهى

(ومن غريب النقل) أن شريك بن الاعور دخل على معاوية وهو يختال فى مشيته فقال له معاوية والله انك لشريك وليس لله من شريك وانك ابن الاعور والصحيح خير من الاعور وانك لدميم والوسيم خير من الدميم فبم سودك قومك فقال له شريك والله انك لمعاوية وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية وانك ابن حرب والسلم خير من الحرب وانك ابن صخر والسهل خير من الصخر وانك ابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت فسميت أمية فكيف صرت أمير المؤمنين فقال له معاوية أقسمت عليك الا ماخرجت عنى

(نكتة لطيفة) اتفق أن الملك المعظم عزم على الصيد فقال له بعض جماعته يامولانا ان القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة أن تصبر إلى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر إذ دخل عليه مملوك له من أحسن الناس وجها فوقف

احسابا (وخطب) على رضى الله عنه فقال فى خطبته عباد الله الموت الموت ليس منه فوت إن أقمتم أخذكم وإن فررتم منه أدرككم الموت معقود بنواصيكم فالنجا النجا والوحا الوحا فإن وراءكم طالبا حثيثا وهو القبر ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النار ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول أنا بيت الظلمة أنا بيت الوحشة أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد منه يوما يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد وحليها حديد وماؤها صديد ليس لله فيها رحمة قال فبكى المسلمون بكاء شديدا ثم قال ألا وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين أدخلنا الله وإياكم دار النعيم وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم (وخطب) الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبصرة فقال أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو وكل صمت فى غير فكر فهو سهو والدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما ونحن فى أضغاث أحلام . قيل اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية ثم قال فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد ثم قال فمن أبى فهذا وأشار إلى سيفه فقال له معاوية أنت سيد الخطباء

(فصل) فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم قيل ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى وقيل أمسك على النابغة الجعدى أربعين يوما فلم ينطق بالشعر ثم إن بنى جعدة غزوا فظفروا فاستخفه الطرب والفرح فرام الشعر فذل له ما استصعب عليه فقال له قومه والله لنحن باطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا . وقال أبو نواس ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال وقال الخليل الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤا جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده ومن تسهيل اللفظ وتعقيده وقيل وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له أقرأت القرآن قال نعم قال أفرضت الفرائض قال نعم قال أرويت الشعر قال لا فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك فى ابنك فاروه الشعر فقد وجدته كاملا وإنى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول أرووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق ويقى مساويها وتعلموا الأنساب فرب رحم مجهولة قد وصلت بشعر فإن النسب وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتنى إلا قول القائل

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم فى بيت من الشعر شكوا فيه فأبى . وكان الحسن بن على رضى الله عنه يعطى الشعراء فقيل له فى ذلك فقال خير مالك ما وقيت به عرضك . وقال أبو الزناد ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له ما أرواك يا أبا عبد الله فقال وما روايتى مع رواية عائشة رضى الله عنها ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل . كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا . ولم ينطق به موزونا فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه أشهد أنك رسول الله حقا وتلا قوله تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغى له (ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم) فمن

ذلك

أمامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين بأقة ياه ولا نا اركب فى هذه الساعة فهذا القمر قد حل فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشارا بالقول فلم ير أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها (ومن غرائب المنقول) ما حكى إسحق النديم عن أبيه قال استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الجمعة لانبعث فيه بجوارى وإخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال هو يوم استثقله فاله فيه بما شئت قال فأقمت يوم السبت بمنزلى وتقدمت لاصلاح طعامى وشرابى وأمرت بوابى باغلاق الباب وأن لا يأذن لأحد من الناس فبينما أنا فى مجلسى والحريم قد حففن بى إذا أنا بشيخ عليه هيبة وجمال وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بالفضة وروائح الطيب تفوح منه فداخلنى لدخوله على مع ما قدمت من الوصية غيظ عظيم وهممت بطرد بوابى ومن يحجبنى لأجله فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وجعل يقص على من أيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى فظننت أن غلمانى قصدوا مسرتى بادخاله على لظرفه وأدبه فقلت له هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى به فقلت هل لك فى الشراب

(ذلك) قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها

وما المال والأخلاق إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود

كيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهى معلقة على الكعبة يقول فيها

لعمرك ما الأيام إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود

(ومن ذلك) يقول عبدة بن الطبيب

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

أخذه من قول امرىء القيس : فلو أنها نفس تموت شريتها ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقال من سرق شيئا واسترقه فقد استحقه وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ فإن السرقة الفاحشة قول كثير فى عبد الملك بن مروان إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها عقد در يزينها

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروى

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها لؤلؤ وشنوف

وجرير على سعة بحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله :

فلو كان الخلود بفضل قوم على قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت ولكن حمد المرء ما لم يخلد

وقد قال الشماخ وأمر ترجى النفس ليس بنافع وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر نرجى النفوس الشيء لا تستطيعه وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول :

وأحسن من نور يفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

أخذه من قول الأخطل : رأيت بياضا فى سواد كأنه بياض العطايا فى سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء) ما قيل إن أبا العتاهية كان مع تقدمه فى الشعر كثير السقط روى أنه لقى محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه ثم إنه دخل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة فى كل سنة وأنا أقول فى كل سنة مائتى قصيدة فأدخله الرشيد اليه وقال ما هذا الذى يقول أبو العتاهية فقال يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول ألا يا عتبة الساعة اموت الساعة الساعة

لقلت كثيرا ولكنى أقول ابن عبد الحميد يوم توفى هد ركنا ما كان بالمهدود

ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين ويسلمون له فى الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال :

انما عظم سليمى حبتى قصب السكر لا عظم الجمل

وإذا قرب منها بصل غلب المسك على ريح البصل

هذا مع قوله: إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

ومع قوله فى الفخر: كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضا : إذا انت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبى فى فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام وقوته على رقائق المعانى وعلى ما فى شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول :

فقال ذاك اليك قال فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا إسحق هل لك فى أن تغنى وتسمع منك ما فقت به على العام والخاص قال فغاظنى منه ذلك ثم سهلت الأمر على نفسى وأخذت العود وضربت وغنيت فقال احسنت يا إبراهيم فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله حتى سمانى باسمى ولم يحسن مخاطبتى ثم قال هل لك فى أن تزيدنا وتكافئك قال فتقدمت وأخذت العود وضربت وغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قياما تاما فطرب وقال أحسنت ياسيدى ثم قال أتأذن لعبدك فى الغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله كيف سولت له نفسه أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلته ينطق بلسان عربى واندفع يغنى

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح

أباها على الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح

قال إبراهيم فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب وكل ما فى البيت تجيبه وتغنى معه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى ثم غنى ألا يا حمامات اللوى الأبيات فكاد يذهب عقلى طربا ثم قال إبراهيم خذه هذا الغناء

وانح نحوه فى قناتك وعلمه جواريك فسألته أن يعيد ماغناه فقال لم تحتج إلى شىء من ذلك ثم غاب من

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم   إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

وغير شىء معناه المعدوم والمعدوم لايرى فهذا سقط فاحش ، ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله :

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقل عيش كلهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى

ان كان مثلك كان أوهو كائن   فبرئت حينئذ من الاسلام

ومن معانيه المسروقة قوله   ونهب نفوس أهل النهب أولى   بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبى تمام   ان الأسود أسود الغاب همتها   يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيرى أجتمع راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص وراوية نصيب فافتخر كل منهم وقال صاحبى أشعر فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وبصرها بالشعر فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال فادخلى بسلام ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذى يقول

يقر بعينى ما يقر بعينها   وأحسن شىء مابه العين قرت

وليس شىء أقر بعينها من النكاح أيحب أن ينكح قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول

فلو تركت عقلى معى ماطلبتها   ولكن طلابيها لما فات من عقلى

فما أراه هوى وإنما طلب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذى يقول

أهيم بدعد ماحييت فان أمت   فواحزنى من ذا يهيم بها بعدى

فماله همة الا من يتعشقها بعده قبحه الله صاحبك وقبح شعره هلا قال :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت   فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذى يقول

من عاشقين تواعدا وتراسلا   ليلا إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها   حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره هلا قال تعانقا فلم تثن على واحد منهم وأحجم رواتهم عن جوابها رضى الله

(وروى) ابن الكلبى قال لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت اليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله وأقاموا ببابه أياما لايؤذن لهم فى الدخول حتى قدم عدى بن أرطاة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال

يا أيها الرجل المزجى مطيته   هذا زمانك إنى قد خلا زمنى
أبلغ خليفتنا ان كنت لاقيه   أنى لدى الباب كالمشدود فى قرن
لاتنس حاجتنا لاقيت مغفرة   قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

فقال نعم يا عبد الله فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومة وسهامهم صائبة فقال عمر رضى الله عنه مالى وللشعراء فقال يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فاعطى وفيه أسوة لكل مسلم قال صدقت فمن بالباب منهم قال ابن عمك عمر بن

بين عينى فارتعت وقمت إلى السيف فجردته ثم غدوت نحو الأبواب وقلت للجوارى أى شىء سمعتن فقلن سمعنا أحسن غناء فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أى شيخ والله مادخل اليك اليوم أحد من الناس فرجعت لأتأمل أمرى فاذا به قد هتف من بعض جوانب الدار فقال لابأس عليك ياأبا إسحق أنا إبليس وقد اخترت منادمتك فى هذا اليوم فلا ترتع فركبت على الفور إلى الرشيد وأتحفته بهذه الطرفة فقال ويحك اعتبر الأصوات التى أخذتها عنه فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى فطرب الرشيد وأمر لى بصلة وقال ليته متعنا يوما واحدا كما أمتعك فإن أبا الفرج الأصبهانى هكذا حدثنا ابن أبى الأزهر وما أدرى ما أقول فيه (ويضارع هذا ما أورده ابن خلكان فى ترجمة ابن دريد) قال أبو بكر محمد بن الحسين ابن دريد سقطت من منزلى فانكسر بعض أعضائى فسهرت ليلتى فلما كان آخر الليل غمضت عينى فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل على وأخذ بعضادتى

أبى ربيعة القرشى قال لاقرب الله قرابته ولاحيا وجهه أليس هو القائل

ألا لتنى أبى يوم تدنو منيتى شممت الذى ما بين عينيك والفم وليت طهورى كان ريقك كله
وليت حنوطى من مشاشك والدم ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى هنالك أوفى جنة أو جهنم

فليت عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ثم يعمل عملا صالحا والله لايدخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال جميل بن معمر العذرى قال أليس هو القائل

ألا ليتنا نحيا جميعا فان نمت يوافى لدى الموتى ضريحى ضريحها فما أنا فى طول الحياة براغب
إذا قيل قدسوى عليها صفيحها أظل نهارى لا أراها وتلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها

والله لايدخل على أبدا فمن بالباب غيره فمن ذكرت قال كثير عزة قال أليس هو القائل

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعا وسجودا

أبعده الله فوالله لايدخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الأحوص الانصارى قال أبعده الله والله لادخل على أبدا أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه

الله بينى وبين سيدها يفر منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال همام بن غالب الفرزدق قال أليس هو القائل يفتخر بالزنا فى قوله

هما دليانى من ثمانين قامة كما انقض بازلين الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا أحى فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الاخراس لايفطنوا بنا ووليت فى أعقاب ليل أبادره

والله لادخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الاخطل التغلبى أليس هو القائل

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى ولست بزاجر عيسا بكورا
إلى أطلال مكة بالنجاح ولست بقائم كالعيد يدعو قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله عنى فوالله لادخل على أبدا ولا وطىء لى بساطا وهو كافر فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت قال جرير قال أليس هو القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

فان كان ولابد فهذا فأذن له قال عدى بن ارطاة فخرجت فقلت ادخل ياجرير فدخل وهو يقول

ان الذى بعث النبى محمدا جعل الخلافة فى الإمام العادل وسع الخلائق عدله ووقاره
حتى ارعووا وأقام ميل المائل انى لأرجو منه نفعا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال ياجرير اتق الله ولاتقل الا حقا فأنشأ يقول

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر ممن يعدك تكفى فقد والده
كالفرخ فى العش لم يدرج ولم يطر أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت أم قد كفانى ما بلغت من خبرى
إنا لنرجوا اذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة مانرجو من المطر ان الخلافة جاءته على قدر
كما أتى ربه موسى على قدر هذى الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير مادمت حيا لايفارقنا بوركت ياعمر الخيرات من عمر

فقال والله ياجرير لقد وافيت الأمر ولا أملك إلا ثلاثين دينارا فعشرة أخذها عبد الله وعشرة

الباب وقال أنشدنى أحسن ماقلت فى الخمر فقلت ماترك أبو نواس لاحد شيئا فى هذا الباب فقال انا أشعر منه فقلت ومن أنت قال أبو ناجية من أهل الشام وأنشدنى

وحمراء قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له أسأت قال ولم قلت لأنك قلت وحمراء فقدمت الحمرة ثم قلت نرجس وشقائق فقدمت الصفرة، فقال ماهذا الاستقصاء فى هذا الوقت يابغيض وأبو ناجية من كنى إبليس * قال قاضى القضاة شمس الدين ابن محمد خلكان فى تاريخه وفى رواية أخرى أن الشيخ أبا على الفارسى قال انشدنى ابن دريد هذين البيتين وقالا جاءنى إبليس فى امتثال ثم ذكر بقية الكلام الخ (ونقل) ابن خلكان وغيره أن أبا بكر بن فريعة قاضى السندية وغيرها من أعمال بغداد كان من عجائب الدنيا فى سرعة البديهة بالأجوبة عن جميع مايسئل عنه فى أفصح لفظ وأملح سجع وكان مختصا بحضرة الوزير أبى محمد المهلبى ومنقطعا اليه وله مسائل وأجوبة مدونة فى أيدى الناس وكان رؤساء ذلك العصر والعلماء والفضلاء يداعبونه

أخذتها أم عبد الله ثم قال لخادمه ادفع اليه العشرة الثالثة فقال والله يا أمير المؤمنين انها لأحب مال كسبته ثم خرج فقال له الشعراء ما وراءك يا جرير فقال ورائى ما يسوؤكم خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وانى عنه لراض ثم انشأ يقول

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيا

(ومما جاء فى كبوات الجياد وهفوات الامجاد)

قال الاحنف الشريف من عدت سقطاته وقلت عثراته وقالوا كل صارم ينبو وكل جواد يكبو وكان الاحنف بن قيس حليما سيدا يضرب به المثل وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الاهتم دس اليه رجلا يسفهه فقال يا أبا بحر ما كان أبوك فى قومه قال كان أوسطهم وسيدهم ولم يتخلف عنهم فرجع اليه ثانيا ففطن أنه من قبل عمرو بن الاهتم فقال ما كان أبوك قال كانت له فتوة ومروءة ومكارم أخلاق ولم يكن أهتم سلاحا وقال سعيد بن المسيب ما فاتنى الاذان فى مسجد رسول الله ﷺ منذ اربعين سنة ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد وقال قتادة ما نسيت شيئا قط ثم قال غلام ناولنى نعلى قال النعل فى رجلك وكان هاشم بن عبد الملك من رجال بنى أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات منها ان الحادى حدا به يوما قال

إنى عليك أيها النجى ... أكرم من يمشى به المطى

فقال هشام صدقت وذكر عنده سليمان واخوه فقال والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك ولما ولى الخلافة قال الحمد لله الذى انقذنى من النار بهذا المقام قال النابغة أى الرجال المهذب وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب العاشر فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول)

(الفصل الأول فى التوكل على الله تعالى) قال الله تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت وقال تعالى وعلى ربهم يتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير رواه مسلم قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود من دعانى أجبته ومن استغاثنى أغثته ومن استنصرنى نصرته ومن توكل على كفيته فأنا كافى المتوكلين وناصر المستنصرين وغياث المستغيثين ومجيب الداعين (حكى) أنه كان فى زمن هرون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر وضيق حال حتى اشتدت الكروب على الناس اشتدادا عظيما فأمر الخليفة هرون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء وأمر بكسر آلات الطرب ففى بعض الأيام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى فحمل إلى الخليفة هرون الرشيد فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال إن سيدى عنده خزانة بر وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها فلهذا أنا إذا لا أبالى فأنا ارقص وافرح فعند ذلك قال الخليفة إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى (وحكى) أن حاتما الاصم كان رجلا كثير العيال وكان له أولاد ذكور واناث ولم يكن يملك حبة واحدة وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج فداخل الشوق قلبه ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ثم قال لهم لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه فى هذا العام حاجا ويدعو لكم فقالت زوجته وأولاده

ويكتبون له المسائل الغريبة المضحكة فيكتب الأجوبة من غير توقف ولا يكتب إلا مطابقا لما سألوه وكان الوزير المذكور يغرى به جماعة يضعون له المسائل الهزلية من معان شتى من النوادر (فمن ذلك) ما كتب اليه بعض الفضلاء على سبيل الامتحان ما يقول القاضى أيده الله تعالى فى رجل سمى ولده مداما وكناه أبا الندامى وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبا الاطراب وسمى وليدته القهوه وكناها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته (فكتب تحت السؤال) لو نعت هذا لأبى حنيفة لأقعده خليفة وعقد له راية وقاتل تحتها من خالف رايه ولو علمنا مكانه لقبلنا أركانه فان أتبع هذه الأسماء أفعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا أنه أحيا دولة المجون وأقام لواء ابن الزرجون فبايعناه وشايعناه وان تكن أسماء سماها ماله بها من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته فنحن إلى إمام فعال أحوج منا إلى إمام قوال (وكتب اليه العباس الكاتب) ما يقول القاضى وفقه الله تعالى فى يهودى زنى بنصرانية فولدت له ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليها فما يرى القاضى فيهما (فكتب تحت سؤاله بديها)

انت

أنت على هذه الحالة لا تملك شيئا ونحن على ما ترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة وكان له ابنة صغيرة فقالت ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك دعوه يذهب حيث شاء فانه مناول للرزق وليس برزاق فذكرتهم ذلك فقالوا صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث احببت فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج وخرج مسافرا وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لو سكت ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وانك لا تضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الاصم فاستسقى منهم ماء وقرع الباب فقالوا من أنت قال الامير ببابكم يستسقيكم فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت الهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعا واليوم يقف الامير على بابنا يستسقينا ثم انها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء وقالت للمتناول منها اعذرنا فأخذ الامير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال هذه الدار لأمير فقالوا لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الاصم فقال الامير لقد سمعت به فقال الوزير ياسيدى لقد سمعت انه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئا وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعا فقال الامير ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ثم حل الامير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار ثم قال لأصحابه من أحبني فليلق منطقته فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق فلما نزل الامير رجع اليهم الوزير ودفع اليهم ثمن المناطق مالا جزيلا واستردها منهم فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا فقالوا لها ما هذا البكاء انما يجب أن تفرحي فان الله قد وسع علينا فقالت يا أ والله انما بكائي كيف بتنا البارحة جياعا فنظر الينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين اللهم انظر إلى أبينا ودبره بأحسن التدبير وهذا ما كان أمرهم * وأما ما كان من أمر حاتم ابيهم فانه لما خرج محرما ولحق بالقوم توجع امير الركب فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا فقال هل من عبد صالح فدل على حاتم فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الامير من وقته فأمر له بما يركب وما يأكل وما يشرب فنام تلك الليلة مفكرا في أمر عياله فقيل له في منامه يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ثم اخبر بما كان من أمر عياله فأكثر الثناء على الله تعالى فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال صغار قوم كبار آخرين إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فانه من توكل على الله فهو حسبه . ومن كلام الحكماء من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ينظر إلى أعرفكم استراح من الجزع ومن علم ان مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجمع شمله وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت عند النبي ﷺ يوما فقال ياغلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن تضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الصحف وجفت الأقلام (ورفع) إلى الرشيد ان بدمشق

وهذا من أكبر الشهود على الملا بين اليهود فانهم أشربوا حب العجل في صدورهم حتى خرج من أيودهم وأرى أن بتاط رأس اليهود برأس العجل ويصاب على عنق النصرانية مع الرجل

ويسحبان على الأرض وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام

{ نادرة لطيفة } ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي انت تعلم أن الخلافة صائرة إليك واريد ان اسلم لك عمي وعمك عبد الله بن علي فخذه واقتله إياك أن تجبن في امره ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب إليه قد انفذت امر امير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر انه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له إن المنصور دفع إلى عمه وامرني بقتله فقال له يريد أن يقتلك به فانه أمرك بذلك سرا ويدعي به عليك علانية والرأي أن تستره في منزلك ولا تطلع عليه أحدا فان طلبه منك علانية دفعته اليه علانية ولا تدفعه اليه سرا أبدا ففعل ذلك وقدم المنصور فدس على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور ان يهب لهم اخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم على عيسى

ابن موسى فأتاه فقال يا عيسى كنت دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج وامرتك ان يكون في منزلك مكرما قال قد فعلت ذلك قال قد كلمني فيه عمومتك فرأيت الصفح عنه

فأتى به قال يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله قال لا بل أمرتك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته هذا أقر لكم بقتل حكم وادعى
اني أمرته بذلك وقد كذب (٦٦) قالوا فادعه الينا نقتله قال شأنكم فأخرجوه إلى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الامر فقام
أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فان عمي حي ردوني إلى أمير المؤمنين فردوه اليه فقال يا أمير المؤمنين انما أردت بقتله قتلي هذا عمك حي ان امرتني بدفعه اليوم دفعته قال ائتنا به فأتى به فجعله في بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحا لما شرع في عمارته وأعده لهذا المعنى ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب الملح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس بن المتوفي وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قتلوا ثلاثة في أول أسمائهم عين قال لا اعرف الا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين أن عليا قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال إذا سقط
البيت على عمي فما ذنبي قال قلت مالك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب
البيعة التي تقدمت له مع السفاح وشرحها يطول انتهى (ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ما صورته)

رجلا من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند يخشى على المملكة منه وكان الرشيد يومئذ بالكوفة قال منارة خادم الرشيد فاستدعاني الرشيد وقال اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الاموي وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له الا إذا امتنع عليك فاذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به واذكر لي حاله وماله وقد اجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا ولاقامتك يوما افهمت قلت نعم قال فسر على بركة الله فخرجت اطوي المنازل ليلا ونهارا ولا انزل الا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الاموي فاذا هي دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة وخدم وحشم وهيبة ظاهرة وحشمة وافرة ومصاطب متسعة وغلمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير اذن فبهتوا وسألوا عني فقيل لهم ان هذا رسول أمير المؤمنين فلما صرت في وسط الدار رأيت اقواما محتشمين فظننت ان المطلوب فيهم فسألت عليه فقيل لي هو في الحمام فأكرموني وأجلسوني وامروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر وانا اتفقد الدار واتأمل الاحوال حتى اقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان فسلم علي وسألني عن أمير المؤمنين فأخبرته انه بعافية فحمد الله تعالى ثم احضرت له أطباق الفاكهة فقال تقدم يا منارة كل معنا فتأملت كثيرا اذ لم يكلمني فقلت ما آكل فلم يعاودني ورأيت مالم أره إلا في دار الخلافة ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت احسن ترتيبا ولا اعطر رائحة والاكثر آنية منه فقال تقدم يا منارة فكل فقلت ليس لي به حاجة فلم يعاودني ونظرت إلى اصحابي فلم أجد احدا منهم عندي فحرت لكثرة حفدته وعدم من عندي فلما غسل يديه احضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر فاتم الركوع والسجود واكثر من الركوع بعدها فلما فرغ استقبلني وقال ما اقدمك يا منارة فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم فضه وقرأه فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص اصحابه وغلمانه وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلي وما شككت انه يريد القبض علي فقال الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة وسائر ايمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف امرهم ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل وسرنا فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول هذه الضيعة لي تعمل كل سنة بكذا وكذا وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا فقلت يا هذا الست تعلم ان أمير المؤمنين اهمه امرك حتى انفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب اليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدا فريدا وأنت تحدثني حديثا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه وكان شغلك بنفسك أولى بك فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد اخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت انك عند الخليفة بهذه المكانة الا لوفور عقلك فاذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء اما خروجي على ما ذكرت فاني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين فهو لا يضر ولا ينفع الا بمشيئة الله تعالى فان كان قد قضى علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منه وأن لم يكن قد قدر علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه أرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك الا باذن الله تعالى ومالي ذنب فأخاف وانما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان وأمير المؤمنين

كامل

كامل العقل فإذا طلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها الاجوابا ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض فقال هات يامنارة أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك علي فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم وتفقدي لأصحابي فلم أجد منهم أحدا اسود وجهه فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الإيمان المغلظة تهلل وجهه فلما قلت أنه قدم رجليه اصفر وجهه واستبشر فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له وما قال لي قال هذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله أخرج إليه وانزع قيوده وفكه وأدخله علي مكرما ففعلت فلما دخل قبل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك فقال سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي قال هذا كائن فسل غيره قال عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال قال فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال يامنارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه قم في حفظ الله ووداعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك فانظر إلى حسن توكله على خالقه فانه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه ومن سأله أعطاه ما تمناه وروى أن هذه التكلمات وجدها كعب الاحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان مادام سلطاني باقيا وسلطاني لا ينفد أبدا يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائني ملآنه وخزائني لا تنفد أبدا يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك فان طلبتني وجدتني وان أنست بغيري فتك وفاتك الخير كله يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وقسمت رزقك فلا تتعب وفي أكثر منه فلا تطمع ومن أقل منه فلا تجزع فان أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك كنت عندي محمودا وان لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر ولا ينالك منها الا ماقد قسمته لك وكنت عندي مذموما يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع ولم أعي بخلقهن أيعييني رغيف أسوقه لك من غير تعب يا ابن آدم أنا لك محب فبحقي عليك كن محبا يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد فاني لم أنس من عصاني فكيف من أطاعني وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط (قال الشاعر)

ما ثم الا الله في كل حالة ... فلا تتكل يوما على غير لطفه
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى ... وخيرته فيها على رغم أنفه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توكل على الرحمن في الأمر كله ... فما خاب حقا من عليه توكلا
وكن واثقا بالله واصبر لحكمه ... تفز بالذي ترجوه منه تفضلا

(الفصل الثاني في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى) جاء في تفسير قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة أن المراد بها القناعة وقال ﷺ القناعة مال لا ينفد وقيل يارسول الله ما القناعة قال الاياس عما في أيدي وإياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الاوفر وانه كان يشتهي الشيء فيدافعه قال الكندي

العبد حر ما قنع ... والحر عبد ما طمع

نقلت من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه أن ابن الدقاق البلنسي الشاعر المشهور كان يسهر الليل ويشتغل بالأدب وكان أبوه حدادا فقيرا فلامه وقال ياولدي نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه فاتفق أنه برع في العلم والأدب وقال الشعر وعمل في أبي بكر ابن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها

ياشمس خدر مالها مغرب ... وبدر تم قط لا يحجب

وقال منها

ناشدتك الله نسيم الصبا ... أين استقرت بعدنا زينب
لم تسر إلا بشذا عرفها ... أولا فماذا النفس الطيب

فأطلق له ثلثمائة دينار فجاء إلى أبيه وهو جالس في حانوته منكب على صنعته فوضعها في حجره وقال خذ هذه وابتع بها زيتا انتهى (و) حكي عن عبد العزيز بن الفضل قال خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح وأبو بكر بن داود وأبو عبد الله نفطويه إلى وليمة فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق فأراد كل منهم تقديم صاحبه عليه فقال ابن شريح ضيق الطريق يورث سوء الأدب فقال ابن داود لكنه تعرف به مقادير الرجال فقال نفطويه إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف وحكي عن شريح جد أبي العباس المشهور بالصلاح الوافر انه كان عجميا لا يعرف بلسان العرب شيئا فاتفق له انه رأى الباري عز وجل في النوم فحادثه وقال ياشريح طلبكن فقال يا خدادي سار بسار وهذا لفظ اعجمي معناه بالعربي يا شريح اطلب فقال يارب رأسا برأس

وقال بشر بن الحرث خرج فتى في طلب الرزق فبينما هو يمشي فأعيا فأوى إلى خراب يستريح فيه فبينما هو يدير بصره إذا وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي :

إني رأيتك قاعدا مستقبلي فعلمت أنك للهموم قرين هون عليك وكن بربك واثقا فأخو التوكل شأنه التهوين طرح الأذى عن نفسه في رزقه لما تيقن أنه مضمون

قال فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل وقال اللهم أدبنا أنت قال الجاحظ إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفي ذلك بطلان المصالح وذهاب المعايش فكل صنف من الناس مزين لهم ماهم فيه فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرا أو خلفا قال ويلك ياحجام والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال ويلك ياحائك لجعل الله تعالى الاختلاف سببا للائتلاف فسبحانه من مدبر قادر حكيم ألا ترى إلى البدوي في بيت من وقطه حيث معمد بعظام الجيف كلبه معه في بيته لباسه شملة من وبر أو شعر ودواؤه بعر الابل وطيبه القطران وبعر الظباء وحلى زوجته الودع وثماره المقل وصيده اليربوع وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه يابني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فانها مالا ينفد وإياك والطمع فانه فقر حاضر وعليك باليأس فانك لم تيأس من شيء الا أغناك الله عنه وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة لجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال هي من مال رجل ما اقدم عليه أحدا في زهده وورعه وطيب كسبه فقال لو كنت اقبل من احد شيئا لقبلتها تعظيم الميت وإكراما للحي ولكني احب ان أعيش في عز القناعة وقال عيسى عليه الصلاة والسلام اتخذوا البيوت منازل والمساجد مساكن وكلوا من بقل البرية واشربوا من الماء القراح واخرجوا من الدنيا بسلام وانشد المبرد

ان ضن زيد بما في بطن راحته فالأرض واسعة والرزق مبسوط
إن الذي قدر الاشياء بحكمته لم ينس قاعدا والرحل محطوط

قال عبد الواحد بن زيد مااحسب ان شيئا من الاعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ولا اعلم درجة ارفع من الرضا وهو رأس المحبة قيل له متى يكون العبد راضيا عن ربه قال إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة وكان عبد الله مرزوق من ندماء المهدي فسكر يوما ففاتته الصلاة لجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعورا فقالت له إذا لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فاذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء فقالا له انه لم يدع أحد شيئا لله إلا عوضه الله منه بديلا فما عوضك عما تركت له قال الرضا بما انا فيه وقال الثوري ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذل له وقال الفضيل من رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول الشمس في الشتاء جلالي ونور القمر سراجي وبقل البرية فاكهتي وشعر الغنم لباسي ابيت حيث يدركني الليل ليس لي ولد يموت ولا بيت يخرب انا الذي كببت الدنيا على وجهها (بيت مفرد)

ان القناعة من يحل بساحتها لم يلق في ظلها هما يؤرقه

(وقال) عيسى عليه الصلاة والسلام انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فان زعمتم انكم أكبر بطونا من الطير فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث

تحصد

كما يقال رضيت أن أخلص رأسا برأس (ومن لطائف المنقول) أنه كان بالعقبة ظاهر دمشق المحروسة خان تجمع فيه أسباب الملاذ ويتفق فيه من الفسوق والفجور مالا يحد ولا يوصف فرجع ذلك إلى أبي الفتح موسى بن أبي بكر العادل ابن أيوب الملقب بالأشرف فهدمه وعمره جامعا وسماه الناس جامع التوبة كأنه تاب إلى الله وأناب مما كان فيه وجرت في خطابته نكتة لطيفة وهي أنه كان بمدرسة الشام التي خارج البلد إمام يعرف بالجمال قيل أنه كان في زمان صباه يلعب بشيء من الملاهي وهي التي تسمى الجفانة ولما كبر حسنت طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدودا في الاخيار فلما احتاج الجامع المذكور إلى خطيب رشح جانبه للخطابة لكثرة الثناء عليه فتولاها فلما توفي تولى بعده العماد الواسطي الواعظ وكان متهما باستعمال الشراب وكان صاحب دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين اسمعيل بن العادل أيوب فكتب اليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن رونبية أبياتا وهي هذه

يامليكا أوضح الـ ـحق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد حـ ـمّلني منه أمانه
قال قل للملك الصا لح أعلى الله شأنه
ياعماد الدين يامن حمد الناس زمانه
كم إلى كم انا في بؤ س وضر وإهانه
لي خطيب واسطي يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبـ ـل يغني بجفانه
فكما نحن وما زا لنا ولا أبرح حانه

قد زعمت انى تغيرت بعدها
ومن ذا الذى يا عز لايتغير
قالت لست أروى هذا ولكننى أروى قوله
كأنى أنادى أو أكلم صخرة
من الصم لو تمشى بها العصم زلت
ثم انحرف إلى بثينة فقال أنت بثينة جميل قالت نعم يا أمير المؤمنين قال ماالذى رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين قالت الذى رأى الناس فيك فجعلوك خليفة ثم قال فضحك حتى بدا له ضرس أسود ولم ير قبل ذلك وفضل بثينة على عزة فى الجائزة ثم أمرهما أن يدخلا على عاتكة فدخلتا عليها فقالت لعزة أخبرينى عن قول كثير
قضى كل ذى دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها
ما كان دينه وما كنت وعدتيه قالت كنت وعدته قبلة ثم تأثمت منها فقالت عاتكة وددت أنك فعلت وأنا كنت تحملت اثمها عنك ثم ندمت عاتكة واستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة انتهى (ويعجبنى قول أسامة بن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره)

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسرا إلى الاقرار بالاقدار

محصد والله يرزقها * وقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته فقال له ألست القائل

لقد علمت وماالاسراف من خلقى ... ان الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلبه ... ولو قعدت أتانى ليس يعيينى

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق فقال ياأمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على فجبهته ورددته خائبا فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار فقرع عليه الرسول باب داره بمدينة وأعطاه المال فقال أبلغ أمير المؤمنين منى السلام وقل له كيف رأيت قولى سعيت فاكديت فرجعت فأتانى رزقى فى منزلى ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقفى فلما سارا تخلف الانصارى وقال الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى ووفد الثقفى وقال احوز الحظين فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له مافعل زميلك الانصارى قال رجع إلى أهله فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الانصار بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول

فوالله ماحرص الحريص بنافع ... فيغنى ولازهد القنوع بضائر
خرجنا جميعا من مساقط روسنا ... على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناجيات ببابه ... تخلف عنى اليثربى ابن جابر
وقال ستكفينى عطية قادر ... على مايشاء اليوم للخلق قاهر
فان الذى أعطى العراق ابن عامر ... لربى الذى أرجو لعبد مفاقرى
فقلت خلالى وجهه ولعله ... سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
فلما رآنى سال عند صبابة ... إليه كما حنت ظؤار الاباعر
فابت وقد أيقنت أن ليس نافعا ... ولاضائرا شىء خلاف المقادر

قيل أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أتدرى لم رزقت الاحمق قال لا يارب قال ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يوما ... فقد أيسرت فى الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فان الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسار ... وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقا ... لكان المال عند ذوى العقول

أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام انظر إلى الأرض فنظر إليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام فقال له أترانى لم أغفل عنها وأغفل عنك وأنت نبى وابن نبى ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفا على باب المسجد أمسك على بغلتى فأخذ الرجل لجامها ومضى وترك البغلة فخرج على وفى يده درهمان ليكافىء بهما الرجل على امساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام فركبها ومضى ودفع لغلامه درهمين يشترى بهما لجاما فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال على رضى الله عنه ان العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولايزداد على ماقدر له وقيل لراهب من أين تأكل فأشار إلى فيه وقال الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطاحين وقال سليم بن المهاجر الجيلى

كسوت جميل الصبر وجهى فصانه ... به الله عن غشيان كل بخيل
فما عشت لم آت البخيل ولم قم

على بابه يوما مقام ذليل   وان قليلا يستر الوجه أن يرى   إلى الناس مبذولا لغير قليل

وصلى معروف الكرخي خلف امام فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف من أين تأكل قال قليل اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك قال وقال لأن من شك في رزقه شك في خالقه وقال أبو حازم مالم يكتب لي لو ركبت الريح ماأدركته وقال عمر بن أبي عمر اليوناني

غلا السعر في بغداد من بعد رخصه   وانى في الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيف والله واسع   غناه ولا الحرمان والله رازق

وقال القهستاني   غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم   وان الغنى الاعلى عن الشيء لابه

وقال منصور الفقيه   الموت أسهل عندي   بين القنا والاسنة   والخيل تجري سراعا   مقطعات الاعنة   من أن يكون لنذل   على فضل ومنه

(وأنشد أعرابي) أيامالك لاتسأل الناس والتمس   يكفيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا   إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال عليك باليأس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر وقيل إذا وجدت الشيء في السوق فلا تطلبه من صديقك وقيل لاعرابية من أين معاشكم قالت لولم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش وقال أعرابي أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحرك معها من فوقك

وقال المعري إذا كنت تبغي العيش فابغ توسطاً   فعند التناهي يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهي أهلة   ويدركها النقصان وهي كوامل

(وقال آخر) اقنع بأيسر رزق أنت نائله   واحذر ولاتتعرض للارادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص   ولا تعكر إلا في الزيادات

وقال أعرابي استظهر على الدهر بخفة الظهر قال هشام بن إبراهيم البصري

وكم ملك جانبته عن كراهة   لإغلاق باب أو لتشديد حاجب
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب   إذا انصرفت عني وجوه المذاهب

وقيل ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة ان أتته صحفة تناولها وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها وقال شقيق بن إبراهيم البلخي قال لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى اخبرني عما أنت عليه قلت ان رزقت أكلت وإن منعت صبرت قال هكذا تعمل كلاب بلخ فقلت كيف تعمل أنت قال ان رزقت آثرت وإن منعت شكرت وقال بعضهم

هي القناعة فالزمها تعش ملكا   لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها   هل راح منها بغير القطن والكفن

(وقال آخر) وإن القناعة كنز الغنى   فصرت بأذيالها ممتسك   فلاذا يراني على بابه
ولاذا يراني له منهمك   فصرت غنيا بلا درهم   أمر على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة فلم يجد عندهم شيئا للعشاء ولا وجد لهم سراج فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول بأي يد كانت مني تركت مثلي على هذه الحالة والله تعالى أعلم

(الفصل الثالث في ذم الحرص والطمع وطول الامل) قال الله تعالى ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر

ماأوقد ابن طليب قط بدآره   ناراً كان حريقها بالنار   قلت ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصري دلال الكتب بمصر كان له دار موصوفة بالحسن فاحترقت نعمل فيها نشو الملك المعروف بابن المنجم

أقول وقد عاينت دار ابن صورة   وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من نهاوش   فما قليل في نهابر يعدم
وماهو إلا كافر طال عمره   فجاءته لما استبطأته جهنم

قلت وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الأدب بمصر وكان شيخا قد ظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب إليه

أيها السيد الأديب دعاء   من محب خال عن التنكيب
أنت شيخ وقد قربت من النار   فكيف ادهنت بالكبريت

(قيل) إن أبا القاسم الزعفراني مدح الصاحب ابن عباد بقصيدة نونية وانتهى إلى قوله منها

وحاشية الدار يمشون في   صنوف من الخز إلا أنا

فقال الصاحب قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلا قال له احملني أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسروال ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس

ولو علمنا لباسا من الخز لأعطيناكه (وبلغ) حديث ممن المذكور للعلاء بن أيوب فقال رحمه الله ابن زائدة لو كان يعلم أن الغلام يركب لأمرله به ولكنه كان عربيا خالصا لم يدنس (٧١) بقاذورت الاعاجم انتهى (قيل) أن بيوت الشعر اربعة فخر ومديح وهجاء وتسيب وكان جرير الحل شعراء الاسلام في الاربعة

(فالفخر قوله)

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

(والمديح قوله)

ألستم خير من ركب المطايا
واندى العالمين بطون راح

(والهجاء قوله)

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

(والتسيب قوله)

ان العيون التي في طرفها حور
قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

(وقال أبو عبيدة)

التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير

فانك لاق بالمنازل من منى
فخارا فأخبرني بما أنت فاخر

فقال لهم جرير بلبيك اللهم لبيك قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه (قيل) لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد الشعراء اليه واقاموا ببابه اياما لايؤذن لهم فبينماهم كذلك اذ مربهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر

وروى أن النبي ﷺ قرأ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من ملك الا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأمضيت وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال ياعائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب واياك ومجالسة الاغنياء ولا تستخلفي ثوبا حتى ترقعيه وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال صلاح أول هذه بالزهد واليقين وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل وقيل الحرص ينقص من قدر الانسان ولا يزيد في رزقه وقيل لحكيم ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشباب قال لأنه ذاق من طعم الدنيا مالم يذقه الشاب وأحسن ما قال بعضهم

إذا طاوعت حرصك عبدا ... لكل دنيئة تدعى اليها

(وقال آخر وأجاد)

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب ... ان الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للاسكندر ماسرور الدنيا قال الرضا بمارزقت منها قيل فاغمها قال الحرص عليها وقال الحسن لورأيت الاجل ومروره لنسيت الامل وغروره وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول ألا تعجبون من اسامه اشترى إلى شهران اسامة لطويل الامل وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب فأقول ان الماء منك قريب فيقول مايدريني لعلي ما بلغته وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه لايزال الكبير شابا في اثنين حب المال وطول الامل وقيل لمحمد بن واسع كيف نجدك قال قصير الاجل طويل الامل مسيء العمل وقيل من جرى في عنان امله كان عاثرا باجله لوظهرت الآجال لافتضحت الآمال ولقد أحسن أبو العباس بن مروان في قوله

وذي حرص تراه يلم وفرا ... لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو ... فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال في الاجناس الحقيق

إذا مانازعتك النفس حرصا ... فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه ... وعد فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء اياكم وطول الامل فان من ألهاه أمله أخزاه عمله فاعبد الصمد بن المعدل

ولي أمل قطعت به الليالي ... أراني قد فنيت به وداما

قال الحسن اياكم وهذه الأماني فانه لم يعط أحد بالأمنية خيرا قط في الدنيا ولا في الآخرة وقال قيس ابن ساعده

وما قد تولى فهو لاشك فائت ... فهل ينفعني ليتي ولعلني

(وقال آخر) ولا تتعلل بالاماني فانها ... عطايا احاديث النفوس الكواذب

(وقال آخر وأجاد) الله أصدق والأماني كاذبة ... وجل هذا المنى في الصدر وسواس

(وقال آخر) شط المزار بسعدى وانتهى الامل ... فلا خيال ولا رسم ولا طلل
الارجاء فما ندرى اندركه ... ام يستمر فيأتي دونه الاجل

(وقال أبو العتاهية) لقد لعبت وجد الموت في طلبي ... وان في الموت لي شغلا عن اللعب

فلما رآه جرير داخلا قام إليه وأنشده يا أيها الرجل المرخى عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا فدخل عليه ولم يذكر له شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدى بن أرطاة فقال جرير أبياتا آخرها قوله

لو شميت فكرتى فيما خلقت له ... ما اشتد حرصى على الدنيا ولا طلبى

(وله أيضاً) تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك الزوال

(وقد ضمنت البيت الأخير فقلت)

أيا من عاش فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمر فى قيل وقال

وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمع من حرام أو حلال

هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

(ومما جاء فى الطمع وذمه) قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع وقال رضى الله عنه ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع وفى الحديث إياك والطمع فانه الفقر الحاضر وقال فيلسوف العبيد ثلاثة : عبد رق وعبد شهوة وعبد طمع وقال بعضهم من أراد أن يعيش حرا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع وقيل اجتمع كعب وعبد الله بن كريمة فقال له كعب يا ابن سلام من أرباب العلم ؟ قال الذين يعملون به قال فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن تعلموه قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج إلى الناس ، واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعى فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء الحرص والطمع والحسد فهى تجرى فى أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه قال اسمعيل بن قطرى القراطيسى

حسبى بعلمى أن نفع ... ما الذل إلا فى الطمع

من راقب الله نزع ... عن سوء ما كان صنع

ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

(وقال سابق البربرى)

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى ... سفاها وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع فى سوف ويهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامعه

وقيل لأشعب ما بلغ من طمعك قال أرى دخان جارى فأفت خبزى وقال أيضا ما رأيت رجلين يتساران فى جنازة إلا قدرت ان الميت أوصى لى بشىء من ماله وما زفت عروس إلا كنست بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلى قال بعضهم

لا تخضعن على امرىء ... الك مانع ما فى يديه

واغضب على الطمع الذى ... استدعاك تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الحادى عشر فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب)

قال الله تعالى لنبيه ﷺ وشاورهم فى الأمر واختلف أهل التأويل فى أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه احدها أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل عليه وهذا قول الحسن ثانيها أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل وهذا قول الضحاك ثالثها أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان فى غنية من مشورتهم وهذا قول سفيان وقال ابن عيينه كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمرا شاور فيه الرجال وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر امره ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وإن كان عالما وقال عليه الصلاة والسلام

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة ... قد طال مكثى عن أهلى وأوطانى

قال فدخل عدى على عمر فقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة قال ويحك يا عدى مالى وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح واعطى ولك فى رسول الله عليه الصلاة والسلام اسوة حسنة قال كيف قال امتدحه العباس ابن مرداس السلمى فأعطاه حلة فقطع بها لسانه قال أو تروى من قوله شيئا قال نعم قوله

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلما

ونورت بالبرهان أمرا مدلسا ... واطفأت بالاسلام نارا تضرما

فمن مبلغ عنى النبى محمدا ... وكل امرىء يجزى بما كان قدما

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ... وكان قديما ركنه قد تهدما

فقال عمر ويلك يا عدى من بالباب منهم قال عمر بن أبى ربيعة قال أليس هو الذى يقول

ثم نبهتها فمدت كعابا ... طفلة ما تبين رجع الكلام

ما عاب

ماخاب من استخار ولاندم من استشار ولا افتقر من اقتصد وقال عليه الصلاة والسلام من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل وكان يقال مااستنبط الصواب بمثل المشاورة وقال حكيم المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى * وقال الحسن الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لارجل فأما الرجل الرجل فذو الرأى والمشورة وأما الرجل الذى هو نصف رجل فالذى له رأى ولا يشاور وأما الرجل الذى ليس برجل فالذى له رأى ولا يشاور وقال المنصور لولده خذ عنى اثنتين لاتقل فى غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال الفضل المشورة فيها بركة وانى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية وقال اعرابى لامال أوفر من العقل ولا فقر أعظم من الجهل ولا ظهر أقوى من المشورة وقيل من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة لحقيق ان لايخيب رأيه وقيل الرأى السديد أحمى من البطل الشديد (قال أبوالقاسم النهر وندى)

وما الف مطرور السنان مسدد ... بعارض يوم الروع رأيا مسددا

وقال على رضى الله عنه خاطر من استغنى برأيه وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذ كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فان فساد الرأى أن يترددا

فأضاف إليه قوله وإن كنت ذا عزم فانفذه عاجلا ... فان فساد العزم ان يتقيدا

(لمحمد بن إدريس الطائى) ذهب الصواب برأيه فكأنما ... آراؤه اشتقت من التأييد

فاذا دجا خطب تبلج رأيه ... صبحا من التوفيق والتسديد

(ولمحمد الوراق) ان اللبيب إذا تفرق أمره ... فتق الأمور مناظرا ومشاورا

وأخو الجهالة يستبد برأيه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون فى العهد

لقد بان وجه الرأى لى غير اننى * عدلت عن الأمر الذى كان أحزما * فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما نوزع حتى صار نهبا مقسما * أخاف التواء الأمر بعد استوائه * وان ينقض الحبل الدق كان ابرما

(وقال آخر) خليلى ليس الرأى فى جنب واحد ... أشيرا على اليوم ما تريان

(ووصف) رجل عضد الدولة فقال وجه فيه الف عين وفم فيه الف لسان وصدر فيه الف قلب وقال اردشير بن بابك أربعة تحتاج إلى أربعة الحسب إلى الأدب والسرور إلى الامن والقرابة إلى المودة والعقل إلى التجربة وقال لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير فان الدرة لا تستهان بها لهوان غائصها وقال جعفر بن محمد لا تكونن أول مشير وإياك والرأى الخير وتجنب ارتجال الكلام ولا تشيرن على مستبد برأيه ولا على متلون ولا على لجوج وقيل ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم مهذب الرأى فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب وكم تافذ فى شئ ضعيف فى غيره قال أبو الاسود الدؤلى

وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه ... وما كل مؤت نصحه بلبيب

ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لايجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير ان يعلم الاخر به لمعان شتى منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب اصابة الرأى لأن من طباع المشتركين فى الأمر التنافس والطعن من بعضهم فى بعض وربما سبق احدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه وفى اجتماعهم أيضا للمشورة تعريض السر للاذاعة فاذا كان كذلك وأذيع

ساعة ثم لنها بعد قلت * ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام * فلو كان عدو الله إذ فجر كنتم على تقحمه لكان استر له لايدخل والله على ابدا فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أو ليس الذى يقول

هما دلياني من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أحى نيرجى أم قتيل نحاذره

لايدخل على والله فمن بالباب سواه قال الأخطل قال ياعدى هو الذى يقول

ولست بصائم رمضان طوعا ... ولست بآكل لحم الأضاحى

ولست بزاجر عيسا بكورا ... إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بزائر بيتا عتيقا ... بمكة أبتغى فيه صلاحى

ولست بقائم بالليل أدعو ... قبيل الصبح حى على الفلاح

ولكنى سأشربها شمولا ... وأسجد عند منبلج الصباح

والله لايدخل على وهو كافر أبدا فمن بالباب سوى من ذكرت قال الاحوص قال أليس الذى يقول

الله بينى وبين سيدها ... يفر منى بها وأتبعه

فما هو بدون من ذكرت فمن هنا أيضا قال جميل بن معمر قال أليس هو الذى يقول

ألا ليتنا نحيا جميعا وان امت ... يوافق فى الموتى ضريحى ضريحها * فلو كان عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحا لكان أصلح

والله لايدخل على أبدا فهل سوى من ذكرت أحد قال جرير قال اما هو الذى يقول طرقتك صائدة القلوب وليس ذا *

السرلم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للايهام فان عاقب الكل عاقبهم بذنب واحدوان عفاعنهم ألحق الجاني بمن لاذنب له وقيل إذا أشار عليك صاحبك برأى ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوما وعتابا بأن تقول أنت فعلت وأنت أمرتني ولولا أنت فهذا كله ضجرولوم وخفة ه وقال أفلاطون إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك وقيل من بذل نصحه واجتهاده لمن لايشكره فهو كمن بذر في السباخ قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة

بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال الاحنف لاتشاور الجائع حتى يشبع ولا العطشان حتى يروى ولا الاسير حتى يطلق ولا المقل حتى يجد (ولما) أرادنوح بن مريم قاضي مروان أن يزوج ابنته استشار جارا له مجوسيا فقال سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني قال لابد أن تشير على قال ان رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ورئيس العرب كان يختار الحسب ورئيسكم محمد كان يختار الدين فانظر لنفسك بمن تقتدى وكان يقال من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وقيل إذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد رأيه فقد قضى ماعليه ويقضى الله تعالى في أمره مايحب وقال بعضهم خمير الرأى خير من فطيره وتقديمه خير من تأخيره وقالت الحكماء لاتشاور معلما ولاراعي غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة تريد قضاءها ولا خائفا ولا حاقنا وقيل سبعة لاينبغي لصاحب لب ان يشاورهم جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذي هوى فان الجاهل يضل والعدو يريد الهلاك والحسود يتمنى زوال النعمة والمرائي واقف مع رضا الناس والجبان من رأيه الهرب والبخيل حريص على جمع المال فلا رأى له في غيره وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته (وحكى) ان رجلا من أهل يثرب يعرف بالاسلمي قال ركبني دين اثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي إلى ما لا بد منه وضاقت على الأرض ولم أهتد إلى ماأصنع فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأى فأشار على بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق فقلت له تمنعني المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب ثم اني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره فوالله ما زادني على ماذكره الصديق الأول فرأيت ان قبول المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له أصلح الله الامير اني قطعت اليك الدهناء وضربت أكباد الابل من يثرب فانه اشار على بعض ذوي الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتي فقال هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة فقلت لا ولكني رأيتك أهلا لقضاء حاجتي فان قمت بها فأهل لذلك أنت وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع إليه مافي خزانة مالنا الساعة فأخذني معه فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها إلى فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحا وسرورا ثم عاد الحاجب به إليه مسرعا فقال هل ماوصلك بقوم بقضاء حاجتك فقلت نعم أيها الأمير وزيادة فقال الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جنى مشورتك وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا قال الاسلمي فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه

يامن على الجود صاغ الله راحته فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الأرض قاطبة

وقت الزيارة فارجعي بسلام فإن كان ولابد فهو الذي يدخل فلما مثل بين يديه قال ياجرير اتق الله ولا تقل إلا حقا فانشده قصيدته الرائية المشهورة التي منها إنا لنرجوا إذا ما الغيث أخلفنا

من الخليفة مانرجو من المطر
نال الخلافة أو كانت له قدرا
كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير مادمت حيا لايفارقنا
بوركت ياعمر الخيرات من عمر

فقال ياجرير ماأرى لك فيما ههنا حقا قال لي ياأمير المؤمنين إني ابن سبيل ومنقطع فقال له ويحك ياجرير قد ولينا هذا الامر ولا نملك الا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبدالله ومائة اخذتها ام عبدالله ياغلام اعطه المائة الباقية قال فأخذها جرير وقال والله لهي أحب مال اكسبته ثم خرج فقال له الشعراء ماوراءك فقال مايسوءكم خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عليه لراض وأنشد

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقيا

(ومن لطائف الظرف) ما حدث ابراهيم بن المهدي قال قال لي جعفر يوما اني استأذنت امير المؤمنين في الخلوة غدا فهل انت مساعدي فقلت جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثتك قال فبكر الا بكور

أنت

فانت والجود منحوتان من عود   من استشار فباب النجح منفتح   لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني ووسعت على أهلي وجازيت المشير علي وعاهدت الله تعالى أن لا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت (وحكي) عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي وكان واليا على الكوفة ما فسد عقيدته فيه وأوحشه منه وصرف وجه ميله إليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه وتأرق جفنه وقل أمنه وتزايد خوفه وحزنه فقادته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره واستحضر ابن عمه عيسى ابن موسى وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له يا ابن العم اني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي فقال له عيسى بن موسى أنا أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه فقال أن عمي وعمك عبد الله صدت بطانته واعتمد على بعضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا فخذه إليك واقتله سرا ثم سلمه إليه وعزم المنصور على الحج مضمرا ان ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله الزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصا فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى قال عيسى فلما أخذت عمي وفكرت في قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي أصيب الصواب في ذلك فاحضرت يونس بن فرة الكاتب وكان لي حسن ظن في رأيه وعقيدة صالحة في معرفته فقلت له أن أمير المؤمنين دفع إلي عمه عبد الله وأمرني بقتله وإخفاء أمره فما رأيك في ذلك وما تشير به فقال لي يونس أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين فإني ارى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل احد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه وتجعل دونه مغالق وأبوابا وأظهر لأمير المؤمنين انك قتلته وأنفذت أمره فيه وانتهيا إلى العمل بطاعته فكاني به إذا تحقق منك انك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤوس الاشهاد فان اعترفت انك قتلته بامره انكر امره لك وآخذك بقتله وقتلك قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها واظهرت لأمير المؤمنين أني انفذت امره ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه انني قد قتلت عمه عبد الله دس إلى عمومته اخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه في أخيهم ويستوهبوه منه فجاءوا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم فسألوه في عبد الله فقال نعم في حقوقكم تقتضي اسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو في مقام الوالد ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فاحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين فقال المنصور قد سألني فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فائتنا به الساعة قال عيسى فقلت يا أمير المؤمنين الم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك قال كذبت لم آمرك بذلك ولو اردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك ثم اظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيكم مدعيا انني أمرته بقتله وقد كذب علي قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به قال عيسى فاخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس علي فقام واحد من عمومتي إلى سل سيفه ليضربني به فقلت له يا عم فاعل أنت قال أي والله

الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرني للميعاد فصلينا ثم أفضينا إلى الحديث وقدم الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا خلعت علينا ثياب المنادمة ثم ضمخنا بالخلوق ومدت الستائر ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال إذا أتى عبد الملك فائذن له يعني قهرمانا له فاتفق أن جاء عبد الملك بن صالح الهاشمي شيخ الرشيد وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل وكان الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحا واحدا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه فلما رفع الستر وطلع علينا سقط في أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتفاع له ثم قام اجلالا له فلما نظر إلى تلك الحال دعا غلامه فدفع إليه سيفه وعمامته ثم قال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال فجاء إليه الغلمان فطرحوا عليه الثياب الحرير وضمخوه ودعى بالطعام فطعم وشرب ثلاثا ثم قال ليخفف عني فانه شيء ما شربته والله فتهلل وجه جعفر وفرح ثم التفت إليه فقال جعلت فداك بالغت في الخير والفضل فهل من حاجة تبلغ إليها قدرتي وتحيط بها نعمتي فاقضيها مكافأة لما صنعت قال بلى أن في قلب أمير المؤمنين علي غضبا فتسأله الرضا عني فقال له جعفر قد رضي أمير المؤمنين عنك ثم قال وعلي عشرة آلاف دينار فقال هي حاضرة من مالي ومن مال أمير المؤمنين مثلها ثم قال وابني إبراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أمير

كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي فقال لهم لا تعجلوا وردوني إلى أمير المؤمنين فردوني إليه فقلت يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله والذي دبرته علي عصمني الله تعالى من فعله وهذا عمك باق حي سوي فان أمرتني بدفعه إليهم دفعته الساعة فاطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت أعصارا وإن انفراده بتدبيره قارف خسارا ثم رفع رأسه وقال ائتنا به فمضى عيسى وأحضر عبدالله فلما رآه المنصور قال لعمومته أتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأيا قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحي وزالت كربي وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها ثم ان المنصور أسكن عبدالله في بيت أساسه قد بني على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات عبدالله ودفن بمقابر باب الشام وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مراميها البعيدة

(ومما جاء في النصيحة) اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه الصلاة والسلام ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين وقال صالح عليه السلام ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم. فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد في رد العصاة إلى طاعته قولا وفعلا ، والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه والذب عنه من تأويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب والنصيحة للرسول عليه السلام أحياء سنته بالطلب لها وأحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالأخلاق الطاهرة ، والنصيحة للأئمة ومعاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة وإرشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء واعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ورد القلوب النافرة إليهم ، والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقي ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم (واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولوا العزم وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره وفي منثور الحكم ردك من نصحك وقلاك من مشى في هواك وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ان شئتم لأنصحن لكم أن أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله تعالى الى عباده ويعملون في الأرض نصحا ولورقة بن نوفل .

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته ... الا الإله ويردي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما ذخائر ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد اني قد أعددتك لأمر قال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قد أعد لك مني قلبا معقودا بنصيحتك ويدا مبسوطة لطاعتك وسيفا مجردا على عدوك وأنشد الأصمعي .

النصح أرخص ما باع الرجال فلا ... ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهلها ... على الرجال ذوي الألباب والفهم

المؤمنين قال فزوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال وأحب أن تخفق على رأسه الألوية قال قد ولاه أمير المؤمنين مصر فانصرف عبد الملك ابن صالح قال ابراهيم بن المهدي فبقيت متحيرا (٧٦) متعجبا من إقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية ولكن من أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بنات الرشيد فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأرى ما يكون فدخل جعفر فلم يلبث حتى دعا بأبي يوسف القاضي وابراهيم بن عبد الملك ابن صالح فخرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد وعقد له على مصر والرايات والألوية بين يديه وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر فأشار الينا فقال تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره فلما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال كيف كان يومك يا جعفر فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك وكان متكئا فاستوى جالسا قال ايه والله أبوك فقال سألني في رضا أمير المؤمنين قال فبم أجبت قلت قد رضي أمير المؤمنين عنك قال قد رضيت ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار قال فبم أجبته قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قضيت قلت وذكر أنه راغب في أن يشد ظهر ولده ابراهيم بصهر منك قال فبم أجبته قلت قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال قد أمضيت ذلك ثم ماذا لله أبوك قلت وذكر أنه يشتهي أن تخفق على رأسه

ولماذا

ولمعاذين مسلم : نصحتك والنصيحة إن تعدت هوى المنصوح عزلها القبول
فخالفت الذي لك فيه حظ فنالك دون ما أملت غول

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز :

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمارة نادما أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر
فنفسك أول اللوم إن كنت لائماً فما أنا بالباكي عليك صبابة وما أنا بالداعي لترجع سالما

ويقال من اصفر وجهه من النصيحة أسود لونه من الفضيحة وقال طرفة

ولا ترفدن النصح من ليس أهله ولكن حين تستغني برأيك غاليا
وإن امرأ يوما تولى برأيه فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا

وفي مثله قال بعضهم من الناس من إن يستشرك فتجتهد له الرأي يستغششك ما لم تتابعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثاني عشر في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك ﴾

قال الله تعالى ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وقال الله تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وقال الله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمه الله تعالى عليه في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم أن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى ما على الرسول إلا البلاغ ، وقال محمد بن تمام الموعظة جند من جنود الله تعالى ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثره ، ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه وتكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في إيلامه فإن العاقل يتعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب وأنشد الجاحظ

ليس يزجركم ما توعظون به والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

وكتب رجل إلى صديق له أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستح من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك والسلام وقيل من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ وقال لقمان الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام إنك إن أتيتني بعبد آبق كتبتك عندي ومن كتبته عندي حميداً لم أعذبه بعدها وقال الرشيد لمنصور ابن عمار عظني وأوجز فقال يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك قال لا قال إن أردت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل وقال النبي ﷺ في بعض خطبه أيها الناس الأيام تطوى والأعمار تفنى والأبدان في الثرى

ولده إبراهيم الأولية قال فيم أجبته قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته فأحضر إبراهيم والقضاة والفقهاء وأتم له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أيهم أكرم وأعجب ما ابتداء (٧٧) عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر ولم يكن شربها قط ولباسه ليس من لبسه من ثياب المنادمة أم أقدام جعفر على الرشيد بما أقدم امضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه (ومن لطائف المنقول) ما حكي عن أبي معشر البلخي المنجم الإمام المصنف صاحب التصانيف المفيدة في علم النجوم قيل إنه كان متصلاً بخدمة بعض الملوك وإن ذلك الملك طلب رجلاً من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التي يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة فأراد أن يعمل شيئاً حتى لا يهتدي إليه ويبعد عنه حدسه فأخذ طستاً وجعل فيه دماً وجعل في الدم هاون ذهب وقعد على الهاون أياماً وتطلبه الملك وبالغ في الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب إظهاره فعمل المسألة التي يستخرج بها وسكت زماناً حائراً فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال أرى شيئاً عجيباً فقال وما هو قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحر من دم ولا أعلم في العالم موضعاً على هذه الصفة فقال له أعد نظرك ففعل ثم قال ما أرى إلا ما ذكرت هذا شيء ما وقع لي مثله فلما أيس الملك من تحصيله نادى في البلد بالأمان للرجل ولما أخفاه فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين

يدى الملك فسأله عن الموضع الذى كان فيه فأخبر بما اعتمدعليه فأعجبه حسن احتياله فى إخفاء نفسه ولطافة أبى معشر المنجم فى استخراجه وله غير ذلك من الإصابات (قال قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان) ومما يناسب هذا من فطن المتطببين ما رواه الحسين ابن ادريس الحلوانى قال سمعت الامام محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه يقول ما أفلح سمين قط. إلا أن يكون محمد بن الحسن قيل له ولم ذلك قال لانه لا يعدو العاقل احدى خلتين اما أن يهتم لآخرته ومعاده أولدنياه ومعاشه والشحم مع الهم لا ينعقد ثم قال وكان بعض ملوك الارض قديما كثير الشحم لا ينتفع بنفسه فجمع الحكماء وقال احتالوا لى بحيلة يخف عنى لحمى هذا قليلا قال فما قدروا له على شىء فجاءه رجل عاقل لبيب متطبب فقال عالجنى ولك الغنى قال أصلح الله الملك أنا طبيب منجم دعنى حتى أنظر الليلة فى طالعك لأرى أى دواء يوافقه فلما أصبح قال أيها الملك الامان فلما أمنه قال رأيت طالعك يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر واحد فان اخترت عالجتك وإن أردت بيان ذلك فاحبسنى عندك فان كان لقولى حقيقة فخل عنى والا فاقتص منى قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهى واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتما فكلما انسلخ يوم ازدادهما وغما حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يوما فبعث إليه وأخرجه فقال ماترى فقال أعز الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله إنى لم أعلم عمري فكيف أعلم

تبلى وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات * ولما لقى ميمون بن مهران والحسن البصرى قال له لقد كنت أحب أن ألقاك فعظنى فقرأ الحسن البصرى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتنى أحسن موعظة ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليا رضى الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وقال أوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ولا تأسفا على شىء فاتكما منها فانكما عنها راحلان فملا الخير وكونا للظالم خصما والمظلوم عونا ثم دعا محمداً ولده وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فانى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما وقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أباه كان يحبه فأحباه ثم قال يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى مغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الصديق والعدو والعمل فى النشاط والكسل والرضا عن الله فى الشدة والرخاء يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية يا بنى من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغى قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الانذال احتقر ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن أكثر من شىء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار يا بنى الأدب ميزان الرجل وحسن الخلق خير قرين يا بنى العافية عشرة اجزاء تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله تعالى وواحد فى ترك مجالسة السفهاء يا بنى زينة الفقر الصبر وزينة الغنى الشكر يا بنى لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية يا بنى الحرص مفتاح التعب ومطية النصب (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء وترك لكم جميع ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له وقال الاوزاعى للمنصور فى بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ماهذه الجريدة التى بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا فكيف بمن سفك دماء المسلمين وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين أن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيا من غير تعمد يا أمير المؤمنين لو أن ذنوبا من النار صب ووضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتجرعه ولو أن ثوبا من النار وضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يتسلسل بها ويرد فضلها على عاتقه وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال قلت لجعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكان والى المدينة أحذر أن يأتى رجل غدا ليس له فى الاسلام نسب ولا أدب ولا جد فيكون أولى برسول الله ﷺ منك كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ومن ابطأ به

عمله

عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه وروى زياد عن مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه قال لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قد دخلنا عليه وهو جالس على فرس وبين يديه أنطاع قد بسطت وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الاعناق فأومأ الينا ان اجلسا فجلسنا فاطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس وقال حدثنى عن أبيك قال سمعت أبى يقول قال رسول الله ﷺ ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اشركه الله تعالى فى ملكه فادخل عليه الجور فى حكمه فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال مالك فضممت ثيابى مخافة أن ينالها شىء من دم ابن طاوس ثم قال ابن طاوس ناولنى هذه الدواة فأمسك عنه فقال ما يمنعك أن تناولنيها قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عنى فقال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغى قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب الاحبار يا كعب خوفنا قال أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قال بلى يا كعب ولكن خوفنا فقال يا أمير المؤمنين اعمل فانك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر رضى الله عنه رأسه وأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه يقول يارب لا أسألك اليوم إلا نفسى . وقال سيدى الشيخ أبو بكر الطرطوشى رحمه الله تعالى عليه ودخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر فقلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا وأكرمنى أكراما جزيلا وأمرنى بدخول مجلسه وأمرنى بالجلوس فيه فقلت أيها الملك ان الله تعالى قد أحلك محلا عليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك من حكمه ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك وليس الشكر باللسان وانما هو بالفعال والاحسان قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا . واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير قال الله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون، وقال تعالى وان تك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد اتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك اجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربى ليبلونى اشكر أم أكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وأغث الملهوف اعانك الله على نصر المظلوم وجعلك كهفا للملهوف واماناً للخائف ثم اتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة وارتحت اليها ولذت لى الاقامة فيها غير هذه المملكة ثم انشدته

والناس اكيس من ان يحمدوا رجلا ... حتى يروا عنده آثار احسان

(وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد سنة من السنين فبينما انا نائم ذات ليلة اذ سمعت قرع

عمرك ولكن لم يكن عندى دواء إلا الغم فلم أقدر أجلب اليك الغم إلا بهذه الحيلة فان الغم يذيب الشحم فأجازه على ذلك وأحسن اليه غاية الاحسان وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم (قلت) ويعجبنى قول جعفر بن شمس الخلافة فى هذا المعنى

هى شدة يأتى الرخاء عقيبها ... وأسى يبشر بالسرور العاجل

وإذا نظرت فان بؤسا عاجلا ... للمرء خير من نعيم زائل

(ويعجبنى قوله وإن كان فى غير ما نحن فيه)

مدحتك ألسنة الانام مخافة ... وتشاهدت لك بالثناء الأحسن

اترى الزمان مؤخرا فى مدتى ... حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

(نادرة لطيفة) نقل عن قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه أن الجنيد قال ما انتفعت بشىء كانتفاعى بابيات سمعتها قيل له وماهى قال مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغنى من دار وتقول هذه الابيات

إذا قلت اهدى الهجر الى حلل الاسى ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحب

وان قلت ما اذنبت قالت مجيبة ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

فصعقت وصحت فبينما انا كذلك اذ خرج صاحب الدار فقال ماهذا ياسيدى فقلت له مما سمعت فقال انها هبة منى اليك فقلت قد قبلت وهى حرة لوجه الله تعالى ثم دفعها لبعض اصحابنا بالرباط فولدت منه ولدا نبيلا حج على قدميه ثلاثين

الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت أتيتك فقال ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم فانظر لي رجلا أسأله عنه فقلت ههنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال جد لما جئناله فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق بن همام فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا قلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال جد لما جئنا به فحادثه ساعة ثم قال أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض فقال امض بنا إليه فأتيناه فاذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالي ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما تجب عليك طاعته ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه فقال أواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي فقال جد لما جئنا رحمك الله تعالى فقال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم اني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله ان اردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت وقال محمد بن كعب ان اردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال رجاء بن حيوة ان اردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فاحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متى شئت مت واني لأقول هذا واني لاخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له فق يا أمير المؤمنين فقال يا ابن الربيع قتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق هرون الرشيد فقال زدني فقال يا امير المؤمنين بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا اليه سهرا فكتب له عمر يقول يا اخي اذكر سهر اهل النار في النار وخلود الابدان فان ذلك يطرد بك إلى ربك نائما ويقظان واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما اقدمك فقال له لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي ﷺ جاء اليه فقال يا رسول الله امرني امارة فقال له النبي ﷺ يا عباس نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت ان لا تكون أميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدني يرحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت أن تقي هذا الوجه من النار

فافعل

حجة (وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي علي الفارسي) انه كان يوما يساير عضد الدولة بن بويه في ميدان سيران فقال له لم انتصب المستثنى في قولنا قام القوم الا زيدا فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره استثنى زيدا فقال له عضد الدولة هل رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع وقال هذا الجواب ميداني ثم انه لما رجع الى منزله وضع في ذلك كلاما حسنا وحمله اليه فاستحسنه (وحكى) أبو القاسم أحمد الاندلسي قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر فقال إني لأغبطكم على قول الشعر فان خاطري لا يوافقني إلى ذلك مع تحقيق العلوم التي هي من معاده فقال رجل فما قلت قط شيئا منه قال ما أعلم ان لي شعرا غير ثلاثة أبيات في الشيب وهو قولي

خضبت الشيب لما كان عيبا
وخضب الشيب اولى ان يعابا
لم اخضب مخافة هجر خل
ولا عيبا خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميا
فصيرت الخضاب له عقابا

(ومن لطائف المنقول) ان ابا محمد الوزير المهلبي كان في غاية الأدب والمحبة لاهله وكان قبل ايصاله بمعز الدولة بن بويه في شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة وسافر وهو على تلك الحالة ولقي في سفره شدة عظيمة فاشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالا ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش مالا خير فيه

فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فان النبي ﷺ قال من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له أعليك دين قال نعم دين لربي يحاسبني عليه فالويل لي ان ناقشني والويل لي ان سألني والويل لي ان لم يلهمني حجتي قال هرون انما أعني دين العباد قال ان ربي لم يأمرني بهذا وانما أمرني ان أصدق وعده وأطيع أمره قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هرون هذه ألف دينار خذها وانفقها على عيالك وتقوبها على عبادة ربك فقال سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لي هرون إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا هذا سيد المسلمين اليوم (اعلم) أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات قال سليمان الخواص من وعظ أخاه فيما بينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الأشهاد فانما بكته * وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها من وعظ أخاه سرا فقد سره وزانه ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه ويقال من وعظ أخاه سرا نصحه وسره ومن وعظه جهرا فقد فضحه وضره * وعن عبدالعزيز بن أبي رواد قال كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئا أمره في ستر ونهاه في ستره فيؤجره ويؤجر في أمره ويؤجر في نهيه وعن عمر رضي الله تعالى عنه إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه وسددوه وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

﴿الباب الثالث عشر في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول﴾

(الفصل الأول في الصمت وصون اللسان) قال الله تعالى ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال تعالى إن ربك لبالمرصاد (واعلم) أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاما تظهر المصلحة فيه ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الامساك عنه لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شيء ورويناه في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت قال الشافعي رضي الله تعالى عنه في الأم إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فان ظهرت المصلحة تكلم وإن شك لم يتكلم حتى تظهر ورويناه في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله أي المسلمين أفضل قال من سلم الناس من لسانه ويده ورويناه في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه تعالى عنه قال قلت يا رسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك قال الترمذي حديث حسن ورويناه في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله تعالى (وأما الآثار) عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها * فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه كم وجدت في ابن آدم من العيوب فقال هي أكثر من أن تحصر وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها قال وما هي قال حفظ اللسان وقال الإمام

ألا موت لذيذ الطعم يأتي يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبرا من بعيد وددت لو أنني فيما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

وكان له رفيق يقال له أبو عبدالله الصوفي وقيل أبو الحسن العسقلاني فلما سمع الأبيات اشترى له لحما بدرهم وطبخه وأطعمه وتفارقا وتنقلت الأحوال وولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه

ألا قل للوزير فدته نفسي مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضيق عيش ألا موت يباع فأشتريه

(فلما وقف عليها تذكر الحال وهزته أريحية الكرم فأمر له بسبعمائة درهم ووقع له في رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق منه انتهى) (وذكر الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص) ما مثاله قال حماد الراوية كان انقطاعي الى يزيد بن عبدالملك بن مروان في خلافته وكان أخوه هشام يجفوني لذلك فلما مات يزيد وأفضت الخلافة الى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج الا لمن أثق به من اخواني سرا فلما لم أسمع أحدا ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة فاذا شرطيان قد وقفا علي وقالا يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي وكان واليا على

الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فانك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع ان لم توثقه عدا عليك ولحقك شره ومما أنشدوه في هذا الباب

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك أنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الفارسي لعمرك أن في ذنبي لشغلا ... لنفسي عن ذنوب بني أمية

على ربي حسابهم إليه ... تناهى علم ذلك لا إليه

وقال علي رضي الله عنه إذا تم العقل نقص الكلام وقال اعرابي رب منطق صدع جمعا وسكوت شعب صدعا وقال وهب بن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشرة في عزلة الناس وقال علي بن هشام رحمة الله تعالى عليه

لعمرك أن الحلم زين لأهله ... وما الحلم إلا عادة وتحلم

إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة ... وعي فان الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة من حرم الخير فليصمت فان حرمهما فالموت خير وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه عليك بالصمت إلا من خير فانه مطردة للشيطان وعون على أمر دينك ومن كلام الحكماء من نطق في غير خير فقد لغا ومن نظر في غير اعتبار فقد سها ومن سكت في غير فكر فقد لها وقيل لو قرأت صحيفتك لأغمدت صحيفتك ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقال له الا تتكلم فقال الكلام صيرني في بطن الحوت وقال حكيم إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا اعجبك الصمت فتكلم وكان يقال من السكوت ماهو ابلغ من الكلام لأن السفيه إذا سكت عنه كان في اغتنام وقيل لرجل بم سادكم الأحنف فوالله ما كان باكبركم سنا ولا باكثركم مالا فقال بقوة سلطانه على لسانه وقيل الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فاذا تكلم بها صار في وثاقها وقيل اجتمع أربعة ملوك فتكلموا فقال ملك الفرس ما ندمت على مالم أقل مرة وندمت على ما قلت مرارا وقال قيصر انا على رد مالم أقل أقدر مني على رد ما قلت وقال ملك الصين ما لم أتكلم بكلمة تكلمتها فاذا تكلمت بها ملكتني وقال ملك الهند العجب ممن يتكلم بكلمة أن رفعت ضرت وان لم ترفع لم تنفع وكان بهرام جالسا ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه فقال ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والانسان لو حفظ لسانه ما هلك وقال علي رضي الله تعالى عنه بكثرة الصمت تكون الهيبة وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع وان أكثرت منه قتل وقال لقمان لولده يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن فيقلن بخير أن تركتنا قال الشاعر احفظ لسانك لا تقول فتبتلي ... ان البلاء موكل بالنطق

(الفصل الثاني في تحريم الغيبة) أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو ولده او والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت اليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك فأما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل

العراق فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف ثم قلت لهما تدعاني حتى آتي أهلي وأودعهم ثم أسير معكما فقالا ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت في أيديهما ثم صرت إلى يوسف بن عمر وهو في الايوان الأحمر فسلمت عليه فرد على السلام ورمى إلى بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف ابن عمر اما بعد فاذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا يسير عليه ثنتي عشرة ليلة إلى دمشق فأخذت الدنانير ونظرت فاذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثنتي عشرة ليلة فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك فسلمت عليه فرد على السلام واستدناني فدنوت منه حتى قبلت رجله فاذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط فقال كيف أنت وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين فقال اتدري فيما بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله قلت وما هو يا أمير المؤمنين قال

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت ... قينة في يمينها ابريق

فقلت بقوله عدى بن زيد العبادي في قصيدة قال أنشدنيها فأنشدته

بكر العاذلون في وضح الصبح ... يقولون لي أما تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله ... والقلب عندكم موثوق

فى النجاسات ليس بارا بو الديه قليل الادب لا يضع الزكاة مواضعها لا يجتنب الغيبة وأما البدن فكقولك أعمى أو اعرج أو أعمش أو قصير أو أسود او أصفر وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الادب متهاون بالناس لا يرى لاحد عليه حقا كثير النوم كثير الاكل وما أشبه ذلك أو كقولك فلان أبوه نجار أو اسكاف أو حدادا أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيء الخلق متكبر مراء معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل واسع الثوب ونحو ذلك وقد روى فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل وان كان فى اخى ما اقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته قال الترمذى حديث حسن صحيح وروينا فى سنن ابى داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت للنبى ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا قال بعض الرواة تعنى قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها وروينا فى سنن ابى داود عن انس رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ لما عرج بى إلى السماء مررت بقوم لهم اظافر من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى اعراضهم وروى عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال اياكم والغيبة قال الغيبة اشد من الزنا ثم قال رسول الله ﷺ أن الرجل ليزنى فيتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها وعن انس رضى الله تعالى عنه قال من اغتاب المسلمين واكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى الويل والثبور يعرف اهله ولا يعرفونه وقال معاوية بن قرة افضل الناس عند الله اسلمهم صدرا واقلهم غيبة وقال الاحنف فى خصلتان لا اغتاب جليسى إذا غاب عنى ولا ادخل فى أمر قوم لا يدخلونى فيه ✲ وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب احدا فقال لست عن نفسى راضيا فأتفرغ وانشد لذم الناس

لنفسي ابكي لست ابكي لغيرها   لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

وقال كثير عزة   وسعى إلى بعيب عزة نسوة   جعل الإله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم اول من عمل الصابون سليمان واول من عمل السويق ذو القرنين واول من عمل الخيش يوسف واول من عمل خبز الجرادق نمروذ واول من كتب فى القراطيس الحجاج واول من اغتاب ابليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام ✲ واوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام ان المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة وإن اصر فهو اول من يدخل النار ويقال لا تأمن من كذب لك ان يكذب عليك ومن اغتاب عندك غيرك ان يغتابك عندك غيرك وقيل للحسن البصرى رضى الله تعالى ان فلانا اغتابك فأهدى اليه طبقا من رطب فأتاه الرجل وقال له اغتبتك فأهديت إلى فقال الحسن اهديت إلى حسناتك فأردت ان اكافئك وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال لو كنت مغتابا احدا لاغتبت والدى لأنهما احق بحسناتى وإذا حاكى انسان انسانا بان يمشى متعارجا او متطأطئا اوغير ذلك من الهيآت يريد تنقيص بذلك فهو حرام وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضا به كما يفهم بالتصريح فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا الله يغفر لنا الله يصلحه نسأل الله العافية نحمد الله الذى لم يبتلينا بالدخول على الظلمة نعوذ

لست أدى إذا كثر العذل فيها   أعذول يلومني أم صديق

(قال حماد فانتهيت فيها إلى قوله)

ودعو بالصبوح يوما فجاءت   قينة فى يمينها ابريق

قدمته على عقار كعين الديك صفى سلافها الراووق

مرة قبل مزجها فاذا ما   مزجت لذ طعمها من يذوق

قال فطرب هشام ثم قال أحسنت ياحماد سل حاجتك قلت احدى الجاريتين قال هما جميعا لك بما عليهما ومالهما فأقام عنده مدة ثم وصله بمائة الف درهم قلت انظرنا ايها المتأمل إلى نفاق رخيص الادب فى ذلك العصر وكساد غاليه فى هذا العصر وبشهادة الله أن البيت الذى طلب حماد الراوية بسببه من بغداد إلى دمشق فى اثنى عشرة ليلة واجيز عليه الجاريتين والمائة الف درهم تأنف نفسي أن اضمه فى قصيدة من قصائدى لرخصه وسفالته وهو

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت   قينة فى يمينها ابريق

(وكنت اود) ان اكون فى ذلك العصر ويسمع هشام بن عبد الملك قولى فى هذا الباب من قصيدة قلتها

فى ليلة رقم البدر المنير لها   طارا به العصا الجرزا نقرات

وبات لى من الماء إذ تبسم لى   تحت الضفائر صيحات

والراح دق على فهمى تصورها   لكن لما ضاع فى الكاسات نفحات

كانت علامة تحقيق وقال فى   هى المنازل لى فيها علامات

مذ انشأتنا سجعنا فى محاسنها   مفرديني وللانشاء سجعات

بالله من الكبر يعافينا الله من قلة الحياء الله يتوب علينا وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة (واعلم) أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها ويجب على من يستمع انسانا يبتدىء بغيبة أن ينهاه ان لم يخف ضررا فان خافه وجب عليه الانكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس ان تمكن من مفارقته فان قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك قال بعض العلماء ان ذلك نفاق قال الله تعالى وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ومما أنشدوه فى هذا المعنى

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به فانك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه وكم أزعج الحرص من طالب فوافى المنية فى مطلبه

(الفصل الثالث فى تحريم السعاية بالنميمة) قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيله سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصرى هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة وقال على والحسن البصرى رضى الله عنهما العتل الفاحش السيء الخلق وقال ابن عباس رضى الله عنهما العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الأكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة وقال الكلبى هو الشديد فى كفره وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذى لا يعرف من أبوه قال الشاعر

زنيم ليس يعرف من أبوه بغى الأم ذو حسب لئيم

وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال لا يدخل الجنة نمام وروى أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله قال الامام أبو حامد الغزالى رحمة الله تعالى عليه النميمة انما تطلق فى الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا فينبغى للانسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس الا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية وينبغى لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم إليه لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر وان ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه فى الله تعالى فانه بغيض عند الله والبغض فى الله واجب وان لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له انصرف حتى أكشف عنك فكشف عنه فان هو ابن بغى يعنى ولد زنا قال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه لا ينم على الناس إلا ولد بغى وروى أن النبى ﷺ قال الا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز ملعون كل قتات ملعون كل نمام ملعون كل منان والشغاز المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام والمنان والذى يعمل الخير ويمن به وأما الغاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهى المهلكة والحالقة لأنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفس والاموال فى النوازل والاحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المسكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعى ساع وكم حريم استبيح بنميمة نمام وكم من صفيين تباعدا وكم

من

رقدت فلم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر ولم تدر بعد ذهاب الرقا دماصنع الدمع بالناظر وقال بعض من كان يحضر مجلس المبرد كنا نختلف إليه فاذا كان آخر المجلس أملى علينا من طرف الاخبار وملح الاشعار ما نرتاح إلى تحفظه فأنشدنا يوما مرثية زياد الاعجم فى المغيرة بن المهلب التى منها

فاذا مررت بقبره فاعقر له كوم الهجان وكل طرف سابح وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبائح

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها فى لسانى لأحفظها فاذا بشيخ قد خرج من خربة وفى يده حجر فهم أن يرمينى به فتترست بالمحبرة والدفتر فقال ماذا تقول أتشتمنى فقلت اللهم لا ولكنى كنت عند أستاذنا أبى العباس المبرد فأنشدنا مرثية زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلب فقال له إيه إيه أنشدنى ما أنشدكم باردكم لا مبردكم فأنشدته فقال والله ما أجود الراثى ولا أنصف المرثى ولا أحسن الراوى قلت له فما عساه أن يقول قال كان يقول

احملانى ان لم يكن لكما عقـ ـر إلى جنب قبره فاعقرانى

من متواصلين تقاطعا وكم من محبين افترقا وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا فليتق الله ربه عز وجل رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغى لساع أو يستمع لنمام ٭ ووجد فى حكم القدماء أبغض الناس إلى الله ثلاث قال الأصمعى هو الرجل يسعى بأخيه إلى الأمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات وفى المثل السائر من أطاع الواشى ضيع الصديق وقد تقطع الشجرة فتنبت ويقطع اللحم السيف فيندمل واللسان لا يندمل جرحه .
ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيرا فكتب اليه على ظهرها النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعى لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وروينا فى كتاب أبى داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر ، ومن الناس من يتلون ألوانا ويكون بوجهين ولسانين فيأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وذو الوجهين لايكون عند الله وجيها قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى

قل للذى لست أدرى من تلونه ... أناصح أم على غش يناجينى
إنى لأكثر مما سمتنى عجبا ... يد تشج وأخرى منك تأسونى
تغتابنى عند أقوام وتمدحنى ... فى آخرين وكل عنك يأتينى
هذان شيئان قد نافيت بينهما ... فاكفف لسانك عن شتمى وتزيينى

وقيل لألف لحوح جموح خير من واحد متلون وكان يشبه المتلون بأبى براقش وأبى قلمون فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون فى اليوم ألوانا وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانه ويقال للطائش الذى لاثبات معه أبو رياح تشبيها بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح وبيمناه ممدودة واصابعها مضمومة الا السبابة فاذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به فانه يدور بأضعف نسيم يصيبه والذى يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضا ويقال أخلاق الملوك مثل فى المتلون قال بعضهم

ويوم كأخلاق الملوك تلونا ... فصحو وتغييم وطل ووابل
أشبهه إياك يامن صفاته ... دنو واعراض ومنع ونائل

وكلم معاوية الأحنف فى شىء بلغه عنه فأنكره الأحنف فقال له معاوية بلغنى عنك الثقة فقال له الاحنف ان الثقة لا يبلغ مكروها وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية وإذا أتاه ساع يقول له ان صدقتنا أبغضناك وان كذبتنا عاقبناك وان استقلتنا أقلناك وكتب فى جواب كتاب ساع نحن نرى ان قبول السعاية شر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شىء وأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعى فانه لو كان فى سعايته صادقا لكان فى صدقه لئيما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة وقيل من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب وقال المأمون النميمة لا تقرب مودة الا أفسدتها ولا عداوة الا جددتها ولا جماعة الا بددتها ثم لا بد لمن عرف بها ونسب اليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم

من ثم فى الناس لم تؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدرى به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه ... والويل للود منه كيف يفنيه

وانضحا من دعى عليه فقدكا ... ين دعى من نداه لو تمادآن قال فقلت هل رأيت أحدا وفى أحدا بنفسه قال نعم هذا الفتى الفتح أبى خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه ثم تركنى وتولى فلما عدت إلى المبرد قصصت عليه القصة فقال أتعرفه قلت لا قال ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء أيام الباذنجان انتهى ٭ قيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده وقوى به الوسواس ورؤى ببغداد والصبيان يتبعونه فأسند ظهره إلى قصر المعتصم والصبيان يصيحون به يابارد فقال كيف أكون باردا وأنا الذى أقول

بكى عاذلى من رحمتى فرحمته ... وكم مثله من مسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها ... دموع دموعى لا دموع جفونى

(وحدث أبو الحسن على ابن مقلة) قال حدثنى أبى عن عمه قال اجتاز بى خالد الكاتب وأنا على باب دارى بسر من رأى والصبيان حوله يعبثون له فجاءنى لما رآنى وسألنى صرفهم عنه فصرفتهم وأدخلته دارى وقلت له ما تشتهى تأكل قال الهريسة فتقدمت باصلاحها له فلما أكل قلت أى شىء تحب بعد هذا قال رطب فأمرت باحضاره فأكل فلما فرغ من أكله قلت له أنشدنى من شعرك فأنشدنى

ع تناسيت ما أوعيت سمعك ياسمعى ... كأنك بعد الضر خال من النفع
فن أرلى صبرا فاحفظ طبعى ... و ركنت مطبوعا على الصد والجفا

(وقال آخر) يسعى عليك كما يسعى اليك فلا • تأمن غوائل ذى وجهين كياد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى :

من يخبرك بشتم عن أخ • فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شىء لم يواجهك به • إنما اللوم على من أعلمك

(وقال آخر) إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا • شرا إذا عوا وإن لم يعلموا كذبوا

(وقال آخر) إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا • منى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به • وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن ستر ماعاينت أحسن من إشاعة ماظننت وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها

﴿ وممـا جاء فى النهى عن اللعن ﴾

ما روينا فى صحيح البخارى ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لعن المؤمن كقتله ورويناه فى صحيح مسلم أيضا عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وروينا فى سنن أبى داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء فيغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فإذا لم تجد مساغا رجعت إلى الذى لعن إن كان أهلا لذلك وإلا رجعت إلى قائلها ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله لعن الله الظالمين لعن الله الكافرين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الفاسقين لعن الله المصورين ونحو ذلك ، وثبت فى الاحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة وأنه قال لعن الله آكل الربا وانه قال لعن الله المصورين وانه قال لعن الله من لعن والديه وانه قال لعن الله من ذبح لغير الله وانه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وانه قال لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال وجميع هذه الالفاظ فى البخارى ومسلم بعضها فيهما وبعضها فى أحدهما والله أعلم

(وما جاء فى العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة)

قال رسول الله ﷺ الخمول نعمة وكل يتبرأ والظهور نقمة وكل يتمنى وقال بعضهم

تلحف بالخمول تعش سليما • وجالس كل ذى أدب كريم

(وقال جعفر بن الفراء) من أخمل النفس أحياها وروحها • ولم يبت طاويا منها على ضجر
ان الرياح إذا اشتدت عواصفها • فليس ترمى سوى العالى من الشجر

وقال إعرابى رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس وكان أبو معاوية الضرير يقول فى خصلتان مأ يسرنى بهما رد بصرى قلة الاعجاب بنفسى وخلو قلبى من اجتماع الناس إلى وقال عمر رضى الله عنه خذوا حظكم من العزلة وصعد حسان على أطم من آطام المدينة ونادى بأعلى صوت ياصباحاه فاجتمعت الخزرج فقالوا ما عندك قال قلت بيت شعر فأحببت أن تسمعوه قالوا هات يا حسان فقال

وان امرأ أمسى وأصبح سالما • من الناس لا ماجنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه منزلة بالعقيق قيل له تركت منازل اخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق فقال رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية فوجدت الاعتزال فيما هنا لك عافية وقيل

الكاتب فقال من أين قلت من مجلس المبرد قال بل البارد ثم قال ما الذى أنشدكم اليوم قلت أنشدنى

أعار الغيث نائله • إذا ماؤه نفدا
وأن أسد اشتكاجنبا • أعار فؤاده الأسدا

فقال أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم أنه إذا أعار الغيث نائله بقى بلا نائل وإذا أعار الأسد فؤاده بقى بلا فؤاد قلت فكيف كان يقول فأنشد .

علم الغيث الندى من يده • مذ دعاه علم البأس الأسد
فإذا الغيث مقر بالندى • وإذا الليث مقر بالجلد

قال فكتبتهما وانصرفت (نادرة لطيفة) دخل أبو دلامة على المهدى فأنشده قصيدة فقال سل حاجتك فقال ياأمير المؤمنين هب لى كلبا قال فغضب وقال أقول لك سل حاجتك تقول هب لى كلبا فقال ياأمير المؤمنين الحاجة لى أو لك فقال بل لك فقال انى أسألك أن تهب لى كلب صيد فأمر له بكلب فقال ياأمير المؤمنين هبنى خرجت للصيد أعدو على رجلى فأمر له بدابة فقال له يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر له بغلام فقال ياأمير المؤمنين هبنى صدت صيدا واتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين فهؤلاء

وقيل لعروة أخي مرداس لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم فقال أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة فاخسر الدارين وقال سفيان بن عيينة دخلنا على الفضل في مرضة نعوده فقال ماجاء بكم والله لولم تجيئوا لكان أحب إلي ثم قال نعم الشيء المرض لولا العيادة وقيل للفضل ان ابنك يقول وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه ولا يروني فقال ويح ابني لم لا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني وقال علي رضي الله عنه طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعته وبكى على خطيئته فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة وقال سفيان الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وقيل لراهب في صومعته ألا تنزل فقال من مشى على وجه الأرض عثر والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

﴿ الباب الرابع عشر في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام ومايجب للسلطان على الرعية ومايجب لهم عليه ﴾

روى عن الحسن أنه قال للحجاج سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ وقروا السلاطين وبجلوهم فانهم عز الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولا فقال الحجاج ألم نكن فيهم إذا كانوا عدولا قال قلت بلى وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال قلت للنبي ﷺ أخبرني عن هذا السلطان الذي دنت له الرقاب وخضعت له الاجساد ماهو قال ظل الله في الأرض فاذا أحسن فله الاجر وعليكم الشكر وإذا أساء فعليه الاصر وعليكم الصبر وعنه عليه الصلاة والسلام ايما راع استرعى رعيته ولم يحطها بالامانة والنصيحة من ورائها الاضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء وقال مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى أنا ملك الملوك رقاب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم وقال جعفر بن محمد رحمة الله تعالى عليه كفارة عمل السلطان الاحسان إلى الاخوان وقال كسرى لسيرين ما أحسن هذا الملك لو دام فقال لو دام لاحد ما انتقل الينا ومر طارق للشرطي بابن شبرمة في موكبه فقال

أراها وإن كانت تحب فانها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الاسكندر يوم فار فع اليه حاجة فقال لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي وقال الجاحظ ليس شيء ألذ ولا أسر من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن تقليد المنن أعناق الرجال لأن هذه الامور تصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس أو قيل الملك خليفة الله في عباده ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته وقال الحجاج سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها وقال أردشير لابنه يابني الملك والدين اخوان لاغنى لاحدهما عن الآخر فالدين أس والملك حارس ومالم يكن له أس فمهدوم ومالم يكن له حارس فضائع قيل لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولدته لدقتملك وأغار العرب على نواحي فارس في صباه فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانا وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل ثم خلع اكتاف سبعين ألفا فقيل له ذو الاكتاف وأمر العرب حينئذ بارخاء الشعور ولبس المصبغات وأن يسكنوا بيوت الشعر وأن لا يركبوا الخيل الاعراة (وقيل) من أخلاق الملوك حب التفرد كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان وإذ لبس حلة لم على أحد مثلها وإذا تختم بخاتم كان حراما على

أين يبيتون فأمر له ببدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي عيالا فمن أين لي مايقوت هؤلاء قال المهدي أعطوه جريب نخل ثم قال هل بقيت لك حاجة قال نعم تأذن لي أن أقبل يدك انتهى (وحكى) أن هشام بن عبد الملك (٨٧) قدم حاجا إلى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال ائتوني برجل من الصحابة فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا قال فمن التابعين فأتى بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بامير المؤمنين ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير اذنه وقال كيف أنت يا هشام فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله فقيل له أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لايكون ذلك فقال ياطاوس ماحملك على ماصنعت قال وما صنعت قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم بيا امير المؤمنين ولم تكنني وجلست بازائي بغير اذني وقلت ياهشام كيف انت فقال له طاوس أما خلع نعلي بحاشية بساطك فاني اخلعهما بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي واما قولك لم تسلم علي بامرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بامرتك فخفت ان اكون كاذبا وأما قولك لم تكنني فان الله عز وجل سمى انبياءه فقال ياداود يايحيى ياعيسى وكنى اعداءه فقال تبت يدا ابي لهب واما قولك جلست بازائي فاني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إذا أردت ان تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له عظني فقال له إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ان في جهنم حيات وعقارب كالبغال

أهل المملكة أن يتختموا بمثله وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته مادامت على رأسه وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامته لم يجترىء أحد من خلق الله أن يدخل بمثلها وكان عبد الملك إذا لبس الخف الاصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه وأخبرنى من سافر إلى اليمن لا يأكل الأوزبها أحد غير الملك وقيل من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها وكان أرد شير من شاه قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وماذاك الا بتفحصه وتيقظه وكان علم عمر رضى الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد ولقد اقتفى معاوية اثره وتعرف إلى زياد رجل فقال اتتعرف إلى وانا اعرف بك من ابيك وأمك وأعرف هذا البرد الذى عليك ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه وعن بعض العباسيين قال كلمت المأمون رحمه الله تعالى فى امرأة خطبتها وسألته النظر اليها فقال يا ابا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله مازال يصفها ويصف احوالها حتى ابهتنى.

(ومما جاء فى طاعة ولاة امور الإسلام) امر الله تعالى بذلك فى كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ورويناه فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله الانصارى رضى الله عنهما قال بايعت رسول الله ﷺ على شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم . وسئل كعب الاحبار عن السلطان فقال ظل الله فى ارضه من ناصحه اهتدى ومن غشه ضل . وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه لا تسبوا السلطان فانه ظل الله فى الأرض به يقوم الحق ويظهر الدين وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه كيف كانت طاعتى لك قال حسن طاعة قال فأطعنى كما كنت اطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ومن ثوبك حتى تبدو عقباك وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أمرى فقد أطاعنى ومن عصى أمرى فقد عصانى وقد ورد فى الاحاديث الصحيحة أن النبى ﷺ أمر بالسمع . "طاعة لولى الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له ولو تتبعت ذلك لطال الكلام ولكن أعلم أرشدنى الله وإياك إلى الاتباع وجنبنا الزيغ والابتداع أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحررة أن طاعة الائمة فرض على كل الرعية وأن السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة وأن ارفع منازل السعادة طاعة السلطان وأن طاعته عصمة من كل فتنة بطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض وتحقن الدماء وتؤمن السبل وما أحسن ماقالت العلماء أن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وأن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة برىء الذمة وأن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم وأن الخروج منها خروج من انس الطاعة إلى وحشة المعصية ومن غش السلطان ضل وزل من أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا فى أرفع محل وان طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها فى كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم وقد اقتصرنا فى ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وان يعيذنا من شرور أنفسنا وسيآت اعمالنا وان يصلح شأننا انه قريب مجيب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

﴿ الباب الخامس عشر فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته ﴾

﴿ اما

تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته ثم قام فخرج اه (نادرة لطيفة) مروية عن أبى عمرو عامر الشعبى ولكن يتعين أن نبدأ بشىء من ترجمته قال الزهرى العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والحسن البصرى بالبصرة ومكحول بالشام والشعبى بالكوفة ويقال انه أدرك خمسمائة من الصحابة من أصحاب رسول الله ﷺ (والنادرة الموعود بذكرها) هى ماحكى الشعبى قال أنفذنى عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت اليه جعل لا يسألنى عن شىء إلا أجبته وكانت الرسل لا تطيل الاقامة فحبسنى عنده أياما كثيرة فلما أردت الانصراف قال أمن بيت المملكة أنت فقلت لا ولكنى من العرب فدفع إلى رقعة وقال إذا أديت الرسائل إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة قال فأديت الرسائل عند وصولى إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما وصلت الباب أريد الخروج تذكرت الرقعة فرجعت فأوصلتها إليه فقال لى هل قال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك قلت نعم قال لى أنت من أهل بيت المملكة قلت لا ولكنى رجل من العرب فى الجملة ثم خرجت من عند عبد الملك فلما بلغت الباب طلبنى فرددت فلما مثلت بين يديه قال أتدرى ما فى الرقعة قلت لا قال اقرأها فقرأتها فاذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره قلت يا أمير المؤمنين لو علمت ما حملتها وإنما قال هذه لأنه لم يرك قال أتدرى لم كتبها قلت لا قال حسدنى عليك فأراد أن يغرينى بقتلك انتهى (وقيل) كان الشعبى ضئيلا نحيلا فقيل له فى ذلك

(أما صحبة السلطان) فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما قال لي أبي يا بني اني أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ واني أوصيك بخلال ثلاث لا تفشين له سرا ولا تجربن عليه كذبا ولا تغتابن عنده أحدا قال الشعبي رحمه الله تعالى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف فقال أي والله ومن عشرة آلاف وقال بعض الحكماء إذا زادك السلطان تأنيسا فزده إجلالا وإذا جعلك أخا فاجعله أبا وإذا زادك إحسانا فزده فعل العبد مع سيده وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فأخذوا في الثناء عليه فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة، وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ولا تغير منه إذا أقصاك، وروى أن بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خصال قال وما هن من لا تهتك لي سترا ولا تشتم لي عرضا ولا تقبل في قول قائل حتى تستشيرني قال هذا لك فما لي عليك قال لا أفشي لك سرا ولا أدخر عنك نصيحه ولا أوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب المستصحب أنت وقال بزرجمهر اذا خدمت ملكا من الملوك فلا تطعه في معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وايقاعه بك أغلظ من إيقاعه وقال اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لأنهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة وان طال أنسك بهم تزدد غما، وقالوا اعلم السلطان وكانك تتعلم منه وأشر عليه وكأنك تستشيره وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك فاياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لا تدري متى يتغير منك فيكونون عونا عليك واياك أن تتمادى من اذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل وفي الأمثال القديمة احذروا زمارة المخدة وفيه قيل (بيت مفرد)

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق (وأما ما جاء في التحذير من صحبة سلطان) فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان قال في كتاب كليلة ودمنة ثلاثة لا يسلم عليها الا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم على التجربة، وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان بغير عقل وكان بعض أهل الحكماء يقول أحق الامور بالتثبت فيها أمور السلطان فان من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفي حكم الهند صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر وقيل للعقابي لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب قال لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ويرمي من السور في غير شيء ولا أدري أي الرجلين أكون، وقال معاوية لرجل من قريش اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد، وقال ميمون بن مهران قال لي عمر ابن عبد العزيز يا ميمون احفظ عني أربعا لا تصحبن السلطان وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان أقرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا وكم رأينا وبلغنا عمن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

فقال زوحمت في الرحم وكان قد ولد هو واخ آخر وأقام في البطن سنتين ذكره صاحب كتاب المعارف (ويقال) ان الحجاج قال له يوما كم عطاك في السنة ألفين فقال له ويحك كم عطاؤك قال ألفان فقال ويحك (٨٩) كيف لحنت أولا فقال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت وما يحسن أن يلحن الامير وأعرب فاستحسن ذلك منه وأجازه (نادرة بديعة غريبة) منقولة عن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ صاحب قلعة شيزاز وكان سديد المذكور مقصودا من البلاد ممدوحا مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهما وله شعر جيد أيضا ومن قوله وقد غضب على مملوكه فضربه

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من ... كفي غلهما غيظا الى عنق

وأستمين إذا عاقبته حنقا ... وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وكان موصوفا بقوة الفطنة ويحكى عنه في ذلك حكاية عجيبة وهو انه كان يتردد على حلب قبل تملكه قلعة شيزاز وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس فجرى أمر خاف سديد الملك منه على نفسه فخرج من حلب الى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده فتقدم محمود صاحب حلب الى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن علي النحاس الحلبي أن يكتب الى سديد الملك كتابا يتشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه الى حلب ففهم الكاتب انه يقصد له سوءا إذا جاء اليه وكان

ومثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة ... في البحر ترجف دائما من خوفه
إن أدخلت من مائه في جوفها ... يغتالها مع ما بها في جوفه

وفي كتاب كليلة ودمنة لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ولا ود للسلطان ولا اخاء والذنب عنده لا يغفر ، وقالت الحكماء صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف ، وقال محمد بن واسع والله لسف التراب واقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين ، وقال محمد بن السماك الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك وقيل من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه ، وقال ابن المعتز من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة وعنه إذا زادك السلطان تأنيسا وإكراما فزده تهيبا واحتشاما ، وقال أبو علي الصغاني إياك والملوك فان من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه وقيل مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة عقل وصبر ومال وتحته مكتوب كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان وقال حسان بن ربيع الحميري لا تثق بانه ملول ولا بالمرأة فانها خؤن ولا بالدابة فانها شرود وقال عبيد بن عمير ما ازداد رجل من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه ولا كثر ماله إلا كثر حسابه وقال ابن المبارك رحمه الله

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما اسـ ... ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان

إذا ماقطعتم ليلكم بمدامكم ... وأفنيتموا أيامكم بمنامكم
فمن ذا الذي يغشاكم في ملمة ... ومن ذا الذي يغشاكم بسلام
رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة ... بلثم غلام أو بشرب مدام
ولم تعلموا أن اللسان موكل ... بمدح كرام أو بذم لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا إن الملوك يستعظمون في الثواب رد الجواب ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب وقال شر الملوك من أمنه الجريء وخافه البريء والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السادس عشر في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك)

قال الله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام واجعل لي وزيرا من أهلي فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ثم ذكر حكمة الوزارة فقال أشدد به أزري وأشركه في أمري دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفوض اليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة ثم قال كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا دلت هذه الآية على أن يصحبه العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة وكما يحتاج

الكاتب صديقا إلى سديد الملك فكتب الكاتب كما أمره مخدومه إلى أن بلغ إلى آخره وهو إن شاء الله فشدد النون وفتحها فلما وصل الكاتب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وإيثاره لقربه فقال سديد الملك إني أرى ما لا ترون في الكتاب ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب في جملة فصول الكتاب أنا الخادم المقر بالانعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون فلما وصل الكتاب إلى محمود وقف عليه سر بما فيه وقال لأصدقائه قد علمت أن الذي كتبته لا يخفى على مثله وقد أجاب بما طيب قلبي عليه وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أجاب سديد الملك بقوله انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها وكاتب هذه الحكاية معدودة من شدة تيقظه وفهمه اه (وحكى الصابي في كتاب الأعيان والأمثال) أن رجلا اتصلت عطلته وانقطعت مادته فزور كتابا من الوزير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي إلى ابن زيتون المارداني عامل مصر يتضمن المبالغة في الوصايا وزيادة الاكرام و من المصالح فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون ودفع اليه الكتاب فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب في أمره لتغيير لفظ الخطاب عما جرت به العادة وكون الدعاء أشجع أكثر مما يقتضيه محله فراعاه مراعاة قريبة ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعد وعد به ثم كتب إلى أبي الحسن بن الفرات

أشجع الناس إلى السلاح وافرة الحيل إلى السوط واحد السفار إلى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمة الله وقال وهب بن منبه قال موسى لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال له هامان بينما أنت إله تعبد إذ صرت تعبد فأنف واستكبر وكان من أمره ما كان وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالا ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة وفي الأمثال نعم الظهير الوزير وأول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء واستبقاء الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبهذه الخلال يجمل الخلق ذكره وترسخ في النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم وفي كتاب كليلة ودمنة لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والاعوان وقال شريح بن عبيد لم يكن في بني إسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب اليه صحائف في كل صحيفة إرحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا وإلى الماء محتاجا ومثل السلطان كمثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء فاذا كذب السفير بطل التدبير وكما ان السفير إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضى وصف للطبيب نقيض ذاته فإذا شفاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ما لتس في الرجل فيقتله الملك فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقا في لسانه عدلا في دينه مأمونا في أخلاقه بصيرا بأمور الرعية وتكون بطانة الوزير أيضا من أهل الأمانة والبصيرة وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيم فاللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوي الفضل ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه الوزير منشدا

يا ملكا طاعته لازمة * وحبه مفترض واجب
ان الذي شرفت من أجله * يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى الذمي فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتني غضبان فادفع الى رقعة بعد رقعة وكان في الأولى أنك لست باله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفي الثانية ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء وفي الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم الا ذلك ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تغتر بمودة الأمين اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فنم ولا تخش الأمير ومثل السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج وموقع الوزراء من المملكة كموقع المرآة من البصر فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان اذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤفا بهم

ثم ذكر الكتاب الذي ورد عليه وأنفذه بعينه فلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل وذكر ما كان عليه من الحرمة وماله من الحقوق القديمة عليه فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وعجب إليهم منها وقال لهم ما الرأى في مثل هذا الرجل فقال بعضهم تأديبه وقال بعضهم قطع ابهامه وقال أجلهم محضرا يكشف لابن زيتون أمره ويرسم له بطرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعدكم من الخير رجل توسل بنا وحمل المشقة إلى مصر وأمل الخير بجاهنا والانتساب الينا يكون حاله عند أحسنكم نظرا تكذيب ظنه وتخييب سعيه والله لا كان هذا أبدا ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور هذا كتابي ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتك فيه شبهة وليس كل من يخدمنا نعرفه وهذا رجل خدمني أيام نكبتي فأحسن تفقده ورفده وصرفه فيما يعود نفعه عليه ثم رد الكتاب إلى ابن زيتون من يومه ومضت على ذلك مدة طويلة إذا دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة فاقبل يدعو له ويثني عليه ويبكي ويقبل يديه الأرض فقال له ابن الفرات من أنت بارك الله فيك قال صاحب الكتاب المزور الى ابن زيتون الذي صححه كرم الوزير بفضله فضحك ابن الفرات وقال كم وصل اليك منه قال أوصل الى من ماله ومن قسط قسطه على عماله عشرين الف دينار فقال الحمد لله على صلاح حالك ثم اختبره فوجده كاتبا سديدا فاستخدمه انتهى والحمد لله على { ذكر الحصري في كتابه المسمى بالدر المصون في سر

(واعلم)أنه ليس الوزير أن يكتم على السلطان نصيحة وان استثقلها وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس وكأن المرآة لاتريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك السلطان لايكمل أمره الا بجود عقل الوزير وصحة فهمه ونقاء قلبه والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

﴿ الباب السابع عشر فى ذكر الحجاب والولاية ومافيها من الغرور والخطر ﴾

(أما الحجاب) فقد قيل لاشىء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب وقيل إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم واذا عظم الحجاب هجمت على الظلم وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب فقال رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له أن يدخل فلما دخل قال حدثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من ولى شيئا من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة فقال عمر لحاجبه الزم بيتك فاروئى على بابه بعد ذلك حاجب وكان خالد بن عبد الله القشيرى يقول لحاجبه اذا أخذت مجلسى فلا تحجبن عنى أحداً فان الوالى لايحتجب الا لثلاث عيب يكره أن يطلع عليه أحد أو ريبة يخاف منها أن تظهر أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً وكانت السجم تقول لاشىء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك ولاشىء أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته وقيل لبعض الحكماء ماالجرح الذى لايندمل قال حاجة الكريم الى اللئيم ثم يرده بغير قضائها قيل فما الذى هو أشد منه قال وقوف الشريف بباب الدنىء ثم لايؤذن له ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوى على باب المأمون يوماً فنظر اليه الحاجب ثم أطرق فقال عبد الله لقوم معه أنه لو أذن لنا لدخلنا ولو صرفنا لانصرفنا ولو اعتذر الينا لقبلنا وأما النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت .

وماعن رضى كان الحمار مطيتى ولكن من يمشى سيرضى بمارب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضرباً شديداً وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب

(قال الشاعر) رأيت أناسا يسرعون تبادرا اذا فتح البواب بابك أصبعاً
ونحن جلوس ساكتون رزانة وحلما الى ان يفتح الباب أجمعاً

ووقف رجل خراسانى بباب أبى دلف العجلى حيناً فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف فى وصولها اليه وفيها

اذ كان فضل الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله اذا كان الكريم قليل المال ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات فلا تستنكرن حجاب بابى

(ومن) محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم

سأهجركم حتى يلين حجابكم على أنه لابد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهرانها وان لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر ماذا على بواب داركم الذى لم يعطنا أذنا ولا يستأذن
لو ردنا ردا جميلا عنكم أو كان يدفع بالتى هى أحسن

الهوى المكنون) أن الجاحظ ذكر الواثق لتأديب بعض أولاده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه عنده فرأيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانحدار الى مدينة السلام فعرض على

قال الجاحظ فخرجت من الانحدار معه فانحدرت ونصبت ستارة وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تغنى

كل يوم قطيعة وعتاب ينقضى دهرنا ونحن غضاب
ليت شعرى أنا خصصت بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت فأمر طنبورية فغنت

وارحمنا للعاشقينا ما ان ارى لهم معينا كم يهجرون ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا

فقالت العوادة فيصنعون ماذا فقالت يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة وبدت كأنها فلقة بدر ثم رمت بنفسها فى الماء قال وكان على رأس محمد غلام يضاهيها فى الجمال وفى يده مذبة فألقى المذبة من يده لما رأى ما صنعت الجارية ثم أتى الى موضع سقوطها ونظر اليها وأنشد :

أنت التى غرقتنى بعد القضا لو تعلمينا

ورمى بنفسه فى أثرها فأدار الملاح الحراقة فاذا بهما متعانقين ثم غاصا فهال ذلك محمدا واستعظمه وقال يا عمرو ان لم تحدثنى حديثا يسلينى عنهما ألحقتك بهما قال الجاحظ وقال فحضرنى خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد يوما للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة فيها مكتوب ان رأى أمير المؤمنين أعزه

على عفوك فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج ثم أمر بالجارية فأخرجت ومعها عود فقال لها غني مايقول لك فقال الفتى غني

تألق البرق نجديا فقلت له
أيها البرق اني عنك مشغول

فغنته فقال له سليمان أتأمر لي برطل فأتي به فشربه ثم قال لها غني

حبذا رجعها إلينا يداها
في يدي درعها تحل الازارا

فغنته فقال لسليمان آتأمر لي برطل فأتي به فشربه ثم قال غني

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجملي

فغنته فقال لسليمان تأمر لي برطل فما استتم شربه حتى صعد على الفور على قبة لسليمان فرمى بنفسه على دماغه فمات فقال سليمان إنا لله وإنا إليه راجعون أتراه الأحمق ظن اني أخرج إليه جاريتي وأردها إلى ملكي ياغلمان خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا بها إلى أهله إن كان له أهل وإلا

وقال آخر أمرت بالتسهيل في الآذن لي ... ولم ير الحاجب أن يأذنا
فمن تراني بعدهـــا عائدا ... ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر ولقد رأيت بباب دارك جفوة ... فيها لحسن صنيعك التكدير
ما بال دارك حين يدخل جنة ... وبباب دارك منكر ونكير

وقال آخر إذا جئت ألقى عند بابك حاجبا ... محياه من فرط الجهالة حالك
ومن عجب مغناك جنة قاصد ... وحاجبها من دون رضوان مالك

وقال آخر سأترك بابا أنت تملك اذنه ... ولو كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بواب الجنان تركتها ... وحولت رجلي مسرعا نحو مالك

وقال آخر ماذا يفيدك أن تكون محجبا ... والعبد بالباب الكريم يلوذ
ما أنت إلا في الحصار معي فلا ... تتعب فكل محاصر مأخوذ

وقال أبو تمام سأترك هذا الباب مادام اذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأته متعمدا ... ولا فاز من قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للاذن عندك موضعا ... وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب قل له ان الكري قد خطب الى نفسي وإنما هي هجعة وأهب فخرج الحاجب فقال الرجل ما الذي قال لك قال قال كلاما لا أفهمه وهو يريد أن يأذن لك وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما امهل فرعون مع دعواه الالوهية لسهولة اذنه وبذل طعامه وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول مامن أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسئلة الا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسئلته * وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال

سأصبر ان جفوت فكم صبرنا ... لمثلك من أمير أو وزير رجوناهم فلما أخلفونا
تمادت فيهم غير الدهور ... فبتنا بالسلامة وهي غنم وباتوا في المحابس والقبور
ولما لم تنل منهم سرورا ... رأينا فيهم كل السرور

(وأنشدوا في ذلك أيضا)

قل الذين تحجبوا عن راغب ... بمنازل من دونها الحجاب
ان حال عن لقياكم بوابكم ... فالله ليس لبابه بواب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه فبكى فأتى إليه الناس وفيهم كعب فقال وما يبكيك ياسعد فقال ومالي لا أبكي وقد ذهب الاعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة فقال كعب لاتبك فإن في الجنة قصرا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء وأنا أرجو أن تكون من أهله * واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال

في كل يوم لي ببابك وقفة ... أطوي إليه سائر الابواب
وإذا حضرت رغبت عنك فانه ... ذنب عقوبته على البواب

(وأما ذكر الولايات ومافيها من الخطر العظيم) فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام ياداود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب جاء في التفسير أن من أتباع الهوى أن يحضر الخصمان

فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة في دار سليمان اتخذت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم ثم قالت
من مات عشقا فليمت هكذا * لاخير في عشق بلا موت فرمت بنفسها في الحفيرة فماتت فسري عن محمد وأحسن صلتي

انتهى (وكتب) أبو منصور افتكين التركي متولي دمشق إلى عضد الدولة ابن بويه كتابا مضمونه أن الشام قد صفا
وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر وان قويتني بالاموال والرجال والعدد حاربت القوم في مستقرهم فكتب
اليه عضد الدولة في جوابه
هذه الكلمات وهي متشابهة
في الخط لا تعرف إلا بعد
النقط والضبط وهي غرك
عزك فصار قصار ذلك ذلك
فاخش فاحش فعلك فعلك
تهدأ بهذا قال القاضي شمس
الدين بن خلكان تغمده
الله برحمته لقد أبدع
غاية الابداع (قلت)
وأبدع منه قول السلامي
فيه من قصيدته التي منها

اليك طوى عرض البسيطة عاجل
قصار المطايا أن يلوح لها القصر
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي
ثلاثة أشياء كما اجتمع النسر
وبشرت آمالي بملك الورى
ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

قال ابن خلكان هذا على
الحقيقة هو السحر الحلال
كما يقال * وقد أخذ هذا
المعنى القاضي أبو بكر
الأرجاني فقال

ياسائلي عنه لما جئت أمدحه
هذا هو الرجل العاري من العار
لقيته فرأيت الناس في رجل
والدهر في ساعة والأرض في دار

ولكن ابن الثريا من الثرى * وألم أبو الطيب المتنبي أيضا بهذا المعنى لكنه
ما استوفى بقوله هو الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق * ولكن ليس لأحد منهما طلاوة بيت السلامي

بين يديك فتود أن يكون الحق الذي في قلبك حبة خاصة وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه قال ابن
عباس رضي الله عنهما كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسا من أهل جرادة امرأته
وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا إليه مع غيرهم فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم
فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدا * وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال
قال لي رسول الله ﷺ يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها
وإن أعطيتها عن مسئلة وكلت إليها وقال معقل بن يسار رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من
عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة وفي الحديث من ولي من أمور
المسلمين شيئا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار وروى أن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا كان يوم
القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو
منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها فان كان لله مطيعا أخذ بيده وأعطاه كفلين
من رحمته وإن كان لله عاصيا انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفا وقال عمر رضي
الله عنه سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان أي والله
يا عمر ومع السبعين سبعون خريفا في واد يلتهب التهابا فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال
إنا لله وإنا إليه راجعون من يأخذها بما فيها فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض
وروى أبو داود في السنن قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ان أبي عريف على الماء
واني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده فقال النبي ﷺ العرفاء في النار وروى أبو سعيد الخدري رضي
الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ان أشد الناس عذابا يوم القيامة الإمام الجائر وقالت عائشة رضي الله عنها
سمعت رسول الله ﷺ يقول يؤتى القاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم
يقض بين اثنين في تمرة وقال الحسن البصري أن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال
يا رسول الله خر لي فقال اقعد في بيتك وقال أبو هريرة رضي الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة
إلا جيء به يوم القيامة مغلولا أنجاه عمله أو أهلكه وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك هل تدري
يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة قال سليمان قل فقال طاوس أشد الناس عذابا يوم
القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي فما زال يبكي
حتى قام عنه جلساؤه وقال ابن سيرين جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواحهم
فلم ينظر إليها وقال هذا حكم لا أتولى حكما أبدا وقال أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب لهم
بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له دلنا على الماء فقال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا انه لم يكن
صرافا ولا مكاسا ولا عريفا وتروى ولا عرافا ولا بريدا وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثا
وثلاثين يمينا كما قال فدلهم على الماء فقالوا له أعنا على غسله فقال لا حتى تحلفوا لي ثلاثا وثلاثين
يمينا كما تقدم فحلفوا له فأعانهم على غسله ثم قالوا له تقدم فصل عليه فقال لا حتى تحلفوا لي ثلاثا
وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا فكانوا يرون أنه الخضر عليه
السلام وقال أبو ذر رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي وإني
أراك ضعيفا فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم (ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق) ما حكى أن

ملكا

ملكا من ملوك الفرس يقال له أردشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الاردن بالجمال البارع وأن هذه البنت بكر ذات خدر فسير أردشير من يخطبها من أبيها فامتنع من اجابته ولم يرض بذلك فعظم ذلك على أردشير وأقسم بالايمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أخبث مثلة فسار اليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت اليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فبهت أردشير من رؤيته اياها فقالت له أيها الملك اني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية وان الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت وانه أسرني في جملة الاسارى وأتى به في هذا القصر فلما رأتني ابنته التي ارسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كاننا روحان في جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك فقال أردشير وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم انه أمل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه اليها فاخذها للتسري وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها ثم انه واقعها وازال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق انها تحدثت معه يوما وقد رأته منشرح الصدر فقالت له انت غلبت أبي وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك بحر الاردن وأنا ابنته التي خطبتها منه واني سمعت انك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهيأ لك قتلي فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضبا وعول على قتلها ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا وانه لا يقبل فيها شفاعة شافع فقال أيها الملك أن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لانه أحق من أن يقال ان امرأة قهرت رأى الملك وحنثته في يمينه لاجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك ان صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهي أولى بالستر ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق فقال له الملك نعم ما رأيت خذها غرقها فاخذها الوزير ثم خرج بها ليلا إلى بحر الاردن ومعه ضوء ورجال وأعوان فتحيل إلى ان طرح شيئا في البحر أوهم من كان معه انها الجارية ثم أنه أخفاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه أغرقها فشكره على ما فعل ثم ان الوزير ناول الملك حقا مختوما وقال أيها الملك اني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم وان لي أولادا وعندي مال قد ادخرته من نعمتك فخذه إذا أنا مت أن رأيت وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فانه ارثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء اكتسبته منه الا هذا الجوهر فقال له الملك يطول الرب في عمرك ومالك لك ولاولادك سواء كنت حيا أو ميتا فألح عليه الوزير ان يجعل الحق عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الادب في تسميته فرأى أنه ان اخترع له اسما وسماه به وظهر لولده بعد ذلك فيكون قد أساء الادب وان هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك فان شاه ملك وبور ابن ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر

انتهى (نادرة لطيفة) كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور الاخشيدي وكان له في كل عيد أضحى عادة وهو أن يسلم إلى أبي بكر المذكور بغلا محملا ذهبا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى الجبانة وما بينهما قال أبو بكر المذكور وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الاخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة فاطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول الاستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك اصرف هذا في منفعتك فارفع اليه ما جعل له | وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابار وجعل له في ذلك العيد مائة دينار فطفت في تلك الليلة وانفقت المال في أربابه ولم يبق الا الصرة فجعلتها في كمي وسرت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت الباب فنزل الينا الشيخ وعليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال ما حاجتك قلت الاستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام فقال وإلى بلدنا قلت نعم قال حفظه الله الله يعلم اني أدعو له في الخلوات وادبار الصلوات مما الله سامعه ومستجيبه قلت وقد انفذ معي نفقة وهي هذه الصرة ويسألك قبولها التصرف في مؤنة هذا العيد المبارك فقال نحن رعيته ونحبه في الله تعالى وما نفسد هذه المحبة بعلة فراجعته القول فتبين لي الضجر في وجهه والقلق واستحييت من الله أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت فلما جئت فوجدت الامير

وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ حد التعليم فعلمه كل مايصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم أنه مملوك واسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت فقال للوزير أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أني ميت لامحالة وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضى له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وحملها فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال أيها الملك انها عندي حية ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خلقا وخلقا فقال الملك أحق ما تقول فأقسم الوزير أن نعم ثم قال أيها الملك ان في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الولد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا وإني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلاما في سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلاهو واني أعطي كل واحد منهم صولجانا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت اليه نفسه وروحانيته فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذي قلت فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجالس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها الا شاه بور فانه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه فلاحظ أردشير ذلك منه مرارا فقال أيها الغلام ما اسمك قال شاه بور فقال صدقت أنت ابني حقا ثم ضمه اليه وقبله بين عينيه فقال له الوزير هذا هو ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدا بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى احضار الحق المختوم فأمر الملك باحضاره ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فاذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة قال فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة وشدة مناصحته فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به ثم أن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

﴿ الباب الثاني عشر فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول ﴾

(الفصل الأول فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم) قال الله تعالى يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وقال تعالى فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط وقال تعالى

قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني فلما رآني قال إيه يا أبا بكر قلت أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي هذا اليوم الشريف فقال الحمد لله الذي جعلني لإيصال الراحة إلى عباده ثم أخبرته بامتناع ابن جابار فقال نعم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم ثم قال لي عد إليه واركب دابة من دواب النوبة وأطرق بابه فاذا نزل اليك فانه سيقول لك ألم تكن عندنا فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى يا ابن جابار الأستاذ كافور يقول لك ومن كافور العبد الأسود ومن هو مولاه ومن الخلق ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم ههنا أتدري من هو معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت وإنما هو أرسل لك يا ابن جابار أنت ما تفرق بين السبب والمسبب ٭ قال أبو بكر فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إلي فقال لي مثل لفظ كافور فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال لي كافور فبكى وقال لي أين ما عملت فأخرجت الصرة فأخذها وقال علمنا الأستاذ كيف التصوف قلت له أحسن الله جزاءك ثم عدت اليه ومن فأخبرته بذلك فسر وسجد شكرا لله تعالى وقال الحمد لله على ذلك (ونقل ابن خلكان في تاريخه) أن أبا عبد الله محمد بن الأعرابي كان

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون وقال رسول الله ﷺ من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله وعن أبي حازم قال دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم فلم يرد عليه فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله ﷺ فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال أتاني وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري وعلمت أن الله سائلي عنهما وعما قالا وقلت وادعى رجل على علي عند عمر رضي الله عنهما وعلي جالس فالتفت عمر إليه وقال يا أبا حسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا وانصرف الرجل ورجع علي إلى مجلسه فتبين لعمر التغير في وجه علي فقال يا أبا الحسن مالي أراك متغيرا أكرهت ما كان قال نعم قال وما ذاك قال كنيتني بحضرة خصمي هلا قلت يا علي قم فاجلس مع خصمك فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور ٭ وعن أبي حنيفة رضي الله عنه القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحا ٭ وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب فقال الضرب بالسياط في الدنيا أهون علي من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة ٭ وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكشف على باب مغلق فظنناه كنزا فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فكتب إلينا لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي ثم فتح فاذا رجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي الأرض من قاضي السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن ارم عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال ان الله مع القاضي مالم يجر فإذا جار برئ الله منه ولزمه الشيطان وقال محمد بن حريث بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس اليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال اللهم ان كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني اليك فقبض ٭ وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ القضاء جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء لعلك تريد أن تكون قاضيا لأن يدخل الرجل أصبعيه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيا وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة وقاضيها وكان يقول ان الرجلين يتقدمان إلى فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له ٭ وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيي بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيي لا تأخذ عن خصمك شرف المجلس ولم يكن للرجل بينة فأراد ان يحلف المأمون فدفع اليه المأمون ثلاثين الف دينار وقال والله ما دفعت لك هذا المال الا خشية أن تقول العامة اني تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيي بمال وأجزل عطاءه ٭ وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام ائتني بعمرو بن أبي

يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان شيئا وكان يقول جائز في كلام العرب أن يعاقب بين الضاد والظاء فلا يخطئ من يجعل هذا في موضع هذا وينشد

إلى الله أشكو من خليل أوده ... ثلاث خصال كلها لي غائض

ويقول هكذا سمعته بالضاد (ومن النوادر اللطيفة) ورد أبو نصر الفارابي إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو إذ ذاك سلطانها قيل انه لما دخل عليه وهو بزي الاتراك وكان ذلك زيه دائما وقف فقال له سيف الدولة اجلس فقال حيث أنا أو حيث أنت فقال حيث أنت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يساورهم به فقال لهم بذلك اللسان ان هذا الشيخ قد أساء الأدب واني سائله عن أشياء ان لم يعرفها اخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها الأمير اصبر فان الأمور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تأكل قال لا قال فهل لك ان تشرب قال لا فقال هل تسمع قال نعم فأمر سيف الدولة باحضار القيان فحضر كل ماهر في الصنعة بأنواع الملاهي فخطأ الجميع فقال له سيف الدولة هل تحسن

هذه الصنعة قال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فضحك كل من فى المجلس ثم
فكها وركبها تركيبا آخر فبكى كل من فى المجلس ثم فكها وغير تركيبها وحركها فنام كل من فى المجلس حتى البواب

عمر والنخاس فانه ان قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ثم ان الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكى فليست منزلتك عندى تزن رتبة المساواة بين الخصمين فى الحكم فان ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم

(وقال) الابرش العكلى يمدح بعد القضاة

رفضت وعطلت الحكومة قبله   فى آخرين وملها رواضها
حتى إذا ماقام ألف بينها   بالحق حتى جمعت أوفاضها

(وفى ضد ذلك قول بعضهم)

أبكى وأندب ملة الإسلام   إذ صرت تقعد مقعد الحكام
ان الحوادث ماعلمت كثيرة   وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاض فقال لها جامعك شهودك فسكتت فقال كاتبه ان القاضى يقول لك جاء شهودك معك قالت نعم هلا قلت مثل ماقال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ما رأيت ميتا يقضى بين الأحياء غيرك * وقيل المضروب بهم المثل فى الجهل وتحريف الأحكام قاضى منى وقاضى كسكر وقاضى أيدج وهو الذى قال فيه أبو إسحق الصابى

يارب علج أعلاج   مثل البعير الأهوج   رأيته مطلعا   خلف باب مرتج
وخلفه عذيبة   تذهب طورا وتجى   فقلت من هذا ترى   فقيل قاضى أيدج

وقاضى شلبة وهو الذى قال فيه أبو الحسن الجوهرى

رأيت رأسا كدبه   ولحية كالمذبه   فقلت من أنت قل لى   فقال قاضى شلبه

(وتقدمت) امرأة جميلة إلى الشعبى فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعى

فتن الشعبى لما   رفع الطرف اليها   فتنته ببنان   كيف لو رأى معصميها
ومشت مشيا رويدا   ثم هزت منكبيها   فقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبى فضرب الأشجعى ثلاثين سوطا (وحكى) ابن أبى ليلى قال انصرف الشعبى يوما من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهى تقول فتن الشعبى لما فتن الشعبى * ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبى وقال رفع الطرف اليها * ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت الا بالحق * وأنشد بعضهم فى أمين الحكم تماوتن إذا مشت تخشعا * حتى تصيب وديعة ليتيم

{الفصل الثانى فى الرشوة والهدية على الحكم وما جاء فى الديوان}

أما الرشوة فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال لعن الله الراشى والمرتشى وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاتولوا اليهود ولا النصارى فانهم يقبلون الرشا ولا يحل فى دين الله الرشا قال الشهدى وأصحابنا اليوم اقبل للرشا منهم * وفى نوابغ الحكم ان البراطيل تنصر الاباطيل وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال من شفع شفاعة ليردبها حقا أو يدفع بها ظلما فأهدى له فقبل فذلك السحت فقيل له ماكنا نرى السحت الا الاخذ على الحكم قال الاخذ على الحكم كفر وأنشد المبرد رحمه الله تعالى

وكنت إذا خاصمت خصما كببته   على الوجه حتى خاصمتنى الدراهم

فتركهم نياما وخرج * وهو الذى وضع القانون وكان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة اقامته بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه وكان أزهد الناس فى الدنيا لا يحتفل بأمر مسكن ولا مكسب وسأله سيف الدولة فى مرتب من بيت المال فقال يكفينى أربعة دراهم ولم يزل على ذلك إلى ان توفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير (ومن المنقول من خط القاضى الفاضل) أن نور الدين الشهيد كتب إلى راشد الدين سنان صاحب القلاع الاسماعيلية كتابا يهدده فشق ذلك على سنان فكتب اليه بما هو فوق الوصف بحكاية الحال وهو

ياذا الذى بقراع السيف هددنا   لاقام مصرع قلب كنت تصرعه
قام الحمام إلى البازى يهدده   واستصرخت بأسود الغاب أضبعه
أضحى يسد فم الافعى بأصبعه   نابها
يكفيه ماذا تلاقى منه أصبعه

وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ماهددنا به من قوله وعمله فيالله العجب

فلما تنازعنا الحكومة غلبت على وقالت قم فانك ظالم

(وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال)

فقد روى عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال من تداين بدين وفي نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بماشاء ومن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة رواه الحاكم وروى على بن أبي طالب رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ إذ أتى له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فان قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل ﷺ هل على صاحبكم من دين فقالوا ديناران يارسول الله فعدل النبي ﷺ عنه وقال صلوا على صاحبكم فقال على كرم الله وجهه هما على يارسول الله وهو برىء منهما فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . وقال بعض الحكماء الدين هم بالليل وذل بالنهار وهو غل جعله الله في أرضه فاذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا في عنقه وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دينا على رجل فقالوا خرج الى الغزو فقال أشهد أن رسول الله ﷺ قال لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه . وعن الزهري قال لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين ثم قال بعد أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلى قضاؤه ثم صلى عليهم وعن جابر لاهم إلاهم الدين ولا وجع إلا وجع العين وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال من تزوج امرأة بصداق ينوى أن لا يؤديه اليها فهو زان ومن استدان دينا ينوى ان لا يقضيه فهو سارق وقال حبيب بن ثابت مااحتجت إلى شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي أراد أنه يصبر الى أن تمكن الميسرة ونظيره قول القائل

وإذا غلا شيء على تركته ... فيكون أرخص مايكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضا : لقد كان القريض سمير قلبي ... فألهتني القروض عن القريض

وقال غيلان بن مرة التميمي : وإني لأقضي الدين بالدين بعدما ... يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير : اذا ما قضيت الدين لم يكن ... يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال حبا وكرامة ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ماتطلبه فقال ياأباسعيد أما تثق بي قال بلى وان خليل الله كان واثقا بربه وقد قال له ولكن ليطمئن قلبي اللهم أوف هذا دين الدنيا بالميسرة ودين الآخرة بالمغفرة برحمتك ياأرحم الراحمين

(الفصل الثالث في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك)

(أما ماجاء في ذكر القصاص والمتصوفه) فقد روى عن خباب بن الأرت قال قال رسول الله ﷺ ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا وروى ان كعبا كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص وقال ابن عمر رضي الله عنهما لم يقص أحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم وانما كان القصص حين كانت الفتنة وقال ابن المبارك سألت الثوري من الناس قال العلماء قلت فمن الاشراف قال المتقون قلت فمن الملوك قال الزهاد قلت فمن الغوغاء قال القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام قلت فمن السفهاء قال الظلمة قيل

هي ذبابة تطن في اذن الفيل وبعوضة تعد في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم فما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (٩٩) وأما ماصدر من قولك فتلك أماني كاذبة وخيالات غير صائبة فان الجواهر لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض فان عدنا الى الظواهر والمحسوسات وعدلنا من البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله ﷺ في قوله ما أوذي نبي ما أوذيت ولقد علمتم ماجرى على عترته وأهل بيته وشيعته والحال ما حال والأمر مازال ولله الحمد في الآخرة والاولى اذنحن مظلومون لاظالمون ومغصوبون لاغاصبون وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمونه من الفوت ويستقربون به الى حياض الموت قل فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وفي أمثال العامة أو للبط تهددون بالشط فهي للبلاء جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا وانك لكالباحث حتفه بظلفه أو الجادع أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز (ومن غرائب الظرف ماحكاه ابن خلكان في تاريخه) قال حدثني من أثق به أن شخصا قال له رأيت في تأليف أبي العلاء المعري ماصورته أصلحك الله وأبقاك لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم الى منزلنا الخالي لكي يحدث لي

أنسك يازين الأخلاء فما مثلك من غير عهدا او غفل وسأله من أى الأبحر وهل هو بيت واحد أم أكثر فان كان أكثر فهل أبياته على روى واحد (١٠٠) أو مختلفة الروى قال فأفكر فيه ثم أجابه بجواب حسن قال ابن خلكان

وهب رجل لقاص خاتما بلا فص فقال وهب الله لك فى الجنة غرفة بلا سقف وقال قيس بن جبير النهشلى الصعقة التى عند القصاص من الشيطان وقيل لعائشة رضى الله عنها إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فان صعقوا فهو كما قالوا * وكان عمرو قاص يبكى بمواعظه فاذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة وقال بعضهم قلت لصوفى بعنى جبتك فقال إذا باع الصياد شكبته فبأى شىء يصيد ، وسئل بعض العلماء عن المتصوفة فقال أكلة رقصة ، وعظ عيسى عليه السلام بنى إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال ماذنب الثياب اقبلوا على القلوب فعاتبوها

(وأما ماجاء فى الرياء) فقد قال الله تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال قال لى رسول الله ﷺ يامعاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فيحشر مع المرائين وقيل لو أن رجلا عمل عملا من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء وقيل كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله فى شىء وعن شداد ابن أوس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا ماالشرك الاصغر يارسول الله قال الرياء وقال بينما عابد يمشى ومعه غمامة على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه وقال ان ألقت معى لم يعلم الناس أن الغمامة تظلنى فقال له الرجل قد علم الناس أننى لست ممن تظله الغمامة فحولها الله تعالى الى ذلك الرجل وقال عبد الأعلى السلمى يوما الناس يزعمون أنى مراء وكنت أمس والله صائماً ولا أخبرت بذلك والله أحدا اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك ياأرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب التاسع عشر فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك)

(اعلم) أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال تعالى إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى الآيه فلو وسع الخلائق العدل ماقرن الله به الاحسان والعدل ميزان الله تعالى فى الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوى والحق من المبطل ، واعلم أن عدل الملك يوجب محبته وجوره يوجب الافتراق عنه وأفضل الأزمنه ثوابا أيام العدل وروينا من طريق أبى نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال لعمل الامام العادل فى رعيته يوماً واحداً أفضل من عمل العابد فى أهله مائة عام أوخمسين عاماً وروى عن النبى ﷺ أنه قال عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة وروينا فى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال ثلاثة لاترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لكعب الأحبار أخبرنى عن جنة عدن قال ياأمير المؤمنين لايسكنها إلا نبى أو صديق أو شهيد أو امام عادل فقال عمر والله ماأنا بنبى وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الامام العادل فانى أرجو أن لاأجور وأما الشهادة فأنى لى بها قال الحسن فجعله الله صديقاً شهيدا حكما عدلا وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل إنما أبلغ عندكم الشجاعة أو العدل قالوا اذا

فقلت للقائل اصبر حتى أنظر فيه ولا تقل ما قاله فأجابه القاضى شمس الدين بن خلكان بعد حسن النظر بما أجاب به عن الرجل وهذه الكلمات تخرج من بحر الرجز وتشتمل على أربعة أبيات فى روى اللام وهى على صورة يصوغ استعمالها عند العروضيين ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ينكرها لأجل قطع الموصول منها ولا بد من الإتيان بهذا النظم صورة ذلك وهى

أصلحك والله وا

قالك لقد كان من ا
وأحب ان تأتينا ا
يوم إلى منزلنا ا
خالى لكى يحدث لى
انسك يازين الاخ
لاء فما مثلك من * غير
عهدا أو غفلى (قلت)

وعلى ذكر أبى العلاء الضرير يعجبنى قول مظفر بن جماعة الضرير قالوا عشقت وانت اعمى
ظبيا كحيل الطرف المى
وحلاه ماعاينتها
فتقول قد شغفتك وهما
وخياله بك فى المنا
م فما أطاف ولا ألما
من أين أرسل الفؤا * د وأنت لم تنظره سهما
ومتى رأيت جماله * حتى كساك هواه سقما
وبأى جارحة وصلـ * ـت لوصفه نثرا ونظما

استعملنا

استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة ويقال عدل السلطان أنفع من خصب الزمان وقيل إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يشكو اليه عن خراب مدينته ويسأله مالا يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك فإذا قرأت كتابى فحصن مدينتك بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام . ويقال أن الحاصل من خراج سواد العراق فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مائة الف الف وسبعة وثلاثين الف الف فلم يزل يتناقص حتى صار فى زمن الحجاج ثمانية عشر الف الف فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ارتفع فى السنة الأولى إلى ثلاثين الف الف وفى الثانية إلى ستين الف الف وقيل أكثر وقال أن عشت لأبلغنه إلى ما كان فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمات فى تلك السنة . ومن كلام كسرى لاملك إلا بالجند ولا جند إلا بالمال ولا مال إلا بالبلاد ولا بلاد إلا بالرعايا ولا رعايا إلا بالعدل (ولما) مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقه وفرق ما بقى بين الغرماء فلم يلتفت إلى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لاحد الغرماء ثم كتب للمنصور إنى رأيت أمير المؤمنين كاحد الغرماء فكتب اليه المنصور مثلت الأرض بك عدلا وكان أحمد بن طولون والى مصر متحليا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم (حكى) أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يوما فلقيها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره . فدخل العباس اليه وأخبره بذلك فأمر باحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر اليه قال أنت الذى كسرت العود قال نعم قال افعلمت لمن هو قال نعم هو لابنك العباس قال فما أكرمته لى قال أكرمه لك بمعصية الله عز وجل والله تعالى يقول والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ورسول الله ﷺ يقول لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك . ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال يا أمير المؤمنين ان بعض خاصتك ظلمنى فأنصفنى منه وأذقنى حلاوة العدل فاعرض عنه فوقف له ثانيا فلم يلتفت اليه فوقف له مرة ثالثة وقال يا أمير المؤمنين انا نجد فى التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه ان الإمام لايكون شريكا فى ظلم احد حتى يرفع اليه فاذا رفع اليه ذلك ولم يزله فقد شاركه فى الظلم والجور فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال إلى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودى حقه منه (وروى) أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعه فأتى إلى المنصور فقال له أصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب المثل فقال ان الطفل الصغير إذا نابه امر يكرهه فانما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنا منه أن لا ناصر له غيرها فاذا ترعرع واشتد كان فراره إلى ابيه فاذا وصار رجلا وحدث به امر شكاه إلى الوالى لعلمه انه اقوى من ابيه فاذا ازداد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه انه اقوى ممن سواه فان لم ينصفه السلطان شكاه تعالى لله تعالى لعلمه انه أقوى من السلطان وقد نزلت بى نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى فان انصفتنى والا رفعت امرى إلى الله تعالى فى الموسم فانى متوجه إلى بيته وحرمه فقال المنصور بل ننصفك وامر ان يكتب إلى واليه برد ضيعته اليه وكان الاسكندر يقول يا عبد الله إنما الحكم الله الذى فى السماء الذى نصر نوحا بعد حين الذى يسقيكم لغيث عند الحاجة واليه مفزعكم عند الكروب الله لايبلغنى أن الله

أيعشق الإنسان ما لا يرى
فقلت والدمع بعينى غزير
أن لم تكن عينى رأت شخصها .
فانها قد مثلت فى الضمير

(ومثل هذا) قول المهذب عمر بن الشحنة وإنى امرؤ احببتكم لمحاسن :
سمعت بها والأذن كالعين تعشق .

وتقدمه بشار بقوله
يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة .
والاذن تعشق قبل العين أحيانا .

(ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة فى كتابة المسمى بسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون عن على على بن أبى طالب أنه قال سبحان الله ما أزهد كثيرا من الناس فى الخير عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا وكان ينبغى له أن يسارع فى مكارم الاخلاق فيها تدل على سبل النجاح فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أسمعته من النبى صلى الله عليه وسلم قال نعم لما أتى بسبايا طىء وقعت جارية بها جيلة لما رأيتها أعجبتنى بها فلما تكلمت نسيت جمالها بفصاحتها فقالت يا محمد ان رأيت أن تخلى سبيلى ولا تشمت بى احياء العرب فانى

ابنة سيد قومي وإن أبي كان يفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويفشي السلام ولا يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي
فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه صفات المؤمنين خلو عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والمنقول
عن حاتم في زيادة الكرم كثير (من ذلك) ماحكاه المدائني قال أقبل ركب من بني أسد وبني قيس يريدون النعمان فلقوا حاتما فقالوا تركنا قوما يثنون عليك وقد أرسلوا اليك برسالة قال وماهي فأنشده الأسديون شعر النابغة فلما أنشدوه قالوا إنا نستحي أن نسألك شيأ وأن لنا حاجة قال وماهي قالوا صاحب لنا قد أرجل يعني فقد راحلته فقال حاتم خذوا فرسي هذا فاحملوه عليها فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت يتبع أمه فتبعته الجارية لترده فصاح حاتم ماتبعكم فهو لكم فذهبوا بالفرس والفلوه والجارية (وقيل) أجود العرب في الجاهلية ثلاثة حاتم الطائي وهرم بن سنان وكعب بن أمامة وحاتم وكان أشهرهم بالكرم ذكر أنه أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم (وحكى الهيثم بن عدي) قال تمارى ثلاثة في أجواد الإسلام فقال رجل أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب
وقال آخر أسخى الناس عرابة الأوسي وقال آخر بل قيس بن سعد بن عبادة وأكثروا
الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدل في ذلك فما عليكم أن يمضي كل واحد منكم

تعالى أحب شيأ إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي ولا أبغض شيأ إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض فويل للظالم من سيفي وسوطي ومن ظهر منه العدل من عمالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء وليتمن علي ماشاء فلن تخطئه أمنيته والله تعالى المجازي كلا بعمله ويقال إذا لم يعمر الملك ملكه بالانصاف خرب ملكه بالعصيان (وقيل) مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفطا ففتح فوجد فيه حبة رمان كأكبر مايكون من النوى معهارقعة مكتوب فيها هذه من حب زمان عمل في خراجه بالعدل (وقيل) تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون فقال ماعلمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعيه وأعود بالرفق عليهم منه فقال رجل منهم ياأمير المؤمنين ماأحد أولى بالعدل والانصاف منك فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء وقال بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل فقم بنا اليه فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل من هذا الذي معك قال عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم فقال رحب على رحب وقرب على قرب فقال انه يحب أن يسمع أبياتك في العدل فقال سمعا وطاعة وأنشد يقول:

حتى متى لانرى عدلا نسر به ٭ ولا نرى لولاة الحق أعوانا ٭ مستمسكين بحق قائمين به
إذا تلون أهل الجور ألوانا ٭ ياللرجال لداء لادواء له ٭ وقائد ذي عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت وقيل لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها ان رسول الله ﷺ سلك طريقاً فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ فلما أفضى الأمر إلى معاوية جره يمينا وشمالا وايم الله لئن مد في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه فقالت له ياابن أخي اني أخاف عليك منهم يوما عصيبا فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمننيه الله وقال وهب بن منبه إذا هم الوالي بالجور أو عمله به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الاسواق والزروع والضروع وكل شيء وإذا هم بالخير والعدل أو عمله به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك وقال الوليد بن هشام ان الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده وقال ابن عباس رضي الله عنهما أن ملكا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرا فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس فقال له الملك مابال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس فقال لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أووصله خبرها فهم بأخذها فنقص لبنها فان الملك إذا ظلم أوهم بالظلم ذهبت البركة فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد أحدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عادتها ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وإن كل قصبة منها تعصر قدحاً فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم انها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح فقال لها أين الذي كان يقال فقالت هو الذي بلغك الا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا
يأخذها

يأخذها منها أبدا ثم أمرها فعصرت قصبة منها لجاءت ملء قدح (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمه الله فى كتابه سراج الملوك قال حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشر أرادب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيئا فى ذلك العام ولا تمرة واحدة وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين ويبة وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل ويبة بدينار (وحكى) أيضا رحمه الله تعالى شهدت فى الاسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرته وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرا فخير وان شرا فشر * وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعه ويتغالون فى المناكح والسرارى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك فينبغى للامام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضى الله عنهم ويقتدى بهم فى الاقوال والافعال فمن خالف ذلك فهو لامحالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبى مرسل أو ملك مقرب وقد قيل ان مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله تعالى بشرا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات وروحا للعباد ولو تتبعت ماجاء فى العدل والانصاف وفضل الامام العادل لألفت فى ذلك مجموعا جامعا لهذا المعنى ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب العشرون فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك﴾

قال الله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال الله تعالى انا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وقال تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وقال رسول الله ﷺ من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام وقال أيضا ﷺ رحم الله عبدا كان لاخيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم وقال أيضا ﷺ من اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل يارسول الله ولو كان شيئا يسيرا قال ولو كان قضيبا من أراك وعن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أوحى الله تعالى إلى ياأخا المرسلين ياأخا المنذرين انذر قومك فلا يدخلوا بيتا من بيوتى ولا أحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة فانى ألعنه مادام قائما يصلى بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ اياك ودعوة المظلوم فانما يسأل الله تعالى حقه وعنه ﷺ أنه قال

إلى صاحبه يسأله حتى تنظر ما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله اليه فصادفه قد وضع رجله فى غرز ناقته يريد ضيعة له فقال يا ابن عم رسول الله قال قل ما تشاء قال ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجله من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو على الراحلة وخذها فى الحقيبه واحتفظ بسيفك فانه من سيوف على ابن ابى طالب رضى الله عنه قال فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز واربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف ومضى صاحب قيس ن سعد بن عبادة فصادفه نائما فقالت الجارية هو نائم فما حاجتك اليه قال ابن سبيل ومنقطع به قالت حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار يعلم أن مافى دار قيس غيره خذه وامض إلى معاطن الابل إلى اموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدا وامض لشأنك فقال ان قيسا لما انتبه من رقدته اخبرته بما صنعت فاعتقها ومضى صاحب عرابة الاوسى اليه فألقاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشى على عبدين وقد كف بصره فقال ياعرابة ابن سبيل ومنقطع به قال فخل العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذهما يعنى العبدين قال ماكنت بالذى اقص جناحيك قال أن لم تأخذهما فهما حران فان شئت تأخذ وان شئت تعتق وأقبل يلتمس الحائط بيده

مامن عبد ظلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال عز وجل لبيك عبدى حقا لأنصرنك ولو بعد حين وعنه أيضا أنه قال ألا أن الظلم ثلاثة فظلم لايغفر وظلم لايترك وظلم مغفور لايطلب فأما الظلم الذى لايغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى قال الله تعالى أن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وأما الظلم الذى لايترك فظلم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم المغفور الذى لايطلب فظلم العبد نفسه ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال يارب ان حلمك على الظالمين أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين وإذا مناد ينادى حلمى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عليين وقيل من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه فقال له كل الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك ويقال من طال عدوانه زال سلطانه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم ورأى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه: لاإله إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت

فلم أر مثل العدل للمرء نافعا ... ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر

كنت الصحيح وكنا منك فى سقم ... فان سقمت فانا السالمون غدا

دعت عليك أكف طالما ظلمت ... وان ترد يد مظلومة أبدا

وكان معاوية يقول انى لأستحيي أن أظلم من لايجد على ناصرا إلا الله وقال أبو العيناء كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبى داود (وقلت قد تضافروا على وصاروا يدا واحدة فقال يد الله فوق أيديهم فقلت أن لهم مكرا فقال ولايحيق المكر السيء إلا بأهله قلت هم فئة كثيرة فقال كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وقال يوسف بن اسباط من دعا الظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال أبو القاسم ﷺ من أشار إلى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه وقال مجاهد يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم هل يؤذيكم هذا فيقولون أى والله فيقال هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين وقال ابن مسعود رضى الله عنه لما كشف الله العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه وقال أبو ثور بن يزيد الحجر فى البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهى دار البقاء اسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لايعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فان له قاتلا لايموت وقال سحنون بن سعيد كان يزيد بن حاتم يقول ماهبت شيئا قط هيبتى من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول حسبك الله بينى وبينك وقال بلال ابن مسعود اتق الله فيمن لاناصر له إلا الله وبكى على بن الفضيل يوما فقيل له ما يبكيك قال أبكى على من ظلمنى إذا وقف غدا بين يدى الله تعالى ولم تكن له حجة وروى أن النبى ﷺ قال يقول الله تعالى اشتد غضبى على من ظلم من لايجد له ناصرا غيرى ، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له ما يوم الاذان فقال قال الله تعالى فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين قال فما ظلامتك قال أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها كيلك فكتب إلى وكيله ادفع اليه ارضه وارضا مع ارضه ، وروى ان كسرى انوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى أفاق فى العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فأوجعه فحقد انوشروان عليه فلما ولى الملك قال للمعلم ماحملك

راجعا إلى منزله قال وخذهما وجاء بهما فثبت أنهم أجود عصرهم إلا أنهم حكموا لعرابة لأنه أعطى جهده (نادرة غريبة) حضر يعقوب بن إسحق الكندى المسمى بوقته فيلسوف الإسلام مجلس أحمد بن المعتصم وقد دخل عليه أبو تمام فانشد قصيدته السينية المشهورة فلما بلغ إلى قوله

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قال الكندى ماصنعت شيئا فقال كيف قال مازدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب وأيضا فان شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ألا ترى إلى قول العكوك فى أبى دلف

رجل أرى على شجاعة عامر ... بأسا وغبر فى محيا حاتم

فأطرق أبو تمام ثم أنشأ يقول

لاتنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

ولم يكن هذا فى القصيدة فتزايد العجب منه ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندى ولوه لأنه قصير العمر لأن ذهنه ينحت من قلبه فكان كما قال وقد تكون ظهرت له دلائل من شخصه فى ذلك الوقت على قرب أجله انتهى وسمع الكندى

وفى أربع منى حلت منك أربع ... فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى

خيالك فى عينى أم الذكر فى فمى ... أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى

فقال لقد قسمتها تقسيما فلسفيا انتهى ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة فى كتابه المسمى بسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون أن واضع العود بعض حكماء الفرس ولما فرغ منه سماه البربط وتفسيره باب النجاه ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة وجعلت أوتارا أربعة بازاء الطبائع الاربع فالزير بازاء السوداء والبم بازاء الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم فاذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جانست الطبائع واتجب الطرب وهو رجوع النفس إلى الحالة الطبيعية دفعة واحدة وبدىء هذا العلم ببطليموس وختم باسحق ابن ابراهيم الموصلى (وحكى ابن حمدون فى تذكرته) أن الحسن ابن حماد قال كنت بالمدينة فخلا لى الطريق نصف النهار فجعلت أتغنى بشعر ذى يزن وهو

ما بال قومك يارب ... خزرا كأنهم غضاب

فاذا كوة قد فتحت وإذا وجه قد بدا منها تتبعه لحية حمراء فقال يا فاسق أسأت التأدية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة ثم اندفع يغنى فغنى الصوت غناء لم اسمع بمثله فقلت أصلحك الله من أين لك هذا الغناء قال نشأت وأنا غلام يعجبنى الأخذ عن المغنين فقالت أمى يا بنى ان المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فتركته وتبعت الفقهاء فبلغ بى إلى ما ترى فقلت أعدلى الصوت جعلت فداك فقال لا ولا كرامة أتريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس { فائدة غريبة } روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال

على ضربى يوم كذا وكذا ظلما فقال له لما رأيتك ترغب فى العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنو شروان زه زه * وقال محمد بن سويد وزير المأمون

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته ... فما ليل حر إن ظلمت بنائم

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه

تظلمن إذا كنت مقتدار ... فالظلم مصدره يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدرى بما صنع الدعاء
سهام الليل نافذة ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربى ... ويرسلها إذا ما نفذ القضاء

وقال أبو الدرداء إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسرى بالليل والناس نيام وقال الهيثم بن فراش السامى من بنى أسامة بن لؤى فى الفضل بن مروان

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم الموت المشتت والقتل

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى والفضل بن سهل ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها

وحق الله ان الظلم لؤم ... وان الظلم مرتعه وخيم
إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفى فى مصلاه رقعة مكتوبا فيها

بغى والبغى سهام تنتظر * أنفذ فى الأحشاء من وخز الابر * سهام أيدى القانتين فى السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء ما كنت لألى هذا بعد ما حدثنى إبراهيم قال وما حدثك إبراهيم قال حدثنى عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلما أو لاق لهم دواة فيجمعون فى تابوت من حديد ثم يرمى بهم فى نار جهنم * وروى هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال جلس أبى للمظالم يوما فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالسا فقال له ألك حاجة قال نعم ادننى إليك فإنى مظلوم وقد أعوزنى العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتى قال وما يحجبك وقد ترى مجلسى مبذولا قال يحجبنى عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال فى ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصبا منى بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أديته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها فيبطل ملكى فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم فقال له محمد هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء فقال له الرجل أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب قال نعم قد أمنتك قال البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأى شىء هذه الأشياء إن هى الا الجور وعدولك عن العدل فضحك محمد وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق وإنى لأرى فيك مصطنعا ثم وقع له برد ضيعته وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الانصاف وإعادة ضيعته له يقال له يا فلان كيف الناس فيقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر فلما صار من أصحاب محمد

ابن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة كيف الناس الآن قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب (ومما نقل) في الآثار الاسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلا من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة وكان صيادا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته فخرج يوما للصيد فوقعت في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال إلهي جعلتني ضعيفا وجعلته قويا عنيفا فخذلي بحقي منه عاجلا فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة ثم ان ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها ان تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته في أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له دواؤها أن تقطع الاصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه فخرج هائما على وجهه مستغيثا إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلا يقول يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك امض إلى خصمك الذي ظلمته فارضه فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى اليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الاقالة مما جناه ودفع اليه شيئا من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام يا موسى وعزتي وجلالي لولا ان ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته (ومما تضمنته أخبار الاخيار) ما رواه أنس رضي الله عنه قال بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد جاءه رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك فقال عمر رضي الله عنه لقد عذت بمجير فما شأنك فقال سابقت بفرسي ابنا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول انا ابن الاكرمين فبلغ ذلك عمرا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص اذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان وقال للمصري أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى اليه عمر رضي الله عنه بالدرة قال أنس رضي الله عنه فلقد ضربه ونحن نشتهي ان يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول اضرب ابن الاكرمين قال يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على صلع عمرو فقال يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني قال اما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع ثم أقبل على عمرو بن العاص قال ومتى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا فجعل عمرو يعتذر اليه ويقول اني لم أشعر بهذا * وقيل لما ظلم

أحد

سمعت رسول الله ﷺ يقول ان هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه ابن ماجه (نادرة لطيفة) قال عبد الله بن أبي يزيد مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فاذا رجل رث الهيئة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال فقلت لابن أبي مليكة يا أبا محمد أرأيت ان لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع رواه أبو داود (نادرة لطيفة) تتضمن المثل السائر في قولهم عن الخائب رجع بخفي حنين المنقول عن حنين انه كان اسكافا من أهل الحيرة ساومه اعرابي بخفين ولم يشتر منه شيئا وغاظه ذلك فخرج إلى الطريق التي لا بد للاعرابي من المرور منها فألقى الفردة الواحدة منهما في شجرة على طريقه وتقدم قليلا فطرح الفردة الثانية واختفى فجاء الاعرابي فرأى أحد الخفين فوق الشجرة فقال ما أشبهه بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه وتقدم فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره وأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المكمن فأخذ بعيره وذهب ورجع الاعرابي إلى ناحية بعيره فلم يجده فرجع بخفي حنين فصارت مثلا (نادرة لطيفة) قيل ان بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون سنة

أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة أذابت العظم وفى أيديكم فضول أموال فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا وإن كانت لله ففرقوها على عباد الله وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا أن الله يجزى المتصدقين فقال عمر بن عبد العزيز ماترك الأعرابى لنا عذرا فى واحدة (ووقف اعرابى على حلقة الحسن البصرى) فقال رحم الله من تصدق من فضل أو واسى من كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصرى ماترك الاعرابى أحدا منكم حتى عمه بالسؤال قلت هذا النوع سماه البديعيون بالتقسيم (نادرة أدبية بديعة) حكى ضياء الدين بن الاثير فى المثل السائر بعد ما أورد لغزا فى الخلخال .

ومضروب بلا جرم مليح اللون معشوق
له شكل الهلال على رشيق القد ممشوق
واكثر مايرى ابدا على الامشاط فى السوق

قال بلغنى أن بعض الناس سمع هذه الابيات فقال دخلت السوق فلم أر على الامشاط شيئا (ومن نوادر الادب ايضا) اشارة الحجاج إلى قول ابن نباتة السعدى فى فرس أغر محجل

غضبت صباح وقد رأتنى قابضا أيرى فقلت لها مقالة فاجر
بالله الاما لطمت جبينه حتى يحقق فيك قول الشاعر

يريد بذلك قوله

وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه فخاض فى أحشائه

(ومن المنقول

أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه اليها فقالت لهم متى يركب قالوا فى غد فكتبت رقعة ووقفت فى طريقه وقالت يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم ففسقتم ورددت اليكم الارزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الاسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أو جعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ماشئتم فانا صابرون وجوروا فانا بالله مستجيرون واظلموا فانا إلى الله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون قال فعدل لوقته (وحكى أن الحجاج حبس رجلا فى حبسه ظلما فكتب اليه رقعة فيها قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بينة وكتب فى آخرها .

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا غدا عند الإله من الظلوم
أما والله أن الظلم لؤم وما زال المظلوم هو اللوم
سينقطع التلذذ عن أناس أداموه وينقطع النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

(وحكى) أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجا وقال ياخدم فأسرعنا الجواب فقال ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتونى به ووكلوا بالسفينة من يحفظها فأسرعنا فوجدنا ملاحا فى سفينة منحدرة وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال اصدقنى ياملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم والاضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرا فى المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثير وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها و رقا وأخذت جميع ماكان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى دارى لئلا يفشوا الخبر فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط فصبرت إلى ان خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين وأخذت فى الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملونى اليك فقال وأين الحلى والسلب قال فى صدر السفينة تحت البوارى قال المعتضد على به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانيه سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر فحضر فى اليوم الثانى ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك اليهم قال فقلت يامولاى من أعلمك أو أوحى اليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال بل رأيت فى منامى رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها ظلما وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ماشاهدتم . فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الاحكام وان يتبصر فى رعيته وعلى كل عاقل ان يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم ان الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ حقه من ظالمه وإذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم

الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

(الباب الحادي والعشرين في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان)

(الفصل الأول في سيرة السلطان في استجباء الخراج والانفاق من بيت المال وسيرة العمال) قال جعفر بن يحيى الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استنذروا بمثل الظلم وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور مثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو وإن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الاجناد وإذا ضعف الجند طمع الاعداء في السلطان (وروى) أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرا يحدثه فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعل في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها لكن أن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية . وقال أبو الحسن بن علي الاسدي اخبرني أبي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان والانفاق على الجسور وسد الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض ثمانمائة الف دينار ولما ينصرف للأرامل والايتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة الف دينار ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا الف دينار ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا وينادى عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك جمع كثير مائتا الف دينار فإذا فرقت الاموال على أربابها دخل أمناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة الاموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنماء والسلامة وأنهوا إليه حال الفقراء فيأمر باحضارهم وتغيير شعثهم ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد غلته مثل الذي كان له ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة مائتا الف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ويجعله في بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر الف الف وستمائة الف دينار . وقال أبورهم كانت أرض مصر أرضا مدبرة حتى أن الماء ليجري من تحت منازلها وأفنيتها تجري من تحتها الآية وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الأرض أعظم منه ملكا وكانت الجنان بحافتي

النيل

المعهود) أن الأدب وأهله كان عند أصحاب حماة في الثروة العالية ولكن قصة زكي الدين بن عبد الرحمن العوفي مع الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك تقي الدين عمر بن شهنشاه على غير المعهود منه ومن سلفه الطاهر وماذاك إلا أن زكي الدين المذكور أنشد الملك المظفر محمودا قبل أن يتملك حماة .

متى أراك ومن تهوى وأنت كما . تهوى على غمهم روحين في بدن .
هناك أنشد والآمال حاضرة . هنئت بالملك والاحباب والوطن .

فوعده أن تملك حماة أن يعطيه ألف دينار فلما ملكها أنشد .

مولاي هذا الملك قد نلته برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته فذا أوان الموعد الصادق

فدفع له ألف دينار وأقام معه مدة ولزمته أسفار أنفق فيها المال الذي أعطاه ولم يحصل بيده زيادة عليه فقال

أن الذي أعطوه لي جملة قد استردوه قليلا قليل فليت لم يعطوا ولم يأخذوا .

وحسبنا الله ونعم الوكيل فبلغ ذلك الملك المظفر فأخرجه من دار كان قد أنزله بها فقال

أتخرجني من كسر بيت مهدم . ولي فيك من حسن الثناء بيوت .
فإن عشت لم اعدم مكانا يضمني . وأنت فتدري ذكر من سيموت

بجليسه المظفر فقال ماذنبي إليك فقال حسبنا الله ونعم الوكيل وأمر بخنقه فلما أحس بذلك قال اعطيتني الالف تعظيما وتكرما

النيل متصلة لاتنقطع منها شيء عن شيء والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا دبروا من جسورها وحافاتها والزروع مابين الجبلين من أولها إلى آخرها وذلك قوله تعالى تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم (وقال) عبد الله بن عمر رضى الله عنهما استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى القبلة ويسوقه كيف أراد وإلى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليه من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم رد على أهل القرى أموالهم فردعليهم ماأخذه منهم * فاذا كانت هذه سيرة من لايعرف الله ولا يرجو لقاءه ولايخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله يوقن بالحساب والثواب والعقاب وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى اجعلنى على خزائن الأرض قال هى خزائن مصر ولما استوثق امر مصر ليوسف عليه السلام وكل وصارت الأشياء اليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخا فى مثلها وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وتاتت عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم وكانت السنون التى حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتملك يوسف وافتقرت زليخا وعمى بصرها فجعلت تكفف الناس فقيل لها وتعرضت للملك ربما يرحمك الله ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ثم قيل لها لاتفعلى لانه ربما يتذكر ماكان منك اليه من المراودة والحبس فيسيء اليك ويكافئك على ماسبق منك اليه فقالت أنا أعلم عليه وكرمه فجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة الف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم والعبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف عليه السلام من أنت فقالت أنا التى كنت أخدمك بنفسى وأرجل شعرك بيدى وأكرم مثواك بجهدى وكان منى ماكان وقد ذقت وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمنى ومنهم من لايرحمنى وبعد ماكنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها فى قلبك من حبك اياى شيء قالت نعم والذى اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب الى من ملء الارض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها يقول ان كنت أيما تزوجناك وان كنت ذات بعل أغنيناك فقالت لرسول الملك أنا أعرف أنه يستهزيء بى هولم يردنى فى ايام شبابى وجمالى فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف عليه السلام قدميه وقام يصلى ودعا الله تعالى باسمه العظيم الاعظم فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هى بكر فولدت له افرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف وطاب فى الاسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما فينبغى للقوى أن لاينسى الضعيف وللغنى أن لايتمنى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب فيه يصير راغبا ومسئول يصير سائلا وراحم يصير مرحوما فنسأل الله تعالى ان يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله ولما ملك يوسف عليه السلام بخزائن الارض كان يجوع

ياليت شعرى أم أعطيتنى ديقى (قلت) كان والد الملك المظفر أليق بهذا المقام الذى لم يقصد به زكى الدين العوفى غير ترويج الأدب فى اختلاف المعانى والمداعبة به والتوصل بذلك إلى بسط الملك المظفر ولكن حال الزكى كقول الشاعر:

وكنت كالمتمنى أن يرى فلقا
من الصباح فلما أن رآه عمى

(قلت) وكان والد السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الادب وكان أحب الناس لاهله وله كتاب طبقات الشعراء عشر مجلدات وسمع الحديث من الحافظ السلفى بالاسكندرية وكان مغرما بحب الادباء والعلماء وجمع تاريخا على السنين فى عشر مجلدات ومن مصنفاته كتابه المسمى بمظاهر الحقائق وسر الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله وجمع عنده من الكتب مالا مزيد عليه وكان فى خدمته ماينا هز مائتى متعمم من الفقهاء والادباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب وأقامت دولته ثلاثين سنة وتوفى سنة عشر وستمائة ومن شعره

ارنى راح وريحا
ن ومحبوب وشادى
والذى ساق لى المل
ك له دفع الاعادى

(قلت) وقد تقدم القول وقد تقرر أن جميع ملوك حماة المحروسة من بنى أيوب وكان لهم إلمام بالادب وأهله وقد تعين أن نذكر هنا ترجمة مؤيدهم الانه كان بدر كمالهم ومسك ختامهم وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسمعيل بن

ويأكل من خبز الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع
(ومن حسن سيرة العمال) ما روي أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير
ابن سعد فلما مضت السنة كتب اليه عمر رضي الله عنه أن أقدم علينا فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه
ماشياً حافياً عكازته بيده وأداوته ومزوده وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال له يا عمير أجبتنا أم
البلاد بلاد سوء فقال يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك
بالدنيا أجرها بقرابها فقال له وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع عدوا إن لقيته
ومزود أحمل فيه طعامي وأداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها
رأسي وآكل فيه طعامي فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي قال فقام عمر رضي الله عنه من
مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه فبكى بكاء شديدا ثم قال اللهم ألحقني بصاحبي
غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد إلى مجلسه فقال ما صنعت في عملك يا عمير فقال أخذت الإبل من أهل
الإبل والجزية من الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل
فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به فقال عمر عد إلى عملك يا عمير قال أنشدك الله
يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي فأذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار وقال
له اختبر لي عميرا وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو في سعة أم ضيق فان كان في ضيق فادفع
اليه المائة دينار فأتاه حبيب فنزل به ثلاثا فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت فلما مضت ثلاثة أيام قال
يا حبيب ان رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا فانا والله وتالله لو كان عندنا
غير هذا لآثرناك به قال فدفع اليه المائة دينار وقال قد بعث بها أمير المؤمنين اليك فدعا بفرو خلق
لامرأته فجعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة ويبعث بها الى اخوانه الفقراء الى ان انفدها
فقدم حبيب على عمر وقال جئتكم يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير
وأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما وأما الوسقان فلا حاجة
لي بهما عند أهلي صاع من بر هو كافيهم حتى أرجع اليهم (وروى) أن عمر رضي الله عنه صر أربعمائة
دينار وقال للغلام اذهب بها الى أبي عبيدة بن الجراح ثم تربص في البيت ساعة حتى تنظر
ما يصنع بها فذهب الغلام اليه وقال له يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض
حوائجك قال وصله الله ورحمه ثم دعا بجاريته وقال لها إذهبي بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة الى
فلان حتى أنفدها فرجع الغلام الى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له انطلق بها
الى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره فمضى اليه وقال له كما قال لابي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما
فعل أبو عبيدة فرجع الغلام فأخبره عمر فقال انهم اخوة بعضهم من بعض رضي الله تعالى عنهم أجمعين
(الفصل الثاني في أحكام أهل الذمة) روي عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب
رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام وبسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا الى
امير المؤمنين عمر بن الخطاب انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا
وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها كنيسة ولا ديرا ولا قلية ولا صومعة
راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار وان نوسع
ابوابها المار وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا

ولا

الملك الأفضل ابن الملك المظفر بن الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة المحروسة كان أميرا بدمشق المحروسة لخدم الملك الناصر لما كان بالكرك وبالغ في خدمته فوعده بحماة ووفى له بذلك وجعله بها سلطانا يفعل فيها ما يشاء من أقطاع وغيره ليس لأحد من الدولة المصرية معه حديث وأركبه في القاهرة بشعار المملكة وأبهة السلطنة ومشي الأمراء في خدمته حتى الأمير سيف الدين ابن أرغون النائب وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج اليه في ذلك المهم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة ولقبه الملك الصالح ثم بعد ذلك بقليل لقب بالمؤيد وتقدم أمر السلطان الملك الناصر إلى نوابه أن يكتبوا اليه يقبل الأرض والمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي وفي العنوان صاحب حماة وكان الملك الناصر يكتب اليه أخوه محمد بن قلاوون أعز الله المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي المولوي * وكان الملك المؤيد من علماء الفقه والادب والطب والحكمة والهيئة ونظم الحاوي وله تاريخ بديع وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله واجاد فيه ما شاء الله وله كتاب الموازين * وكان قد رتب للشيخ جمال الدين ابن نباتة في كل شهر الف درهم غير ما يتحفه وهو مقيم بدمشق وتوجه الملك المؤيد في بعض السنين إلى الديار

ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتمه عن المسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحد ولا نمنع أحدا من ذوي قراباتنا الدخول في دين الاسلام أن أراده وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أراد الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب في السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنار على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم ولا نضرب بالنواقيس في كنائسنا الاضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضي الله عنه أن امض ما سألوه والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم أن لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده • وروي أن بني تغلبة دخلوا على عبد العزيز رضي الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب أفرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا إلى حجاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمون بها وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن لا يركبوا على الاكف من شق واحد • وروي أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزي المسلمين وقرب منه أهل الحق وابعد عنه أهل الباطل فاحيا الله به الحق وامات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم أهل رشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أباموسى الأشعري رضي الله عنه من البصرة وكان عاملا عليها للحساب ودخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض الآية هلا اتخذت حنيفياً فقال يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه فقال لا أكرمهم إذا أهانهم الله ولا أعزهم إذا أذلهم الله ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله وكتب بعض العمال إلى عمر رضي الله عنه أن العدم قد كثر وإن الجزية قد كثرت أفنستعين بالأعاجم فكتب اليه أنهم أعداء الله وانهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله • ولما خرج رسول الله ﷺ الى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال انى أريد أن أتبعك فأصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن نستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة فقال جئتك لأتبعك وأصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك فأجابه بمثل الاول فقال نعم فخرج به وفرح المسلمون وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم في ان لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويرق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عماله ان لا تولوا على أعمالنا الا أهل القرآن فكتبوا اليه انا قد وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن في أهل القرآن خيرا فاجدوا ان لا يكون في غيرهم قال اصحاب الشافعي ويلزمهم

المصرية ومعه ابنه الملك الافضل محمد فرض ولده فجهز اليه السلطان الحكيم جمال الدين المغربي رئيس الاطباء فكان يجيء اليه بكرة وعشيا فيراه ويبحث معه في مرضه ويقدر له الادوية ويطبخ له الشراب بيده في دست فضة فقال له ابن المغربي يامولانا السلطان أنت والله ماتحتاج إلى المملوك وما أجيء إلا امتثالا للاوامر الشريفة ولما عوفي أعطاه بغلة بسرج ذهب ولجام وكنبوش مزركش وعشرة آلاف درهم والدست الفضة وقال يارئيس اعذرني فاني لما خرجت ماحماة ماحسبت مرض هذا الولد ومدحه شعراء زمانه وأجازهم وبنى بظاهر حماة المحروسة جامعاً حسنا وسماه وجامع الدهيشة واوقف عليه كتبا قيل انها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون فانه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقا وغربا وتوفي رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ومن شعره

كم من دم حلت ومانه مت · تفعل ما تشتهي فلا عدمت
سمعت فلو تبلغ الشموس إلى · ثم مواطيء أقدامها لثمت

والمنقول عن القاسم والمكنى بأبي دلف)أنه جمع بين طرفي الكرم والشجاعة ولي دمشق في خلافة المعتصم فأما شجاعته فانه لحق قوما من الاكراد قطعوا الطريق فطعن فارسا طعنة فنفذت الطعنة إلى فارس آخر رديفه فقتلهما فقال بكر بن النطاح

قالوا وينظم فارس بطعنه · يوم الهياج ولا تراه كليلا

أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنانير على أوساطهم ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الإزار وقيل فوق الازار وهو الأولى ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير إلا بالاكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدأون بالسلام ويلجأون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل لاتجوز وان تملكوا دارا عالية أقروا عليها ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة وان امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم وإن زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلما عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال انها مقدره الأقل والأكثر على ماكتب به عمر رضى الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهما وعلى من دونه أربعة وعشرين درهما وعلى من دونه اثنى عشر درهما وذلك بمحضر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثنى عشر بدينار وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل وأحد قولى الشافعى ويجوز للإمام أن يزيد على ماقدره عمر ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الاسلام ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لاتظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد فى ذلك عمر ابن عبد العزيز وأمر أن لا يترك فى دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثانى والعشرون فى اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وادخال السرور عليها)

قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال رسول الله ﷺ من مشى فى عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه اليه أنفعهم لعياله رواه البزار الطبرانى فى معجمة ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى والخلق كلهم فقراء الله تعالى وهو يعولهم وروينا فى مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال خير الناس أنفعهم للناس وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ان لله خلقا خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار فاذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من سعى لأخيه المسلم فى حاجة فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وأما شهرته فى الكرم فهو الذى قال فيه أبو تمام

ياطالبا للكيمياء وعلمها مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم
لولم يكن فى الأرض إلا درهم ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشد أبو دلف ان المكارم لم تزل

مغلغلة تشكو إلى الله حلها فبشرها منه بميلاد قاسم
فأرسل جبريلا اليها قاسم

فأمر له بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر ببيت المال فأمره بضعفه فقال هذا غير ممكن فأمر له بضعفه فلما حمل اليه المال قال أبو دلف

أتعجب إن رأيت دينا وان ذهب الطريف مع التلاد
وما وجبت على زكاة على مال وهل تجب الزكاة على جواد

وقال آخر

إن سار سار المجد أو حل وقف أنظر بعينيك إلى أسنى الشرف
هل ناله بقدرة أو بكلف خلق من الناس سوى أبى دلف

فأعطاه خمسين ألف درهم وفيه يقول العكوك بن على بن أبى جبلة

إنما الدنيا أبو دلف . بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف . ولت الدنيا على إثره

وكتب

وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفا عند ميزانه فان رجح والا شفعت له رواه أبو نعيم في الحلية وروينا في مكارم الاخلاق لأبي بكر الخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فان قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فان مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والارض رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ ان لله عند أقوام نعما يقرها عندهم ما داموا في حوائج الناس ما لم يملوا فاذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم رواه الطبراني وروينا من طريق الطبراني باسناد جيد على ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فاسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من اغاث ملهوفا كتب الله ثلاثا وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقي في الدرجات وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أتدرون ما يقول الاسد في زئيره قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل يا رسول الله أي الناس أحب إليك قال أنفع الناس للناس قيل يا رسول الله فأي الاعمال أفضل قال ادخال السرور على المؤمن قيل وما سرور المؤمن قال اشباع جوعته وتنفيس كربته وقضاء دينه ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الاقدام ومن كف غضبه ستر الله عورته وان الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة رواه الطبراني في الصغير باسناد حسن وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا لم يرض الله سرورا دون الجنة رواه الطبراني وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما أدخل رجل على مؤمن سرورا إلا خلق الله من ذلك السرور ملكا يعبد الله تعالى ويوحده فاذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفني فيقول له من أنت فيقول أنا السرور الذي أدخلتني على فلان أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلتك في الجنة رواه ابن أبي الدنيا وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران وآية الكرسي وإنا أنزلناه في ليلة القدر وأم الكتاب فان فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع * ومن كلام الحكماء إذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر فانه لا يفكر إلا في خير وإذا سألت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل وسأل رجل رجلا حاجة ثم توانى عن طلبها فقال المسئول أنمت عن حاجتك فقال ما نام عن حاجته من أسهرك لها ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها فعجب من فصاحته وقضى حاجته

كل من في الارض من عرب ... بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة ... يكتسبها يوم مفتخره

فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم ولما بلغت المأمون غضب غضبا شديدا على العكوك فطلب فهرب فاجتهدوا إلى أن جاؤا به مقيدا فلما صار بين يديه قال له يا ابن اللخناء أنت القائل في مدحك لأبي دلف كل من في الأرض من عرب البيتين جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ويفتخر بها فقال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم وانما ذهبت في شعري لأقران وأشكال أبي دلف فقال والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا في الكل وما أستحل دمك بهذا ولكن بكفرك حيث قلت في عبد ذليل مهين

أنت الذي تنزل الآيات منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما نظرت مدى طرف إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك هو الله يا كافر اخرجوا لسانه من قفاه ففعلوا به ذلك فمات * ومن مصنفاته كتاب البزة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك وكانت له اليد الطولى في الغناء وهو مترجم بذلك في كتاب الاغاني وذكر أبو عبيدة في كتاب مثالب أهل البصرة أن النضر بن شميل النحوي البصري كان عالما بفنون من العلم صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث وهو من أصحاب الخليل بن أحمد فاتفق أن ضاقت به المعيشة ورق حاله فخرج يريد خراسان فشيعه من

وأمر له بمال جزيل ، وقال مسلمة لنصيب سلني فقال كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسئلة فأمر له بألف دينار وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها وعنه أيضا وقال لاتكثر على أخيك الحوائج فان العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحه وقال ذو الرياستين لثمامة بن شرس ماأدري ماأصنع بكثرة الطلاب فقال زل عن موضعك وعلى أن لايلقاك منهم أحد فقال له صدقت وجلس لهم في قضاء حوائجهم وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات رقعة في حاجة فقرأها ووضعها من يده ولم يوقع فيها بشيء فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلا من حيث يسمع هذين البيتين

وإذا خطبت إلى كريم حاجة ... وأبى فلا تقعد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم وما به ... بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال وقد سمع مقلت ارجع ياأبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فان القلوب بيد الله تعالى فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت ، وسأل إسحق بن ربعي إسحق بن إبراهيم المصعبي ان يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه ضمها إلى رقعة فلان فقال

تأن لحاجتي واشدد عراها ... فقد أضحت بمنزلة الضياع
إذ شاركتها بلبان أخرى ... اضربها مشاركة الرضاع

(وقال أبو دقاقة البصري)

اضحت حوائجنا إليك مناخة ... معقولة برحابك الوصال
اطلق فديتك بالنجاح عقالها ... حتى تثور دمعا بغير عقال

(وقال سلم الخاسر)

إذا أذن الله في حاجة ... اتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضله

(ولله در القائل حيث قال)

أيها المادح العباد ليعطى ... ان لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ماطلبت إليهم ... وارج فرض لمقسم الجواد

وعن عبد الله بن الحسن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال إذا كانت لك حاجة إلي فارسل إلي رسولا أو اكتب لي كتابا فاني لأستحي من الله ان يراك ببابي وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال والذي وسع سمعه الاصوات مامن أحد أودع قلبا سرورا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفا فاذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه فان قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال نعوذ بالله من زوال النعمة ونسأله التوفيق والعصمة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب الثالث والعشرون في محاسن الأخلاق ومساويها)

قال الله تعالى لنبيه ﷺ وإنك لعلى خلق عظيم فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق

أهل البصرة ثلاثة آلاف رجل مافيهم إلا محدث أو نحوي أو عروضي أو لغوي أو اخباري أو فقيه فلما بعدوا عن المدينة جلس فقال ياأهل البصرة يعز علي فراقكم والله ولو وجدت كل يوم أكلة باقلاء مافارقتكم قال فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك القدر اليسير وسار حتى وصل إلى خراسان فاستفاد بها مالا عظيما قيل إن ذلك أنه أخذ على حرف ثمانين ألف درهم وهذه القصة نقلها الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص في أوهام الخواص قال حكي عن محمد بن ناصح الاهوازي قال حدثني النضر بن شميل المازني قال كنت أدخل المأمون في سمره فدخلت ذات ليلة وعلي قميص مرقوع فقال يانضر ماهذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان قلت ياأمير المؤمنين أنا رجل كثير وضعيف وحر مرو شديد فأتبرد بهذه الخلقان قال لا ولكنك تقشف ثم أجرينا الحديث فأجرى ذكر النساء فقال حدثني هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سدادا من عوز بفتح السين من سداد فقلت صدق ياأمير المؤمنين هشام حدثنا عوف عن ابن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كانت سدادا من عوز بكسر السين قال وكان أمير

المؤمنين متكئا فاستوى جالسا وقال يا نضر كيف قلت سدادا قلت نعم يا أمير المؤمنين لأن سدادا بالفتح هنا لحن قال أو تلحنني
قلت إنما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قلت السداد بالفتح القصد

الأخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من
فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال تعالى وإنك لعلى خلق عظيم قالت عائشة رضي الله عنها كان
خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال
أكرم ولد آدم على الله عز وجل أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله أتى بمفاتيح الدنيا
فاختار ما عند الله تعالى وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما
يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ولا يأكل متكئا ولا على خوان وكان يأكل خبز الشعير غير
منخول وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول برد هذا يطفئ حر هذا وكان أحب الطعام إليه اللحم
ويقول هذا يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يحب الدباء ويقول يا عائشة
إذا طبختم قدرا فأكثروا فيه من الدباء فإنها تشد قلب الحزين وكان يقول إذا طبختم الدباء فأكثروا
من مرقها وكان يكتحل بالإثمد ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة
يخيط ثوبه بيده وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره وكان يسابق أهله قالت
عائشة رضي الله عنها سابقته فسبقته فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال هذه بتلك
وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب
نشأ في بلاد الجهل والصحاري يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق وكان أفصح
الناس منطقا وأحلاهم كلاما وكان يقول أنا أفصح العرب وقال أنس رضي الله عنه والذي بعثه بالحق
نبيا ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامني أحد من أهله إلا قال
دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى لا مانع من أن النبي ﷺ إذا
هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبي ﷺ أعطاه الله تعالى
مرتبة الملك مع كونه عبدا له متواضعا لحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية ومع ذلك كان
يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه ويأكل الخشن
من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاه لباه ومن صافحه لم
يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء أعظم الناس من الله
مخافة وأنعمهم لله عز وجل بدنا وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه
وما تأخر وأيم الله ما كان تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ وقالت عائشة رضي الله تعالى
عنها ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادما له ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل
الله ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثما أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه وقال
إبراهيم بن عباس لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت وهي قوله عليه الصلاة
والسلام إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم وفي رواية أخرى فسعوهم ببسط الوجه
والخلق الحسن وعنه ﷺ حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الملك
والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنة وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه
والزمام بيد الشيطان والشيطان يجره إلى الشر والشر يجره إلى النار وقال بعض السلف الحسن الخلق
ذو قرابة عند الأجانب والسيء الخلق أجنبي عند أهله وقال الفضيل لأن يصحبني فاجر حسن الخلق

في الدين والسبيل والسداد
بالكسر البلغة وكل ما
سددت به شيئا فهو سداد
قال أو تعرف العرب ذلك
قلت نعم هذا العرجي يقول
أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر
فقال المأمون قبح الله من
لا أدب له وأطرق مليا ثم
قال ما مالك يا نضر قلت
أريضة لي بمرو قال أفلا
نفيدك معها مالا قلت إني
إلى ذلك لمحتاج قال فأخذ
القرطاس وأنا لا أدري
ما يكتب ثم قال كيف
تقول إذا أمرت أن
يترب قلت أتربه قال فهو
ماذا قلت مترب قال فمن
الطين قلت مطين قال هذه
ماذا قلت مطين قال هذه
أحسن من الأولى ثم قال
يا غلام أتربه ثم صلى بنا
العشاء ثم قال لخادمه تبلغ
النضر إلى الفضل بن سهل
قال فلما قرأ الفضل
الكتاب قال يا نضر إن
أمير المؤمنين قد أمر لك
بخمسين ألف درهم فما
كان السبب فأخبرته ولم
أكذبه شيئا فقال ألحنت
أمير المؤمنين قلت كلا إنما
لحن هشام وكان لحانة
فتبع أمير المؤمنين لفظه
وقد تتبع ألفاظ الفقهاء
ورواة الآثار ثم أمر الفضل بثلاثين ألف فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد انتهى، وحكي أن النضر
ابن شميل مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح مسح الله ما بك فقال لا تقل مسح

أحب إلى من أن يصحبنى عابد سىء الخلق لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه والعابد إذا ساء خلقه مقتوه (بيت مفرد)

إذا رام التخلق جاذبته * خلائقه إلى الطبع القديم

قيل أبى الله لسئ الخلق التوبة لأنه لايخرج من ذنب إلادخل فى ذنب آخر لسوء خلقه وعن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شىء لم يقل مابال فلان ولكن يقول مابال أقوام يقولون حتى لايفضح أحدا وعنه ﷺ ماشىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق وعنه أيضا ﷺ قال ثلاث من كن فيه كن له من صدق لسانه زكى عمله ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ومن حسن بره لأهل بيته زيد له فى عمره ثم قال وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان فى الرزق وقيل سوء الخلق يعدى لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله * وكتب الحسن بن على إلى أخيه الحسين رضى الله عنهم فى إعطائه الشعراء فكتب اليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ماوقى به العرض فانظر إلى شرف أدبه وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم منى وكان بينه وبين أخيه كلام فقيل له ادخل على أخيك فهو أكبر منك فقال انى سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول أيما اثنين جرى بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر إلى الجنة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلا رضى الله عنهما وأنشد فى المعنى

وانى لألقى المرء أعلم أنه * عدو وفى أحشائه الضغن كامن

فأمنحه بشرا فيرجع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

(وسرق) بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها فقالوا باعها فلان من مدة ثم ان ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليه وأحضر بين يدى جعفر فلما رأى ماظهر عليه قال له أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك وأقسم بالله لقد أنسيت هذا ثم أمر للجوهرى بثمنها وقال للرجل خذها الآن حلالا طيبا وبعها بالثمن الذى يطيب خاطرك به لاتبعها بيع خائف * ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم فقال لها المأمون مم تضحكين فقال ابن عباد أنا أخبرك ياأمير المؤمنين تتعجب من قبحى واكرامك اياى فقال لاتعجبى فان تحت هذه العمامة كرما ومجدا قال الشاعر

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم * إذا كانت الاعراض غير حسان

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى * فما كان مصقول الحديد يمانى

(وحكى) أن بهرام الملك خرج يوما للصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيدا فتبعه طامعا فى لحاقه حتى بعد عن عسكره فنظر إلى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعى احفظ على فرسى حتى أبول فعمد الراعى إلى العنان وكان ملبسا ذهبا كثيرا فاستغفل بهرام وأخرج سكينا فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه فرفع بهرام نظره اليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الارض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ثم قام بهرام فوضع يده عن عينيه وقال للراعى قدم إلى فرسى فانه قد دخل فى عينى من سافى الريح فلا أقدر على فتحهما فقدمه اليه فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره فقال لصاحب مراكبه ان أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدا وذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس فى يوم نوروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته

بالسين ولكن قال مصحح الله بالصاد أى أذهبه وفرقه أما سمعت قول الأعشى

وإذا ما الخمر فيها أزبدت * أفل الأزباد فيها ومصح

فقال له الرجل ان السين قد تبدل بالصاد كما يقال الصراط والسراط وصقر وسقر فقال له النضر فأنت إذا أبو صالح (قلت) ويشبه هذه النادرة ماحكى أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبى الحسن بن الفرات أن تقام السين مقام الصاد فى كل موضع فقال الوزير أتقول جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم أم سلح فخجل الرجل وانقطع والذى ذكره أرباب اللغة فى جواز ابدال الصاد من السين انه فى كل كلمة كان فيها سين وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة وهى الطاء والخاء والغين والقاف فتقول الصراط والسراط وفى سخر لكم صخر لكم وفى مسغبة مصغبة وفى سيقل صيقل وقس على هذا (ونقل قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان فى تاريخه) أن أبا جعفر أحمد بن عيسى البلاذرى المؤرخ قال كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال لست أقبل الا من يقول مثل قول البحترى فى المتوكل

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما * فى وسعه لسعى إليك المنبر

قال البلاذرى فرجعت إلى دارى وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى قال هاته فأنشدته

في

في الايوان فلما فرغوا من الطعام جاؤا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم في آنية الذهب والفضة فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه فلما فقده الشرابي صاح بصوت عال لا يخرجن أحد حتى يفتش فقال كسرى ولم فأخبره بالقضية فقال قد أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه فلا تفتش أحدا فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له هذا من ذاك فقبل الأرض وقال نعم أصلحك الله ‧ وقال عبدالله بن طاهر كنت عند المأمون يوما فنادى بالخادم ياغلام فلا يجيبه أحد ثم نادى ثانيا وصاح ياغلام فدخل غلام تركي وهو يقول ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح ياغلام ياغلام فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ثم نظر إلى فقال ياعبدالله أن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه وان لانستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا ‧ وقال ابن عباس رضي الله عنهما ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليا وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف فوالله ماترك فينا فقيرا الا أغناه ولا مديونا إلا أدى عنه دينه وكان ينظر الينا بعين أرق من الماء ويكلمنا بكلام أحلى من الجنى ولقد شهدت منه مشهدا لو كان من معاوية لذكرته تغدينا يوما عنده فأقبل الفراش بصحفة فعثر في وسادة فوقعت الصحفة من يده فوالله ماردها الاذقن الوليد وانكب جميع ما فيها في حجره فبقي الغلام متمثلا واقفا ما معه من روحه الا مايقيم رجليه فقام الوليد فغير ثيابه وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته فأقبل على الفراش وقال يابائس ما أرانا الا روعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى ‧ ومرض أحمد بن أبي داود فعاده المعتصم وقال نذرت أن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار فقال له أحمد ياأمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الاسعار شدة فقال نويت أن اتصدق بها على من ههنا واطلق لأهل الحرمين مثلها فقال أحمد متع الله الاسلام واهله بك ياأمير المؤمنين فانك كما قال النميري لابيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه ‧

إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

(وقيل) للاحنف بن قيس ممن تعلمت حسن الخلق فقال من قيس بن عاصم بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء حار فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى ‧ وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحدا من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مرآة له فكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال من خدعنا في الله انخدعنا له وروى أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة فألقي عليه من فوق سطح طست رماد فتنغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرماد فقال أبو عثمان لاتقولوا شيئا فان من استحق أن يصب عليه النار فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب وقيل لإبراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته هل فرحت في الدنيا قط فقال نعم مرتين إحداهما انى كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال على والثانية كنت جالسا

من بعدي ولك الجراية والكفاية ما دمت حيا
(ويعجبني من المدائح الرافلة في حلل الحشمة) قول عبدالله الاسطرلابي اهدى لمجلسه الكريم وانما
أهدى له ما حزت من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وماله
فضل عليه لأنه من مائه
(ومثله) قول القاضي الفاضل وقد كتبت به إلى وزير بغداد
يا أيها المولى الوزير ومن له
منن حللن من الزمان وثاق
من شاكر عنى نداك فانني
من عظم ما أوليت ضاق نطاق
منن تخف على يديك وإنما
ثقلت مؤونتها على الاعناق
(قلت) كان نظم القاضي الفاضل رحمه الله وبثره كفرسي رهان ولكن نثره أكثر مما نظم وأجمع الناس انه أتى مع الاكثار بالعجائب وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه) أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر من مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها ولعمرى ان الإنشاء الذى صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نسي وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة

فجاء انسان فصفعني وروى أن على بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فرآه مضطجعا فقال أما تسمع ياغلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى (وحكى) أن عثمان الحيرى دعاه انسان إلى ضيافة فلما وافى باب الدار قال له الرجل يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك فانصرف رحمك الله فانصرف أبو عثمان فلما وافى منزله عاد الرجل اليه وقال يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ماقال فى الأولى ثم فعل به ذلك أربع مرات وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له يا أستاذ انما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك ثم جعل يعتذر له ويمدحه فقال أبو عثمان لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب فان الكلب إذا دعى حضر وإذا زجر انزجر وقال الحرث بن قصى يعجبنى من القراء كل فصيح مضحاك فاما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله ومن محاسن الأخلاق ماحكى عن القاضى يحيى بن اكثم قال كنت نائما ذات ليلة عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص على نومى فرأيته وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهنى حتى صار إلى فراشه ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم فى أول الليل وآخره فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام فلما تحركت وثب قائما وصاح ياغلام وتأهب للصلاة ثم جاءنى فقال كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين قال لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فازعجك فقلت يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الانبياء وأحب لك سيرتهم فهناك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار فأخذتها وانصرفت قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه وهو يحشو فى كم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فانتبه قال يحيى وكنت معه يوما فى بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس فى هذا الحوض شيئا من البقول قال يحيى ومشينا فى البستان من أوله إلى آخره وكنت انا مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل فكان يجذبنى أن أتحول انا فى الظل يكون هو فى الشمس فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يحيى والله لتكونن فى مكانى ولأكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما اخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما اخذت نصيبى فقلت والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسى لفعلت فلم يزل بى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس ووضع يده على عاتقى وقال بحياتى عليك الا ما وضعت يدك على عاتقى مثل ما فعلت أنا فانه لاخير فى صحبة من لا ينصف فانظر إلى اخلاقهم رضى الله تعالى عنهم ما احسنها وإلى افعالهم ما ازينها نسأل الله تعالى أن يحسن اخلاقنا وان يبارك لنا فى ارزاقنا انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والاخوة والزيارة وما أشبه ذلك ﴾

(اعلم) ان المودة والاخوة والزيارة سبب التألف والتألف سبب القوة والقوة سبب التقوى والتقوى

والانواع البديعة والذى يؤيده قول العماد الكاتب فى الجريدة انه فى صناعة الانشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع (ومن غرر نثره) هذه الرسالة التى أنشأها فى حمائم (١١٨) الرسائل وسحب فيها ذيل البلاغة والفصاحة على سحبان وائل (وهى) سرحة لا تحمل تحمل من البطائق أجنحة وتجهز جيوش المقاصد والاقلام أسلحة وتحمل من الاخبار ماتحمله الضمائر وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر وتزوى لها الأرض حتى ترى ماسيبلغه ملك هذه الامة وتقرب منها السماء حتى ترى مالا يبلغه وهم ولاهمة وتكون مراكب الاغراض والاجنحة قلوعا وتركب الجو بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا وتعلق الحاجات على أعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى دائمة الرجع وقد سكنت النجوم فهى أنجم وأعدت فى كنانتها فهى للحاجات أسهم وكادت تكون ملائكة لانها رسل وإذا أنيطت بالرقاع صارت أولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع وقد باعد الله بين اسفارها وقربها وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها وقد أخذت عهود اداء الامانة فى رقابها أطواقا وادنت من اذنابها اوراقا وصارت خوافى من وراء حصن
الخوافى واعطت سرها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الصوافى ترغم انف النوى بتقريب البعيد وتكاد العيون

بملاحظيها تلاحظ نجم السعود وهى أنبياء الطيور لكثرة ما تأتى به من الأنباء وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الاغصان مقام الخطباء.
ومن غريب المنقول أنى حضرت فى بعض الليالى على جانب النيل المبارك فى خدمة مولانا المقر الأشرف

المرحومى القاضوى الناصرى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان وبيده الكريمة جزء من تذكرة الشيخ صلاح الدين الصفدى بخطه وهذه الرسالة أول الجزء فشرع فى قراءتها وكررها وهو يترنم فى بديعها وغريبها ورسم فى أثناء ذلك بمعارضتها فلم أجد بدا من الشروع لالتزام الواجب وأوترت قوس العزم مطمئنا بهذا الرأى الصائب وقد أوصلت هنا شمل القطعتين ليتأمل المتأمل فى جنى الجنتين وينزه نظره فى حدائق الروضتين ويطرب بسجع حمائم الدوحتين (قلت) شرح فا سرح العيون الادون رسائله المقبولة وطلب السبق فلم يرض معرق العرق سرجا ولا استطلى صفحته المصقولة وهمز جواد التسليم فقصر وأمست أذياله بعرق السحب مبلولة وأرسل فأقر الناس رسالته وكتابه الصدق وانقطع

حصن منيع وركن شديد وبها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتنجح المقاصد وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردها بعد الفرقة إلى الألفة والاخاء فقال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرمة إذ جعلهم إخوانا على سرور متقابلين وقد سن رسول الله ﷺ الاخاء وندب إليه وآخى بين الصحابة رضى الله عنهم أجمعين وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الآلام إذ يقولون فالنا من شافعين ولا صديق حميم وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين وأنشدوا فى ذلك .

وما المرء إلا باخوانه ... كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة ... ولا خير فى الساعد الاجذم

وقال زياد خير ما اكتسب المرء الاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون فى السراء والضراء . ومن كلام على رضى الله عنه وكرم وجهه .

عليك باخوان الصفاء فإنهم ... عماد إذا استنجدتهم وظهور
وأن قليلا الف خل وصاحب ... وأن عدوا واحداً لكثير

وقال الاوزاعى الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب أن لم تكن مثله شانته وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة قال وما السبعة يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطىء والنظر إلى الحسن من كل شىء قال فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهى أولاهن وقال سليمان بن عبد الله أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره وافتضضت العذراء فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ وكذلك قال معاوية رضى الله عنه نكحت النساء حتى ما فرق بين امرأة وحائط وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرئه وشربت الاشربة حتى رجعت إلى الماء وركبت المطايا حتى اخترت نعلى ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم وأنشدوا فى معنى ذلك

وما بقت من اللذات الا ... محادثة الرجال ذوى العقول
وقد كنا نعدهم قليلا ... فقد صاروا أقل من القليل

(وقال لبيد) ما عاتب المرء اللبيب كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح
(وقال آخر) إذا أنت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقيل لابن السماك أى الاخوان أحق ببقاء المودة قال الوافر دينه الوافى عقله الذى لا يملك على القرب ولا ينساك على البعد ان دنوت منه داناك وان بعدت عنه راعاك وان استعنت به عضدك وان احتجت اليه رفدك وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله وأنشدوا فى المعنى

ان أخاك الصديق من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

(وقال غيره) وليس أخى من ودنى بلسانه ... ولكن أخى من ودنى وهو غائب

كوكب الصبح خلفه . فقال عند التقصير كنت نجابا وعلى يدى مخلق يؤدى ما جاء على يده من الرسل فيهيج الاشواق وما برحت الحمائم تحسن الاداء فى الاوراق وصحبناه على الهدى فقال ماضل صاحبكم وما غوى ومن روى عنه حديث الفضل المسند

ومن ماله مالي إذا كنت معدما … ومالي له أن أعوزته النوائب

(وقال أبو تمام) من لي بإنسان إذا أغضبته … وجهلت كان الحلم رد جوابه

وإذا صبوت إلى المدام شربت من … أخلاقه وسكرت من آدابه

وتراه يصغي للحديث بطرفه … وبقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان أي اخوانك أحب اليك قال الذي يسد خللي ويغفر زللي ويقيل عثرتي وقيل من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر

ومن لم يغمض عينه عن صديقه … وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

(وقال آخر) إذا كنت في كل الأمور معاتبا … صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وإن أنت لم تشرب مرارا على القذى … ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقالوا إذا رأيت من أخيك أمرا تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وأبقه وابرأ من عمله قال الله تعالى فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون فلم يأمره بقطعهم وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيء وقال ﷺ الارواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال عليه الصلاة والسلام أن روحي المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه وفي ذلك قال بعضهم

هويتكم بالسمع قبل لقائكم … وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفه

وخبرت عنكم كل جود ورفعة … فلما التقينا كنتم فوق وصفه

وقال (آخر) تنسم الثغر عن أوصافكم فغدا … من طيب ذكركم نشرا فأحيانا

فمن هناك عشقناكم ولم نركم … والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ماتحاب اثنان في الله الا كان أفضلهما عند الله أشدهما حبا لصاحبه مازار أخ أخا في الله شوقا ورغبة في لقائه الا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة وقالوا ليس سرور يعدل لقاء الإخوان ولا غم يعدل فراقهم وقالوا شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة وقالوا ان من الوفاء أن تكون من لصديق صديقك صديقا ولعدو صديقك عدوا وقالوا عجب الاشياء ود من يهودي وحفظ من نصراني ورياضة من دهري وكرم من أعجمي والحذر من الكريم اذا أهنته واللئيم اذا أكرمته والعاقل اذا أحرجته والاحمق اذا مازحته والفاجر اذا عاشرته وقالوا اصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكرا ناشرا ذكرا لجميلتك يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل ويجعل انه ما بلغ من مكافأتك القليل وقال ابن عائشة لقاء الخليل شفاء الغليل وقال بعض الحكماء اذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذر جهدك قال عبدالله بن طاهر

خليلي للبغضاء حال مبينة … وللحب آثار ترى ومعارف

فما تنكر العينان فالقلب منكر … وما تعرف العينان فالقلب عارف

(وقال آخر) كنت اذا الصديق أراد غيظي … وشرقني على ظمأ بريقي

غفرت ذنوبه وكظمت غيظي … مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال

فمن عكرمة قد روى يطير مع الهواء لفرط صلاحه ولم يبق على الثمر المصون جناح إذا دخل تحت جناحه إن برز مقفصه لم يبق للبرد قيمة بل تنعزل بتدبيج أوراقه وتعلق عليه من العين النميمة ماسجن إلا صبر على السجن وضيق الأطواق ولهذا حمدت عواقبه على الإطلاق ولا غنى على عود إلا أسال دموع الندى من حدائق الرياض ولا أطلق من كبد الجو إلا كان سهما مريشا تبلغ به الأغراض كم علا فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس وأمبنى عند الهبوط لعين الهلال كالشمس فهو الطائر الميمون والغاية السباقة والأمير الذي إذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقة فهو من الطيور التي خلا لها الجو فنقرت ما شاءت من حبات النجوم والعجماء التي من أخذ عنها شرح المعلقات فقد أعرب عن دقائق الفهوم والمقدمة والنتيجة الكتاب الجلي في منطق الطير وهي من جملة الكتاب الذي إذا وصل القارىء منه الى الفتح تهلل بفاتحة الخبر وإن تصدر البارزي بغير علم فكم جمعت بين طرفي كتاب وإن سألت العقبان عن بديع السجع أحجمت عن رد الجواب

(شعر)

رعت النسور بقوة جيف الفلا … ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ماقدمت إلا وأوردتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمة وأظهرت لنا من خوافيها ما كانت له خبر كاتمة كم

أهدت من مخلقها وهى غادية رائحة وكم حنت إليها الجوارح وهى أدام اطلاقها غير جارحة وكم أدارت من كؤس السجع ماهو أرق من قهوة الانشا وأبهج على زهر المنثور من صبيح الاعشا وكم عامت (١٢١) بحور الفضا ولم تحفل بموج الجبال وكم جاءت بيشارة وخضبت الكف ورمت من تلك الانملة قلامة الهلال وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخصيب وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفق لامر مريب وكم لمع فى أصيل الشمس خصاب كفها الوضاح فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع ولا برح تغريدها مطربا بين البادى والراجع انتهى

(وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الاثير الجزرى فى كتابه المسمى بالوشى المرقوم فى حل المنظوم) قال حدثنى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بمدينة دمشق سنة (٥٨٨) ثمان وثمانين وخمسمائة وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية أن فن الانشاء لا تخلو منه رأس مكانا أو بيانا وكل من أنتما أقام لسلطانه بانشائه سلطانا وكان من العادة أن كلا من أرباب البيوت إذا نشأ له ولد أحضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم

(وقال آخر) وليس فتى الفتيان من جل همه صبوح وأن أمسى ففضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح أوغدا لضر عدو أو لنفع صديق

(وأما آداب المعاشرة) فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا وكان القعقاع بن شور الهذلى إذا جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ويعينه على حوائجه ودخل يوما على معاوية فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له فى المجلس فدفعها للذى فسح له فقال

وكنت جليس قعقاع بن شور وما يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن ان نطقوا بخير وعند الشر مطرق عبوس

وقال ابن عباس رضى الله عنهما لجليسى على ثلاث ان أرمقه بطرفى إذا أقبل وأوسع له إذا جليس وأصغى له إذا حدث ويقال لكل شيء محل ومحل العقل مجالسة الناس ومثل الجليس الحسن كالعطار ان لم يصبك عطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكبريت ان لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه وكانت تحية العرب صبحتك الانعمة وطيب الأطعمة وتقول أيضا صبحتك الأفلاح وكل طير صالح ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال انه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب وقيل أول ما يتعين على الجليس الانصاف فى المجالسة بأن يلحظ بعين الادب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما فى محله وقال ﷺ ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل وقال جعفر الصادق رضى الله عنه إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ماعدا الجلوس فى الصدر وينبغى للانسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه فقد قيل ان نشاط المتكلم بقدر اقبال السامع ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلاما لا يليق بالمجلس فقد قيل لكل مقام مقال وخير القول ما وافق الحال وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ماكان من سمعه أولا أن لا يقطع عليه ما يقوله بل يسكت الى أن يستوعب منه القول وعدا ذلك من باب الادب ولعله اذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن فى حفظه وقيل ثمانية ان اهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم الجالس فى مجلس له بأهل والمقبل بحديثه على من لا يسمعه والداخل بين اثنين فى حديثهما ولم يدخلاه فيه والمتعرض لما لا يعنيه والمتأمر على رب البيت فى بيته والآتى إلى مائدة بلا دعوة وطالب الخير من أعدائه والمستخف بقدر السلطان ويتعين على الجليس ان يراعى ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصا إذا كان جليسه ذا هيبة فقد قيل رب كلمة سلبت نعمة وقال أبو العباس السفاح ما رأيت أغزر من فكر أبى بكر الهذلى لم يعد على حديثه قط وقيل ان أبا العباس كان يحدثه يوما إذا عصفت الريح فأرمت طستا من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلى ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال ما أعجب شأنك يا هذلى فقال ان الله يقول ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وانما لى قلب واحد فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجت لها فقال السفاح لئن بقيت لك لأرفعن مكانك ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة وكان ابن خارجة يقول ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يصغى إلى حديثى ٭ وفى نوابغ الحكم اكرم حديث أخيك بانصاتك وصنه من وصمة التفاتك وقيل من حق الملك إذا تثاءب أو القى المروحة من يده أو مد رجليه أو تمطى أو

 فن الكتابة ويتدرب ويسمع فأرسلنى والدى وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ للعبيدى وهو أحد خلفائها فدخلت ديوان المكاتبات وكان الذى يرأس به فى تلك الايام وهو صاحب الانشاء

اتكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته وكان اردشير إذا تمطى قام سماره ومن حق الملك أن لايعاد عليه حديث وإن طال الدهر قال روح بن زنباع أقمت مع عبدالملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثا إلا مرة واحدة فقال لى قد سمعته منك وعن الشعبى قال ماحدثت بحديث مرتين رجلا بعينه وقال عطاء بن أبى رباح أن الرجل ليحدثنى بالحديث فأنصت له كانى لم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل أن يولد وقيل المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه أن المسلمين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما فى وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر وقيل البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر وقيل من السنة إذا حدثت القوم أن لاتقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيبا وقالوا إذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر فى عطفيك ولاتكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تتكبر على أحد وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك وسن اللعب بخاتمك وتخليل أسنانك وادخال أصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولاتلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما وإذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر فى حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا التفات إلى من وراءك واهدىء غضبك وتكلم وإذا أقربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهى ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه وان كنت لذلك مستحقا عنده وإياك وصديق العافية فانه أعدى الاعداء ولا تجعل فعالك أكرم من عرضك ولا تجالس الملوك فان فعلت فالتزم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الالفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم وإن ظهرت المودة ولا تتجشأ بحضرتهم ولاتخلل أسنانك بعد الأكل عندهم ولا تجالس العامة فان فعلت فآداب ذلك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم وإياك أن تمازح لبيبا أو سفيها فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك ولان المزح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الإيمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرىء السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أن أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك غفر له ما كان فى مجلسه

(وأما آداب المسايرة) فقد روى أن رسول الله ﷺ تعقب هو وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فى سفر على بعير فكان إذا جاءت نوبته فى المشى مشى فيعزمان عليه أن لايمشى فيأبى ويقول ما أنتم بأقدر منى على مشى وما أنا بأغنى منكم عن أجر وقال ﷺ لاتتخذوا ظهور الدواب كراسى وقيل لا تتقدم الاصاغر على الاكابر الا فى ثلاث إذا ساروا ليلا أو خاضوا سيلا أو واجهوا خيلا وقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ فى ثلاث فى نكبته وغيبته ووفاته

عصر موفق الدين أبا الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى رحب بى ثم قال ما الذى أعددت لفن الانشاء وكتابته فقلت ليس عندى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال فى هذا بلاغ ثم أمرنى بملازمته فلما ترددت اليه وتدربت عليه وطال تدربى بين يديه أمرنى أن أحل عليه ديوان الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ثم أمرنى أن أحله مرة أخرى فحللته اه ما ذكره ابن الأثير (قلت) وقال عماد الدين الكاتب فى كتاب الخريدة فى حق موفق الدين بن الخلال كان فن الترسل والانشاء آل اليه وكان فى ذلك ناظر مصره وإنسان ناظره وقبلة جامع مفاخره (قلت) الذى ثبت عند المؤرخين وعلماء هذا الفن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الانشاء وحكم عن موفق الدين ابن الخلال منشىء الخليفة الحافظ العلوى ورتبته فى الانشاء معلومة ولكن جنحت إلى الوقوف على شىء من نظمه لأنظر فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثره فوجدت قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظما ونثرا دلنى على أن نظمه ونثره رضيعا لبان وفرسا رهان (فمن ذلك قوله فى الشمعة ولله دره حيث أجاد) وأما

وصبيحة بيضاء تطلع فى الدجا ۞ صبحا وتشفى الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها ۞ واسود مفرقها أوان فنائها

كالمين فى طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضياها (وله) وأغن سيف لحاظه يفرى الحسام بحده
عجيب الورى لما جننت وقد فنيت ببعده وبقاء جسمى ناحلا يصلى بوقدة صده (نادرة)

﴿ وأما ما جاء فى الاخوان القليلى الموافاة العديمى المكافأة الذين ليس عندهم الصديق مصافاة ﴾

قال وهب بن منبه صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلا غفر لى زلة ولا أقالنى عثرة ولا ستر عورة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذا كان الغدر طبعا فالثقة بكل أحد عجز وقيل لبعضهم ما الصديق قال اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود (قال الشاعر)

سمعنا بالصدق ولا نراه ... على التحقيق يوجد فى الانام
وأحسبه محالا نمقوه ... على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء كان الناس ورقا لا شوك فيه فصاروا شوكا لا ورق فيه وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر ٥ وقيل لبعض الولاة كم صديق لك فقال أما فى حال الولاية فكثير وأنشد

الناس اخوان ما دامت له نعم ... والويل للمرء ان زلت به القدم

(ولما) نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيا فقال

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكلما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان ثبت ... يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

(وقال آخر) فما أكثر الأصحاب حين تعدهم ... ولكنهم فى النائبات قليل
(وقال البحترى) اياك تغتر أو تخدعك بارقة ... من ذى خداع يرى بشرا وألطافا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبة ... وسرت فى الأرض أوساطا وأطرافا
لم تلق فيها صديقا أبدا ... ولا أخا يبذل الانصاف ان صافى

(وقال بعضهم فى المعنى أيضا)

خليلى جربت الزمان وأهله ... فما نالنى منهم سوى الهم والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد ... خليلا يوفى بالعهود ولا أنا

(وقال آخر) لما رأيت بنى الزمان وما بهم ... خل وفى الشدائد اصطفى
فعلمت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخل الوفى
(بيت مفرد) وكل خليل ليس فى الله وده ... فانى به فى وده غير واثق
(وقال آخر) إذا ما كنت متخذا خليلا ... فلا تأمن خليلك أن يخونا
فانك لم يخنك أخ أمين ... ولكن قلما تلقى أمينا
(وقال آخر) تحب عدى ثم تزعم أننى ... أودك أن الرأى عنك لعازب
وليس أخى من ودنى بلسانه ... ولكن أخى من ودنى وهو غائب
ومن ماله مالى إذا كنت معدما ... ومالى له أن أعوزته النوائب

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه انه زور عنه كتابا إلى أعدائه وعزله لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له أن السلطان ظهر له فى بقية يومه انه برىء مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه فأنشد يقول هذه الأبيات

تحالف الناس والزمان ٭ فحيث كان الزمان كانوا ٥ عادانى الدهر نصف يوم
فانكشف الناس لى وبانوا ٥ يا أيها المعرضون عنا ٭ عودوا فقد عاد لى الزمان

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن ارطاة أن اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة قول القضاء أفقههما فجمع بينهما فقال اياس أيها الرجل سل عنى وعنه فقيهى المصر الحسن وابن سيرين وكان القاسم يأتيهما واياس لا يأتيهما ففهم القاسم ان سألهما عنه أشار به فقال لا تسل عنى ولا عنه فوالله الذى لا إله إلا هو ان اياس بن معاوية أفقه منى ولا أعلم منى بالقضاء فان كنت كاذبا فما عليك أن تولنى وانا كاذب وان كنت صادقا فينبغى أن تقبل قولى فقال له اياس انك جئت برجل وقفت به على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى منها وينجو مما يخاف فقال له عدى أما إذ فهمتها فأنت لها أهل فاستقضاه (نادرة لطيفة) نقل بن عبد ربه فى العقد ان أبا سفيان زار معاوية فى الشام فلما رجع من عنده دخل على الإمام عمر رضى الله عنه فقال له الإمام اجدنا قال ما أصبنا شيئا فنجديك فأخذ الإمام عمر خاتمه فبعث به إلى هند وقال للرسول قل لها يقول أبو سفيان انظرى الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضر بهما فلم يلبث عمر أن أتى بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فألقاها عمر فى بيت المال فلما

ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه أراد ردها اليه قال ما كنت لآخذ مالا عابه عمر على والله ان لنا اليه حاجة ولكن لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك

ومثله فى المعنى أخوك أخوك من يدنو وترجو | مودته وان دعى استجابا
إذا حاربت حارب من تعادى | وزاد سلاحه منك اقترابا

(وقال أبو بكر الخالدى) وأخ رخصت عليه حتى ملنى | والشيء مملول إذا ما يرخص
مافى زمانك من يعز وجوده | ان رمته الا صديق مخلص

فيجب على الانسان ان لا يصحب إلا من له دين وتقوى فان المحبة فى الله تنفع فى الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم .

وكل محبة فى الله تبقى | على الحالين من فرح وضيق
وكل محبة فيما سواه | فكالحلفاء فى لهب الحريق

فينبغى للانسان ان يتجنب معاشرة الاشرار ويترك مصاحبة الفجار ويهجر من ساءت خاتمته وقبحت بين الناس سيرته قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال تعالى وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك انما هو فى الاخلاق خاصة فليس أحد من الخلق الا وفيه خلق من أخلاق البهائم لهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فإذا رأيت الرجل جاهلا فى خلائقه غليظا فى طبائعه قويا فى بدنه لا تؤمن ضائقته فألحقه بعالم الثورة والعرب تقول أجهل من ثور وإذا رأيت الرجل هجاما على اعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فان دأب الكلب أن يجفو من يجفوه ويؤذى من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح ألست تذهب وتتركه وإذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم فالحقه بعالم الحمير فان دأب الحمار أن أدنيته بعد وأن أبعدته قرب فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته وان رأيت انسانا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد وإذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان فالحقه بعالم الثعالب وإذا رأيت من يمشى بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان وهى دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان فتفرقوا وإذا رأيت انسانا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقه بعالم الخنافس فانه يعجبها أكل العذرات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر فى عطفيه فألحقه بعالم الطواويس وإذا بليت بانسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات فألحقه بعالم الجمال والعرب تقول أحقد من جمل فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الاشرار وأهل الفجور ومن لا وفاء لهم فانه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم

(وأما الزيارة والاستدعاء اليها) فقد قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى وجبت محبتى للمتحابين فى والمتباذلين فى والمتزاورين فى اليوم أظللهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى وقال ﷺ من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد ان طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا وقيل المحبة شجرة أصلها الزيارة قال الشاعر

زر من تحب وان شطت بك الدار | وحال من دونه حجب وأستار

(قلت) وماظنك بشيء قد جعله الله فى كتابه العزيز مدحة وفخرا لأنبيائه فقال واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد ولو لم يكن فى خلف الوعد الا قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون لكفى قال عمر بن الحرث كانوا يقولون ويفعلون فصاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون فهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق (ويعجبنى قول العباس بن الأحنف)

ماضر من شغل الفؤاد ببخله | لو كان عللنى بوعد كاذب
صبرا عليك فما أرى لى حيلة | الا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من مطل وتبقى حاجتى | فيما لديك وما لها من طالب

وذكر حيان بن سليمان عامر بن الطفيل فقال) والله كان إذا وعد الخير وفى وإذا وعد الشر أخلف وهو القائل

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتى | ويأمن منى صولة المتهدد
وانى وان أوعدته أو وعدته | لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

لايمنعك بعد من زيارته ... أن المحب لمن يهواه زوار

ولكن الزيارة غبا لقوله ﷺ زر غبا تزدد حبا قال الشاعر في معنى ذلك

عليك يا غباب الزيارة انها ... إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكا

ألم تر أن الغيث يسأم دائما ... ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

وقال الاكثار من الزيارة ممل والاقلال منها مخل وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة ... فما فضل قرب الدار منا على

(وقال آخر) وان مزوري بالديار التي بها ... سليمى ولم ألمم بها الجفاء

(وقال آخر) قد أتانا من آل سعد رسول ... حبذا ما يقول لي وأقول

(وقال آخر) ازور بيوتا لاصقات ببيتها ... وقلبي في البيت الذي لاأزور

وزار محمد بن يزيد المهلبي المستعين فوهب له مائتي ألف درهم وأقطعه أرضا فقال

وخصصتني بزيارة أضحى لنا ... مجد بها طول الزمان مؤثل

وقضيت ديني وهو دين وافر ... لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة

نحن في أفضل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه ياأهل ودي ... انكم غبتم ونحن حضور

فأجدوا المسير بل ان قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف أي الرسل أنجح قال الذي له جمال وعقل وقيل إذا أرسلتم رسولا في حاجة فاتخذوه حسن الوجه حسن الاسم وقال لقمان لابنه لاتبعث رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما عارفا فكن رسول نفسك وقال بعضهم

إذا أبطأ الرسول فقل نجاح ... ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الخامس والعشرون في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة واصلاح ذات البين وفيه فصلان)

(الفصل الأول في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم) قال الله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ووصف الله تعالى لعباده فقال عز وجل أن الله بالناس لرؤوف رحيم وقال الله تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم قال المفسرون الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق والرحيم مثله وقيل يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لايضع الله الرحمة إلا على رحيم قلنا يارسول الله كلنا رحيم قال ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين رواه أبو يعلى والطبراني وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال من لايرحم ومن لا يغفر لايغفر له وعنه ﷺ قال ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي رواه أبو محمد بن عدي في كتاب الكامل ورويناه من طريق الطبراني عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ مثل المؤمنين

(وقال ابن حازم) إذا قلت عن شيء نعم فأتمه * فان نعم دين على الحر واجب والا فقل لاتسترح وترح بها * لئلا يظن أنك كاذب

(ويعجبني قول عبد الصمد الرقاشي في خالد بن ديسم عامل الري وقد أبطأ عليه بوعد)

أخالد أن الري قد أجحفت بنا ... وضاق علينا رسمها ومعاشها

وقد أطمعتنا منك يوما سحابة ... أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها

فلا غيمها يصحو فيرجع طامعا ... ولا ودقها يهمي فتروى عطاشها

(قلت) ومن البلاغة المرقصة في هذا الباب خطاب كوثر بن وفر وقد وعده يزيد المهلب وأبطأ بوعده وهو أصلح الله الأمير أنت أعظم من أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيئا إلا هو يصغر عنك وأنت تكبر عنه وليس العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل * وقيل إن يزيد بن المهلب لما سمع هذا الخطاب البليغ مال سكرا وطربا وقال له سل حاجتك قال حمالات من عشيرة عشر ديات قال قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها (ويعجبني قول بعضهم) أما بعد فان شجرة وعدك قد أورقت فليكن وعدها سالما من حوايج المطل والسلام (لطيف الاستمناح) قال الحكماء لطيف الاستمناح سبب النجاح والنفس ربما انطلقت وانشرحت للطيف السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل (ولله در القائل) أن الكريم أخو المودة والنهى * من ليس في حاجاته بمثقل

(دخل عبد الملك بن صالح) على الرشيد فقال له أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة فقال بالخلافة والعامة فقال يا أمير المؤمنين يداك بالعطية أطلق من (١٢٦) لسانى فاجزل عطيته (وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة) فقالت أشكو إليك قلة الجلة الجرزان فقال ما أحسن هذه الكناية املؤا لها بيتها لحما وخبزا وسمنا (نادرة لطيفة) كان أبو جعفر المنصور أيام بنى أمية إذا دخل البصرة دخل متنكرا وكان يجلس فى حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت إليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المؤمنين دارى متهدمة وعلى أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابنى محمدا فوصله باثنى عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر ما حاجتك يا أزهر قال جئت مسلما فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا فلا تأتنا طالبا أو مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال أتيت عائدا فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا فاذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له ما حاجتك يا أزهر قال يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذى تطلبه غير مستجاب فانى دعوت الله به ان لا أراك فلم يستجب

فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى قال الطبرانى انى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فسألته عن هذا الحديث فقال النبى ﷺ وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثا وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فوجده مستلقيا على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه فقال له عمر كيف أنت مع أهلك قال إذا دخلت سكت الناطق فقال له اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ان إبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين (الفصل الثانى فى الشفاعة وإصلاح ذات البين) قال الله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقيتا وقال رسول الله ﷺ ان الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره فيقول له جعلت لك جاها فهل نصرت به مظلوما أو أقمت به ظالما أو أغثت به مكروبا وقال ﷺ فضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له وعن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لكى تؤجروا ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أفضل الصدقة صدقة اللسان قيل يا رسول الله وما صدقة اللسان قال الشفاعة تفك بها الأسير وتحقن بها الدماء وتجر بها المعروف إلى أخيك وتدفع عنه بها كريهة رواه الطبرانى فى المكارم وقال على رضى الله عنه الشفيع جناح الطالب وقال رجل لبعض الولاة ان الناس يتوسلون إليك بغيرك فينالون معروفك ويشكرون غيرك وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك * وقيل كان المنصور معجبا بمحادثة بن محمد جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه فى الشفاعات فثقل ذلك على المنصور فحجبه مدة ثم لم يصبر فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك فكلمه وقال أعف يا أمير المؤمنين لا تثقن عليه فى الشفاعات فقبل ذلك منه فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه ايصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة فأبوا الا أن يأخذها فقال اقذفوها فى كمى ثم دخل عليه وهو فى الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال له أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله فقال له يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك وهناك باتمام نعمتك عليك فما أعطاك فما بنت العرب فى دولة الاسلام ولا العجم فى سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها فى عينى خصلة قال وما هى قال ليس لى فيها ضيعة فتبسم وقال قد حسنتها فى عينك بثلاث ضياع قد أقطعتها فقال أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر فجعل الله تعالى باقى عمرك أكثر من ماضيه ثم أقام معه يومه ذلك فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن ويقول ارجعن خائبات خاسرات فضحك المنصور وقال بحق عليك الا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع فأعلمه وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير الا كريما وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

لسنا وان أحسابنا كرمت ... يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها فقال محمد فخرجت من عنده وقد بحت وأربحت وقال المبرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة فأنشدني لنفسه

إني قصدتك لا أدلي بمعرفة ... ولا بقرب ولكن قد فشت نعمتك
فبت حيران مكروبا يؤرقني ... ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمك
مازلت أنكب حتى زلزلت قدمي ... فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العرف ما علقت ... به يداك وإلا انقادت له شيمك

قال فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت

شفيعي إليك الله لا شيء غيره ... وليس إلى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا ذهب الرجل فقال يحيى والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه (شعر)

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعا ... وما خاب من بالمصطفى يتشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامتي ... عسى الهم عني والمصائب ترفع

وقال آخر

تشفع بالنبي فكل عبد ... يجار إذا تشفع بالنبي
ولا تجزع إذا ضاقت أمور ... فكم لله من لطف خفي

وروي أن جبريل عليه السلام قال يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال سقي الماء للمسلمين وإعانة أصحاب العيال وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السادس والعشرون في الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان)

(الفصل الأول في الحياء) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها مكارم الأخلاق عشرة صدق الحديث وصدق اللسان وأداء الأمانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع وبذل المعروف وحفظ الذمام للجار وحفظ الذمام للصاحب وقري الضيف ورأسهن الحياء وقال رسول الله ﷺ الحياء شعبة من الإيمان وقال رسول الله ﷺ إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه وعن زيد بن علي عن آبائه يرفعونه من لم يستح فهو كافر وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلبي حياء من ربي وقال بعضهم الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء وقال الخواص إن العباد عملوا على أربع منازل على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء فأرفعها المنزلة لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا سواء علينا رأيناه أو رآنا وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه ويقال القناعة دليل الأمانة والأمانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة والحياء دليل الخير كله

(الفصل الثاني في التواضع ولين الجانب وخفض الجناح) قال الله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وقال رسول الله ﷺ أفضل العبادة التواضع وقال ﷺ لا ترفعوني فوق قدري فتقولوا في ما قالت النصارى في المسيح فإن الله عز وجل اتخذني عبدا قبل أن يتخذني رسولا وأتاه ﷺ رجل فكلمه

لي وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا وتعالى إذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك (ودخل رجل من الشعراء) على يحيى بن خالد بن برمك فأنشده

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ... ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة ... توارثني من والد بعد والد

فأمر له بعشرة آلاف درهم (أجواد الجاهلية الذين انتهى إليهم الجود ثلاثة نفر) حاتم بن عدي الطائي وهرم بن سنان المزني وكعب بن مامة الإيادي ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وكان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أوقد نارا في بقاع الأرض لينظر إليها المار ليلا فيبادر إليها وهو القائل لغلامه يسار

أوقد فإن الليل ليل قر ... والريح يا موقد ريح صر
حتى يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفا فأنت حر

(وأما) هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

(وأما) كعب بن مامة الإيادي فلم يأت له إلا ما ذكر عنه من إيثاره رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشا ونجا السعدي وناهيك بهذا الكرم الذي ما سبق إليه وأما أجواد الحجاز) فثلاثة في عصر واحد وهم عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص وأجود أهل البصرة خمسة في عصر واحد وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن أبي بكر مولى رسول الله ﷺ وسالم بن زيادة وعبد الله بن معمر القرشي التيمي وطلحة الطلحات وهو طلحة بن خالد الخزاعي (وأجود أهل

فأخذته رعدة فقال ﷺ له هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد وكان ﷺ يرفع ثوبه ويخصف نعله ويخدم فى مهنة أهله ولم يكن متكبرا ولا متجبرا أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا وكان إذا حدث بشىء مما آتاه الله تعالى قال ولا فخر وقال ﷺ ان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله وان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدقوا يزدكم الله وقال عدى بن أرطاة لاياس بن معاوية إنك لسريع المشية قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع فى الحاجة وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر اجلس فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار وقيل التواضع سلم الشرف ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين فقيل له فى ذلك فقال أن أبى كان جبارا فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال الله تعالى لموسى عليه السلام هل تعرف لم كلمتك من بين الناس قال لا يارب قال لأنى رأيتك تتمرغ بين يدى فى التراب تواضعا لى وقيل من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة ما تاه الا وضيع ولا تأخر إلا لقيط وكل من تواضع لله رفعه الله فسبحان من تواضع كل شىء لعز جبروت عظمته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السابع والعشرون فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك)

(اعلم) ان الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب والكبر يكسب المقت ويمنع التآلف قال رسول الله ﷺ لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر وقال رسول الله ﷺ من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه وقال الأحنف ابن قيس ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها فى نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت انى مثلك فى ظنك وأن أعدائى مثلك فى الحقيقة ورأى رجل رجلا يختال فى مشيه فقال جعلنى الله مثلك فى نفسك ولا جعلنى مثلك فى نفسى وقال الأحنف عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر * ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه فقال له مالك يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك فقال أو ما تعرفنى قال أعرفك معرفة جيدة أولك مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه وقالوا لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق قال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحول ما به بى يعنى أتكبر عليه * واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله والعرب تجعل جذيمة الابرش غاية فى الكبر يقال انه كان لا ينادم أحدا لتكبره ويقال إنما ينادمنى الفرقدان وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبرا روى أنه قال لغلامه اسقنى ماء فقال نعم فقال انما يقول نعم من يقدر أن يقول لا أصفعوه فصفع ودعا أكارا فكلمه فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارا لمخاطبته ويقال فلان وضع نفسه فى درجة لو سقط منها

لتكسر

الكوفة ثلاثة فى عصر واحد) وهو عتاب بن ورقاء الرياحى وأسماء بن خارجة وعكرمة الفياض * ومن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه وأول

وضع الموائد على الطريق ومن جوده) أن تاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس أن لى عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه فقال له ما يدك عندنا قال له رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يملأ من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت فقال أجل إنى لأذكر لك ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يد عندنا فقال له الرجل والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية فكيف وقد ولد سيد المرسلين ثم شفع بك وبأبيك (ومن جوده أيضا)أن معاوية حبس عن الحسين بن على رضى الله عنه صلاته حتى ضاقت عليه الحال فقيل له لو وجهت إلى عمك عبيد الله بن العباس لكفاك وقد قدم بألف ألف قال الحسين فما مقدارها عنده والله إنه لأجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر ثم وجه اليه رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان أرق الناس قلبا وألينهم عطفا انهملت عيناه ثم قال ويلك يا معاوية تكون لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضعف الحال وكثرة العيال

ثم قال لقهرمانه احمل إلى الحسين نصف ما نملكه من ذهب وفضة ودابة واخبره أني شاطرته فان أقنعه ذلك والا فارجع واحمل اليه النصف الآخر فلما وصل الرسول إلى الحسين قال ان الله ثقلت والله على عمي وما ظننت أنه يتسلع بهذا كله فاخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل هذا في الاسلام (ومن جوده أيضا) ان معاوية أهدي اليه وهو عنده في شهر من هدايا النوروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو يطيل النظر فيها فقال هل في نفسك منها شيء قال نعم والله ان في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف فضحك عبيد الله فقال فشأنك بها فهي لك قال جعلت فداءك أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيغضب لذلك قال فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن وهو يحملها اليك ليلا فقال الحاجب والله ان هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم ولوددت أني لا أموت حتى اراك مكانه يعني معاوية فظن عبيد الله أنها مكيدة منه فقال دع هذا الكلام أنا من قوم نفي بما عقدنا ولا ننقض ما أكدنا وقال له رجل من الأنصار جعلت فداءك والله لو سبقت حاتما بيوم ما ذكرته العرب وأنا أشهد ان عفو جودك أكثر من مجهوده وطل صوبك أكثر من وابله (ومن جود عبد الله بن جعفر) ان عبيد الله بن عمارة دخل على نخاس يعرض قيانا للبيع فشغفه حب واحدة منهن ولم يكن له جدة يتوصل بها إلى المشتري فشبب

لتكسر * قال الجاحظ المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ومن العرب بنو جعفر ابن كلاب وبنو زرارة بن عدي وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس الا عبيدا وأنفسهم إلا أربابا وقيل لرجل من بني عبد الدار ألا تأتي الخليفة فقال أخاف أن يحمل الجسر شرفي وقيل للحجاج بن أرطاة ما لك لا تحضر الجماعة قال أخشى أن يزاحمني البقالون وقيل أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فاقطعه أرضا وقال لمعاوية أعرض هذه الأرض عليه واكتبها له فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس فقال له أردفني خلفك على ناقتك قال لست من أرداف الملوك قال فاعطني نعليك قال ما يمنعني يا ابن سفيان ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن انك لبست نعلي ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفا وقيل إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه * وقال المسرور بن هند لرجل أتعرفني قال لا قال أنا المسرور بن هند قال ما أعرفك قال فتعسا ونكسا لمن لم يعرف القمر قال الشاعر

قولا لأحمق يلوي التيه أخدعه ... لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة ... للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل لا يتكبر إلا كل وضيع ولا يتواضع إلا كل رفيع والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت)

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعقبة بن معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى أفمن يلقى في النار خير امن يأتي آمنا يوم القيامة نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف في الانساب وقد قال ﷺ أنا سيد ولد آدم ولا فخر وقد نفى الله تعالى الفخر بالانساب بقوله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم فالفخر في الاسلام بالتقوى وقال رسول الله ﷺ ان نبيكم واحد وان أباكم واحد وانه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت (وقال الاصمعي) بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذا رأيت شابا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول.

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا ... فارحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاء شديدا وأنشد يقول.

ألا أيها المقصود في كل حاجتي ... شكوت اليك الضر فارحم شكايتي
ألا رجائي أنت تكشف كربتي ... فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما في الورى عبد جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشيا عليه فدنوت منه فاذا هو زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين فرفعت رأسه في حجري وبكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه

يذكرها حتى مشى اليه عطاء وطاوس ومجاهد يعدلونه فى ذلك فكان جوابه ان قال   يلومنى فيك أقوام أجالسهم *

فما ابالى أطار اللوم أم وقفا (١٣٠) فانتهى خبره الى عبد الله بن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج وبعث الى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه ان تزينها وتحليها ففعلت وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال مالى لاأرى ابن عمارة زائرا فأخبر بذلك فأتى مسلما فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال مافعل بك حب فلانة قال حبها فى اللحم والدم والمخ والعصب قال أتعرفها ان رأيتها قال لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمر بها عبد الله أن تخرج اليه وقال انما اشتريتها لك والله مادنوت منها فشأنها بك بارك الله لك فيها فلما ولى قال ياغلام احمل اليه مائة الف درهم قال فبكى عبد الله وقال ياأهل البيت لقد خصكم الله بشرف ماخص به أحدا من صلب آدم فهناكم الله بهذه النعمة وبارك لكم فيها (ولقد) تقرر أن أجواد الاسلام أحد عشر جوادا ذكرت من جود بعضهم ماتيسر وقال صاحب العقد انه جاء بعدهم طبقة اخرى وهى الطبقة الثانية (فمنهم) الحكم بن أحطب قيل سأله أعرابى فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الأعرابى فقال لعلك استقللت ما أعطيناك فقال لا والله ولكننى أبكى لما تأكل الأرض منك ثم أنشد

فكأن آدم حين حان وفاته * أوصاك وهو يجود بالوفاء
بنيه ان ترعاهم فرعيتهم * وكفيت آدم عيلة الأبناء

وقال من هذا الذى يهجم علينا قلت عبدك الأصمعى سيدى ماهذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فقال هيهات هيهات يا أصمعى ان الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً أليس الله تعالى يقول فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ومجته العقول الذكية إلا ان العرب كانت تفتخر بمافيها من البيان طبعا لاتكلفا وجبلة لاتعلما ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعرا قال لنفسه أحسنت وجاوزت والله الإحسان فيقال له أتحلف على شعرك فيقول نعم لأنى أبصر به منكم وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة فى الثناء عليها ويقول عند إنشادها أى علم بين جنبى وأى لسان بين فكى وقال الجاحظ لولم يصف الطبيب مصانع دوائه للمعالجين ماوجد له طالب ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها باليتيمة تنزيها لها عن المثل سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ولولم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله وسنذكر فى هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئا من نظم البلغاء وتترهم فى الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره قال أبو بكر الهذلى سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة وعليه جبة خز وعمامة عدنية وفى يده سوط يكاد يمس الأرض فلما رآه المنصور أمرنى بإحضاره فدعوته وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة فاحسن الجواب فاعجبه مارأى منه فقال انشدنى شعرا فانشده شعرا لاوس بن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله

إن الأمور إذا أوردتها صدرت * ان الأمور لها ورد وإصدار

فقال ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه وأحوطهم من وراء جاره اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال فقال له والله يا أخا بنى تميم لقد أحسنت إذا وصفت صاحبك ولكن أحق ببيته منه ومن شعر أبى الطمحان

وإنى من القوم الذين هم هم * إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب * بدا كوكب تأوى اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال فيهم حيث كان مسودا * تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد فخطب وقال من ابن على رضى الله تعالى عنه فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عزوجل لم يبعث بعثا الا جعل له عدوا من المجرمين فأنا ابن على وأنت ابن صخر وأمك هند وأمى فاطمة وجدتك قيلة وجدتى خديجة فلعن الله ألأمنا حسبا وأخملنا ذكرا وأعظمنا كفرا وأشدنا نفاقا فصاح أهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ودخل منزله * وروى أن معاوية خرج حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا ولم يحضر الحسن بن على رضى الله عنهما فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن على فقال له معاوية مرحبا برجل تركنا حتى نفد ماعندنا وتعرض لنا ليبخلنا فقال له الحسن ولم ينفد ماعندك وخراج الدنيا يجىء اليك فقال معاوية انى قد أمرت

لك

(وحكى) عن العتبي أنه قال حدثني رجل قال قدم علينا الحكم بن أحطب وهو مملق فأغنانا فقلت وكيف أغناكم وهو مملق فقال علمنا المكارم فعاد غنيا على فقيرنا (ومنهم معن بن زائدة) يقال فيه (١٣١) حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج وأتاه رجل يستحمله فقال يا غلام أعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعيرا وبعيرا وجارية ولو عرفت مركوبا غير هذا لأعطيتك (ومنهم يزيد بن المهلب) قيل كان هشام بن حسان إذا ذكره قال كانت السفن تجرى فى بحر جوده (حكى) الأصمعي أنه قدم على يزيد قوم من قضاعة فقال رجل منهم

والله ما ندرى اذا ما فاتنا
طلب اليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد
أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا
أولا فأرشدنا الى من نذهب

فأمر له بألف دينار (ومنهم يزيد بن حاتم) قيل ان ربيعة الرأى قدم مصر فأتى يزيد السلمى فلم يعطه شيئا ثم عطف على يزيد بن حاتم فشغل عنه لامر ضرورى فخرج وهو يقول

أرانى ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه فأخبر عنه أنه خرج وهو يقول كذا وأنشد البيت فأرسل من يجد فى طلبه فأتى به فقال كيف قلت فأنشد البيت فقال شغلنا عنك وعجلت علينا ثم

لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة • ودخل الحسين يوما على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله قال الحسين يا يزيد جد من هذا فخجل يزيد ولم يرد جوابا وفى ذلك يقول على بن محمد بن جعفر

فقد فاخرتنا من قريش عصابة — بمط خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا — عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهيد بفضلنا — عليهم جهير الصوت من كل جامع

(وقال أيضا)

إنى وقومى من أنساب قومهم — كمسجد الخيف من محبوحة الخيف
ما علق السيف بابن عاشرة — إلا وهمته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلى بن أبى طالب فقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها وقال طلحة أنا خادم البيت ومعى مفتاحه فقال على ما أدرى ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر فنزلت أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الآية • وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين فقال الآخر أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام أما الذى عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم فى النار والذى انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة قال سلمان الفارسى

أبى الإسلام لا أب لى سواه — إذا فتخروا بقيس أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق أنا ابن محيى الموتى فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وجدى فدى الموءودات فاستحياهن فقال سليمان انك مع شعرك لفقيه وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات وللعباس بن عبد المطلب

ان القبائل من قريش كلها — ليرون أنا هام أهل الأبطح
وترى لنا فضلا على ساداتها — فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المروانى من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت — بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت — له الأرض واهتزت اليه المنابر

وكتب اليه كتابا يهجوه فيه ويسبه فكتب اليه صاحب مصر أما بعد فانك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام • وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم لبعض فحضر عنده ذات ليلة ابن إبراهيم بن مخرمة الكندى وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال ابراهيم بن مخرمة يا أمير المؤمنين ان أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابرا عن كابر وآخرا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شىء له خطر إلا اليهم ينسب ان سئلوا أعطوا وان نزل بهم ضيف قروه فهم العاربة وغيرهم المتعربة فقال أبو العباس ما اظن التميمى رضى بقولك ثم قال ما تقول أنت يا خالد قال ان أذن أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت قال تكلم ولا

أمر بخفيه لخلعا من رجليه ومشيا وقال ارجع بهما بدلا من خفي حنين (ومنهم أبو دلف) واسمه القاسم وفيه يقول ابن أبي جبلة

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

وقال :

إن سار سار المجد أو حل وقف
انظر بعينك إلى أعلى الشرف هل ناله بقدرة أو بكلف
خلق من الناس سوى أبي دلف

فاعطاه خمسين الف درهم (ومنهم خالد بن عبد الله القسري) قيل أنه كان جالسا في مظلة إذ نظر إلى أعرابي يخب على بعيره مقبلا نحوه فقال لحاجبه إذا قدم لا تحجبه فلما قدم أدخله فسلم فقال

أصلحك الله قل ما بيدي فما أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهر رمى بكلكله فأرسلوني إليك وانتظروا

فقال خالد إذا أرسلوك إلى وانتظروا والله لتعودن اليهم بما يسرهم فأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة (ومنهم عدي بن حاتم) حكى صاحب العقد قال دخل أبو دارة على عدي بن حاتم فقال إني مدحتك قال امسك حتى آتيك بمالي فاني أكره أن أعطيك ثمن ماتقول هذه الف شاة والف درهم وثلاثة أعبد وثلاث اماء وفرسي هذا حبس في سبيل الله فامدحني على حسب ما اجزتك (قيل) ان أروى بنت الحرث بن عبد المطلب كانت أغلظ الوافدات على معاوية خطابا وكان حلم معاوية أعظم من خطابها دخلت عليه وهي

تهب أحدا قال أخطأ المقتحم بغير علم و نطق بغير صواب ـ كيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى وأنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء ومالا يحصى من المآثر ومنا الصديق والفاروق وذو النورين والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم أقبل خالد على ابراهيم فقال ألك علم بلغة قومك قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجمجمة قال فما اسم السن قال الميدان فما اسم الأذن قال الصنارة قال فما اسم الأصابع قال الشناتير قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل قال نعم قال فان الله تعالى يقول إنا أنزلناه قرآنا عربيا وقال تعالى بلسان عربي مبين وقال تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجمجمة بالجمجمة وقال تعالى والسن بالسن ولم يقل والميدان بالميدان وقال تعالى والأذن بالأذن ولم يقل الصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم وقال تعالى فأكله الذئب ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لابراهيم اني أسألك عن أربع ان أقررت بهن قهرت وان جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال فالمنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم الا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحباهما جميعا * وقال بشار بن برد يفتخر

إذا نحن صلنا صولة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ... ذرا منبر صلى علينا وسلما

(وقال السموءل بن عادياء)

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل ... وأن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل ... تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها أن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلا وكهول ... وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل ... لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا يزال طويل ... وانا أناس لا نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول ... يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل ... تسيل على حد الظبات نفوسنا
وليست على غير الظبات تسيل ... ونحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول ... إذا سيد منا خلا قام سيد
قئول بما قال الكرام فعول ... وما خمدت نار لنا دون طارق ... ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا ... لها غرر مشهورة وحجول ... وأسيافنا في كل شرق ومغرب
بها من قراع الدراعين فلول ... معودة أن لا تسل نصالها ... فتغمد حتى يستباح قبيل
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

فانا

فانا بنى الريان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

(ولما) قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم فخطب ثابت بن قيس فأحسن ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال

نحن الملوك فلا حى يفاخرنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع ونحن نطعمهم فى القحط ما أكلوا من الهبيط إذا لم يؤنس الفزع وننحر الكوم عبطا فى أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا اسبعوا

تلك المكارم حزنا مقارعة إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم فقام فقال

أن الذوائب من فهر واخواتهم قد بينوا سننا للناس تتبع يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا قوم إذا حاربو ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا سجية تلك منهم غير محدثة أن الخلائق فاعلم شرها البدع لو كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع لا يرفع ما أوهت أكفهم عقد الدفاع ولا يوهون مارقعوا ولا يضنون عن جار بفضلهم ولا يمسهم فى مطمع طمع خذ منهم ما أتو عفوا إذا عطفوا ولا يكن همك الأمر منعوا أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع فقال التميميون عند ذلك وربكم أن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وأن شاعرهم أشعر من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا وقال شاعر من بنى تميم :

أيبغى آل شداد علينا وما يرعى لشداد فصيل

فان تغمد منا صلنا نجدد غلاظا فى أنامل من يصول

(وقال سالم بن أبى وابصة)

عليك بالقصد فيما أنت فاعله أن التخلق يأتى دونه الخلق

وموقف مثل حد السيف قمت به أحمى الذمار وترمينى به الحدق

فما زلقت ولا أبديت فاحشة إذا الرجال على أمثالها زلقوا

(وأما التفاضل والتفاوت)

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل قال يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومن كلام على رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه أما قولك أنا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبى طالب وقال أحمد ابن سهل الرجال ثلاثة سابق ولاحق وماحق فالسابق الذى سبق بفضله واللاحق الذى لحق بأبيه فى شرفه والماحق الذى محق شرف آبائه ه وقيل ان عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث واشعب الطماع وربتهما قال اشعب فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين وقال أبو العواذل زكريا بن هرون

على وعبد الله بينهما أب وشتان ما بين الطبائع والفعل

ألم تر عبد الله يلحى على الندى عليا ويلحاه على على البخل

عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال مرحبا بك ياخالة كيف كنت بعدنا قالت بخير يا أمير المؤمنين لقد كفرت النعمة وأسأت بابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ولا سابقة فى الاسلام بعد أن كفرتم برسول الله فأتعس الله منكم الجدود وأضرع منكم الخدود ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون وكانت كلمتنا هى العليا ونبينا هو المنصور فوليتم علينا بعد فأصبحتم تحتجون على سائر العرب بقرابتكم من رسول الله ﷺ ونحن أقرب اليه منكم وأولى بهذا منكم فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون وكان على رضى الله عنه عند نبينا محمد ﷺ بمنزلة هرون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار فقال لها عمرو ابن العاص كفى أيتها العجوز الضالة وقصرى عن قولك مع ذهاب عقلك اذ لا تجوز شهادتك وحدك فقالت له وأنت يا ابن الباغية تتكلم وأمك كانت أشهر بغى بمكة وأرخصهن أجرة وادعاك خمسة نفر كلهم يزعم انك ابنه فسئلت أمك عن ذلك فقالت كلهم أتانى فانظروا اشبههم به فألحقوه به فغلب عليك شبه العاص ابن وائل فلحقت به فقال مروان كفى أيتها العجوز واقصدى ما شئت له فقالت وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم ثم التفتت إلى معاوية فقالت والله ما أجرأ هؤلاء غيرك وأمك القائلة فى قتل حمزة عم النبى ﷺ

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر

وحج أبو الاسود الدؤلى بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبى ربيعة فجاراها فأخبرت أبا الاسود فأتاه فقال

وانى لينهانى عن الجهل والخنا ... وعن شتم أخلاق خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وانى ... كريم ومثلى من يضر وينفع
فشتان ما بينى وبينك اننى ... على كل حال استقيم وتضلع

(وقال ربيعة البرق)

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والاعز بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى ... فتى الازد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الازدى اتلاف ماله ... وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب لقيسى انى هجوته ... ولكننى فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى أخيه الحسين

يقول أنا الكبير فعظمونى ... ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعا ... وأجلد عند نائبة الامور
ولم يأت الكبير بيوم خير ... فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب التاسع والعشرون فى الشرف والسودد وعلو الهمة)

قال رسول الله ﷺ من رزقه الله مالا فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد وقيل لقيس بن عاصم بم سدت قومك قال لم أخاصم أحدا إلا تركت للصلح موضعا وقال سعيد بن العاص ماشاتمت رجلا مذ كنت رجلا لأنى لم أشاتم إلا أحد رجلين إما كريم فأنا أحق أن أجله وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسى عنه وقالوا من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالا والسمع مقالا وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس فقال الحاجب أن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن يتكلم منكم أحدا إلا لنفسه فلما وصلوا إليه قال الاحنف لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ونازلة نزلت ونائبة نابت والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين فقال له معاوية حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب . وقال رجل للاحنف بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ولا أصبحهم وجها ولا أحسنهم خلقا فقال بخلاف مافيك قال وماذاك قال تركى من أمرك مالا يعنينى كما عناك من أمرى مالا يعنك وقيل السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادى وعلى الأعداء كالليث العادى . وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسى وسودده أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ بن ضرار المزنى الطريق فتحادثا فقال له عرابة ما الذى أقدمك المدينة ياشماخ قال قدمتها لامتار منها فملأ له عرابة رواحله برا وتمرا وأتحفه غير ذلك فأنشد يقول

رأيت عرابة الاوسى يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت بمجد ... تلقاها عرابة باليمين

(وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة)

فمن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة قيل انه دخل يوما على المنصور وقعد فى مجلسه فقام رجل وقال مظلوم ياأمير المؤمنين فقال من ظلمك قال عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى فقال المنصور ياعمارة قم فاقعد مع خصمك فقال ماهو لى بخصم إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها وإن كانت لى فقد وهبتها له ولا أقوم من مقام شرفنى به أمير المؤمنين ورفعنى وأقعد فى أدنى منه لأجل ضيعة . وتحدث السفاح هو

ما كان لى عن عتبة من صبر ... ولا أخى وعمه وبكر
سكت وحشيا غليل صدرى ... فشكر وحشى على دهرى
حتى ترم أعظمى فى قبرى

(فأجابتها ابنة عمى بقولها) خزيت فى بدر وغير بدر ... يابنت جبار عظيم الكفر

قال معاوية عفا الله عما سلف ياعاقل هات حاجتك فقالت مالى إليك حاجة وخرجت عنه وهذه العبارة لابن عبد ربه رحمه الله تعالى (وحكى صاحب العقد أيضا) قال قدم عقيل بن أبى طالب على معاوية فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ثم قال له فى بعض الأيام ياعقيل أنا خير لك من أخيك على قال صدقت أخى آثر دينه على دنياه وأنت آثرت دنياك على دينك فانت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك لنفسك (ودخل) عقيل أيضا على معاوية وقد كف بصره فأقعده على سرير معه ثم قال له أنتم معاشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم فقال عقيل وأنتم معاشر بنى أمية تصابون فى بصائركم (ودخل) عليه يوما فقال معاوية لأصحابه هذا عقيل عمه أبو لهب فقال عقيل وهذا معاوية عمته حمالة الحطب ثم قال يامعاوية إذا دخلت النار فأعدل ذات اليسار فانك ستجد عمى أبى لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب فانظر أيهما خيرا الفاعل أم المفعول به (وقال له يوما) ما أبين الشبق فى رجالكم يابنى هاشم قال لكنه فى نسائكم أبين يابنى أمية (وقال الجاحظ)

وأم سلمة يوما فى نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له ادع به وأنا أهب له سبحتى هذه فان ثمنها خمسون
ألف دينار فان هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس فوجه اليه فحضر فحادثته ساعة ثم رمت اليه بالسبحة
وقالت هى من الطرف وهى لك فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها فقالت لعله نسيها فبعثت بها اليه مع
خادم فقال للخادم هى لك فرجع الخادم فقال قد وهبها لى فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها
منه * وأهدى عبيد الله بن السرى إلى عبدالله بن طاهر لما ولى مصر مائة وصيف مع كل وصيف
ألف دينار ووجه إليه بذلك ليلا فرده وكتب اليه لو قبلت هديتك ليلا لقبلتها نهارا وما آتانى الله خير مما
آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (وكان سبب فتح المعتصم بالله عمورية أن امرأة من الثغر سبيت فنادت
واحمداه وامعتصماه فبلغه الخبر فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال لبيك أيتها المنادية * وكان
سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة قيل له فى مرضه والمريض يستريح إلى الأنين وإلى شرح ما به
إلى الطبيب فقال أما الأنين فهو جزع وعار والله لا يسمع منى أنينا فأكون عنده جزوعا وأما وصف
ما بى إلى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله فى نفسى ان شاء امسكها وان شاء قبضها * ومن كبر النفس
ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحدا بحاجته
ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى الذمار وكانت العرب ترى لك دينا تدعوا اليه وحقا واجبا
تحافظ عليه وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال ياهذا انك اخترتنى جارا واخترت دارى
دارا لجناية يدك على دونك وان جنت عليك يد فاحتكم كحكم الصبى على اهله * وكان الفرزدق يجير
من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بنى جعفر بن كلاب خافت
لما هجا الفرزدق بن جعفر أن يسميها وينسبها فعاذت بقبر أبيه فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ولكن
قال عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب فلا والذى عاذت به لا أضيرها
وقال مروان بن أبى حفصة هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
(وقال ابن نباتة) ولو يكون سواد الشعر فى ذمم ما كان للشيب سلطان على اللمم
(وقيل أن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل
يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك
بن مروان وكان الخليفة فى ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك
اكرمه واحسن اليه وأقامه عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وانه عند
سليمان بن عبد الملك اخى أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين وأمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد إلى
اخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى اخيه يقول يا أمير المؤمنين انى ما أجرت يزيد بن المهلب الا لأنه
هو وابوه واخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده
وعذبه واغرمه أربعة آلاف الف درهم ظلما ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف الف درهم يقينا صار إلى
واستجار بى فاجرته وانا اغرم عنه هذه الثلاثة آلاف الف درهم فان رأى أمير المؤمنين ان لا يخزينى
فى ضيفى فليفعل فانه اهل الفضل والكرم فكتب اليه الوليد انه لابد ان ترسل إلى يزيد مغلولا مقيدا
فلما ورد ذلك على سليمان احضر ولده ايوب فقيده ودعا بيزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا
بسلسلة وغلهما جميعا بغلين وارسلهما إلى اخيه الوليد وكتب اليه اما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت
اليك بيزيد وابن اخيك ايوب بن سليمان ولقد هممت ان اكون ثالثهما يا أمير المؤمنين بقتل

اجتمعت يوما بنو هاشم عند معاوية فاقبل عليهم فقال يا بنى هاشم والله ان خيرى لكم لممنوح وان بابى لكم لمفتوح
وقد نظرت فى أمرى وأمركم فرأيت أمرا مختلفا انكم ترون أنكم أحق منى بما فى يدى فاذا اعطيتكم عطية
فيها قضاء حقوقكم قلتم اعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم فاقبل عليه ابن عباس رضى الله عنهما وكان جريئا عليه فقال والله مامنحتنا شيئا حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه واما هذا المال فمالك منه الا ما لرجل واحد من المسلمين ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا اثر تحمله خف ولا حافر وأما حربنا اياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل أكفاك أم أزيدك قال كفانى (وقال الشعبى) قال ابن الزبير يوما لابن عباس قاتلت أم المؤمنين وحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها انت وأبوك وخالك وبنا سميت ام المؤمنين وكنا لها خير بنين وقاتلت وابوك عليا فان كان على مؤمنا فقد ضللتم بقتال المؤمنين وان كان على كافرا فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف (وذكر
صاحب العقد ان عبدالله بن الزبير تزوج امرأة من فزارة يقال لها أم عمرو فلما دخل بها قال اهل تدرين من معك قالت نعم عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد قال ليس هذا قالت فأي شيء تريد قال معك من اصبح فى قريش كمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من

الرأس قالت أما والله لو أن بعض الهاشميين حضرك قال خلافا لقولك قال فالطعام والشراب على حرام حتى حضر الهاشميين وغيرهم ولا يستطيعون ولذلك انكارا قالت ان أطمتني لم تفعل فأنت أعلم بشأنك فخرج من المجلس فاذا بحلقة فيها

يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلنى إذا شئت ثالثا والسلام فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان فى سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا إلى أبى أيوب إذا بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد يحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم أحضر حدادا وأزال عنهما الحديد وأحسن اليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين الف درهم ووصل يزيد المهلب بعشرين الف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتابا إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد المهلب فاياك أن تعاودنى فيه بعد اليوم فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل (وحكى) أن رجلا من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به مائة الف درهم فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فربه معن بن زائدة فقال له يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله فقال معن للرجل مالك وماله فقال أن أمير المؤمنين طالبه قال خل سبيله قال لا أفعل فأمر معن غلمانه فأخذوه غصبا وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له يا معن أتجير على قال نعم يا أمير المؤمنين قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتى أفما ترونى أهلا ان تجيروا إلى رجلا واحدا استجار بى فاستحيا المهدى وأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال ان رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى فيكون قد أجاره وحباه وقال قد أمرت له بخمسين الف درهم فقال معن يا أمير المؤمنين ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وان ذنب الرجل عظيم فان رأى أمير المؤمنين ان يجزل صلته فليفعل قال قد أمرت له بمائة الف درهم فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له لا تتعرض لمساخط الخلفاء وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه يا أبت إنى لا أستحى أن أطعم طعاما وجيرانى لا يقدرون على مثله فكان أبوه يقول انى لارجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب * وسقط الجراد قريبا من بيت بعض العرب فجاء أهل الحى فقالوا نريد جارك فقال اما اذ جعلتموه جارى فوالله لا تصلون اليه واجاره حتى طار فسمى مجير الجراد وقيل هو ابو حنبل والحكايات فى معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثلاثون فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الاولياء والصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين﴾

(اعلم) أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم أجمعين وفضائلهم اكثر من أن تحصر وأشهر من ان تذكر وانى والله احبهم وأحب من يحبهم واسأل الله أن يميتنى على محبة النبى محمد ﷺ ومحبتهم وأن يحشرنا فى زمرتهم وتحت ألويتهم انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير (شعر)

انى احب ابا حفص وشيعته ... كما احب عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت عليا قدوة علما ... وما رضيت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة سادانى ومعتقدى ... فهل على بهذا القول من عار

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من أصبح منكم اليوم صائما فقال أبو بكر انا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ فمن اطعم اليوم منكم مسكينا فقال أبو بكر انا قال فمن عاد منكم

جماعة من قريش وفيها من بنى هاشم عبد الله بن عباس رضى الله عنه وعبد الله بن الحرث بن عبد المطلب فقال لهم ابن الزبير انى أحب أن تنطلقوا معى إلى منزلى فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته فقال ابن الزبير يا هذه اطرحى عليك سترك ثم اذن للقوم فلما اخذوا مجالسهم دعا ابن الزبير بالمائدة فتغدى القوم فلما فرغوا قال ابن الزبير انما جمعتكم لحديث ردته على صاحبة هذا الستر وزعمت أن لو كان بعض بنى هاشم حاضرا ما أقر لى بما قلت وقد حضرتم جميعا والحديث الذى ردته على قلت لها ليلة الدخول بها وأنا معها فى خدرها إن معك من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس فردت على مقالى فقال ابن عباس إن شئت أقول وان شئت أكف قال لا بل قل وما عسيت أن تقول ألست تعلم أن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين وأن خديجة سيدة نساء أهل الجنة عمتى وأن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتى وأن عائشة ام المؤمنين خالتى فهل تستطيع لهذا انكارا يا ابن عباس قال ابن عباس

اليوم مريضا قال أبو بكر أنا فقال رسول الله ﷺ ما اجتمعن فى أحد إلا دخل الجنة وقال ﷺ لو كان بعدى نبى لكان عمر وقال له النبى ﷺ والذى بعثنى بالحق بشيراً ما سلكت واديا إلا سلك الشيطان واديا غيره ولما أسلم رضى الله عنه قال يا رسول الله ألسنا على الحق قال بلى قال والذى بعثك بالحق نبيا لانعبد الله سراً بعد هذا اليوم ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيما لهم وقال انظر إلى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته فى قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها فوصفه للبطريق فقال لاترى بمحاربة هذا طاقة اعطوه ماشاء. وأما أمير المؤمنين عثمان رضى الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضى الله عنه وقال جميع بن عمير دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها اخبرينى من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ قالت فاطمة قلت انما أسألك عن الرجال قالت زوجها فوالله لقد كان صواما قواما ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ فى يده فردها إلى فيه قلت فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت أمر قضى على وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى صف لى عليا فاستعفى فألح عليه فقال أما اذن فلابد انه والله كان بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته كان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفه ويعاتب نفسه يعجبه من اللباس ماقصر ومن الطعام ماخشن وكان والله يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لانكلمه هيبة له يعظم أهل الدين يحب المساكين لايطمع القوى فى باطله ولاييأس الضعيف من عدله فاشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ الخائف ويبكى بكاء الحزين فكأنى الآن أسمعه يقول يادنيا إلى تعرضت أم إلى تشوقت هيهات هيهات غرى غيرى لقد أبنتك ثلاثا لا رجعة لى فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق قال فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار قال حزنى عليه والله حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلاترفأ عبرتها ولاتسكن حيرتها ثم قام فخرج ❊ وقيل أول من سل سيفا فى سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلا واصباحاه فقال قتل محمد فخرج متجرداً وسيفه معه صلتا فتلقاه رسول الله ﷺ فقال مالك ياز بير قال سمعت انك قتلت قال فماذا أردت أن تصنع قال أردت والله أن أستعرض على أهل مكة وروى أخبط بسيفى من قدرت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه ازاراً له فاستتر به وقال له انت حوارى ودعاله ❊ قال الاوزاعى كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لايدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها وباع داراً له بستمائة ألف درهم فقيل له يا أبا عبدالله غبنت قال كلا والله انى لم اغبن أشهدكم أنها فى سبيل الله تعالى وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال من حملك على ظهره وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة قال طلحة قال أقرئه السلام وأعلمه انى لاأراه يوم القيامة فى هول من أهوالها إلا استنقذته منه من هذا الذى عن يمينك قال المقداد بن الاسود وقال ان الله يحبه ويأمرك أن تحبه من هذا الذى بين يديك يتقى عنك قال عمار بن ياسر قال بشره بالجنة حرمت النار عليه ❊ ومر أبو ذر على النبى ﷺ

لا ولكن ذكرت شرفا شريفا وفخراً عظيما غير أنك نلت ذلك كله وأنت تفاخر من بفخره فخرت وتسامى من بفضله سموت وقال ابن الزبير وكيف ذلك فان لم تذكر مفخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أهل بيته وأقرب إليه وأولى بالفخر به قال ابن الزبير فأنا أفاخرك بما كان قبل النبى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس لقد انصفت أسائلكم أيها الحضور أعبد المطلب كان أشرف فى قريش أم خويلد قالوا عبد المطلب قال أسائلكم أهاشم كان أشرف فى قريش أم أمية قالوا بل هاشم قال فأسألكم بالله أعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى قالوا اللهم عبد مناف فأنشد ابن عباس يقول

تنافرنى يا ابن الزبير وقد مضى
عليك رسول الله لاقول هازل
فلو غيرنا يا ابن الزبير فخرته
ولكن بنا ساميت شمس الاصائل

وروى عن رسول الله ﷺ انه قال ما افترقت فرقتان إلا وكنت فى خيرهما فقد فارقك من لدن قصى بن كلاب فنحن فى فرقة الخير أولا ونحن فى فرقة الخير آخراً فان قلت نعم خصمت وإن وقلت لا كفرت قال فضحك بعض القوم وقالت امرأة من خلف الستر واما والله لقد نهيته عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترى فقال ابن عباس مه أيتها المرأة اقنعى ببعلك وأخذ القوم بيد ابن عباس فقالوا انهض أيها الرجل فقد أفحمته فى منزله غير مرة فنهض ابن عباس وهو يقول

ومعه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبي فلم يسلم فقال جبريل هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه فقال أتعرفه ياجبريل قال والذى بعثك بالحق نبيا لهو فى ملكوت السموات السبع أشهر منه فى الأرض قال ثم نال هذه المنزلة قال بزهده فى هذه الحطام الفانية وقال ابن عمر رضى الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول أن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن الف بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض الآية وقال أبو بكر السفاح لابى بكر الهذلى بم بلغ الحسن ما بلغ قال جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتى عشرة سنة لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها ولم يقلب درهما قط فى تجارة ولم يل عملا لسلطان ولم يأمر بشيء حتى يفعله ولم ينه عن شيء حتى يدعه فقال السفاح بهذا بلغ وقال الجاحظ كان الحسن يستثنى من كل غاية فقال فلان أزهد الناس إلا الحسن وافقه الناس إلا الحسن وأفصح الناس إلا الحسن واخطب الناس إلا الحسن وقال بعضهم كان عمر بن عبد العزيز أزهد من اويس لأن عمر مالك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال ليس من لم يجرب كمن جرب وقال انس فى ثابت البنانى ان للخير مفاتيح وأن ثابتا من مفاتيح الخير وكان حبيب الفارسى من اخيار الناس وهو الذى اشترى نفسه من ربه أربع مرات أربعين الفا كان يخرج البدرة فيقول يارب اشتريت نفسى منك بهذه ثم يتصدق بها وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم ذكر عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فقال رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاما عند منبر النبى ﷺ لا اذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدى وقال سفيان الثورى جهدى جهدى على أن اكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم اقدر وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس وأعلاهم نفسا وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الاموال فلا يقبل منها شيئا وكان يحج سنة حتى مات رحمه الله وقال ابن خارجة جالست ابن عون عشرين سنة فما ظن الملكين كتبا عليه شيئا وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم وعن محمد بن الحسن قال كان أبو حنيفة واحد زمانه لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال فى العلم والكرم والزهد والورع وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط فى عبادان اربعين ليلة وختم القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين الفا وروى أربعة آلاف حديث وما رؤى واضعا جنبه قط ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبى رباح وهو أسود مفلفل الشعر يفتى الناس فى الحلال والحرام فتمثل يقول * تلك المكارم لاقعبان من لبن * ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم اجمعين سيدى أبو عبدالله محمد اسمعيل المغربى استاذ ابراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت اليه أيدى بنى آدم سنين كثيرة وكان اكله من اصول العشب شيئا تعود اكله (ومنهم) سيدى فتح بن شحرف بن داود ويكنى ابا نصر من الزاهدين الوارعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة قال احمد بن عبد الجبار سمعت أبى يقول صحبت فتح شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ثم رفعها يوما فقال طال شوقى اليك فعجل قدومى عليك وقال محمد بن جعفر سمعت إنسانا يقول غسلنا فتح بن شحرف فرأينا مكتوبا على فخذه لا إله إلا الله فتوهمناه مكتوبا وإذا هو عرق داخل الجلد ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثا وثلاثين مرة اقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين الفا إلى ثلاثين الفا (ومنهم) سيدى فتح بن سعيد الموصلى يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى وسرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات قال ابراهيم بن نوح الموصلى رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائما فقال عشونى فقالوا ماعندنا شيء نعشيك به فقال ما بالكم جلوس فى الظلمة فقالوا

الا يا قومنا ارتحلوا وسيروا　　فلو ترك القطا ليلا لناما

(وحكى) صاحب العقد قال بينما معاوية جالس وعنده وجوه الناس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وقال لعن الله عليا فأطرق الناس وفيهم الأحنف فقال الاحنف ياأمير المؤمنين ان هذا القائل أن علم أن رضاك لعن المرسلين لعنهم فاتق الله ودع عنك عليا فقد لقى ربه وأفرد بقبره وخلا بعمله وكان والله مبرورا فى سبقه ظاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة فقال له معاوية ياأحنف لقد أغضبت العين على القذى أما والله لتصعدن المنبر وتلعن عليا طوعا أو كرها فقال أن تعفنى خير الله وأن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجدنى شفيا أبدا قال وما انت قائل ياأحنف قال أحمد الله وأصلى على نبيه ثم أقول أن أمير المؤمنين أمرنى أن ألعن عليا ومعاوية وعلى اقتتلا واختلفا وادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله اللهم العن أنت وملائكتك وانبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية أمنوا ارحمكم الله يامعاوية لاأزيد على ذلك ولا انقص ولو كان فيه ذهاب نفسى فقال معاوية إذا أعفيك انتهى

(وقال معاوية) لعقيل ان عليا قطعك ووصلتك ولا يرضينى منك إلا ان تلعنه على المنبر قال افعل　ما فصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه ثم قال ان امير المؤمنين امرنى أن ألعن عليا فالعنوه عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

ثم نزل فقال له معاوية يا عقيل انك لم تبين من المراد منا قال والله لازدت حرفا والكلام راجع إلى نية المتكلم (ومن غريب
المنقول) ما نقل عن المنصور وهو أنه وعد الهذلي بجائزة ونسي فحجا معا ومر في المدينة النبوية ببيت عاتكة

ماعندنا شيء نسرج به فجعل يبكي من الفرح ويقول إلهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج بأي يد كانت
مني فما زال يبكي الى الصباح وقال فتح رأيت بالبادية غلاما لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك
شفتيه فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت الى أين فقال إلى بيت ربي عز وجل فقلت بماذا تحرك شفتيك
قال أتلو كلام ربي فقلت انه لم يجر عليك قلم التكليف قال رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنا مني
فقلت خطاك قصيرة وطريقك بعيدة فقال إنما علي نقل الخطا وعليه البلاغ فقلت أين الزاد والرحلة قال
زادي يقيني وراحلتي رجلاي فقلت أسألك عن الخبز والماء قال يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله
أكان يجمل بك أن تحمل زادك الى منزله قلت لا فقال ان سيدي دعا عباده إلى بيته وأذن لهم في زيارته
فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم واني استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعني فقلت
حاشا وكلا ثم غاب عن بصري فلم أره إلا بمكة فلما رآني قال أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين
(ومنهم) سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري صحب شاة الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي وكان
يقال في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم أبو عثمان الحيري بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الجلاء بالشام
ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل وقال منذ أربعين
سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ولا نقلني إلى شيء فسخطته (ومنهم) سيدي سليمان الخواص
يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر
مقامه ببيت المقدس قيل اجتمع حذيفة المرعشي وابراهيم بن أدهم ويوسف بن اسباط فتذاكروا
الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم الغني من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش
يكفه عن فضول الدنيا وقال بعضهم الغني من لم يحتج إلى الناس فقيل لسليمان ما تقول أنت في ذلك فبكى
وقال رأيت جوامع الغنى في التوكل ورأيت جوامع الفقر في القنوط والغنى حق الغنى من أسكن الله في
قلبه من غناه يقينا ومن معرفته توكلا ومن قسمته رضا فذلك الغني حق الغنى وإن أمسى طاويا وأصبح
معوزا فبكى القوم من كلامه (ومنهم) سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني
أحد رجال الطريقة قدس الله سره كان من أجل السادات وأرباب الجد في المجاهدات ومن كلامه
من أحسن في نهاره كوفي في ليلة ومن أحسن في ليلة كوفي في نهاره ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها
من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له وقال لكل شيء علامة وعلامة الخذلان
ترك البكاء وقال لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن وقال أحمد بن أبي الحواري شكوت إلى أبي
سليمان الوسواس فقال إذا أردت أن ينقطع عنك فأي وقت أحسست به فافرح فانك إذا فرحت به انقطع
عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن وإذا اغتممت به زادك وقال ذو النون المصري رحمه
الله اجتمعوا ليلا على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول يارب ان طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك
وان طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك وان جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي اياك وقال علي
ابن الحسين الحداد سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار قال بكتمان المصائب وصيانة الكرامات
وروي عنه أنه قال نمت ليلة عن وردي فاذا حوراء تقول لي أتنام وأنا أربى لك في الخدور منذ
خمسمائة عام (ومنهم) سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفي الأصل ولكنه
سكن انطاكية . ومن كلامه لا تغتم الا من شيء يضرك غدا ولا تفرح الا بشيء يسر غدا وله
كرامات ظاهرة وبركات متواترة (ومنهم) سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء أصبهاني الأصل

فقال الهذلي يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص
* يا دار عاتكة التي أتغزل *
فأنكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك لأنه تكلم من غير أن يسئل فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة الى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي بانشاد ذلك البيت من غير استدعاء فاذا فيها * وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مذق اللسان يقول ما لا يفعل * فعلم المنصور أنه أشار الى هذا البيت فتذكر ما وعده به وأنجز له واعتذر اليه من النسيان (ومثله) ما حكى أن أبا العلاء المعري يتعصب لابي الطيب المتنبي فحضر يوما مجلس المرتضى فجرى ذكر أبي الطيب فهضم من جانبه المرتضى فقال أبو العلاء لو لم يكن لابي الطيب من الشعر الا قوله
لك يا منازل في القلوب منازل
لكفاه فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج وبعد اخراجه قال المرتضى هل تعلمون ما أراد بذكر البيت قالوا لا قال عنى به قول أبي الطيب في القصيدة

وإذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني كامل

(ومثله قصة السري الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا) فان السري الرفاء كان من مداح سيف الدولة وجرى

فى مجلسه يوماً ذكر أبى الطيب فبالغ سيف الدولة فى الثناء عليه فقال له السرى أشتهى ان الامير ينتخب لى قصيدة من غرر
قصائده لأعارضها ويتحقق الأمير بذلك أنه ركب المتنبى فى غير سرجه فقال له سيف الدولة

على الفور عارض لنا قصيدة التى مطلعها
لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقى ۞ وللحب مالم يبق منى وما بقى
قال السرى فكتبت القصيدة واعتبرتها فى تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبى الطيب لكن رأيته يقول فى آخرها عن ممدوحه
إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق ۞ أراه غبارى ثم قال له الحق
فقلت والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت (ومثله) ماحكاه ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء وهو من الغرائب فى هذا الباب أن رجلا من طلبة العلم قعد على جسر بغداد يتنزه فأقبلت امرأة بارعة فى الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربى فاستقبلها شاب فقال لها رحم الله على ابن الجهم فقالت المرأة رحم الله أبا العلاء المعرى وما وقفا بل سار مشرقا ومغربا فقال الرجل فتبعت المرأة وقلت والله ان لم تقولى لى ما أراد بابن الجهم فضحتك قال أراد به قوله
عيون المها بين الرصافة والجسر ۞ جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
وعنيت أنا بأبى العلاء قوله
فيادارها بالخيف مزارها ۞ قريب ولكن دون ذلك أهوال
(ومثله) ماهو منقول عن الإمام الحافظ فتح الدين أبى الفتح محمد بن

كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلثا فيأخذ من ذلك لنفسه دانقا ويتصدق بالباقى ويختم مع العمل كل يوم ختمة فاذا صلى العتمة فى مسجده خرج الى الجبل الى قريب الصبح ثم يرجع إلى العمل وكان يقول فى الجبل يارب اما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق على فانى لاأريد الحياة بلا معرفتك (ومنهم) سيدى يحيى بن معاذ الرازى قدس الله سره يكنى أبا زكرياء أحد الطريق كان أوحد وقته ومن كلامه لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ويوم حشره ميزانه وقال وليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ان لم تنفعه فلا تضره وان لم تسره فلا تغمه وان لم تمدحه فلا تذمه وقال الصبر على الخلوة من علامات الاخلاص وقال بئس الصديق صديقا يحتاج الى أن يقال له اذكرنى فى دعائك وقال على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل فى أمرك الخلق وقال من كان غناه فى كيسه لم يزل فقيرا ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنيا ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروما وروى أنه قدم شيرازا فجعل يتكلم على الناس فى علم الأسرار فأتته امرأة من نسائها فقالت كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة قال ثلاثون الفا أصرفها فى دين على بخراسان فقالت لك على ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك فرضى بذلك فحملت اليه المال فخرج من الغد فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت انه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك (ومنهم) سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى اسقاط التصنع عالما أديبا صحب ذا النون المصرى وأبا تراب النخشبى من كلامه إذا أردت ان تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فان قبل فاعلم أنه أحمق وقال إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجىء منه شىء وقال لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحب إلى من أن ألقاه بذرة من التصنع وقال أبو الحسن الدراج قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سألته يقول أى شىء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف فبت تلك الليلة فى مسجد ثم قلت فى نفسى جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالسا فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وقال من أين قلت من بغداد فقال أتحسن من قولهم شيئا قلت نعم وأنشدته :

رأيت تبنى دائما فى قطيعتى ۞ ولو كنت ذا حزم لهدمت ماتبنى

فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت إلى وقال يابنى أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أنذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عينى قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت (ومنهم) سيدى حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر خراسان صاحب شقيق البلخى ومن كلامه الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة وقال من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فهو كذاب من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة النبى ﷺ من غير محبة الفقر كذاب ومن ادعى حب الجنة من غير انفاق ماله فهو كذاب وسأله رجل علام بنيت أمرك فى التوكل على الله عز وجل قال على أربع خصال علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى وعلمت أن عملى لا

يعمله غيرى فأنا مشغول به وعلمت إن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره وعلمت أني لا أخلوا من عين الله عزوجل حيث كنت فأنا أستحى منه * وسبب تسميته بالاصم ماحكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة فاتفق انه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة فقال حاتم إرفعى صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت انه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه (ومنهم) الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصرى وأبا على الروذبارى وكان أوحد مشايخ وقته من كلامه روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها وتظهر عليهم دلائلها وإن اخفوها وتدل عليهم وإن ستروها وأنشدوا فى هذا المعنى

إذا ماأسرت أنفس الناس ذكره تبينه فيهم ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها وهل سرمسك اودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضا إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية فأول مايعيد الاستغناء به عن الناس وقال صحبة الفساق داءودواء ودواؤها مفارقتهم وقال إذا سكن الخوف فى القلب لاينطق اللسان بما لايعنيه (ومنهم) سيدى جعفر بن نصر الخلدى يكنى بأبى محمد بغدادى المنشأ والمولد صحب الجنيد وانتمى اليه وحج قريبا من ستين حجة روى أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكى بكاء بحرقة فقال لها مالك تبكين فقالت ثكلى بولدى فأنشأ يقول

يقولون ثكلى ومن لم يذق فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق شرابا أمر من الحنظل

وروى أنه كان له فص فوقع منه يوما فى الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذدعا به عادت فدعا به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها وصورة الدعاء أن تقول ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع على ضالتى وقد روى أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثا وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال ودعت فى بعض حجاتى المزين الكبير الصوفى فقلت زودنى شيئا فقال ان فقدت شيئا أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك وبين إنسان فقل ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع بينى وبين كذا فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشىء أو الإنسان (ومنهم) سيدى معروف أن فيروز الكرخى قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السرى وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى فكان المؤدب يقول له قل هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد فضربه المؤدب على ذلك ضربا وجيعا فهرب منه فكان أبواه يقولان ليته يرجع الينا على أى دين شاء فنوافقه عليه فرجع إلى أبويه فدق الباب فقيل من الباب فقال معروف فقيل على أى دين فقال على دين الإسلام فاسلم أبواه * كان مشهورا باجابة الدعوة ومن كلامه رضى الله عنه إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل واغلق عليه باب الفترة والكسل وكان يعاتب نفسه ويقول يامسكين كم تبكى وتندب اخلص تخلص وقال سرى سألت معروفا عن الطائعين لله بأى شىء قدروا على الطاعات لله عز وجل قال بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته .

الماء يغسل ما بالثوب من درن وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال إبراهيم الاطروش كان معروف قاعدا يوما على الدجلة ببغداد فمر بنا صبيان فى زورق

محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى أن الشيخ بهاء الدين بن النحاس رحمه الله دخل إلى الجامع الأزهر فوجد أبا الحسين الجزار جالسا وإلى جانبه مليح ففرق بينهما وصلى ركعتين ولما فرغ قال لابى الحسين ما أردت الا قول ابن سناء الملك فقال أبو الحسين الجزار وأنا تفاءلت بقول صاحبنا السراج الوراق أما مراد الشيخ بهاء الدين فهو إشارة إلى قول ابن سناء الملك

أنا فى مقعد صدق بين قواد وعلق

وأما مراد أبى الحسين من قول سرج الوراق فهو

ومهفهف راض الابى فقاده سلس القياد
فلما وسط بيننا جرت الأمور على السداد

فبلغ كل منهما ما راد من صاحبه ولم يشعر احد بمراد الاثنين غيرهما (قلت) وبالنسبة إلى هذا الذكاء المفرط الصادر من هؤلاء القوم يتعين أن نورد هنا نبذة من كتاب الاذكياء لابن الجوزى (فمن ذلك) ماروى عن منصور بن العباس وهو أنه جلس يوما فى احدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا يجول فى الطرقات فأرسل اليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنه خرج فى تجارة فأفاد فيها مالا كثيرا وأنه رجع بها إلى زوجته ودفع المال اليها فذكرت المرأة أن المال سرق من المنزل ولم ير نقبا ولا مسلقا فقال له المنصور منذكم تزوجتها قال منذ سنة قال تزوجتها بكرا أم ثيبا قال ثيبا قال شابة أم مسنة قال شابة فدعا كل

المنصور بقارورة طيب وقال تطيب بهذا فانه يذهب همك فأخذها وانقلب إلى أهله فقال المنصور الجماعة من ثقاته
اقعدوا على أبواب المدينة فمن مر (١٤٢) بكم وشممتم فيه روائح الطيب فأتونى به ومضى الرجل بالطيب إلى
بيته فدفعه إلى المرأة وقال هذا من طيب أمير المؤمنين فلما شمته أعجبها إلى الغاية فبعثت به إلى رجل كانت تحبه وهو الذى دفعت المال إليه فقالت له تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازا ببعض الأبواب ففاحت منه روائح الطيب فأخذ وأتى به إلى المنصور فقال له من أين استفدت هذا الطيب فتلجلج فى كلامه فسلمه إلى صاحب شرطته وقال له ان أحضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه والا فاضربه ألف سوط فما هو إلا ان جرد وهدد حتى أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها ثم أعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير وقال له أرأيتك ان رددت اليك الدنانير أتحكمنى فى امرأتك قال نعم ياأمير المؤمنين قال هاهى دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر (ومن ذلك) ماروى عن المهدى وهو شريك بن عبدالله القاضى دخل عليه يوما فأراد المهدى أن يبخره
فقال الخادم احضر للقاضى عود فذهب الخادم فجاء بالعود الذى يلهى به فوضعه فى حجر شريك من فاضطرب شريك هذه
الك وقال ماهذا ياأمير المؤمنين قال عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضى فقال شريك

يضربون بالملاهى ويشربون فقال له أصحابه أماترى هؤلاء لايعصون الله تعالى على هذا الماء فادع عليهم فرفع يده إلى السماء وقال إلهى وسيدى كما فرحتهم فى الدنيا أسألك أن تفرحهم فى الآخرة فقال أصحابه إنما سألناك أن تدعوا عليهم ولم نقل لك ادع لهم فقال إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا ولم يضركم ذلك وقال سرى رأيت معروفا فى المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته من هذا فقالوا أنت أعلم يارب قال هذا معروف الكرخى سكر بحبى لايفيق الا بلقائى وقيل له فى مرضه أوص فقال إذا مت فتصدقوا بقميصى هذا فانى أحب أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا وقال أبوبكر الخياط رأيت فى المنام كأنى دخلت المقابر فاذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان وإذا أنا بمعروف الكرخى بينهم يذهب ويجى فقلت ياأبا محفوظ مافعل الله بك أوليس قد مت قال بلى ثم أنشد يقول

موت التقى حياة لانفاد لها ... قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

(ومنهم) قاسم بن عثمان الكرخى يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الدارانى وغيرهم وكان من اقران السرى والحرث المحاسبى وكان أبو تراب النخشبى يصحبه ومن كلامه من أصلح فيما بقى من عمره غفر له مامضى وما بقى ومن أفسد فيما بقى من عمره أخذ بما مضى وما بقى وقال السلامة كلها فى اعتزال الناس والفرح كله فى الخلوة بالله عزوجل وسئل عن التوبة فقال التوبة رد المظالم وترك المعاصى وطلب الحلال وأداء الفرائض وقال لاصحابه أوصيكم بخمس ان ظلمتم فلا تظلموا وان مدحتم فلا تفرحوا وان ذممتم فلاتحزنوا وان كذبتم فلا تغضبوا وأن خانوكم فلا تخونوا وقال محمد بن الفرج سمعت قاسم بن عثمان يقول أن لله عبادا قصدوا الله بهممهم فافردوه بطاعتهم واكتفوا به فى توكلهم ورضوا به عوضا عن كل ماخطر على قلوبهم من أمر الدنيا فليس لهم حبيب غيره ولا قرة عين إلا فيما قرب اليه وكان يقول قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلامعرفة ثم قال اعرف وضع رأسك ونم فما عبد الله الخلق بشىء أفضل من المعرفة وروى عنه أنه قال رأيت فى الطواف حول البيت رجلا فتقربت منه فإذا هو لايزيد على قوله اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتى لم تقض فقلت له مالك لاتزيد على هذا الكلام فقال أحدثك كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا فاعتزل بنا لنضرب اعناقنا فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين فى كل باب جارية فقدم رجل منا فضربت عنقه فرأيت جارية فى يدها منديل قد هبطت إلى الأرض فضربت اعناق الستة وبقيت أنا وبقى باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقى استوهبنى بعض خواص الملك فوهبنى له فسمعتها تقول بأى شىء فاتك هذا يامحروم واغلقت الباب فأنا ياأخى متحسر على مافاتنى قال قاسم بن عثمان أراه أفضلهم لأنه رأى مالم يروا وترك يعمل على الشوق (ومنهم) سيدى أبوبكر دلف بن جحدر الشبلى كان جليل القدر مالكى المذهب عظيم الشأن صحب الجنيد ومن فى عصره وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد فى الطاعات ويقول هذا شهر عظمه ربى فأنا أولى بتعظيمه وسئل عن قول النبى ﷺ خير عمل المرء كسب يمينه فقال إذا كان الليل فخذ ماء وتهيأ للصلاة وصل ماشئت ومديديك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك ولما رأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشيا عليه فلما افاق أنشد يقول

جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ثم أفاضوا فى الحديث حتى نسى الأمر فقال المهدى لشريك ما تقول فى رجل أمر وكيلا له أن يأتى بشىء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشىء فقال يضمن يا أمير المؤمنين فقال للخادم اضمن ما أتلفت (ومن ذلك) أنه

هذه دارهم وأنت محب — ما بقاء الدموع فى الآماق

وروى أنه قال كنت يوما جالسا فجرى فى خاطرى أنى بخيل فقلت مهما فتح الله على به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقانى قال فبينما أنا متفكر إذا دخل على شخص ومعه خمسون دينارا فقال اجعل هذه فى مصالحك فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الصرة فقال لى ادفعها للمزين فقلت له انها دنانير فقال ألم أقل انك لبخيل قال فناولتها للمزين فقال المزين ان من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرا قال فرميتها فى الدجلة وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى (ومنهم) سيدى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة كان بجبل لبنان (حكى) عن يوسف بن الحسين الرازى قال بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالسا على عين ما وقت صلاة العصر فسلمت عليه وجلست من ورائه فالتفت إلى وقال ما حاجتك فقلت بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك فقال قل فقلت سمعته يقول :

قد بقينا مذبذبين حيارى — نطلب الوصل ما إليه سبيل
فدواعى الهوى يخف علينا — وخلاف الهوى علينا ثقيل

فقال زرقان ولكني أقول

قد بقينا مذهلين حيارى — حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منافا — ليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى فقال رحم الله ذا النون المصرى رجع إلى نفسه فقال ما قال ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال وقال أبو عبد الرحمن السلمى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب وكان من أقرانه ورفقائه (ومنهم) سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن بريد كان من أقران ذى النون المصرى ومن أقران أستاذى أحمد بن أبى الحوارى له كلام حسن فى المعرفة وغيرها روى منه أنه قال أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى السير إلى بعض اخوانى فسمعت قائلا يقول لى فى النوم أيجمل بالحر المريد اذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد فانتبهت وأنا من أغنى الناس (ومنهم) سيدى بشر بن الحرث قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الاتقياء المتورعين صحب الفضيل بن عياض وروى عن سرى السقطى وغيره ومن كلامه لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك وقال أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب وقال غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم وقال التكبر على المتكبر من التواضع وسئل عن الصبر الجميل فقال الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس وقيل أنه لقى رجلا سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول يا سيدى يا أبا نصر وبشر لا يدفعه عن نفسه فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول رجل احب رجلا على توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدرى ما حاله * وروى ان امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت انى امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار فهل على فى ذلك شىء فقال يجب ان تبينى فلما انصرفت قال أحمد لابنه اذهب فانظر أين تدخل فرجع فقال دخلت دار بشر فقال قد عجبت ان تكون هذه بيت السائلة من غير بشر ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله نرفع ماءك الى الطبيب قال

حكى انه قدم رجل الى بغداد ومعه عقد يساوى ألف دينار فأراد بيعه فلم يتفق فجاء إلى عطار موصوف بالخير والديانة فأودع العقد عنده وحج وأتى بهدية للعطار وسلم عليه فقال من أنت ومن يعرفك فقال أنا صاحب العقد فلما كلمه رفسه وألقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذب عليه الا هذا فتحير الحاج وتردد اليه فما زاده الا شتما وضربا فقيل له لو ذهبت إلى عضد الدولة لحصل لك من فراسته خير فكتب قصته وجعلها على قصبة وعرضها عليه فقال ما شأنك فقص عليه القصة فقال اذهب غدا واجلس فى دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك فى اليوم الرابع فأقف وأسلم عليك فلا ترد على الا السلام فاذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد ثم أعلمنى بما يقول لك ففعل الحاج ذلك فلما كان فى اليوم الرابع جاء عضد الدولة فى موكبه العظيم فلما رأى الحاج وقف وقال السلام عليكم فقال الحاج وعليكم السلام ولم يتحرك فقال يا أخى تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تعرض علينا حوائجك فقال له ما اتفق ولم يزده على ذلك شيئا هذا والعسكر واقف بكماله فاندهل العطار وأيقن بالموت فلما

تصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الحاج وقال له يا أخي متى أودعتني هذا العقد وفي أي شيء هو ملفوف فذكرني لعلي أتذكر فقال من صفته كذا وكذا فقام (١٤٤) وفتش ثم فتح جرابا وأخرج منه العقد وقال الله أعلم اني كنت ناسيا ولو لم تذكرني ما تذكرت فأخذ الحاج العقد ومضى إلى عضد الدولة فاعلمه فعلقه في عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودي عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم أخذ الحاج العقد ومضى إلى بلاده (ومثله ما نقل عن ذكاء اياس الذي سارت به الركبان) قيل ان رجلا استودع أمين اياس مالا وخرج المودع إلى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فأتى اياسا فأخبره فقال له اياس أعلمته إنك أتيتني قال لا قال أفنازعته عند غيري قال لا قال فانصرف واكتم سرك ثم عد إلى بعد يومين فمضى الرجل ودعا اياس أمينه فقال قد حضر عندنا مال كثير أريد أن اسلمه إليك أفحصين منزلك قال نعم قال فاعد موضعا للمال وقوما يحملونه وعاد الرجل إلى اياس فقال انطلق إلى صاحبك فان أعطاك المال فذاك وان جحد فقل له انى اخبر القاضي بالقصة فأتى الرجل صاحبه فقال تعطيني الوديعة أو أشكوك إلى القاضي وأخبره بالحال فدفع إليه المال فرجع الرجل وأخبر اياسا وقال أعطاني الوديعة وجاء الأمين إلى اياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال له لا تقربني بعد هذا يا خائن (ومثله) انه ولي القضاء بواسط مشهور بالدين والذكاء المفرط فجاءه رجل استودع

أنا بعين الطبيب يفعل بي ما يريد فألحوا عليه فقال لأخته ادفعي إليهم الماء فدفعته إليهم في قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصراني فدفعوا إليه القارورة حركوا الماء فحركوه فقال ضعوه فوضعوه فقالوا له ما بهذا وصفت لنا قال وبماذا وصفت لكم قالوا وصفت بأنك أحذق أهل زمانك في الطب قال هو كما وصفت لكم ان هذا الماء ان كان ماء نصراني فهو ماء راهب قد فتتت الخوف كبده وإن كان ماء مسلم فماء بشر الحافي لأن ما في زمانه أخوف منه قالوا هو ماء بشر فقال أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فلما رجعوا إلى بشر قال لهم أسلم الطبيب قالوا وممن أعلمك بهذا فقال لما خرجتم من عندي نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب توفي سنة سبع وعشرين ومائتين (ومنهم) سيدي أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي من أجل المشايخ كبير الشأن ومن كلامه مازلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي إلى أن سقتها وهي تضحك وسئل بأي شيء وجدت هذه المعرفة فقال ببطن جائع وبدن عار وقيل له أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى فقال لا يمكن وصفه فقيل له ما أهون ما لقيته نفسك منك فقال أما هذا فنعم دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني فمنعتها الماء سنة وقال الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني فقيل له لم فقال لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي فأقول لبيك فقوله لي يا عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء وقال له رجل دلني على عمل أتقرب به إلى ربي فقال أحب أولياء الله ليحبوك فان الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فلعله ينظر إلى اسمك في قلب ولي فيغفر لك وسئل عن المحبة فقال استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك توفي سنة احدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى (ومنهم) شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري شيخ وقته وفريد عصره أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ وصحب خاله السري والحرث المحاسبي ودرس الفقه على أبي ثور وكان يفتي في مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة * ومن كلامه رضي الله عنه علامة اعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه وقال الأدب أدبان أدب السر وأدب العلانية فأدب السر طهارة القلوب وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب وروي في يده يوما سبحة فقيل له أنت مع تمكنك وشرفك تاخذ بيدك سبحة فقال نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدا وقال حسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول رأيت إبليس في منامي وكأنه عريان فقلت له ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة ولكن الناس عندي ثلاث نفر فقلت ومن هم قال في مسجد الشونيزي قد اضنوا قلبي وانحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل فأكاد أحترق قال الجنيد فانتبهت من نومي ولبست ثيابي وجئت إلى مسجد الشونيزي بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل قيل ان الثلاثة الذين كانوا في مسجد الشونيزي أبو حمزة وأبو الحسن الثوري وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم وقال محمد ابن قاسم الفارسي بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية فاذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول

بحرمة غربتي كم ذا الصدود ... ألا تحنوا علي ألا تجودوا
سرور العيد قد عم النواحي ... وحزني في ازدياد لا يبيد
فان كنت اقترفت خلال سوء ... فعذري في الهوى أن لا أعود

توفي الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفا رضوان الله عليهم أجمعين

أجمعين ومن صحبته بصحبته وفاضت الخيرات على ببركته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل
أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطرينى المالكى قدس الله سره وروحه ونور ضريحه كان
أوحد زمانه فى الزهد والورع قامعا لأهل الضلال والبدع وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة قد أطاع
أمره الخلائق عجما وعربا وانتشر ذكره فى البلاد شرقا وغربا وأتت إلى بابه واختاروا أن يكونوا
من جملة أصحابه ماأتاه مكروب إلا فرج الله كربته ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته كان محافظا على
النوافل ملازما للفرض وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض لم يمتع نفسه فى الدنيا بالمآكل
والمشارب اللذيذة بل قيل إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة وكان رضى الله
عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى
عدوه فيقبل ببشره وبره عليه فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم

وإنى لألقى المرء أعلم أنه ... عدوى وفى أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشرى فيرجع قلبه ... سليما وقد ماتت لديه الضغائن

وكانت حملة أهل زمانه عليه واحوالهم فى كل أمر راجعة اليه وكنت كثيرا ماأسمعه يتمثل بهذا البيت

وحملونى الضيم الا حملته ... لأنى محب والمحب حمول

وكان رضى الله عنه كثير المصافى عظيم الموافاة شأنه الحلم والستر لم يهتك مسلم ولا فضحه وما
استشاره أحد فى أمر إلا أرشده إلى خير ونصحه صحبته رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة فكأنها
من طيبها كانت سنة ماقطع بره يوما واحدا عنى حتى كنت أظن أن ليس عنده أخف منى وكان ذلك
فعله مع جميع أصحابه قاطبة بيض الله وجهه فى القيامة وبلغه من فضل ربه وكان رضى الله عنه
فقيها فى مذهب الإمام مالك امام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير وله فى علم الحقيقة أقوال وكم رأينا
له من مكاشفات وأحوال ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ولكنى أقول كان أوحد عصره عليه السلام عاش
رضى الله عنه نيفا وستين سنة وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضية وأحوال حسنة وكان رضى الله
عنه كثير الامراض والأسقام حصل له فى آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة ثم تزايد مرضه
فى العشر الأول من ذى الحجة الحرام فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الامر واحتضر ولم يزل
فى النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة ثم توفى رحمه الله تعالى سعيدا حميدا فى ليلة الجمعة حادى
عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين
ووقع النوح والبكاء والأسف فى أقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم
وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه وكيف لاوهو امام العصر علامة الدهر حق فيه
قول القائل

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يازمان فكفر

رضى الله عنه ورضى عنا به ونفعنا ببركته فى الدين والدنيا والآخرة فشرعوا فى تجهيزه وغسله فكنت
ممن حضر غسله ولكن لم يكن ذهنى معى فى تلك الساعة لماجرى علينا من المصيبة بفقده كيف لاوقد
كان لى والدا شفوقا وبارا محسنا عشوقا فلما انتهى غسله رضى الله عنه القضاة والنواب والكشاف
والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته وضاقت
الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم وهذا دليل
على أنه كان قطب أهل زمانه . قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه بيننا وبينهم الجنائز يريد بذلك

بعض الشهود كيسا مختوما ذكر ان فيه ألف دينار فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة المودع ظن أنه قد مات
فهم بانفاق المال وخشى من مجىء صاحبه ففتق الكيس من أسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم
وأعاد الخياطة كما كانت فقدر أن الرجل حضر إلى واسط وطالب الشاهد بوديعته فأعطاه الكيس بختمه فلما حصل فى منزله فض ختمه فاذا فى الكيس دراهم فرجع إلى الشاهد وقال له أردد على مالى فانى أودعتك دنانير والذى وجدت دراهم فأنكر فاستدعى عليه إلى القاضى المتقدم ذكره فلما حضرا بين يديه قال الحاكم للمستودع منذ كم أودعك الكيس قال منذ خمس عشرة سنة فقال القاضى لصاحب الكيس احضر لى الدراهم فأحضرها فقال القاضى للشهود اعتبروا تواريخ الدراهم فقرؤا سككها فاذا منها ماله سنتان وثلاث سنين ونحو ذلك فأمره أن يدفع له الدنانير فدفعها وعزله القاضى وأطاف به البلد وأسقطه (ومثله بل أغرب منه) أن رجلا استودع رجلا مالا ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إياس وقال المدعى انى أطالبه بمال وادعته اياه وقدره كذا وكذا فقال له إياس له ومن حضرك قال كان
رب العزة حاضرا قال دفعته اليه فى مكان قال فى موضع كذا قال فأى شىء تعهده من ذلك
الموضع قال شجرة عظيمة قال فانطلق إلى الموضع وانظر إلى الشجرة لعل الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك او لعلك

اجتماع الناس والله أعلم فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدى سليمان الدواخلى نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاويته التى أنشأها بسند فامع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتى المسلمين سراج الدين أبى حفص عمر الطريني المالكى فى قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة متقلبه ومثواه وحشرنا واياه فى زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأله لنا التوفيق والإعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿ الباب الحادى والثلاثون فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم ﴾

(أعلم) أن كرامات الأولياء لاتنكروا مناقبهم أكثر من أن تحصر نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر انه على مايشاء قدير وبالإجابة جدير وهو حسبنا الله ونعم الوكيل (حكاية) قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقى مراراً فلم نر للإجابة أثرا فخرجت أنا وعطاء السلمى وثابت البنانى ويحيى البكاء ومحمد بن واسع وأبو محمد السختيانى وحبيب الفارسى وحسان بن ثابت بن أبى سنان وعتبة الغلام وصالح المزنى حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج صبيان من المكاتب ثم استسقينا فلم نر للإجابة أثراً حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف قومت ماعليه بدرهمين فجاء بماء فتوضأ ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه إلى السماء وقال إلهى وسيدى ومولاى إلى كم ترد عبادك فيما لا ينفعك أنفد ماعندك أم نقص مافى خزائنك أقسمت عليك بحبك لى الا ما أسقيتنا غيثك الساعة قال فما تم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب قال مالك فتعرضت له وقلت له ياأسود أما تستحى مما قلت قال وما قلت قلت قولك بحبك لى وما يدريك أنه يحبك قال تنح عنى يا من اشتغل عنه بنفسه أفتراه بدأنى بذلك إلا لمحبته إياى ثم قال محبته لى على قدره ومحبتى له على قدرى فقلت له يرحمك الله ارفق قليلا فقال انى مملوك وعلى فرض من طاعة مالكى الصغير قال فانصرف وجعلنا نقفوا أثره على البعد حتى دخل دار نخاس فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت يرحمك الله عندك غلام تبيعه منا للخدمة قال نعم عندى مائة غلام للبيع فجعل يعرض علينا غلاما بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاما فلم أر حبيبى فيهم فقال عودا إلى فى غير هذا الوقت فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلى فقلت حبيبى ورب الكعبة فجئت إلى النخاس فقلت له يعنى هذا الغلام فقال ياأبا يحيى هذا الغلام ليست له همة فى الليل إلا البكاء وفى النهار إلا الخلوة والوحدة فقلت له لا بد من أخذه منك ولك الثمن وماعليك منه فدعاه فجاء وهو يتناعس فقال خذه بما شئت بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها فاشتريته منه بعشرين ديناراً وقلت ما اسمك قال ميمون فأخذت بيده أريد المنزل فالتفت إلى وقال يامولاى الصغير لماذا اشتريتنى وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين فقلت له والله ياسيدى انما اشتريتك لأخدمك بنفسى قال ولم ذلك فقلت ألست صاحبنا البارحة بالمصلى قال بلى وقد اطلعت على ذلك قلت نعم وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى قال فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد فاستأذننى ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه إلى السماء وقال إلهى وسيدى ومولاى سر كان بينى

وبينك

دفنت ملك تحت الشجرة فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة فمضى الرجل مسرعا فقال إياس للرجل المدعى عليه اقعد حتى يرجع خصمك فجلس وإياس يقضى بين الناس ونظر إليه بعد ذلك ثم قال له ياهذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التى ذكرها قال لا فقال له والله ياعدو الله انك لخائن فقال أقلنى أقالك الله ياأمير المؤمنين فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال اياس قد أقر بحقك فخذه (ومن لطائف المنقول من كتاب الأذكياء) أن يحيى بن أكثم القاضى ولى القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة فاستصغره أهل البصرة فقال أحدهم كم سن القاضى فعلم يحيى أنه استصغره فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل مكة يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولاه عمر بن الخطاب قاضيا على أهل البصرة قال فعظم فى أعين أهل البصرة وهابوه (ومن المنقول من كتاب الأذكياء) أن بعض اللصوص دخل بيته ومعه جماعة تحت أمره ونهيه فى القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقفوه للقتل فتدخل عليهم فى ابقاء مهجته وأخذ ما فى البيت بكماله فقال كبيرهم حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف انه لا يعلم بهم أحدا فأصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه فلا

وبينك اطلعت عليه غيرك فكيف يطيب الآن عيشى أقسمت عليك بك إلا ماقبضتنى إليك الساعة ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت إليه وحركته فاذا هو قدمات رحمة الله تعالى عليه قال فمددت يديه ورجليه فاذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر وإذا شاب قد دخل من الباب وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أخينا ميمون هاكم الكفن فناولنى ثوبين مارأيت مثلهما قط فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه قال مالك ابن دينار فبقبره نستسقى إلى الآن ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه (وحكى) عن حذيفة المرعشى رضى الله عنه وكان قدخدم إبراهيم الخواص رضى الله عنه وصحبه مدة فقيل له ماأعجب مارأيت منه بقينا فى طريق مكة أياما لم نأكل طعاما فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خرب فنظر إلى إبراهيم وقال ياحذيفة أرى بك أثر الجوع فقلت هو كما ترى فقال على بدواة وقرطاس فأحضرتهما إليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها ... فأجر عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة ثم دفع إلى الرقعة وقال اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفعها إلى أول من يلقاك قال فخرجت فأول من لقينى رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى وقال مافعل بصاحب هذه الرقعة قلت هو فى المسجد الفلانى فدفع إلى صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلا فسألته من هذا الراكب على البغلة فقال هو رجل نصرانى قال فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال لاتمس الدراهم فان صاحبها يأتى الساعة فلما كان بعد الساعة أقبل النصرانى راكبا على بغلته فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فبكى إبراهيم الخواص فرحا به وسرورا وقال الحمد لله الذى هداك للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام (وحكى) أن بعضهم كان ملاحا ببحر النيل المبارك بمصر قال كنت أعدى من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى ومن الجانب الشرقى إلى الجانب الغربى فبينما أنا ذات يوم فى الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة فقال السلام عليكم فرددت عليه السلام فقال أتحملنى إلى الجانب الغربى لله تعالى فقلت نعم فطلع إلى الزورق وعديت به الجانب الغربى وكان على ذلك الفقير مرقعة وبيده ركوة وعصا فلما أراد الخروج من الزورق قال انى أريد ان أحملك امانة قلت وماهى قال إذا كان غدا وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتا وستنسى فاذا ألهمت فأتنى وغسلنى وكفنى فى الكفن الذى تجده عند رأسى وصل على وادفنى تحت الشجرة وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فادفعها إليه ولا تحتقره قال الملاح ثم ذهب وتركنى فتعجبت من قوله وبت تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى فلما جاء وقت الظهر نسيت فما تذكرت الاقريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتا ووجدت كفنا جديدا عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحدا فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إلى ثم عدت إلى الجانب الشرقى وقد دخل الليل فنمت فلما طلع الفجر وبانت

يقدر أن يتكلم لأجل اليمين فجاء إلى أبى حنيفة وأعلمه بحاله فقال له احضر أكابر حيك وأخبرت جيرانك وإمام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه قالوا نعم فقال اجمعوا داعريكم فادخلوهم الجامع ثم اخرجوهم واحدا واحدا وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك فان كان ليس بلصه قال لا وان كان لصه فليسكت فاذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه ماسرق له (ومنه) ان الربيع صاحب المنصور كان يعادى أبا حنيفة فحضر يوما عند أمير المؤمنين فقال الربيع ياأمير المؤمنين ان أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول إذا حلف الرجل على شىء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين كان ذلك جائزا وأبو حنيفة لايجوز ذلك الا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة ياأمير المؤمنين ان الربيع يزعم ان ليس لك فى رقاب جندك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال ياربيع لاتتعرض لأبى حنيفة (ومنه) أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءنى اعرابى ومعه قربة ملآنة فأبى ان يبيعها الا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت مارأيك يااعرابى فى السويق فقال هات فأعطيته سويقا ملتوتا بزيت فجعل يأكل حتى امتلأ ثم عطش فقال على بشربة فقلت بخمسة دراهم

الوجود إذا أنا بشاب قد أقبل على فحققت النظر في وجهه فاذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم فأقبل
وعليه ثياب رقاق وهو مخضوب الكفين وطارة تحت إبطه فسلم على فرددت عليه السلام فقال يا ملاح
أنت فلان ابن فلان قلت نعم قال هات الوديعة التي عندك قلت ومن أين لك هذا قال لا تسأل فقلت لابد
أن تخبرني فقال لا أدري الا أن البارحة كنت في عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغني إلى أن
ذكر الله الذاكرون على المآذن فنمت لأستريح وإذا برجل قد أيقظني وقال ان الله تعالى قد قبض
فلانا الولي وأقامك مقامه فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق فان الشيخ أودع لك عنده كيت
وكيت قال فدفعتها اليه فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها في الزورق وقال تصدق بها على ما شئت وأخذ الركوة
والعصا ولبس المرقعة وسار وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك وأقمت يومي ذلك أبكي إلى
الليل ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم فقال يا عبدي أثقل عليك ان مننت على عبد عاص
الرجوع إلى انما ذلك فضلي أوتيه من أشاء من عبادي وأنا ذو الفضل العظيم (وحكى) أبو إسحق
الصعلوكي قال خرجت سنة إلى الحج فبينما أنا في البادية تائه وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت
صوت شخص ضعيف يقول يا إسحق قد انتظرتك من الغداة فدنوت منه فاذا هو شاب نحيف الجسم
قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف فقلت له من أنت ومن أين
أنت قال من مدينة شمشاط كنت في عز ورفعة فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة فخرجت وقد أشرفت
الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لي وليا من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو فقلت ألك
حاجة قال نعم لي والدة وإخوة وأخوات فقلت هل اشتقت اليهم قط قال لا إلا اليوم أشفقت أن أشم
ريحهم فهممت أريدهم فاحتوشتني السباع والهوام وبكين معي وحملوا إلى هذه الرياحين متى تراها قال
أبو اسحق فبينما أنا معه يرق له قلبي وإذا بحية عظيمة في فيها باقة نرجس كبيرة فقالت دع ولي الله تعالى فان
الله تعالى يغار على أوليائه فغشي عليه وغشي على فما أفقت الا وهو قد خرجت روحه رحمه الله قال فدخلت
مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها فلما رأتني
نادت يا اسحق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريبا فاني منتظرتك منذ كذا فذكرت لها القصة إلى
ان قلت أشم ريحهم فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج اليها بنات
أتراب عليهن مرقعات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع (شعر)

يا نسيما هب من وادي قبا ... خبريني كيف حال الغربا
كم سألت الدهر ان يجمعنا ... مثل ما كنا عليه فأبى

(حكى) أن رجلا كان يعرف بدينار العيار وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ فمر في بعض
الأيام بمقبرة فأخذ منها عظما فتفتت في يده ففكر في نفسه وقال ويحك يا دينار كأني بك وقد صار
عظمك هكذا رفاتا والجسم ترابا فندم على تفريطه وعزم على التوبة ورفع رأسه إلى السماء وقال إلهي
وسيدي القيت اليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال يا أماه
ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده قالت يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه فقال أريد
جبة من صوف وأقراصا من شعير وغلين وافعلي بي كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني
ففعلت به ما أراد فكان إذا جن عليه الليل أخذ في البكاء والعويل ويقول لنفسه ويحك يا دينار ألك قوة على
النار كيف تعرضت لغضب الجبار ولا يزال كذلك إلى الصباح فقالت له أمه يا بني ارفق بنفسك

قدح من ماء فاستردت الخمسة وبقي الماء (ومنه) أنه استودع رجل بالكوفة رجلا مالا وحج ورجع فطلبه فجحده وجعل
يحلف له فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة فخلا به وأخبره بذلك فقال له الإمام لا تكلم أحدا بجحوده وكان
الرجل يجالس أبا حنيفة فقال وقد خلالهم المكان أن هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك فانصرف من عند الإمام فجاء صاحب الوديعة فقال له الإمام ارجع إلى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسيا فذهب اليه وسأله فلم يحتج معه إلى علامة بل دفع اليه متاعه وتوجه بعد ذلك إلى أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة اني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أنفس من هذا (ومنه) أنه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يوما من الأيام يا إمام أريد التزويج إلى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفه فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء إلى أبي حنيفة فقال اني سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى قال احتل واقترض حتى
تدخل بأهلك فان الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت اليه ودخل بها قال أبو حنيفة فقال
ما عليك أن تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد إلى موضع بعيد فاكترى الرجل جملين وأحضر آلة السفر وما يحتاج اليه وأظهر أنه يريد

فقال دعيني أتعب قليلا لعلي أستريح طويلا ياأماه ان لي غدا موقفا طويلا بين يدي رب جليل ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل أو إلى شر مقيل قالت يابني خذ لنفسك راحة قال لست للراحة أطلب كانك ياأماه غدا بالخلائق يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها فتركته وماهو عليه فأخذني البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ في بعض الليالي فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه فجاءت أمه إليه فنادته فلم يجبها فقالت له ياحبيبي وقرة عيني أين الملتقى فقال بصوت ضعيف ياأماه ان لم تجديني في عرصات القيامة فاسألي مالكا خازن النار عني ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى فغسلته أمه وجهزته وخرجت تنادي أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر في الجنة وعليه حلة خضراء وهو يقرأ الآية فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ويقول وعزته وجلاله سألني ورحمني وغفر لي وتجاوز عني ألا أخبروا عني والدتي بذلك (وحكي) عن الحسن البصري قال نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه فقال الله تعالى لملك الموت اقبض روحه فانه جائع فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتا فأخبر الناس بذلك فتعاونوا على دفنه فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوبا عليه هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير فلم تطعموه حتى مات جوعا من كان من أحبابنا لا نكله إلى غيرنا (وحكي) أبو علي المصري قال كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوما حدثني بأعجب مارأيت من الموتى فقال جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب فقال لي أتغسل لنا هذا الميت قلت نعم فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة فاذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها فقالت أنت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله ادخل ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فدخلت الدار وإذا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت وروحه في لبته وقد شخص بصره وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم اجلس إليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته فأخذت في غسله وأنا أرتعد فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته وقالت أما اني سألحق بك عن قريب فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت ارسل إلى زوجتك ان كانت تحسن ماتحسنه أنت فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب فاستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وانزلتها على أخيها رحمة الله عليهما (شعر)

أأحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت ... لبعدكم آصالها وضحاها
وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت ... رسوم مبانيها وفاح كلاها
كانكم يوم الفراق رحلتم ... بنومي فعيني لاتصيب كراها
وكنت شحيحا من دموعي بقطرة ... فقد صرت سمحا بعدكم بدماها
يراني بساما خليلي يظن بي ... سرورا وأحشاي السقام ملاها
وكم ضحكة في القلب منها حرارة ... يشب لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياما يطيب حديثكم ... تقضت وحياها الحيا وسقاها
فما قلت أيها بعدها لمسافر ... من الناس إلا قال قلبي رآها

(وحكي) سري السقطي رحمه الله تعالى قال أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت فلما

الخروج من البلد في طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤا إلى أبي حنيفة يستشيرونه قال لهم أبو حنيفة له أن يخرجها إلى حيث شاء فقالوا لم نصبر على ذلك فقال أرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى أن القوم قد سمعوا وأجابوا إلى أن يردوا عليك ماأخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى لابد من زيارة آخذها منهم فقال أبو حنيفة أيما أحب إليك أن ترضى بما بذلوا لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضي ما عليها من الدين قال فقال الفتى الله الله يا إمام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر (ومنه) ان رجلا جاء إلى أبي حنيفة وقال ياامام دفنت مالا من مدة طويلة ونسيت الموضع الذي دفنته فيه فقال الإمام ليس في هذا فقه فأحتال لك ولكن اذهب فصل الليلة إلى الغداة فانك ستذكره إن شاء الله تعالى ففعل فلم يمض إلا أقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع الذي دفن فيه فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره فقال قد علمت ان الشيطان لايدعك تصلي الليل كله فهلا تممت ليلتك كلها شكرا لله تعالى (ومنه) ان بعضهم كانت له زوجة جميلة وكان يحبها حبا شديدا وتبغضه بغضا شديدا ولم تزل المنافرة بينهما البتة واضجره ذلك وطالت مدة تجرئها عليه في الكلام فقال لها يوما انت طالق ثلاثا بتاتا ان خاطبتيني بشيء ولم أخاطبك بشيء مثله فقالت له في الحال انت طالق ثلاثا بتاتا فابلس

أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول .

تغل يدي إلى عنقي ۞ وما خانت وما سرقت ۞ وبين جوانحي كبد ۞ أحس بها قد احترقت

قال فقلت للقيم ماهذه الجارية قال هذه جارية اختل عقلها فحبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت .

معشر الناس ماجننت ولكن ... أنا سكرانة وقلبي صاحي
لم غللتم يدي ولم آت ذنبا ... غير هتكي في حبه وافتضاحي
أنا مفتونة بحب حبيب ... لست أبغي عن بابه من براح
ما على من أحب مولى الموالي ... وارتضاه لنفسه من جناح

قال فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديدا فقالت ياسري هذا بكاؤك من الصفة فكيف لو عرفته حق المعرفة قال فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها فلما رآني عظمني فقلت والله هي أحق مني بالتعظيم فلم فعلت بها هذا وقال لتقصيرها في الخدمة وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى لاتنام ولا تدعنا ننام وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة قلت فما كان بدء أمرها قال كان العود في حجرها يوما فجعلت تقول .

وحقك لا نقضت الدهر عهدا ... ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجدا ... فكيف أقر ياسكني واهدا
فيامن ليس لي مولى سواه ... تراك رضيتني بالباب عبدا

فقلت لسيدها اطلقها وعلى ثمنها فصاح وافقراه من أين لك عشرون ألفا ياسري فقلت لاتعجل علي فقال تكون في المارستان حتى توفيني ثمنها فقالت نعم قال سري فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع وأبا والله ما عندي درهم من ثمنها فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى فإذا بطارق الباب ففتحت ودخل علي رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر فقال أتعرفني ياسري قلت لا قال أنا أحمد بن المثنى كنت نائما فهتف بي هاتف وقال لي يا أحمد هل لك في معاملتنا فقلت ومن أولى مني بذلك فقال احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية فإن لنا بها عناية قال سري فسجدت لله شكرا وجلست أتوقع طلوع الفجر فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول

قد تصبرت إلى أن ۞ عيل من حبك صبري ۞ ضاق من غلي وقدي ۞ وامتهاني منك صدري
ليس يخفى عنك أمري ۞ يامنى قلبي وذخري ۞ أنت قد تعتق رقي ۞ وتفك اليوم أسري

قال سري فبينما أنا أسمعها وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي فقلت لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم فقال والله لا فعلت ذلك قلت نزيدك قال والله لو أعطيتني مابين الخافقين ما فعلت وهي حرة لوجه الله تعالى قال فتعجبت من ذلك وقلت ما كان هذا كلامك بالأمس فقال حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني وأشهدك أني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى واني هارب إلى الله تعالى فبالله لا تردني عن صحبتك فقلت نعم ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي فقلت مايبكيك قال ياأستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه وورد على مابذلت أشهدك اني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله وكل عبد أملكه وجارية احرار لوجه الله تعالى قال سري فقلت ما أعظم بركتك ياجارية قال فنزعنا الغل من عنقها والقيد من رجلها وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب وألبست خمارا من صوف

ومدرعة

الرجل ولم يدر ما يجيب وخاف في جوابها من وقوع الطلاق وأرشد إلى أبي جعفر الطبري فأخبره بما جرى فقال له إذا طالبتك بالجواب فقل لها أنت طالق

ثلاثا إن أنا طلقتك فتكون قد خاطبتها ووفيت بيمينك (ومنه) ماقيل إن ذا النون المصري كان يعرف الاسم الاعظم قال يوسف بن الحسن لما تحققت منه لك قصدت مصر وخدمته سنة ثم قلت له يرحمك الله اني قد خدمتك ووجب حقي عليك واشتهي ان تعلمني اسم الله الأعظم فلا تجد له موضعا مثلي قال فسكت ولم يجبني ستة أشهر وأوما إلى أنه يعلمني ثم أخرج من بيته طبقا ومكبة وقد شدا بمنديل وكان ذو النون يسكن الجيزة فقال تعرف فلانا صديقنا من الفسطاط قلت نعم قال فأحب أن تؤدي هذا إليه قال فأخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشي طول الطريق وأقول مثل ذي النون يوجه إلى فلان بهدية ترى أي شيء هي فلم أصبر أن بلغت الجسر فحللت المنديل ورفعت المكبة فاذا فأرة نفرت من الطبق وفرت فاغتظت غيظا شديدا وقلت ذو النون المصري يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة فرجعت على ذلك الغيظ فلما رآني علم ما في وجهي فقال يا أحمق ائتمنتك على فأرة فخنتني فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم فسرعني فلا أراك بعدها (ومن ذلك ما هو مقول عن الافراط في ذكاء العرب) قيل سار مضر وربيعة واياد وانمار أولاد نزار بن معد إلى أرض نجران فبيناهم

يسيرون إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال البعير الذى رعى هذا أعور فقال ربيعة وهو أزور وقال اياد وهو أبتر وقال إنمار
وهو شرود فلم يسيروا إلا قليلا حتى لقيهم رجل على راحلة فسألهم عن البعير فقال مضر أهو أعور قال نعم

ومدرعة من شعر وولت قال سرى فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتا فتبعناه فإذا هى امرأة كالخيال فلما رأتنى قالت السلام عليك ياسرى فقلت لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت فقالت لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة فتأملتها فإذا هى الجارية فقلت لها ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق فقالت انسى به ووحشتى من غيره ثم توجهت إلى البيت وقالت إلهى كم تخلفنى فى دار لا أرى فيها أنيسا قد طال شوقى إليك فعجل قدومى عليك ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتا رحمة الله عليه فدفناهما فى قبر واحد (شعر) .

بحرمة ماقدكان بينى وبينكم — من الود الا مارجعتم إلى وصل — ولا تحرمونى نظرة من جمالكم
فلن تجدوا عبدا ذليلا لكم مثلى — فوالله ما يهوى فؤادى سواكم — ولو رشقوه بالأسنة والنبل

(وحكى) أنه كان فى زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير فاعتراه فتور فى بعض الأيام فأزال عنه سحابته وحجب اجابته فكثر لذلك حزنه وشجونه وطال كده وأنينه ومازال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكى ويتأسف ويتحسر ويتلهف فقام ليلة من الليالى فصلى ماشاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام فقيل له فى المنام إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فائت الملك الفلانى فى بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك قال فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التى ذكرت له فى المنام فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام من أين أنت وما حاجتك فقال من بلاد بعيدة وقصدى الاجتماع بالملك فقال له الغلام لا سبيل لك إليه اليوم فسل حاجتك اقضها لك ان استطعت فقال ان حاجتى لا يقضيها إلا الملك فقال له الغلام ان الملك ليس له إلا يوم واحد فى الجمعة يجتمع إليه الناس فيه فاذهب حتى يأتى ذلك اليوم فانصرف الرجل إلى مسجد داثر وأقام يعبد الله تعالى فيه وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس فلما كان ذلك اليوم الذى يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقا كثيراً عند الباب ينتظرون الاذن فوقف مع جملة الناس فلما خرج الوزير أذن للناس فى الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة فلما نظر اليه الملك قال مرحبا بصاحب السحابة اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وانظر فى أمرك قال فتحير صاحب السحابة فى أمره فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره ثم مشى به فى دهليز القصر فلم يجد فى طريقه الا مملوكا واحداً فسار حتى انتهى إلى باب من جريد وإذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة وبيت خرب فيه برش وليس هناك مايساوى عشرة دراهم الاسجادة خلقة وقدح للوضوء وحصير رثة وشىء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى يافلانة قالت لبيك قال أتدرين من هو الليلة ضيفنا قالت نعم هو صاحب السحابة فدعا بها لحاجة فخرجت فاذا هى امرأة كالشن البالى عليها مسح من شعر خشن وهى شابة صغيرة قال الرجل فالتفت

قال ربيعة أهو أزور قال نعم قال اياد أهو أبتر قال نعم قال إنمار أهو شرود قال نعم والله هذه صفات بعيرى دلونى عليه فحلفوا أنهم ما رأوه فلزمهم وقال فكيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيرى بصفته فساروا حتى قربوا نجران فنزلوا بالأفعى الجرهمى فنادى صاحب البعير هؤلاء القوم وصفوا لى بعيرى بصفته ثم أنكروه فقال الجرهمى كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رأيته يرعى جانبا ويترك جانبا فعلمت أنه أعور وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها بشدة وطئه لازوراره وقال اياد عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان زيالا لتفرق وقال إنمار انما عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث فقال الأفعى ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من هم فأخبروه فرحب بهم وأضافهم وبالغ فى اكرامهم (ومنه) ان عقبة الازدى كان مشهوراً بمعالجة الجن وصدق العزائم فأتوه بجارية قد جنت فى ليلة عرسها فعزم عليها فاذا هى قد سقطت فقال لأهلها اخلونى بها فأجابوه فلما خلا بها قال اصدقينى عن نفسك وعلى خلاصك فقالت انه كان لى

صديق وأنا فى بيت أهلى وإنهم أرادوا أن يدخلونى على زوجى ولست ببكر فخشيت الفضيحة فهل عندك حيلة فى أمرى وقال نعم ثم خرج إلى أهلها فقال إن الجنى أجابنى إلى الخروج منها فاختاروا من أى عضو واعلموا أن العضو الذى يخرج منه الجنى لابد أن يهلك ويفسد فإن خرج من عينها عميت وإن خرج من اذنها صمت وأن خرج من يدها شلت وإن خرج من رجلها زمنت وأن خرج من فرجها ذهبت بكارتها فقال أهلها انا لم نجد شيئا أهون من ذهاب عذرتها فاخرج الشيطان منه فأوهمهم انه فعل ذلك وأدخلت المرأة على زوجها (ومن ذلك) أن الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلا على عمل فبلغه عنه أنه قال

اسقنى شربة ألذ عليها واسق بالله مثلها ابن هشام

قال فاشخصه وعلم الرجل الحال فضم اليه بيتا آخر فلما قدم على الإمام قال السنى القائل

اسقنى شربة ألذ عليها واسق بالله مثلها ابن هشام

قال نعم يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت ثانيا وهو

عسلا باردا بماء سحاب انى لا أحب شرب المدام

فقال الإمام الله الله ارجع إلى عملك (ومن لطائف هزليات الأذكياء) أن الرشيد خرج متنزها فانفرد عن العسكر ومعه الفضل بن الربيع فاذا هو بشيخ ركب حمارا ضعيفا وهو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل أين تريد ياشيخ؟ فقال حائطا لى قال هل أدلك على شيء تداوي

إلى الملك وقال ياأخى نطلعك على حالنا أو نقضى حاجتك وتنصرف فقلت والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه فقال الملك الله يعلم أنه كان لى فى الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرا عن كابر فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى ووصل الأمر إلى بغض الله إلى الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح فى الأرض وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين والشرائع وتبديل شمل الدين فبايعونى وأنا والله كاره فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته والحراس على حالها والمماليك على دأبها ولم أغير شيئا وأقعدت المماليك على الابواب بالسلاح أرهابا لأهل الشرور وردعا عن أهل الخيرات وتركت القصر مزينا على حاله وفتحت له بابا وهو الذى رأيته يوصلنى إلى هذه الخربة فادخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا وأضفر الخوص وأبيعه وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتى هذه التى رأيتها وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدى واجتهدت حتى صارت كالشن البالى والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم أنى أقمت لى نائبا ينوب عنى طول الجمعة وعلمت أنى مسئول فجعلت لى يوما فى الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف عن مظالمهم كما رأيت وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاما وتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسى العمر فأخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزا وفولا واشترى بباقى ثمنه خوصا فلما كان عند الغروب أفطر وأفطرت معهما وبت عندهما فقاما فى نصف الليل يصليان ويبكيان فلما كان عند السحر قال الملك اللهم أن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وأنك قد دللته علينا اللهم اردده عليه انك على كل شيء قدير والمرأة تؤمن على دعائه وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لى الملك البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل اجابتك قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معى كما كانت فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئا إلا أعطانى إياه رحمة الله تعالى عليهما

(شعر)

استعمل الصبر تجنى بعده العسلا	ولازم الباب حتى تبلغ الأملا
ومرغ الخد فى أعتابه سحرا	واحمل لمرضاته فى الحب كل بلا
فايفوز بوصل ياأخى صوى	صب لنقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادى فى الدجى سحرا	فانهض وكن رجلا بالسعى قد وصلا

(وحكى) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال خرجت إلى مكة حاجا فبينما أنا سائر إذا رأيت شابا ساكتا لا يذكر الله تعالى فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال يامن لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصى هب لى ما لا يسرك واغفر لى ما لا يضرك ثم رأيته بذى الحليفة وقد لبس حرامه والناس يلبون وهو لا يلبى فقلت هذا جاهل فدنوت منه فقلت له يافتى قال لبيك قلت لم لا تلبى فقال ياشيخ وما تغنى التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم منكوبات والله انى لأخشى ان أقول لبيك فيقول لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك ولا أنظر اليك فقلت له لا تقل ذلك فانه حليم إذا غضب رضى وإذا رضى لم يغضب وإذا وعد وفى ومتى توعد عفا فقال ياشيخ أتشير على بالتلبية قلت نعم فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب واخذ حجرا فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه وقال لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعى بين يديك فأقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته الا بمنى وهو يقول اللهم ان الناس قد ذبحوا ونحروا وتقربوا اليك وليس لى شيء اتقرب به اليك سوى نفسى فتقبلها منى ثم شهق

به عينيك تذهب هذه الرطوبة فقال ماأحوجنى إلى ذلك فخذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكماة فصير الجميع فى قشر جوزة
واكتحل من القشر فانه يذهب رطوبة عينيك فاتكا الشيخ على ظهر حماره وضرط ضرطة طويلة ثم قال خذ هذه

شهق شهقة وخر ميتا رحمه الله تعالى عليه (وحكى) أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبى عبد الله الأندلسى وكان شيخا لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج فى بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلى فلم نزل فى خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساقسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا إلى بئر فى آخر القرية وإذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهم جارية حسنة الوجه مافيهن أحسن ولا أجمل منها وفى عنقها قلائد الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقى الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا غير انه لا يؤدى الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلى فتقدمت إليه وقلت له ياسيدى ان أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا قال فأقبل علينا وقال ياقوم أعلموا أن الجارية التى رأيتها بالأمس قد شغفت بها حبا واشتغل بها قلبى وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض قال الشبلى فقلت له ياسيدى أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق وعدد مريديك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال ياقوم جرى القلم بما حكم ووقعت فى بحار العدم وقد انحلت عنى عرى الولاية وطويت عنى اعلام الهداية ثم انه بكى بكاء شديدا وقال ياقوم انصرفوا فلقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد فخرج الناس إلى لقائه ومريدوه فى جملة الناس فلم يروه فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه وأسفا وجعل الناس يبكون ويتضرعون الى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابى نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا انه فى البرية يرعى الخنازير قلنا وما السبب فى ذلك قالوا انه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها الا من هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وها هو فى البرية يرعى الخنازير قال الشبلى فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا اليه وإذا به قائم قدام الخنازير فلما رآنا نكس رأسه وإذا عليه قلنسوة النصارى وفى وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا ياشيخ ماذاك وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم فقال يا اخوانى وأحبابى ليس لى من الأمر شىء سيدى تصرف فى كيف شاء وحيث أراد أبعدنى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه فالحذر الحذر ياأهل وداده من صده وابعاده والحذر الحذر ياأهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ثم رفع طرفه الى السماء وقال يامولاى ماكان ظنى فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكى وينادى ياشبلى اتعظ بغيرك فنادى الشبلى بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاهم وضجيجهم

الضرطة أجرة وصفك فان نفعتنا زدناك فضحك الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر دابته (ومن الجد المفحم) أن رجلا من اليهود قال للامام على رضى الله عنه مادفنتم نبيكم حتى قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال الإمام أنتم ماجفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة (ومنه) أن المتوكل قال يوما لجلسائه نقم المسلمون على عثمان أشياء منها أن الإمام أبا بكر رضى الله عنه لما تسنم المنبر هبط عن مقام النبى صلى الله عليه وسلم بمرقاة ثم قام عمر دون مقام أبى بكر وصعد عثمان ذروة المنبر فقال عبادة ما أحد أعظم منة عليك من عثمان ياأمير المؤمنين قال وكيف ويلك قال لأنه صعد ذروة المنبر ولو انه كلما قام خليفة نزل مرقاة ونزل عثمان كمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر فضحك المتوكل ومن حوله (ومن المنقول عن أذكياء الأطباء) أن جارية من جوارى الرشيد تمطت فلما أرادت أن تمد يدها لم تطق وحصل فيها الورم فصاحت وآلمها

 فشق على الرشيد وعجز الأطباء عن علاجها فقال له طبيب حاذق ياأمير المؤمنين لادواء لها الا
أن يدخل اليها رجل أجنبى غريب فيخلو بها ويمرخها بدهن نعرفه فأجابه الخليفة إلى ذلك رغبة فى عافيتها فأحضر الطبيب الرجل

أقبلت اليهم وجعلت تمرغ وجهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال قال الشبلى فظننت أن القيامة قد قامت ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدا قال الشبلى فقلنا له هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد فقال كيف لى بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب فقلت ياشيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيأ فقال نسيته كله الا آيتين فقلت وماهما قال قوله تعالى ومن يهن الله فاله من مكرم ان الله يفعل مايشاء والثانية قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل فقلت ياشيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئا قال حديثا واحدا وهو قوله ﷺ من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلى فتركناه وانصرفنا ونحن متحيرون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد اسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر الينا وقال ياقوم أعطونى ثوبا طاهرا فأعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذى ردك علينا وجمع شملنا بك فصف لنا ماجرى لك وكيف كان أمرك فقال ياقوم لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم وقلت له يامولاى أنا المذنب الجانى فعفا عنى بجوده وستره غطانى فقلنا له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القريه وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت فى نفسى ماقدر هؤلاء عندى وأنا مؤمن موحد فنوديت فى سرى ليس هذا منك ولو شئت عرفناك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبى فكان ذلك الطائر هو الايمان قال الشبلى ففرحنا به فرحا شديدا وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهودا وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل اليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون الفا وأقام على ذلك زمانا طويلا ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فاذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذى تريد فقال قل لشيخكم أن الجارية الرومية التى تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال قد دخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا فقال لها الشيخ كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى ههنا قالت ياسيدى لما وليت من قريتنا جاءنى من أخبرنى بك فبت ولم يأخذنى قرار فرأيت فى منامى شخصا وهو يقول إن أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه فقلت وما دينه قال دين الاسلام قلت وما هو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فقلت كيف لى بالوصول اليه قال اغمضى عينيك واعطينى يدك ففعلت فمشى قليلا ثم قال افتحى عينيك ففتحتهما فاذا أنا بشاطىء الدجلة فقال امضى إلى تلك الزاوية واقرئى الشيخ منى السلام وقولى له ان أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدى ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت فقال لها لاتبكى فان اجتماعنا غدا فى القيامة فى دار الكرامة ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها الا أياما قلائل حتى مات رحمه الله تعالى عليه قال الشبلى فرأيته فى المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ماتزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين

والدهن وقال أريد أن أمير المؤمنين يأمر بتعريتها حتى يمرخ أعضاءها بهذا الدهن فشق ذلك على الخليفه وأمره أن يفعل وأضمر فى نفسه قتل الرجل وقال للخادم خذه وأدخله عليها بعد أن تعريها فعريت الجارية وأقيمت فلما دخل عليها وقرب منها وسعى اليها أوما بيده إلى فرجها ليمسه غطت الجارية فرجها بيدها التى قد كانت عطلت حركتها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمى جسمها بانتشار الحرارة الغريزية فأعانها على ما أراد من تغطية فرجها واستعمال يدها فى فرجها فلما غطت فرجها قال لها الرجل الحمد لله على العافية فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد وأعلمه بالحال وما اتفق فقال الرشيد للرجل فكيف تعمل فى رجل نظر إلى حرمنا فمد الطبيب يده إلى لحية الرجل فانتزعها فاذا هى ملصقة وإذا الشخص جارية وقال ياأمير المؤمنين ما كنت لابدل حرمك الرجل ولكن خشية أن أكشف لك الخبر فيتصل بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج لأنى أردت أن أدخل على قلبها فزعا شديدا ليحمى طبعها ويقودها إلى تحريك يدها وتمشى الحرارة الغريزية فى سائر أعضائها بهذه الواسطة فسر عن الرشيد ما كان وقر فى صدره من الرجل وأجزل عطيته (ومن المنقول عن أذكياء المتطفلين) قال أبو عمر والجهضمى كان لى جار طفيلى وكان من أحسن الناس منظرا وأعذبهم منطقا وأطيبهم رائحة فكان من شأنه إذا دعيت إلى وليمة يتبعنى فيكرمه الناس من أجلى ويظنون

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثاني والثلاثون في ذكر الاشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة)

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال قبل قيام الساعة يرسل الله ريحا باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير وعليهم تقوم الساعة وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى كفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع في الصالحين وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال الشر يطفيء الشر فان كان صادقا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفيء احداهما الأخرى وانما يطفيء الماء النار ووصف بعضهم رجلا من أهل الشر فقال فلان عري من حلة التقوى وعمي عنه طابع الهدى لا تثنيه يد المراقبة ولا تكفه خيفة المحاسبة وهو لدعائم دينه مضيع ولد واعي شيطانه مطيع (شعر)

كأنه التيس قد أودى به هرم　　فلا لحم ولا صوف ولا ثمر

وقيل من فعل ما شاء لقي ما ساء وقيل زنى رجل بجارية فأحبلها فقالوا يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغني ان العزل مكروه قالوا فما بلغك أن الزنا حرام وقيل لأعرابي كان يعشق قينة ما يضرك واشتريتها ببعض ما تنفق عليها قال فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد وقال ابو العيناء رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك فقالت يا سيدي أنه يواقعني من قيام ويصلي من قعود ويشتمني باعراب ويلحن في القرآن ويصوم الخميس والاثنين ويفطر رمضان ويصلي الضحى ويترك الفرض فقلت لا أكثر الله في المسلمين مثله وكانت ظلمة القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم فلما شبت زنت فلما كبرت قادت وقال صاحب المسالك والممالك أن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحا خلا ملك قمار قال الزمخشري رحمه الله أقمت بقمار سنين فلم أر ملكا أغير منه وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل وقمار ينسب اليها العود القماري كما ينسب إلى مندل قال مسكين الدارمي

ولا ذنب للعود القماري انه　　يحرق أن نمت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما عهدت الناس وهم أتبع لاديانهم وأن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم وقال رسول الله ﷺ حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم

(ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء) قال رسول الله ﷺ ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت وفي ذلك قيل

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا　　وتستح مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام العاقل شجاع القلب ولا أحمق شجاع الوجه وذم رجل قوما فقال وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء ووصف رجل وقحا فقال لو دق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها قال الشاعر

لو أن لي من جلد وجهه رقعة　　لجعلت منها حافرا للاشهب

وقال آخر　إذا رزق الفتى وجها وقاحا　　تقلب في الامور كما يشاء

صحبتي له فاتفق ان جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن أولاده فقلت في نفسي كأني برسول الامير قد جاءني وكأني بالطفيلي قد تبعني والله لئن فعل لافضحنه فأنا على ذلك اذ جاءني رسول الامير يدعوني فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت فاذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني فالتأهب فتقدمت وتبعني فلما حضرت الموائد كان معي على المائدة فلما مد يده ليأكل قلت حدثني درسة ابن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار قوم بغير اذنهم فأكل طعامهم دخل سارقا وخرج مغيرا فلما سمع الطفيلي ذلك قال انفت لك والله يا أبا عمرو من هذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام فانه ما من أحد من الجماعة الا هو يظن أنك تعرض به دون صاحبه وقد بخلت بطعام غيرك على من سواك ثم ما استحييت حتى حدثت عن درسة ابن زياد وهو ضعيف وعن أبان بن طارق وهو متروك الحديث والمسلمون على خلاف ما ذكرت فان حكم السارق القطع وحكم المغير أن يعزر على ما يراه الامام وأين أنت من حديث حدثناه أبو عاصم عن ابن جريج عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الاربعة وطعام الاربعة يكفي الثمانية وهو إسناد صحيح ومتن صحيح متفق عليه قال أبو عمرو والله لقد أفحمني ولم يحضرني جواب فلما خرجنا فارقني من جانب

وقالو أنو شروان أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح البخل في الملوك والكذب في القضاة والحسد في العلماء والوقاحة في النساء ويقال من جسر أيسر ومن هاب خاب قال الشاعر

لا تكونن في الأمور هيوبا ... فالى خيبة يصير الهيوب

وقال علي رضي الله عنه إذا هبت أمرا فقع فيه فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه وقال رضي الله عنه الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا وإذا افترقوا نفعوا فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم قال يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه والخباز إلى مخبزه وقال بعض السلف لا تسبوا الغوغاء فانهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق وقال الأحنف ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا وقال حكيم لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل فان الجهل لا يدفعه إلا الجهل أراد السفه قال الشاعر

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل الجاهل من لا جاهل له أي من لا سفيه له يدفع عنه وقيل بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذا جاء أعرابي فلطمه فقام إليه واقد بن عمرو فجلد به الأرض فقال عمر ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه وقال الشاعر

ولا يلبث الجاهل أن يتهضموا ... أخا الحلم مالم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح اذا كنت بين الجهل والحلم قاعدا ... وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن إذا انصفت من ليس منصفا ... ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس وذي ضغن أميت القول عنه ... بحلم فاستمر على المقال

(وقال آخر) ومن يحلم وليس له سفيه ... يلاق المعضلات من الرجال

فان كنت محتاجا الى الحلم انني ... الى الجهل في بعض الاحايين أحوج

ولي فرس للخير بالخير ملجم ... ولي فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمي فاني مقوم ... ومن رام تعويجي فاني معوج

(وقال آخر) فان قيل حلم قلت للحلم موضع ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

اللهم انا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثالث والثلاثون في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد ﴾

(اعلم) ان الجود بذل المال وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه وقد ندب الله تعالى اليه في قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قيل ان الجود والسخاء والايثار بمعنى واحد وقيل من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب ايثار وأصل السخاء هو السماحة وقد يكون المعطي بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لا يستصعب العطاء (فمن الايثار ما حكي) عن حذيفة العدوي أنه قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعي شيء من الماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت أسقيك فأشار الي أن نعم فاذا برجل يقول آه فأشار الي ابن عمي

الطريق إلى الجانب الآخر بعد ان كان يمشي ورائي وسمعته يقول ومن ظن ممن يلاقي الحروب ... بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

(ومن المنقول عن أذكياء المتلصصين) (١٥٦) أن بعض التجار قال احتال علي رجل بحوالة فكان يأتيني كل يوم ويأخذ قدر نفقته الى ان نفدت وصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندي وكان يراني أخرج من صندوق لي فأعطيه فقال لي يوما ان قفل الرجل صاحبه في سفره وأمينه في حضره وخليفته على حفظ ماله وان لم يكن وثيقا تطرقت الحيل اليه وأرى قفلك هذا وثيقا وقل لي ممن ابتعته لأبتاع مثله لنفسي فقلت من فلان الاقفالي قال فما شعرت يوما وقد جئت الى دكاني وتقدمت الى الصندوق لأخرج منه شيئا من الدراهم ففتحته فاذا ليس فيه شيء فقلت لغلامي وهو عندي أمين غير متهم هل أنكرت شيئا من أحوال الدكان قال لا فقلت ففتش هل ترى نقبا أم في السقف حيلة قال لا فقلت فاعلم ان الذي كان في الصندوق قد ذهب فقلق الغلام فأسكتته وقمت مفكرا وتأخر الرجل عني فتيقظت له وذكرت سؤاله عن القفل وقلت للغلام أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله فقال أحمل الدراريب دفعتين وثلاثة حتى أضعها في محلها وهكذا أصنع في غلقها قلت فمن تدع عند الدكان اذا نقلت الدراريب قال اتركه خاليا قلت فمن ههنا ذهبت فمضيت الى الصانع ابتعت منه القفل فقلت جاءك انسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل قال نعم رجل من

صفته كذا وكذا واعطاني صفة صاحبي فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء ودخل الدكان واختبأ فيها ومعه مفتاح القفل وأخذ المال ومكث طول الليل إلى الصباح فلما فتح الغلام (١٥٧) وحمل الدراريب ليضعها في محلها خرج

وانه مافعل ذلك الاوقد خرج من المدينة فخرجت من البصرة ومعي قفلي ومفتاحي فقلت أبتدىء بواسط فلما صعدت طلبت خانا أنزله فلما دخلت وجدت قفلا مثل قفلي باب بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله قال رجل قدم أمس من البصرة فقلت ما صفته فوصف لي صاحبي فما شككت أنه هو وأن الدراهم في بيته فاكتريت بيتا إلى جانبه ورصدته حتى انصرف قيم الخان ففتحت القفل ودخلت البيت فوجدت كيسي بعينه فأخذته وخرجت ووضعت قفله على بابه ونزلت على الفور في السفينة وانحدرت إلى البصرة ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار فرجعت إلى منزلي بمالي كله (ومن المنقول عن أذكياء الصبيان) أنه وقف اياس بن معاوية وهو صبي على قاضي دمشق ومعه شيخ فقال أصلح الله القاضي هذا الشيخ ظلمني وأكل مالي فقال القاضي وارفق بالشيخ ولا تستقبله بمثل هذا الكلام فقال إياس أن الحق أكبر مني ومنك قال اسكت قال وان سكت فمن يقوم بحجتي قال فتكلم فوالله لاتتكلم بخير فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له فبلغ ذلك الخليفة فعزل القاضي وولى اياسا (ومن المنقول عن أذكياء النساء)

عمي أن انطلق اليه واسقه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فأشار إلى أن نعم فسمع آخر يقول آه فأشار إلى أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قدمات فرجعت إلى هشام فاذا هو قدمات فرجعت إلى ابن عمي فاذا هو قد مات (ومن عجائب ما ذكر في حكاة الايثار) بو محمد الازدي قال لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به مافيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال والله ما كنت أبالي لولا أمي وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له في رقعتي الجلد وليس لي أم فخذ أنت رقعتي واعطني رقعتك ففعل فقتل ذلك الفتى وتخلص من هذا الرجل ٭ وقيل لقيس بن سعد هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له انه نزل بنا ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل فقال اني لا اطعم ضيفاني البائت فبقينا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا اليه ومضينا فلما ارتفع النهار وإذا رجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن قرانا ثم انه لحقنا وقال خذوها والا طعنتكم برمحي هذا فأخذناها وانصرفنا ٭ وقال بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه وقال رسول الله ﷺ تجاوزوا عن ذنب السخي فان الله أخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا وعنه ﷺ أنه قال السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار والجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل وقال بعض السلف منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين وقال الفضيل ماكانوا يعدون القرض معروفا وقال اكثم بن صيفي صاحب المعروف لايقع وإن وقع وجد له متكأ وقيل للحسن بن سهل لاخير في السرف فقال لاسرف في الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل نفسك هم مالم يأتك واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك جامع لبعل حليلته وقال علي رضي الله تعالى ماجمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك قال النعمان بن المنذر يوما لجلسائه من أفضل الناس عيشا وأنعمهم بالا وأكرمهم طباعا في النفوس قدرا فسكت القوم فقام فتى فقال أبيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس في فضله فقال ٭ صدقت وكان اسماء بن خارجة يقول ماأحب أن أرد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه أو لئيما أصون عنه غرضي وكان مورق العجلي يتلطف في ادخال السرور والرفق على أخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول امسكها حتى أعود اليك ثم يرسل يقول له أنت منها في حل وقال الحسن رضي الله عنه باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضا بسبعمائة الف درهم فلما جاءه المال قال أن رجلا يبيت هذا عنده لايدري مايطرقه لغرير بالله تعالى ثم اقسمه في المسلمين ٭ ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها يا أم المؤمنين اصابتني فاقة فقالت ماعندي شيء فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد

فأرسلت بها إليه فى أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة وهم محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر وأكرم العرب فى الإسلام طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه جاء اليه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائطى بمكان كذا وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إلى بالمال العشية فان شئت فالمال وإن شئت فالحائط وقال زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف فى مجلس وانه ليخيط ازاره بيده (وذكر) الامام أبو على القالى فى كتاب الامالى أن رجلا جاء إلى معاوية رضى الله تعالى عنه فقال له سألتك بالرحم التى بينى وبينك الا ما قضيت حاجتى فقال له معاوية أمن قريش أنت قال لا قال فأى رحم بينى وبينك قال رحم آدم عليه السلام قال رحم مجفوة والله لأكونن أول من وصلها ثم قضى حاجته (وروى) أن الاشعث بن قيس أرسل إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدورا كانت لأبيه حاتم فملأها مالا وبعث بها إليه وقال أنا لانعيرها فارغة وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكى من الاجواد ولم يناول أحدا شيئا وانما كان يطرحه فى الأرض فيتناوله الآخذ من الأرض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من أن نرى من أجلها يدا فوق يد أخرى وقد قال النبى ﷺ اليد العليا خير من اليد السفلى وسأل معاوية الحسن بن على رضى الله تعالى عنهم عن الكرم فقال هو التبرع بالمعروف قبل السؤال والرأفة بالسائل مع البذل وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال له يا هذا أعنا على الدهر فقال لغلامه ما بقى معك من النفقة فادفعه إليه فصب فى حجره أربعة آلاف درهم فهم ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك فقال لا والله لكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكانى * وقال بعضهم قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته فقال على دين كذا وكذا فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه ثم دخل الدار باكيا فقالت زوجته هلا تعللت حيث شقت عليك الإجابة فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى أن سألنى * ويروى أن عبد الله بن أبى بكر وكان من أجود الأجواد عطش يوما فى طريقه فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت له كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فانى امرأة عزب مات زوجى منذ أيام فشرب عبد الله الماء وقال يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم فقالت سبحان الله أتسخر بى فقال يا غلام احمل إليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفا فما أمست حتى كثر خطابها وكان رضى الله تعالى عنه ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه وأربعين عن يساره وأربعين أمامه وأربعين خلفه ويبعث إليهم بالأضاحى والكسوة فى الأعياد ويعتق فى كل عيد مائة مملوك رضى الله تعالى عنه * ولما مرض قيس ابن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه فى العيادة فسأل عنهم فقيل له انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع عنى الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا ينادى من كان لقيس عنده مال فهو منه فى حل فكسرت عتبة بابه بالعشى لكثرة العواد * وكان عبد الله ابن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم فى كل سنة فيفرقها فى الناس ولا يرى إلا وعليه دين * وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها فمر بعبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه فقال يا صاحب البهيمة أتبيعها فقال ولكنها هى لك هبة ثم تركها له وانصرف إلى بيته فلم يلبث إلا يسيرا وإذا بالحمالين على بابه عشرين

عفرا

حكى المدائنى قال خرج ابن زياد فى فوارس ولقوا رجلا ومعه جارية لم ير مثلها فى الحسن فصاحوا به خل عنها وكان معه قوس فرمى أحدهم فهابوا الاقدام عليه فعاد ليرمى فانقطع الوتر فهجموا عليه وأخذوا الجارية فهرب واشتغلوا عنه بالجارية ومد بعضهم يده إلى أذنها وفيها قرط وفى القرط درة يتيمة لها قيمة عظيمة فقالت وما قدر هذه الدرة انكم لو رأيتم مافى قلنسوته من الدر لاستحقرتم هذه فتركوها واتبعوه وقالوا له ألق مافى قلنسوتك وكان فيها وتر قد أعده فنسيه من الدهش فلما ذكره ركبه فى القوس ورجع إلى القوم فولى القوم هاربين وخلوا الجارية (وحكى ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء) نبذة عن الحيوان الذى كان بذكائه يشبه ذكاء الآدميين * فمن ذلك أن بعض الكتاب مر بمقبرة فاذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب أن يعلم خبره فليمض إلى قرية كذا وكذا فان فيها من يخبره فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقيل له ما يعلم ذلك إلا شيخ هنا قد جاوز المائة فسأله فقال كان هنا ملك عظيم الشأن وكان يحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوما إلى بعض منتزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاؤا با... الى الطباخ ونسى أن يغطيه بشىء واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشقوق أفعى فكرعت فى ذلك اللبن ومجته فى الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها

إلى الأفعى وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ماصنعت الأفعى ووافى الملك من الصيد فى آخر النهار فقال ياغلمان ادركونى بالثريدة فلما وضعت بين يديه أومأت الخرساء فلم يفهم ماتقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت اليه ولج فى الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عنى ومد يده إلى اللبن بعد مارمى إلى الكلب ما أن يرمى فلم يلتفت الكلب إلى شىء من ذلك ولم يلتفت إلى غير الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن فى فيه وثب إلى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع فى اللبن فسقط ميتا وتناثر لحمه وبقى الملك متعجبا من الكلب وفعله فأومأت الخرساء اليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب فقال الملك لحاشيته هذا الكلب فدانى بنفسه وقد وجب أن أكافئه وما يحمله ويدفنه غيرى فدفنه وبنى عليه القبة التى رأيتها (قلت) قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الأذكياء لابن الجوزى مختلفة الأنواع وقد تعين أن نورد له هنا نبذة لطيفة من كتاب الحمقى والمغفلين لأنه قال فى ذلك الان النفس قد تمل من ملازمة الجد وترتاح إلى بعض المباح من اللهو كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال المنظلة ساعة وساعة * وعن على رضى الله عنه أنه قال روحوا القلوب بطرائف الحكم فانها تمل كما تمل الأبدان (وكان) رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم فاذا أكثروا وثقل عليه الحديث قال ان الاذن مجاجة وان القلوب حمضة هاتوا من أشعاركم

نفرا عشرة منهم يحملون حنطة وخمسة لحما وكسوة وأربعة يحملون فاكهة ونقلا وواحد يحمل مالا فأعطاه جميع ذلك واعتذر اليه رضى الله تعالى عنه * ولما مات معاوية رضى الله تعالى عنه وفد عبدالله ابن جعفر على يزيد ابنه فقال كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك فقال كان رحمه الله يعطينى ألف ألف فقال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف فقال بأبى وأمى أنت فقال ولهذه ألف ألف فقال أما إنى لا قولها لأحد بعدك فقيل ليزيد أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد فقال والله ماأعطيته إلا لجميع أهل المدينة ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر الى الدين * وخرج رضى الله تعالى عنه هو والحسنان وأبو دحية الأنصارى رضى الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة فأصابتهم السماء بمطر فلجؤا إلى خباء أعرابى فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء فذبح لهم الأعرابى شاة فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابى ان قدمت المدينة فسل عنا فاحتاج الأعرابى بعد سنين فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان فقال قد نسيت أسماءهم فقالت سل عن ابن الطيار فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن رضى الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ثم أتى الحسين رضى الله تعالى عنه فقال كفانا أبو محمد مؤونة الابل فأمر له بألف شاة ثم أتى عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه فقال كفانى إخوانى الابل والشاة فأمر له بمائة ألف درهم ثم أتى أبا دحية رضى الله تعالى عنه فقال والله ماعندى مثل ماأعطوك ولكن ائتنى بابلك فأوقرها لك تمرا فلم يزل اليسار فى عقب الأعرابى من ذلك اليوم * وقال الحسن والحسين يوما لعبدالله بن جعفر رضى الله عنهم أنك قد أسرفت فى بذل المال فقال بأبى أنتما ان الله عزوجل عودنى أن يتفضل على وعودته أن أتفضل على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع على المادة وامتدحه نصيب فأمر له بخيل وأثاث ودنانير ودراهم فقال له رجل مثل هذا الأسود تعطى له هذا المال فقال ان كان أسود فان ثناءه أبيض ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل أعطيناه إلا ثيابا تبلى ومالا يفنى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى وخرج عبد الله رضى الله عنه يوما إلى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم وفيه غلام أسود يقوم عليه فأتى بقوته ثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى اليه بقرص فأكله ثم رمى بالثانى والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر اليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم قال مارأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال أرضنا ما هى بأرض كلاب وأنه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أرده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى هذا فقال عبدالله بن جعفر ألام على السخاء وان هذا الأسخى منى فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات فقال الغلام أن كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى فاستعظم عبد الله ذلك منه فقال يجود هذا وأبخل أنا لا كان ذلك أبدا وكان عبيد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما من الأجواد أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال ياابن عباس ان لى عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره فلم يعرفه فقال ما يدك قال رأيتك واقفا بفناء زمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائى حتى شربت فقال أجل انى لأذكر ذلك ثم قال لغلامه ماعندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم فقال ادفعها اليه وما أراد نفى بحق يده * وقدم عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما على معاوية مرة فأهدى اليه من هدايا النوروز حللا كثيرة

وحديثكم (وقال) أبو الدرداء رضى الله عنه انى لاستجم نفسى بشىء من الباطل كراهة أن أحملها من الحق مايملها (وعن)
ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يحدث أصحابه ساعة ثم يقول حمضونا فيأخذ فى أحاديث العرب وأشعارهم

ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها إليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها فقال له هل فى نفسك منها شىء قال نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما الصلاة والسلام فضحك عبد الله وقال خذها فهى لك قال جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد على قال فاختمها بخاتمك وسلمها إلى الخازن فاذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلا فقال الحاجب والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم * وحبس معاوية عن الحسين ابن على رضى الله تعالى عنهما صلاته فقيل لو وجهت إلى ابن عمك عبدالله بن عباس فانه قدم بنحو ألف ألف فقال الحسين وأين تقع ألف ألف من عبد الله فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه وقال ويلك يامعاوية أصبحت لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكوا ضيق الحال وكثرة العيال ثم قال لوكيله أحمل إلى الحسين نصف ماأملكه من ذهب وفضة ودواب وأخبره إنى شاطرته فان كفاه وإلا أحمل إليه النصف الثانى فلما أتاه الرسول قال إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمى وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين وجاء رجل من الأنصارى إلى عبدالله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال يا ابن عم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ولد لى فى هذه الليلة مولود وإنى سميته باسمك تبركا بك وأن أمه ماتت فقال له بارك الله لك فى الهبة وآجرك على المصيبة ثم دعا بوكيله وقال له انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع لأبيه مائتى دينار لينفقها على تربيته ثم قال للأنصارى عد الينا بعد أيام فانك جئتنا وفى العيش يبس وفى المال قلة فقال الأنصارى جعلت فداءك لو سبقت حاتما بيوم ماذكرته العرب وقال أبو جهم بن حذيفة يوما لمعاوية عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن كلال

يقينا ما نخاف وان ظننا به خيرا أراناه يقينا نميل على جوانبه كأنا
إذا ملنا نميل على أبينا نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرما ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم وأنشده عبدالله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما

بلوت الناس قرنا بعد قرن فلم أر غير ختال وقال ولم أر فى الخطوب أشد وقعا
وأمضى من معادات الرجال وذقت مرارة الأشياء طرا فما شىء أمر من السؤال

فأعطاه مائة ألف درهم ودخل عليه الحسن يوما وهو مضطجع على سريره فسلم عليه واقعده عند رجليه وقال له ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تزعم أنى لست للخلافة أهلا ولا لها مرضعا فقال الحسن أو عجبا مما قالت قال كل العجب قال الحسن وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجليك فاستحيا معاوية واستوى جالسا ثم أقسمت عليك يا أبا محمد الا ما أخبرتنى كم عليك دينار قال مائة ألف درهم فقال ياغلام اعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم مائة ألف يقضى بها دينه ومائة ألف يفرقها على مواليه ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها اليه الساعة وكان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملا على العراق بالبصرة قيل أنه أتى اليه بعض الشعراء فأقام ببابه يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك فقال يوما لبعض الخدم إذا دخل الأمير البستان فعرفنى فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن

جالسا

ومثله عن الزهرى ومالك ابن دينار (وكان) شعبة يحدث فاذا رأى أبا زيد قال له انه أبا زيد

استعجمت دار نعم وما تكلمنا
والدار كلمتنا ذات أخبار

(ووصف) رجل عند ابن عائشة فقيل هو جد كله فقال ابن عائشة لقد أعان على نفسه وقصر لها طول المدى ولو فكهها بالانتقال من حال إلى حال نفس عنها ضيق العقد ورجع إلى الجد بنشاط (وقال) الرشيد النوادر تشحذ الاذهان وتفتق الآذان (وقال آخر) لاتعجب الملح الا ذكران الرجال ولا يكرهها الا مؤنثوهم وقال الشاعر

أروح القلب ببعض الهزل
تجاهلا منى بغير جهل
أمزح فيه مزح أهل الفضل
والمزح أحيانا جلاء العقل

(قال ابن الجوزى فى كتاب الحمقى) أن الأحنف بن قيس قال إذا رأيتم الرجل طويل القامة عظيم اللحية فاحكموا عليه بالحمق * وقال معاوية لرجل كفى أن نشهد عليك بالحمق مانراه من طول لحيتك * وقال آخر وتلطف ماشاء من طالت لحيته تكوسج عقله * وقال أصحاب الفراسة من طالت قامته وطالت لحيته وجبت تعزيته فى عقله * وقالوا إذا كان الرجل طويلا طويل

جالسا على القناة فلما رأى الخشبة اخذها وقرأها فاذا فيها بيت مفرد

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي ... فليس إلى معن سواك شفيع

فقال من الرجل صاحب هذه فأتى به إليه فقال كيف قلت فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه فأتى به إليه فقال له كيف قلت فأنشده البيت فأمرله بعشر بدر فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه فأتى به إليه كيف له قلت فانشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وتفكر فى نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن لقد ساء والله ظنه ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله

إذا حال حل لم تجب فى دياره ... من المال الا ذكره وجمائله

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت قائله

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله

فلو لم يكن فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

(ومن قول معن)

دعيني أنهب الاموال حتى ... أعف الاكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من اجواد الاسخياء وله أخبار فى الجود عجيبة * من ذلك ما حكاه عقيل ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته فقلت أيها الامير إن رأيت ان لى فأصحبك قال قدمت واسط فاتتنا ان شاء الله تعالى فسافر وأقت فقال لى بعض اخوانى اذهب إليه فقلت كان جوابه فيه ضعيف قالوا أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان فى الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى فالتفت إلى يزيد وقال ايه ياعقيل فقلت

أفاض القوم فى ذكر الجوارى ... فأما الاعربون فلن يقولوا

قال انك لم تبق عزبا فلما رجعت إلى منزلى إذا أنا بخادم قد أتانى ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم وفى الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليالى وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأنيت فان رأيت أن تأذن لى فى الرجوع فاكبت عدوى وأسر صديقى فقال انما أخيرك بين خلتين اما أن تقيم فنوليك أو ترحل فننفيك فقلت أولم أيها الأمير قال انما هذا تفتنى أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالى من فضله مالا أقدر على وصفه (وحدث) أبو اليقظان عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا فحلق رأسه فجاؤه بحلاق لحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ الخمسة الآلاف وأمضى إلى أم فلان أخبرها أنى قد استغنيت فقال أعطوه خمسة آلاف أخرى فقال امرأته طالق ان حلقت رأس أحد بعدك وقيل ان الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقدار مائة ألف درهم فجمعت له وهو فى السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لى عليه فقال انه فى مكان لا يمكن

اللحية وأضيف إلى ذلك أن يكون صغير الرأس فاحكم عليه بالحق (وقال زياد) مازادت لحية الرجل على قبضة الاكان ذلك نقصانا من عقله وقال الشاعر

إذا عرضت للفتى لحية ... وطالت وصارت إلى سرته

فقد ضاق عقل الفتى عندنا ... بمقدار مازاد من لحيته

(وقال ابن الرومى)

ان تطل لحيته عليك وتعرض ... فالمخالى مخلوقة للحمير

علق الله فى عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير

(وقال بعضهم) صارم الأحمق فليس له خير من الهجران * وقيل مكتوب فى التوراة من اصطنع إلى أحمق معروفا فهى خطيئة مكتوب عليه وقال سفيان الثورى هجران الأحمق قربة إلى الله تعالى (فمن ضرب المثل بحمقه وتغفله) هنبقة واسمه يزيد وكان قد جعل فى عنقه قلادة من عظام وودع وقال أخشى ان أضيع من نفسى ففعلت ذلك لأعرفها فحولت أمه القلادة إلى عنق أخيه فلما أصبح ورآها قال يا أخى أنا أنت وأنت أنا وضل له بعير فجعل يقول من وجده فهو له فقيل له فلم تنشده قال * قال الحلاوة الظفر (واختصمت) بنو طفاوة وبنو راسب فى رجل ادعى كل من الفريقين انه منهم فقال هنبقة حكمه أن يلقى فى الماء فان طفا فهو من طفاوة وان رسب فهو راسب فقال ان كان الحكم هكذا فقد زهدت فى الطائفتين (ومنهم أبو غيشان) رجل

من خزاعة كان يلي سدانة البيت فاجتمع مع قصي بن كلاب بالطائف على الشراب فلما سكر اشترى منه قصي ولاية سدانة البيت بزق من خمر وأخذ منه مفاتيحه (١٦٢) وسار بها إلى مكة وقال يا قريش هذه مفاتيح أبيكم إبراهيم ردها

الله عليكم من غير غدر ولا ظلم وأفاق أبو غبشان فندم غاية الندم فقيل أحمق من أبي غبشان وقال شاعرهم

باعت خزاعة بيت الله عن خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت عن المقام وظل البيت والنادي

(ومنهم ربيعة البكاء) سمي البكاء لأنه دخل على أمه وهي تحت زوجها فبكى وصاح أتقتل أمي فقال أهون مقتول أم تحت زوج فذهبت مثلا (ومنهم حمزة ابن بيض) قال يوما لغلامه أي يوم صلينا الجمعة بالرصافة فافتكر الغلام ساعة ثم قال يوم الثلاثاء (ومنهم حجى) قال بعضهم كان من أذكياء الناس وإنما كان بينه وبين قوم عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان وقيل كان من كبار الحمقى والمغفلين (قيل) أنه دخل الحمام وخرج منه فضربته ريح باردة فمس خصيتيه فاذا إحداهما قد تقلصت فرجع إلى الحمام وجعل يفتش الناس فقالوا له مالك فقال سرقت

الدخول عليه فيه فقال الفرزدق إنما أتيت متوجعا لما هو فيه ولم آت ممتدحا فأذن له فلما أبصره قال أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد فما قطرت بالمشرق بعدك قطرة ولا اخضر بالمروين بعدك عود وما السرور بعد عزك بهجة وما لجواد بعد جودك جود فقال يزيد للحاجب ادفع اليه المائة الف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ثم دفعها اليه فأخذها وانصرف مر يزيد المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا فقال لابنه ما معك من النفقة قال مائة دينار قال ادفعها اليها فقال هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك قال إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفا وخمسين ثوبا ورواحل كثيرة فقلت أبياتا في شكره فلما بلغت قولي

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد • فقد خفت أن أطغى وأن أتجبر

فقال والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي وأمر له بضياع تقول بألف ألف وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم اتفقوا على أن أحمد ابن أبي داود أسخى منهم جميعا وأفضل وسئل اسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد وفي يحيى يقول القائل

سألت الندى هل أنت حر فقال لا • ولكن عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة • توارثني من والد بعد والد

(وفي الفضل يقول القائل)

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة • رأيت بها غيث السماحة ينبت
فليس بسمال إذا سيل حاجة • ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت

وفي محمد يقول القائل:

سألت الندى والجود مالي أراكما • تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما • فقالا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما بعد موته • وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزى بفقده • مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه من كانت له إلى حاجة فيرفعها إلي في كتاب لأصون وجهه عن المسألة وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي فقال يا أمير المؤمنين ان لي اليك حاجة الحياء يمنعني أن أذكرها فقال خطها في الأرض فكتب إني فقير فقال يا قنبر اكسه حلة فقال الأعرابي

كسوتني حلة تبلى محاسنها • فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان نلت حسن الثناء قد نلت مكرمة • وليس تبغي بما قدمته بدلا
ان الثنا ليحيي ذكر صاحبه • كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به • كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال قنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم فقال رضي الله تعالى عنه صه يا قنبر فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ولعبد الله بن جدعان

إني وإن لم ينل مالي مداخلتي • ووهاب ما ملكت كفي من المال

بيضتي ثم أنه دخل الحمام وهي فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكرا لله وقال كل شيء لا تسرقه اليد لا يفقد (واشترى) يوما دقيقا وحمله على حمال فلما دخل الحمال في الزحام هرب فرآه حجى بعد أيام فاستتر منه لئلا

يطالبه بالأجرة (وكان) لهم جارية تسمى عميرة فضربتها ذات يوم أمه فصاحت الجارية فاجتمع الناس على الباب فخرج إليهم فقال مالكم عافاكم الله انما هى تجلد عميرة (ومنهم ابن الجصاص) قيل انه كان يقصد (١٦٣) التباله خيفه من الوزير ابن الفرات (فمن المنقول من حمقه) انه كان يوما مع الوزير فى مركب ومعه بطيخة فأراد أن يعطيها للوزير ويبصق فى البحر فبصق فى وجه الوزير ورمى البطيخة فى البحر هذا هو المنقول عما ظهر عنه من التباله والا فقد روى عنه أنه قال لما ولى ابن الفرات الوزارة قصدنى قصدا قبيحا وأنفذ العمال إلى ضياعى وبسط لسانه بثلبى ونقصنى فى مجلسه فدخلت يوما داره فسمعت حاجبه وقد وليت يقول هذا بيت مال يمشى على وجه الأرض ليس له من يأخذه فقلت هذا من كلام صاحبه وقد كان عندى فى ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينا سوى الجواهر والذخائر وغير ذلك فسهرت فى ليلتى أفكر فى أمرى معه فوقع فى نفسى فى الثلث الأخير من الليل ان ركبت إلى داره على الفور فوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها فقال البواب من هذا قلت ابن الجصاص فقال ليس هذا وقت وصول والوزير نائم فقلت عرف الحجاب انى حضرت فى مهم فعرفهم فخرج إلى أحدهم وقال إنه فى هذا الوقت لا ينتبه فقلت الأمر أهم من ذلك فأيقظه وعرفه عنى ما قلت لك فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلنى فارتاع لدخولى وظن أنى جئته برسالة من الخليفة أو حدثت حادثة وهو موقع لما أورده عليه فنظر إلى

لا أحبس المال إلا حيث أنفقه   ولا يغيرنى حال إلى حال

وقال بعض العرب لولده يابنى لا تزهدن فى معروف فان الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوبا إليه وطالب مطلوبا مالديه وكن كما قال القائل

وعد من الرحمن فضلا ونعمة   عليه إذا ماجاءه للخير طالب
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبا   فانك لا تدرى متى أنت راغب

(وقال بعضهم)

أبيت خميص البطن عريان طاويا   وأوثر بالزاد الرفيق على نفسى
وأمنحه فرشى وافترش الثرى   وأجعل ستر الليل من دونه لبسى
حذرا أحاديث المحافل فى غد   إذا ضمنى يوما إلى صدره رمسى

وقال يحيى البرمكى أعط من الدنيا وهى مقبلة فان ذلك لا ينقصك منها شيئا واعط منها وهى مدبرة فان منعت لا يبقى عليها منها شيئا فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا وقد أمر يحيى من نظمه فقال

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة   فليس ينقصها التبذير والسرف
فان تولت فأحرى أن تجود بها   فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر يابنى مادام فلك يرعد فامطره معروفا وقال بعضهم

لا تنكرى فى الجود لائمتى   وإذا بخلت فأكثرى لومى
كفى فلست بحامل أبدا   ماعشت غد إلى يوم

وقال رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه لا تستح من عطاء القليل فالحرمان أقل منه * وسئل إسحق الموصلى عن المخلوع فقال كان أمره كله عجبا كان لا يبالى أين يقعد مع جلسائه وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر كان عنده سليمان بن أبى جعفر يوما فأراد الرجوع إلى أهله فقال له سفر البر أحب إليك أم سفر البحر قال البحر ألين على فقال أوقروا له زورقه ذهبا وامر له بألف ألف درهم * وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال قد هجانى ياأمير المؤمنين فاستحضره سليمان وقال لا أم لك أتهجو سعيدا قال ياأمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيدا فقلت انى أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتى دينار وقد أتيتك فقال لى بورك فيك فقال سليمان ليس هذا موضع بورك فيك قال فأتيت أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالى فقال ياجارية هاتى مطرفا فأتته بمطرف خز فصر لى فى كل زاوية مائتى دينار فخرجت وأنا أقول

أبا خالد أعنى سعيد بن خالد * أخا العرف لا أعنى ابن بنت سعيد * ولكننى أعنى ابن عائشة الذى أبو أبويه خالد بن أسيد * عقيد الندى ماعاش يرضى به الندى * فان مات لم يرض الندى بعقيد

ذروه ذروه انكم قد رقدتم   وما هو عن احسانكم برقود

فقال سليمان قل ماشئت * وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم   تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته   فكل ماسد فقرا فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعله * وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضا بثمانين

وقال ما الذي جاء بك في هذا الوقت خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئته إلا في أمر يخصني ويخص
الوزير ولم تصلح مفاوضته إلا على خلوة فسكن روعه وقال لمن حوله انصرفوا فمضوا فقال هات فقلت أيها

ألفا فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا فقال بل أجعله ذخرا لي واجعل الله ذخرا لولدي وقسمه بين ذوي الحاجات وكان ابن مالك القشيري من الأجواد قيل إنه نهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به ... وخذ نصيبك منه إني مودي
فلن أطيعك إلا أن تخلدني ... فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي
الحمد لا يشترى إلا بمكرمة ... ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعاله ونزل بأبي البختري وهب بن وهب القرشي ضيفا فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة وفعلوا به كل جميل فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم فقالوا نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت فيه

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة ... تتبع دائها أقصى فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لا تقولي غلام ولكن قولي همام يا غلام أعطها خمسمائة فقالت أيها الأمير اجعلها نعما فجعلها إبلا إناثا وقال أبو الفياض الطبري

والعز ضيف لا يراه بربعه ... من لا يرى بذل التلاد تلادا
والجود أعلى كعب كعب قبلنا ... فقضى جوادا يوم مات جوادا

وقال آخر

أيقنت أن من السماح شجاعة ... وعلمت أن من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم عملت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينهم يواقيت وجواهر أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وسألته أن يقف عليه وينظر إليه فكسل ذلك اليوم عن رؤيته قال أحمد بن حمدون فقال لي ولأترجة الهاشمي اذهبا فانظرا إليه وكان معنا الحاجب فمضينا ورأيناه والله ما رأينا في الدنيا شيئا أحسن منه ولا شيئا حسنا إلا وقد عمل فيه فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته في كمي ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأيناه فقال أترجة يا أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئا وغمزه على كمي فأريته الغزال فقال بحياتي عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما فمضينا فملأنا أكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا نمشي كالحبالى فلما رآنا ضحك فقال بقية الجلساء ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين فقال قوموا فخذوا ما شئتم ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك ونظر يزيد المهلبي سطلا من ذهب مملوءا مسكا فأخذه بيده وخرج فقال له المستعين إلى أين فقال إلى الحمام يا أمير المؤمنين فضحك من قوله وأمر الفراشين والخدم أن ينهبوا الباقي فنهبوه فوجهت إليه أمه تقول سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار فقال يحمل إليه مثل ذلك حتى تعيد مثله ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله بالأول ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوما فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشرا من الإبل ففعل قال ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة قال هي لك فقال

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده ... إن الندى ما مات طلحة ماتا
إن الندى لقي إليك رحاله ... فبحيث بت من المنازل باتا

الوزير إنك قصدتني بأقبح قصد وشرعت في هلاكي وإزالة نعمتي وفي إزالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض وقد جعلت هذا الكلام غدرا بيني وبينك فإن نزلت تحت حكمي في الصلح وإلا قصدت الخليفة في هذه الساعة وحولت إليه ألف ألف دينار وأنت تعلم قدرتي عليها وأقول له خذ هذا المال وسلم إلي ابن الفرات وأسلمك لمن أختاره للوزارة ويقع في نفسي أنه يجيب إلى تقليده بمن له وجه القبول ولسان عذب وخط حسن ولا أعتمد إلا على بعض كتابك فإنه لا يفرق بينك وبينه إذا رأى المال حاضرا فيسلمك في الحال إليه ويفرغ عليك العذاب بحضوري ويأخذ منك المال المعين وأنت تعلم أن حالك تفي بها ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال إلي وأكون أهلكت عدوي وشفيت غيظي وزاد علي بتقليدي وزيرا فلما سمع هذا الكلام سقط في يده وقال يا عدو الله أو تستحل ذلك فقلت بل عدو الله من استحل مني هذا فقال وما
تريد فقلت تحلف الساعة بما أستحلفك من الأيمان المغلظة أن تكون معي لا علي في صغير أمري وكبيره ولا
تنقص لي رسما ولا تضع مني بل تبالغ في رفعتي ولا تبطن علي فقال وتحلف أنت أيضا لي بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة
وقدم

المال فليكن ماجرى بيننا مطويا فقلت سبحان الله فقال إذا كان غدا فسر إلى المجلس فترى ماأعاملك به فقمت فأمر الغلمان أن يسيروا في خدمتي بأجمعهم إلى داري ولما أصبحت جئته فبالغ في الاكرام والتعظيم وامر بانشاء الكتب إلى النواحي باعزازي وكلائي وحماية أملاكي فشكرته وقت فأمر الغلمان أيضا بالمشي بين يدي والحجاب والناس يتعجبون من ذلك ولم يعلم أحد ماالسبب وما حدثت بهذا الحديث الا بعد القبض عليه (وذكر ابن الجوزي في الباب السابع من كتاب الحمق والمغفلين) ان جماعة من العقلاء صدر عنهم افعال الحمق وأصروا على ذلك مستصوبين لها فصاروا بذلك الاصرار حمقى ومغفلين (فأول القول ابليس لعنه الله تعالى) فانه صوب نفسه وخطأ حكمة الله تعالى ورمى عن قوس الاعتراض في عدم السجود لآدم عليه السلام ثم قال انظرني إلى يوم يبعثون فصارت لذته في ايقاع

وقدم زياد الأعجم على عبدالله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه وأنعم عليه وبعث إليه بألف دينار

أن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال زدني فقال كل شيء وثمنه ٠ ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله وأحسن إليه وقال ماعندك ياأبا عطاء فقال وماعسى أن أقول وأنت أشعر العرب غير اني قلت بيتين قال هات ماقلت فقال

ياطالب الجود أما كنت تطلبه ... فاطلب على بابه نصر بن سيار
الواهب الخيل تعدو في أعنتها ... مع القيان وفيها ألف دينار

فأعطاه ألف دينار ووصائف وكساه كسوة جميلة فقسم ذلك بين رفيقه ولم يأخذ منه شيئا فبلغ ذلك نصراً فقال ياله قاتله الله سيدما أضخم قدره ثم أمر له بمثله ٠ وقال العتبي أشرف عمرو بن هبيرة يوما من قصره فاذاهو أعرابي قل قلوصه فقال عمرو أردت الأمير فدخل به اليه فلما مثل بين يديه قال له ماحاجتك فأنشد الاعرابي يقول

أصلحك الله قل مابيدي ... ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهري على كلكله ... فأرسلوني اليك وانتظروا

فأخذت عمرا الأريحية فجعل يهتز في مجلسه ثم قال أرسلوك إلي وانتظروا اذن والله لاتجلس حتى ترجع اليهم ثم أمر له بألف دينار ٠ وقيل أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف فراجعه الخازن في ذلك فقال انفذه فما بقي إلا انفاذه وان خروج المال أحب إلي من الاعتذار فاستكثره الخازن فقال إذا أراد الله بعبد خيرا صرف القلم عن مجرى ارادة كاتبه إلى ارادته وأنا أردت شيئا وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه فكانت ارادة الله الغالبة وأمره النافذه ووقف اعرابي على ابن عامر فقال ياقمر البصرة شمس الحجاز ويا ابن ذروة العرب وابن بطحاء مكة برحت بي الحاجة وأكدت بي الآمال إلا بفنائك فامنحني بقدر الطاقة لابقدر الجدو الشرف والهمة فأمر له بمائتي ألف درهم وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل ... أأترك إن قلت دراهم خالد ... زيارته اني إذا للئيم فقال أوقلت دراهم خالد احملوا اليه مائة ألف درهم فبعثها خالد بن يحيي إلى عمارة بن عقيل وقال هذه قطرة من سحابك ٠ ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ثم قال والله مابكائي جزعا من العزل ولا أسفا على الولاية ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لايعرف لها حقا ٠ وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات فقال يحيي بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته ماعندك من الأموال قال سبعمائة ألف درهم قال فاقبضها اليك يارجاء فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده وعنده منصور بن زياد فلما خرج رجاء قال يحيي لمنصور قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال له وانما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا اليه في وجهنا هذا فقال منصور أنا استخبر لك هذا فقال يحيي اذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده فلاتقل له شيئا فقد تركتها له وقيل ان الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفا ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ماذكر ٠ وعن الأخفش الصغير قال كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرا وأكثرهم أدبا وأفصحهم لسانا وأثبتهم

العاصي في الذنب كأنه يغيظ ونسي عقابه الدائم فلاحمق كحمقه ولاغفلة كغفلته ولله در القائل في إبليس عجب من ابليس في غفلته وخبث ما أظهر من نيته ٠ تاه على آدم في سجدة ٠ وصار قوادا لذريته (الثاني فرعون) في دعواه الربوبية

وافتخاره بقوله أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي فافتخر بساقية لاهو أجراها ولايعرف مبدأها ولامنتهاها ونسي أمثالها مما ليس تحت قدرته وليس (١٦٦) في الحق أعظم من ادعائه الإلهية وقد ضربت الحكماء بذلك مثلا فقالوا دخل إبليس على فرعون فقال له من أنت قال إبليس قال ماجاء بك قال جئت متعجبا من جنونك قال كيف قال أنا عاديت مخلوقا مثلي فامتنعت من السجود له فطردت ولعنت وأنت تدعي أنك إله هذا والله هو الحمق والجنون البارد (ومن عجيب الحمق والتغفل) اتخاذ الأصنام باليد والاقبال على عبادتها والإله ينبغي أن يفعل ولايفعل (وكذلك) نمروذ في بنائه الصرح ثم رميه بنشابة يريد أن يقتل إله السموات والأرض (وكذلك) بنو إسرائيل حين جاوزوا البحر وقد أنجاهم الله تعالى من تلك الأهوال واستنقذهم من فرعون قالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة (وكذلك) قول النصارى أن عيسى إله وابن إله ثم يقرون أن اليهود صلبوه وهذا غاية البله والغفلة (وكذلك) الرافضة يعلمون اقرار علي ببيعة أبي بكر وعمر واستيلاده الحنفية من سبي أبي بكر وتزويجه أم كلثوم ابنته من عمر وكل ذلك دليل على رضاه ببيعتهما ثم في الرافضة من يسبهما وفيهم من يكفرهما وكل ذلك يطالبون به حب علي بزعمهم وقد تركوا حبهم وراء ظهورهم (وقد روي) لم عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاءني رجل فقال اني حلفت بالطلاق ان لا أكلم في هذا اليوم من هو أحمق وكلم رافضيا أو نصرانيا

جنانا فطال عمره ونكبه دهره فخرج عشية يتنقل لاهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال ماأصارك يا عم إلى ما أرى فقال بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسئلة الناس فقال والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له لقد غرك كلام غلام في جنح ليل قال فكأنما ألقمت فاه حجرا وبات متململا بين رجاء ويأس فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال فقال ما هذا قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشطره فأنشأ يقول :

رآني على مابي عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي فواسى وما هجر
ولما رآني المجد استعبرت ثيابه ... تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام حباه الله بالحسن يافعا ... له سيمياء لاتشق على البصر
كأن الثريا علقت في جبينه ... وفي أنفه الشعرى وفي جيده القمر

وكان عمر بن عبيدالله بن معمر التميمي من الأجواد قيل انه كان لرجل جارية يهواها فاحتاج إلى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل فلما قبض ثمنها أنشأت تقول

هنيئا لك المال الذي قد قبضته ... ولم يبق في كفي غير التحسر
أبوء بحزن من فراقك موجع ... أناجي به صدرا طويل التفكر

فأجابها بقوله : ولولا قعود الدهر عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل الا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر قد شئت وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف * ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال ولقد قدمت على رجال طالما ... قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزمان عليهم فكأنما ... كانوا بأرض أقفرت فتحولوا
فقال أبو الشمقمق الجود أفلسهم وأذهب مالهم ... فاليوم ان راموا السماحة يبخلوا

فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه وكتب ذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة فوقع إلى عامله باسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة واسقاط ماعليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته * وقال أبو العيناء حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوما على يحي بن أكثم القاضي فقال ان أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك في الحضور قلت نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوق كلها تجب
ان لم يكن لي أسباب أعيش بها ... ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال ياسلامة انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين فقال بقية من مال قال ادفع له منها مائة ألف درهم وابعث له بمثلها في كل شهر فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال ياأبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول

شيآن لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة وكان راتبه فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة وكان الموكل بصدقته سليم الخادم فقال له سليم يوما أيها الأمير انى أطوف القبائل وأدق الأبواب لصدقاتك وان اليد تمتد إلى وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب أفأعطى أم أرد قال فأطرق طويلا ثم قال كل يد امتدت إليك فلا تردها * وقال سلمة بن عباس فى جعفر بن سليمان

وما شم أنفى ريح كف شممتها من الناس إلا ريح كفك أطيب

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر * وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادا مضيافا فتغدى عنده اعرابى يوما فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس فى الدخول على هيئتهم الامس فقال أو كل يوم يطعم الأمير الناس قالوا نعم فأنشأ يقول

كل يوم كأنه عيد أضحى عند عبد العزيز أو عيد فطر

وله ألف جفنة مترعات كل قدر يمدها ألف قدر

و تعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعدا فقال له سعيد ألك حاجة وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى فذكر ان أباه مات وخلف دينا وعيالا وسأله ان يكتب له كتابا إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض اصلاح حاله فدفع اليه عشرة آلاف دينار وقال له لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم * ودخل رجل على على بن سليمان الوزير فقال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم الا ما أجرتنى من خصمى فقال ومن خصمك حتى أجيرك منه فقال الفقر فاطرق الوزير ساعة وقال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف فبينما هو فى الطريق إذ أمر الوزير برده إليه فلما رجع قال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنفا فارجع إلينا متظلما وقال الأعمش كانت عندى شاة فرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتى لبدا أجلس عليه فكان إذا خرج يقول خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلى من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرأ (وحكى) أبو قدامة القشيرى قال كنا مع يزيد بن مزيد يوما فسمع صائحا يقول يا يزيد بن مزيد فطلبه فأتى به إليه فقال ما حملك على هذا الصياح قال نفقت دابتى ونفدت نفقتى وسمعت قول الشاعر

إذا قيل من للجود والمجد والندى فنادى بصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمائة دينار وخلعة سنية فأخذها وانصرف (وحكى) أن قوما من العرب جاؤا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى وكان الميت قد خلف نجيبا وكان للرائى بعير سمين فقال نعم وباعه فى النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير فنحره فى النوم فانتبه الرائى من نومه فوجد الدم يسيح من نحر بعيره فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان بن فلان

عنه فانه قال عنه صلى الله عليه وسلم انه قال عن أبى بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما (ومن المنقول عن حمق النساء) أن الامين لما حوصر قال لجاريته غنى فغنت

أبكى فراقهم عينى فأرقها ان التفرق للأحباء نكباء

فقال لعنك الله أما تعرفين غيرهذا فغنت

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء فى فلك الا لينتقل السلطان من ملك غيب تحت الثرى إلى ملك

فقال لها قومى فقامت فعثرت بقدح بلور فكسرته فقال قاتل قضى الامر الذى فيه تستفتيان ولما قتله المأمون دخل على زبيده ليعزيها به فقالت ان اردت ان تسليني فتغد عندى فتغدى عندها فأخرجت له من جوارى الأمين من تغنيه فغنت

هم قتلوه كى يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فوثب المأمون مغضبا فقالت له زبيدة أحرمنى الله أجره إن كنت دسسته إليها أو لقنتها فصدقها وانصرف (ومن ذلك) أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره أدخل الناس عليه فاستاذن بن اسحق بن إبراهيم فى الإنشاد فأذن له فأنشد

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعرى ما الذى اباك فتطير المعتصم وجميع من حضر المجلس وتعجبوا كيف يصدر من مثل اسحق هذا التغفل المفروط ولم (١٦٨) يجتمع بعدذلك بالدار اثنان (ومن لطائف المنقول عن الحمق والمغفلين) أن عيسى بن صالح تولى قنسرين والعواصم للرشيد وكان من الحمق على جانب عظيم قال بعضهم أتانى رسوله بالمل فأمرنى بالحضور فتوهمت أن كتابا جاءه من أمير المؤمنين فى مهم احتاج فيه إلى حضور مثلى فركبت إلى داره فلما دخلت سألت الحجاب هل ورد كتابا من الخليفة أو حدث أمر فقالوا لا فامضيت إلى الخدم فسألتهم فقالوا مثل مقالة الحجاب فصرت إلى المواضع الذى هو فيه فقال لى ادخل ليس عندى أحد فدخلت فدجدته على فراشه فقال اعلم أنى سهرت الليلة مفكراً فى أمر إلى ساعة هذه فقلت وما هو الأمر أصلح الله الأمير قال اشتهيت أن يصيرنى الله حورية فى الجنة ويجعل زوجى يوسف الصديق فطال لذلك فكرى فقلت له هلا اشتهيت محمداً صلى الله عليه وسلم أن يكون زوجك فانه سيد الأنبياء عليهم السلام فقال لا تظن إنى لم أفكر فى هذا قد فكرت فيه ولكنى كرهت أن أغيظ عائشة رضى الله عنها

فقال هل بعت من فلان الميت شيئاً قال نعم بعته بعيرى بنجيبة فى النوم فقال هذا نجيبه فخذه وأنا ولده وقد رأيته فى النوم وهو يقول ان كنت ولدى فادفع نجيبى إلى فلان فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف كرم أضيافه بعد موته (وروى) عن الهيثم بن عدى أنه قال تمارى ثلاثة نفر فى الاجواد فقال رجل أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله بن جعفر فقال الآخر اسخى الناس قيس بن سعد بن عباده فقال الآخر اسخى الناس اليوم عرابة الأوسى فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجل لقد أفرطتم فى الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود فنحكم على العيار فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله فى ركان راحلته يريد ضيعة له فقال الرجل يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به قال فاخرج رجله وقال ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما فى الحقيبة وكان فيها مطارف خز وأربعة دينار ومضى صاحب قيس فوجده نائما فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن سبيل ومنقطع به فقالت الجارية حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس اليوم غيرها وامض الى معاطن الابل فخذ رحلة من رواحله وما يصلحها وعبداً وامض لشأنك قيل ان قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها ولو لم تعلم ان ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء

وإذا ما اختبرت ود صديق فاخبر وده من الغلمان

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى وقال أواه أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ولا تركت له الحقوق مالا ولكن خذ هذين العبدين فقال الرجل والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك فقال ان أخذتها أولا فهما حران لوجه الله تعالى فان شئت فخذ وإن شئت فاعتق وأخذ الرجل العبدين ومضى ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهده * قيل أن الشاعر قصد خالد بن يزيد فأنشده شعراً يقول فيه

سألت الندى والجود حران أنتما فقالا يقينا اننا لعبيد
فقالت ومن مولاكما فتطاولا إلى وقالا خالد ويزيد

فقال ياغلام اعطه مائة الف درهم وقل له أن زدناك فأنشد يقول

كريم كريم الامهات مهذب تدفق يمناه الندى وشمائله
هو البحر من أى الجهات أتيته فلجته المعروف والجود ساحله
جواد بسيط الكف حتى لونه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

فقال ياغلام اعطه مائة الف درهم وقل له أن زدتنا زدناك فأنشد يقول

تبرعت لى بالجود حتى نعشتنى واعطيتنى حتى حسبتك تلعب
وأنبت ريشا فى الجناحين بعدما تساقط منى الريش أوكاد يذهب
فانت الندى وابن الندى واخو الندى حليف الندى ماللندى عنك مذهب

فقال ياغلام اعطه مائة الف درهم وقل له أن زدتنا زدناك فقال حسب الأمير ما سمع وحسبى ما أخذت وانصرف (وأما الذين ينتهى اليهم الجود فى الجاهلية) فهم حاتم بن عبد الله الطائى وهرم ابن سنان وخالد بن عبد الله وكعب بن مامة الايادى وضرب المثل بحاتم أشهرهما * فأما كعب

(ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الأعراب) قيل صلى اعرابى خلف بعض الائمة فى الصف الأول وكان اسم الاعرابى مجرما فقرأ الإمام والمرسلات عرفا فلما بلغ إلى قوله تعالى ألم نهلك الأولين

ناخر الأعرابى إلى الصف الاخير فقال تتبعهم الآخرين فرجع إلى الصف الاوسط فقال كذلك نفعل بالمجرمين فولى هاربا
وهو يقول والله ما المطلوب غيرى (ومثله) صلى أعرابى خلف امام الصبح فقرأ الامام

كعب فجاد بنفسه وآثر رفيقه بالماء فى المفازة ومات عطشا وليس له خبر معروف ، وأماخالدبن عبيد الله فانه جاء اليه بعض الشعراء.وورجله فى الركاب يريد الغزو فقال له انى قلت فيك بيتين من الشعر فقال فى مثل هذا الحال قال نعم فقال هاتهما فأنشده يقول :

يا واحد العرب الذي ما فى الانام له نظير لو كان مثلك آخره ماكان فى الدنيا فقير

فقال ياغلام أعطه عشرين الف دينارا فأخذها وانصرف وأما حاتم فأخباره كثيرة وآثاره فى الجهود شهيرة ويكنى أباسفانة وأباعدى وكان يسير فى قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة وكان ولده عدى يعادى النبى ﷺ فبعث النبى ﷺ عليا إلى طيء فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله ﷺ فلما أتى بها إلى النبى ﷺ قالت يامحمد هلك الوالد وغاب الرافد فان رأيت أن تخلى عنها ولا تشمت بى أحياء العرب فان أبى كان سيدقومه يفك العانى ويقتل الجانى ويحفظ الجار ويحمى الزمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشى السلام ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبا أنا بنت حاتم الطائى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم ياجارية هذه صفات المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق وقال فيها ارحموا عزيزا ذل وغنيا افتقر وعالما ضاع بين جهال فأطلقها ومن عليها فاستأذنته فى الدعاء فأذن لها وقال لأصحابه اسمعوا وعوا فقالت أصاب الله ببرك مواقعه ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ولاسلب نعمة عن كريم قوم الا وجعلك سببا فى ردها عليه فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها فأتت أخاها عديا وهو بدومة الجندل فقالت له يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله فانى قد رأيت هديا ورأيا سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالا تعجبنى رأيته يحب الفقير ويفك الاسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير ما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ وانى أرى أن تلحق به فان يك نبيا فللسابق فضله وان يك ملكا فلن يزل عن عز اليمن فقدم عدى الى النبى ﷺ فالقى له وسادة محشوة ليفا وجلس النبى ﷺ على الارض فأسلم عدى بن حاتم وأسلمت اخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب وكان أبوها يعطيها الضريبة من ابله فتهبها وتعطيها للناس فقال لها أبوها يابنية الكريمين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه فاماان أعطى وتمسكى وأما أن أمسك وتعطى فانه لا يبقى على هذا شيء فقالت له منك تعلمت مكارم الاخلاق قال ابن الاعرابى كان حاتم الطائى من شعراء الجاهلية وكان جوادا يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله وكان حيثما نزل عرف منزله وكان مظفرا إذا قاتل غلب وإذاسئل وهب وإذا سابق سبق وإذا أسرأطلق وكان إذا أهل رجب الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية نحر كل يوم عشرا من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا اليه وكان قد تزوج مارية بنت عفير وكانت تلومه على أتلاف المال فلا يلتفت لقولها وكان لها ابن عم يقال له مالك فقال لها يوما ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالا ليتلفنه وان لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك فقالت مارية صدقت انه كذلك وكانت النساء يطلقن الرجال فى الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن فى بيوت من شعر فان كان باب البيت من جهة المشرق حولته إلى المغرب وان كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق وان كان من قبل اليمن حولته إلى الشام وإن كان من قبل الشام حولته إلى اليمن فاذا رأى الرجل ذلك علم انها طلقته فلم يأتها ثم قال لها ابن عمها طلقى حاتما وأنا أتزوجك وأناخير لك منه وأكثرمالاوأنا أمسك

فامر باخراجه فقام على الباب يبكى فأخبره سيف الدولة ببكائه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكى قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملى بكيت فقال سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النسل يكون له فى ذلك النظر وكم كنت أملت قال خمسمائة درهم فأمره بألف درهم فأخذها وانصرف (ومن المنقول عن المغفلين على الاطلاق قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فاذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست اليهم وهم ينتقصون من على بن أبى طالب رضى الله عنه فقمت من عندهم مغضبا فرأيت شيخا جميلا يصلى فظننت به الخير فجلست اليه فقلت له ياعبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون على بن أبى طالب ويصنفون وهوزوج فاطمة الزهراء وابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال لى ياعبد الله لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج

مات الخليفة ايها الثقلان ۞ فقالوا هذا شعر الناس فانه نعى الخليفة الى الانس والجن فى نصف بيت ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم اليه فقال ۞ فكأننى افطرت فى رمضان ۞ قال فضحك

الناس وصار شهرة فى الحق (ومثله) أن سيف الدولة بن حمدان انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشده فدخل معهم رجل شامى (١٧٠) فأنشدوه وكانوا كفار وسوسوا خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسقفا فأمر باخراجه فقام على الباب يبكى فأخبر سيف الدولة ببكائه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكى قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملى بكيت فقال سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النسل يكون له ذلك النظم وكم كنت أملت قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف (ومن المنقول عن المغفلين على الاطلاق) قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فاذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست إليهم وهم ينقصون من على بن أبى طالب رضى الله عنه فقمت من عندهم مغضبا فرأيت شيخا جميلا يصلى فظننت به الخير فجلست إليه فقلت له يا عبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون على بن أبى طالب وينقصونه وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم سيدنا محمد ﷺ فقال لى يا عبد الله لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج ابن يوسف وجعل يبكى فقمت من عنده وحلفت لا أقيم بها (ومن ذلك) أن رجلا سأل بعضهم وكان من الحمق على جانب عظيم فقال أيما أفضل عندك معاوية أو عيسى بن مريم فقال ما رأيت سائلا أجهل منك

عليك ولدك فلم تزل بها حتى طلقته فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء فقال حاتم لولده يا عدى ما ترى بما فعلت أمك فقال قد رأيت ذلك قال فأخذ ابنه وهبط بطن واد فنزل فيه فجاءه قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون وكانت عدتهم خمسين فارسا فضاقت بهم ماوية ذرعا وقالت لجاريتها اذهبى إلى ابن عمى مالك وقولى له ان أضيافا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلا فارسل إلينا بشئ نقريهم وابن نسقيهم وقالت لها انظرى إلى جبينه وفمه فان شافهك بالمعروف فاقبلى منه وإن ضرب بلحيته على زوره ولطم رأسه فاقبلى ودعيه فلما أتته وجدته متوسدا وطبا من لبن فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له انما هى الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته وقال اقرئيها السلام وقولى لها هذا الذى أمرتك أن تطلقى حاتما لأجله وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها فقالت لها اذهبى إلى حاتم وقولى له أن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فارسل إلينا بناقة نقريهم وابن نسقيهم فأتت الجارية حاتما فصاحت به فقال لبيك قريبا دعوت فأخبرته بما جاء بسببه فقال لها حبا وكرامة ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقالها وصاح بهما حتى أتيا الخباء ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماية تصيح هذا الذى طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شئ فقال ويحك يا ماوية الذى خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء وأمر غلمانه بنار فيوقدونها فى بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلا فيقصدها ولم يكن حاتم يمسك شيئا ما عدا فرسه وسلاحه فانه كان لا يجود بهما ثم جاد بفرسه فى سنة مجدبة (حكى) ان ملكا ابن أخى ماوية قال قلت لها يا عمة حدثينى ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه فقالت يا ابن أخى أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف وقد أخذنى وإياه الجوع وأسهرنا فأخذت سفانا وأخذ عديا وجعلنا نعللهما حتى ناما فأقبل على يحدثنى ويعللنى بالحديث حتى أنام فرققت به لما به من الجوع فأمسكت عن كلامه لينام فقال لى أنمت فلم أجبه فسكت ونظر فى فناء الخباء فاذا شئ قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة فقال ما هذا فقالت يا أبا عدى أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعا فقال لها احضرى صبيانك فوالله لأشبعنهم فقامت سريعة لأولادها فرفعت رأسى وقلت له يا حاتم بماذا تشبع أطفالها فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل فقال والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها فلما جاءت المرأة نهض قائما وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ثم أجج نارا ودفع إليها شفرة وقال قطعى واشوى وكلى واطعمى صبيانك فأكلت المرأة وأطعمت صبيانها فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم فقال والله ان هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحى مثل حالكم ثم أتى الحى بيتا بيتا يقول لهم انهضوا عليكم بالنار فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر ولا والله ما ذاقها حاتم وأنه لأشدهم جوعا وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره

أماوى ان المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

وأغار قوم على طيء فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى فى جيشه وأهل عشيرته ولقى القوم فهزمهم وتبعهم فقال له كبيرهم يا حاتم هب لى رمحك فرمى به إليه فقيل لحاتم عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك فقال قد علمت ذلك ولكن ما جواب من يقول هب لى ولما مات عظم على طيء موته فادعى

آخره

ولا سمعت من قاس كاتب الوحي إلى نبي النصارى (ومن ذلك) أن لصا تسور روزنة وكان اللص مغفلا فنظر من خلال الروزنة فوجد رجلا وزوجته وهي تقول له يارجل من أين اكتسبت هذا المال العظيم (١٧١) فقال لها كنت لصا وكنت إذا تسورت روزنة بيت صبرت إلى أن يطلع القمر فاذا طلع اعتنقطت الضوء الذي في الروزنة وتدليت بلا حبل وقلت شولم شولم ونزلت فاخذ جميع ما في البيت ولا نبقى ذخيرة من ذخائر البيت الا ظهرت لي ثم أقول شولم شولم واصعد في الضوء ولا ينتبه أحد من أهل البيت واذهب بلا تعب ولا كلفة فسمع اللص ذلك فصبر الى ان طلع القمر ونام أهل البيت فتملق في ضوء الروزنة فوقع وتكسرت أضلاعه فقام اليه صاحب البيت وقبض عليه وأسلمه إلى صاحب الشرطة (ومنهم) من كان يسوق عشرة حمير فركب واحدا منها وعدها فاذا هي تسعة حمير فنزل وعدها فاذا هي عشرة فقال أمشي وأربح حمارا أخير من أن اركب واخسر حمارا فمشي حتى كاد يتلف إلى ان بلغ قريته (ومنهم) مات بعض أقاربه فقيل له لم لا تبعت جنازته فقال هذا الكلام ما يقوله عاقل أكون منسيا فاذكر بنفسي (ومن ذلك) أن بعض المغفلين سمع رجلا ينشد

وكان بنو عمي يقولون مرحبا ... فلما رأوني معدما مات مرحب

فقال كذب الشاعر مرحب قتله علي بن أبي طالب ولم يمت إلا قتيلا (ومنهم) من باع دارا وكان يؤذن بباب مسجد بالقرب منها أنسي وأنه باعها فصلى ورجع

أخوه أنه يخنقه فقالت له أمه هيهات شتان والله ما بين خلقتيكما صنعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلا من الجيران وكنت أنت ترضع ثديي ويدك على الآخر فأنى لك ذلك قال الشاعر

يعيش الندى ماعاش حاتم طيء ... وإن مات قامت للسخاء مآتم

وكانت العرب تسمي الكلب داعي الضمير ومتمم النعم وشيد الذكر لما يجلب من الاضياف بنباحه والضمير الغريب وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حول الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح فتهتدي الضلال وتأتي الاضياف على نباحها والحكايات في ذكر الاجواد والكرماء والاسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر في مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثلها فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانا لم نجد شيئا يبقى على ممر الدهر الا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقد قال الشاعر

ولا شيء يدوم فكن حديثا ... جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا اذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر نفسك في القيامة كما ادخروا واعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الرابع والثلاثون في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم)

قال الله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله الآية وقال رسول الله ﷺ إياكم والشح فان الشح أهلك من كان قبلكم وعنه ﷺ أنه قال البخل جامع لمساوي القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما ان البخل لو كان قميصا ما لبسته أو كان طريقا ما سلكته • وقيل بخلاء العرب أربعة الحطيئة وحميد الارقط وأبو الاسود الدؤلي وخالد بن صفوان • فأما الحطيئة فمر به انسان وهو على باب داره وبيده عصا فقال أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال لكعاب الضيفان أعددتها وأما حميد الارقط فكان هجاء للضيفان فحاشا عليهم نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرا وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه • وأما أبو الاسود فتصدق على سائل بتمرة فقال له جعله الله نصيبك من الجنة مثلها وكان يقول لو أطعمنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالا منهم • وأما خالد بن صفوان فكان يقول الدرهم إذا دخل عليه يا عيار كم تعيرون كم تطوف وتطير لأطيلن حبسك ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه وقيل له لم لا تنفق ومالك عريض فقال الدهر أعرض منه وأنشد بعضهم

وهبني جمعت المال ثم خزنته ... وحانت وفاتي هل أزاد به عمرا
إذا خزن المال البخيل فانه ... سيورثه غما ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل فقيل هو محموم فقال كلوا بين يديه حتى يعرق وكتب سهل بن هرون كتابا في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه وقال ابن أبي فنن

ذريني واتلافي المال فانني ... أحب من الاخلاق ما هو أجمل

اليها ودخل من الباب فصاحت النسوة وقلن له يارجل اتق الله فينا فقال اعذروني فاني ولدت في هذا الدار ولم أذكر البيع (ومنهم) من رأى جاريته تحت رجل يجامعها فقال (١٧٢) لها يا جارية ماحملك على هذا فقالت له يا مولاي حلفني بحياة راسك وأنت تعلم صدق محبتي لك فسكت

(ومنهم) من سمع أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة فصام الى الظهر وقال يكفيني ستة أشهر (ومنهم) من جاء إلى الجب ونظر فيه فرأى خيال وجهه فذهب إلى أمه وقال ياأمي في الجب لص فجاءت الام فتطلعت فيه فرأت خيال وجهها فقالت صدقت ومعه قحبة (ومنهم) من دعا فقال اللهم اغفر لي ولأمي ولأختي ولامرأتي فقيل له لم تركت ذكر أبيك قال لانه مات وأنا لم أدركه (وقال) رجل لرجل كم يوم في هذا الشهر فنظر وقال والله لست من أهل هذه المدينة (ومن ذلك) أن هشام ابن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدمه يتأخر فقال له هشام ماهذا قال ياسيدي فاره ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر (ومنهم) من قيل له عندك مال جزيل وليس لك إلا والدة عجوز وإن مت ورثتك فأفسدت مالك فقال انها لا ترثني قيل وكيف قال لان أبي طلقها قبل أن يموت

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الاسدي بخيلا جدا أصابه القولنج في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست فقال لغلامه اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به وكان المنصور شديد البخل جداً مر به السلم الحادي في طريقه الى الحج فحداله يوما بقول الشاعر

أغر بين الحاجبين نوره يزينه حياؤه وخيره ومسكه يشوبه كافوره إذا تغدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال ياربيع اعطه نصف درهم فقال مسلم نصف درهم ياأمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأمرلي بثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم ياربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فازلت أمشي بينهما وأرضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدوله في ذهابه وإيابه بغير مؤنة وكان أبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان مافرحت بشيء أشد بما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لي المهدي فوزنتها فرجحت درهما فاشتريت به لحما واشترى يوما لحما بدرهم فلما وضعه في القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادي على اللحم يقول هذا لحم مروان واجتاز يوما بأعرابية فأضافته فقال ان وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت درهما فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق * ومن الموصفين بالبخل أهل مرو يقال ان من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فاذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق وقيل لبخيل من اشجع الناس قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته وقيل لبعضهم أمايكسوك محمد بن يحيى فقال والله لوكان له بيت مملوء إبرا وجاء يعقوب ومعه الانبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعيرمنه أبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ماأعاره اياها فكيف يكسوني وقد نظم ذلك من قال

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت إبرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك ابرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

وكان المتنبي بخيلا جداً مدحه انسان بقصيدة فقال له كم أملت منا على مدحك قال عشرة دنانير قال له والله لوندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة مادفعت لك دانقا وقال دعبل كنا عند سهل بن هرون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع فقال ويلك ياغلام آتنا غداءنا فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال لغلامه وأين الرأس فقال رميته فقال والله إني لأكره من يرمي برجله فكيف برأسه ويحك أماعلمت أن الرأس رئيس الاعضاء ومنه يصيح الديك ولولاصوته ماأريد وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل فيقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم ترعظما أهش تحت الاسنان من عظم رأسه ويحك ظننت أني لاآكله أما قلت عنده من يأكله أنظر في أي مكان رميته فأتني به فقال والله لا أدري أين رميته فقال لكني أناأعرف أين رميته في بطنك الله حسبك وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس قال بعضهم في أبي دلف

أبو دلف يضيع ألف ألف ويضرب بالحسام على الرغيف

(ومنهم) من جاء اليه جماعة يسألونه في كفن لجار له مات فقال ماعندي الآن شيء ولكن عاودوني في وقت آخر قالوا أفنسلخه إلى أن يتيسر عندك شيء (ومنهم) من تقدم يصلي المغرب بجماعة فأطال القيام فلما فرغ من الصلاة سجعه أبو

أبو دلف لمطبخه قتار * ولكن دونه سل السيوف

واشتكى رجل مروزى صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال انه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجده يعصم فلما حضر غداؤه أمر به فرفع الى العشاء وقال لامرأته اطبخى هذه النخالة بين دواء وغداء فالحمد لله على هذه النعمة * وعن خاقان بن صبيح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة وقد علق فيها عودا بخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطا قال قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم تحفظه احتجنا الى غيره فلا نجد الا عودا عطشانا ونخشى أن يشرب الدهن فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية اذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل يافلان لقد فررت من شىء ووقعت فيما هو شر منه أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الاشياء وينشفان هذا العود لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد فان الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف والعود أيضا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراسانى أرشدك ونفع بك فقد كنت فى ذلك من المسرفين * وقال الهيثم بن عدى نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراء فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى مااحتاج اليه ثم رجع وكتب اليه

ياأيها الخارج من بيته * وهاربا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له * فارجع وكن ضيفا على الضيف

واشترى رجل من البخلاء دارا وانتقل اليها فوقف ببابه سائل فقال لها ما أكثر السؤال فى هذا المكان قالت ياأبت مادمت مستمسكا لهم بهذه الكلمة فما تبالى كثروا أم قلوا * والام اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذى يقال له هجاء الأضياف وهو القائل فى ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت * وبين أخرى تليها قيد اظفور
(وقال فيه أيضا) تجهز كفاه ويحدر حلقه * إلى الزور ماضمت عليه الأنامل

وأكل أعرابى مع أبى الأسود رطبا فأكثر ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابى اليها فسقطت منه فى التراب فأخذها أبو الأسود وقال لا أدعها للشيطان يأكلها فقال الأعرابى والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء تاركها وقال أعرابى انزيل نزل به نزلت بواد غير عطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدونى

رأيت أبا زرارة قال يوما * لحاجبه وفى يده الحسام
لئن وضع الخوان ولاح شخص * لاختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أبيك فذاك شيخ * بغيض ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق اليه * بيت لم يرد فيه القيام
أبى وأبناء أبى والكلب عندى * بمنزلة إذا حضر الطعام
وقال له أبن لى ياابن كلب * على خبرى أصادر أو أضام
فاذا حضر الطعام فلا حقوق * على لوالدى ولا ذمام

سجدتى السهو ولم يكن سها فقيل نحن أنكرنا عليك طول القراءة فما الجواب عن سجدتى السهو ولم تكن سهوت فقال ذكرت انى صليت بكم على غير وضوء فسجدت للسهو (ومن ذلك) أن عبدا كان بين اثنين فى الشركة فجعل أحدهما يضربه فلامه شريكه فقال إنما ضربت حصتى (ومنهم) من قيل كيف صنعتم فى رمضان فقال اجتمعنا ثلاثين فأنفذناه فى يوم واحد واسترحنا منه (قال الاصمعى) خرج جماعة من بنى غفار ومعهم رجل مغفل فأصابتهم ريح فى البحر أيسوا معها من الحياة فأعتق كل واحد منهم مملوكا أو مملوكة فقال ذلك الرجل اللهم إنك تعلم أنى ليس لى مملوك ولا مملوكة ولكن امرأتى طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم (وقال ابن الجوزى فى آخر كتاب الحمقى والمغفلين) ان المعلمين للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكسيرا لقلة العقل وابرز للحماقة (وقال) عدل عقل امرأة سبعين حائكا وعدل عقل حائك سبعين معلما وسبب قلة عقل المعلم أنه مع الصبيان بالنهار ومع النساء بالليل (وكان) يحيى بن أكثم لايقبل شهادة المعلم (وقيل) لصبى مالنا نراك كثير الحمق فقال لولم أكن كذلك لكنت ولد زنا (وقيل للمعلم مالك تضرب هذا الصبى ولم يذنب قال انما ضربته قبل ان يذنب لئلا يذنب وقال الجاحظ مررت بمعلم وهو يقرىء صبيا واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فقلت له ويحك قد ادخلت سورة فى سورة فقال نعم عافاك الله

فما في الأرض أقبح من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

فأين هذا من بخيل يرى في الجود عارا وإنما ... يرى المرء عارا أن يضن ويبخلا

إذ المرء أثرى ثم لم يرج نفعه ... صديق فلاقته المنية أولا

(وقال آخر) وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إليه ما حييت سبيل

أرى الناس إخوان الكريم وما أرى ... بخيلا له في العالمين خليل

وقالوا إذا سألت لئيما شيئا فعاجله ولا تدعه يفكر فإنه كلما فكر ازداد بعدا وقال ربعي الهمداني

جمعت صنوف المال من كل وجهه ... ومن نلتها الا يكف كريم

وإني لأرجو أن أموت وتنقضي ... حياتي وما عندي يد للئيم

(وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق)

ممن تعلمت هذا * أن لاتجود بشيء * أما مررت بعبد * لعبد حاتم طي

(ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم) فمن أهجى ماقيل فيهم بيت جرير في بني تغلب

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثل الأمثالا

(وله أيضا فيهم) قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم ... قالوا لأمهم بولي على النار

فتمنع البول شحا أن تجود به ... وما تبول لهم إلا بمقدار

والخبز كالعنبر الهندي عندهم ... والقمح خمسون أردبا بدينار

(فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر)

أبلج بين حاجبيه نوره ... إذا تغدى رفعت ستوره

(قال بعضهم في بخيل)

أتانا بخيل بخبز له ... كمثل الدراهم في رقته

إذا ما تنفس حول الخوان ... تطاير في البيت من خفته

(وقال آخر) تراهم خشية الأضياف خرسا ... يقيمون الصلاة بلا أذان

(وقال آخر) وقد بات عند بخيل

فبتنا كأنا بينهم أهل مأتم ... على ميت مستودع بطن ملحد

يحدث بعضنا بعضا بمصابه ... ويأمر بعضا بعضنا بالتجلد

(وقال آخر) وخيرة لاترى في الناس مثلهم ... إذا يكون لهم عيدٌ وإفطار

إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم ... وليس يبلغنا ما تطبخ النار

(وقال آخر وأجاد)

فصدق إيمانه إن قال مجتهدا ... لا والرغيف فذاك البر من قسمه

فإن هممت به فافتك بخبزته ... فإن موقعها من لحمه ودمه

قد كان يعجبني لو أن غيرته ... على جرادقه كانت على حرمه

(وقال آخر) ذهب الكرام فلا كرام ... وبقي والعضاريط اللئام

من لايقبل ولا ينيل ولا يشم له طعام

(وقال آخر) خليلي من كعب أعينا أخاكما ... على دهره إن الكريم معين

ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا كان أبوه يدخل شهرا في شهر فأنا أيضا أدخل سورة في سورة ولا آخذ شيئا ولا ابنه يتعلم شيئا انتهى ماتخيرته من كتاب الأذكياء والحمقى والمغفلين (ومما تخيرته من سلوان المطاع لابن ظفر) أن الوليد بن يزيد لما بلغه أن ابن عمه يزيد ابن الوليد ابن عبد الملك قد شرد عنه القلوب واستجاش عليه أهل اليمن ونازعه في ملكه احتجب عن سماره ودعا في بعض الليالي خادما فقال له انطلق متنكرا حتى تقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس فإذا رأيت كهلا رث الهيئة يمشي مشيا هوينا وهو مطرق فسلم عليه وقل له في أذنه أمير المؤمنين يدعوك فإن أسرع في الإجابة فائتني به وإن استراب فدعه واطلب غيره حتى تجد رجلا على الشرط الذي ذكرت لك فانطلق الخادم فأتاه برجل على الشرط فلما دخل الرجل على الوليد حياه بتحية الخلافة فأمر الوليد بالجلوس والدنو منه وصبر إلى أن ذهب روعه وسكن جأشه ثم أقبل عليه فقال له أتحسن المسامرة للخلفاء فقال نعم يا أمير المؤمنين فقال الوليد إن كنت تحسنها فأخبرنا ماهي فقال يا أمير المؤمنين المسامرة إخبار لمنصت وإنصات لخبر ومفاوضة فيما يعجب ويليق فقال له الوليد أحسنت لأزيدك امتحانا فقل أسمع لقولك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين ولكن المسامرة صنفان لاثالث لهما إذا أحدهما الأخبار بما يوافق خبر مسموعا والثاني الأخبار بما يوافق غرضا من أغراض صاحب المجلس وإني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين

إذا جئته فى حاجة سد بابه ... فلم تلقه إلا أنت كمين

(وقال آخر) له يومان يوم ندى ويوم ... يسل السيف فيه من القراب

فاما جوده فعلى الخباب ... وأما سيفه فعلى الكلاب

(وقال آخر) زففت إلى نبهان من صفو فكرتى ... عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا

فقبلها عشرا وهام بحبها ... فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

(وقال آخر) لو عبر البحر بأمواجه ... فى ليلة مظلمة بارده

وكفه مملوءة خردلا ... ما سقطت من كفه واحده

(وقال آخر) يا قائما فى داره قاعدا ... من غير معنى لا ولا فائده

قد مات أضيافك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائده

(وقال آخر) تراك دونه شوك القتاد ... وخبزك كالثريا فى البعاد

فلو أبصرت ضيفا فى منام ... لحرمت الرقاد إلى المعاد

(وقال آخر) لا تعجبن لخبز زل من يده ... فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

(وقال ابن أبى حازم)

وقالوا قد مدحت فتى كريما ... فقلت وكيف لى بفتى كريم

بلوت ومر بى خمسون حولا ... وحسبك بالمجرب من عليم

فلا أحد يعد ليوم خير ... ولا أحد يجود على عديم

(ومن رؤساء أهل البخل) محمد بن الجهم وهو الذى قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطؤا على ذمى واستهلوا بهتمى حتى ينتشر ذلك فى الآفاق فلا يمتد إلى أمل آمل ولا يبسط نحوى رجاء راج وقال له أصحابه يوما انا نخشى ان نقعد عندك فوق مقدار شهوتك فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لنا لستنا فقال علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء *وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فاذا أنا برجل يخاصم جاره له فقلت ما بالكما فقال أحدهما ان صديقا لى زارنى فاشتهى رأسا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذى اشترى الرأس *قال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا لى لحما فاشتروه فأمر بطبخه فلما استوى اكله جميعه حتى لم يبق فى إلا عظمة وعيون أولاده ترمقه فقال ما أعطى أحدا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها فقال ولده الأكبر أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا قال لست بصاحبها فقال الأوسط ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدرى أحد لعام هى أم لعامين قال لست بصاحبها فقال الأصغر يا أبت أمصها أدقها وأسفها سفا قال أنت صاحبها وهى لك زادك الله معرفة وحزما * ووقف أعرابى على أبى الأسود وهو يتغذى فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه فقال له الاعرابى أما انى قد مررت بأهلك قال كذلك كان طريقك قال وامرأتك حبلى قال كذلك كان عهدى بها قال قد ولدت قال كان لا بد لها أن تلد قال ولدت غلامين قال كذلك كانت أمها قال مات أحدهما قال

طريقة. فامحو محوها والزم أسلوبها فقال الوليد صدقت وها نحن نقترح لك ما نقتفيه قد بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى فى طرق ملكنا فأثر سعيه وشق ذلك علينا فهل سمعت بذلك فقال الكمول نعم يا أمير المؤمنين فقال له الوليد قل الآن على حسب ما سمعت وعلى ما ترى من التدبير فقال يا أمير المؤمنين بلغنى ممن أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير وخرج بهم متوجها إلى مكة حرسها الله تعالى استصحب عمرو ابن سعيد ابن العاص وكان عمرو قد انطوى على فساد نية وخبث طوية وطماعية فى نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك الا أنه كان يحترمه ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو ابن سعيد فاستأذن أمير المؤمنين فى العود إلى دمشق فأذن له فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة قال فيها من الخليفة واستولى على دمشق ودعا الناس إلى خلع عبد الملك فأجابوه إلى ذلك وبايعوه وحصن بعد ذلك سور دمشق وحمى حوزتها فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير وبلغه مع ذلك ان والى حمص قد نزع يده من الطاعة وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف فأحضر وزراءه فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم دمشق ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحرث

ما كانت تقوى على ارضاع اثنين قال ثم مات الآخر قال ما كان ليبقى بعد موت أخيه قال وماتت الأم قال حزنا على ولديها قال ما أطيب طعامك قال لأجل ذلك أكلته وحدى ووالله لاذقته يا أعرابى .
وقيل خرج أعرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى فأقام بها مدة طويلة فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه أعرابى من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعا فسأله عن أهله وقال ما حال ابنى عمير قال على ما تحب قد ملأ الأرض والحى رجالا ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضا قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا إيقاع قال قد ملأ الحى نبحا قال فما حال جملى زريق قال على ما يسرك قال فالتفت إلى خادمه وقال ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الاعرابى ثم أقبل عليه يسأله وقال يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت قال سل عما بدا لك قال فما حال كلبى إيقاع قال مات قال وما الذى أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات قال أو مات جملى زريق قال نعم قال وما الذى أماته قال كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير قال أو ماتت أم عمير قال نعم قال وما الذى أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أو مات عمير قال نعم قال وما الذى أماته قال سقطت عليه الدار قال أو سقطت الدار على عمير قال فقام له بالمصاضار فولى من بين يديه هاربا (وحكى) بعضهم قال كنت فى سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتا فى الفلاة فأتيته فاذا به اعرابية فلما رأتنى قالت من تكون قلت ضيف قالت أهلا ومرحبا بالضيف انزل على الرحب والسعة قال فنزلت فقدمت لى طعاما فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال من هذا فقالت ضيف فقال لا أهلا ولا مرحبا ما لنا وللضيف فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتا فى الفلاة فقصدته فاذا فيه اعرابية فلما رأتنى قالت من تكون قلت ضيف قالت لا أهلا ولا مرحبا بالضيف ما لنا وللضيف فبينما هى تكلمنى إذ أقبل صاحب البيت فلما رآنى قال من هذا قالت ضيف قال مرحبا وأهلا بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بى بالأمس فتبسمت فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته فقال لا تعجب ان تلك الاعرابية التى رأيتها هى أختى وأن بعلها أخو امرأتى هذه فغلب على كل طبع أهله وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة وفيما ذكرته كفاية وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الخامس والثلاثون فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك ﴾

(أما اباحة الطيب من المطاعم) فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم إياه تعبدون وقال تعالى يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين وقال تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامه وقال رسول الله ﷺ محرم الحلال كمحرم الحرام وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب ان يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يقول ليس فى اتخاذ الطعام سرف وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص للزهد فقال ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتتقى الله ان الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف

عطفك

أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير وهذه الضربة بسيوفها نطالبنا بقتلى المرج فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم فقال لهم عبد الملك مالكم لا تنطقون هذا وقت الحاجة إليكم فقال أفضلهم وددت أن أكون طيرا على عود من أعواد تهامة حتى تنقضى هذه الفتن فلما سمع عبد الملك مقاله صاحبه قام وأمرهم بلزوم موضع وركب منفردا وأمر جماعة شجعانه أن يتبعوه متباعدين ففعلوا وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضيف البدن سيء الحال وهو يجمع سماقا فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديثه ثم قال له أيها الشيخ ألك علم بنزول هذا العسكر فقال الشيخ وما سؤالك عنه فقال عبد الملك انى أردت الانتظام فى سلكه فقال له انى أرى عليك سمة الرياسة فينبغى لك أن تصرف نفسك عن هذا الرأى فان الأمير الذى أنت قاصده قد انحلت عرا ملكه والسلطان فى اضطراب أموره كالبحر إذا هاج فقال عبد الملك أيها الشيخ قد قوى على جذب نفسى إلى صحبة هذا الامير فهل لك أن ترشدنى إلى رأى اتفق به عنده فلعله يكون سبب قربى منه فقال الشيخ ان هذه النازلة التى نزلت بهذا الامير من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول وانى لأكره ان ارد مسئلتك بالخيبة فقال له عبد الله قل جزاك الله خيرا فقال الشيخ ان هذا الخليفه خرج إلى قتال عدو . والارادة غير قابلة ارادة والدليل إلى ذلك ان الله تعالى لم يرد ما قصده من محاربة ابن الزبير وثوب

عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عن أظلمك وكيف إحسانك إلى من أساء اليك وكيف صبرك واحتمالك الأذى أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص

(وأما نعوت الأطعمة وماجاء فيها) فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال ياأمير المؤمنين لا أقضى على غائب فأحضرهما اليه فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال ياأمير المؤمنين كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته • واختلف الرشيد وأم جعفر فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد عن ذلك فقال ياأمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد أحكم قال قد اصطلح الخصمان ياأمير المؤمنين فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا دينارا وسمع الحسن البصرى رجلا يعيب الفالوذج فقال لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ماأظن عاقلا يعيبه وقال الأصمعى أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان وأتى أعرابى بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له هل تعرف هذا فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم وكان ﷺ يقول هو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة وهو يزيد فى السمع ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان ﷺ يحب الدباء ويقول ياعائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها الدباء فإنها تشد القلب الحزين وهى شجرة أخى يونس وعنه ﷺ أنه قال عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد فى الدماغ وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة وعن أبى رافع قال كان أبوهريرة رضى الله تعالى عنه يقول أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة وأطيب اللحم الكتف وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط معاوية ويصلى خلف على ويجلس وحده فسئل عن ذلك فقال طعام معاوية أدسم والصلاة خلف على أفضل وهو أعلم والجلوس وحدى لى أسلم وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون وقال الحسن بن سهل يوما على مائدة المأمون الأرز يزيد فى العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال ياأمير المؤمنين أن طب الهند صحيح وهم يقولون أن الأرز يرى منامات حسنة ومن رأى مناما حسنا كان فى نهارين فاستحسن قوله ووصله وقال أبو صفوان الارز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا وقيل لأبى الحرث ماتقول فى الفالوذجة قال وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن ولكن لقيه بعصا وكان العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية رضى الله تعالى عنه فاتخذ الألوان ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين وكان بعض المترفين يقول جنبوا مائدتى بنت نارين وقالوا كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد وقيل إذا ألقى اللحم فى العسل ثم أخرج بعد شهر طريا فإنه لايتغير ويقال للسكباج سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد ويقال إذا طبخت اللحم بالخل فقد القيت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم

فى حبة القلب منى   زرعت حب ابن حبه

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفعه أكرموا الخبز قالوا وما كرامته يارسول الله قال لاينتظر به

عمر بن سعيد على منبره واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته فإذا قصدت هذا الأمير وانتظمت فى سلكه أنظر فى أمره فإن رأيته قد أصر على قصده ابن الزبير فاعلم أنه مخذول فاجتنبه وأن رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الأول فارج له النصر والسلامة فقال عبد الملك ياشيخ وهل رجوعه إلى دمشق إلا كمسيره إلى ابن الزبير فقال الشيخ أن الذى أشكل عليك لواضح وها أنا أزيل عنك اللبس وهو أن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم لأن ابن الزبير لم يطعه طاعة قط ولا وثب له على مملكة فإذا قصد ابن سعيد كان فى صورة مظلوم لأنه نكث بيعته وخان أمانته ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله وعمرو عليها معتمده ومن الأمثال سمين الغصب مهزول وولى الغدر معزول وسأضرب لك مثلا يشفى النفس ويزيل اللبس زعموا أن ثعلبا كان يسمى ظالما وكان له جحر يأوى اليه وكان مغتبطا به فخرج يوما يبتغى ما يأكل ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها فلم تخرج فعلم إنها استوطنته وذلك أن الحية لا تتخذ جحرا بل إذا أعجبها جحرا اغتصبته وطردت من به من الحيوان ولهذا قيل فلان أظلم من حية فهذا ظالما ولما رأى ظالم أن الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى فانتهى به المسير إلى جحر حسن الظاهر حصين

في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين فأعجبه وسأل عنه فقالوا هذا الحجر يملكه ثعلب اسمه مفوض وأنه ورثه عن أبيه فناداه ظالم فخرج اليه ورحب به وأدخله إلى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية

الادام إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره وفى الحديث من داوم على اللحم أربعين يوما قسا قلبه ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه وقيل المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان ودخل ابن قرعة يوما على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعونى إلى الفوز بأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك منه فقال ما الذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبداً وعسلا اطيب من التمر الشحم سهل المقشر ألين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس فى الحلقوم ثم مد يده وأكل وسمع رجلا يذم الزيد فقال له ما الذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه وقيل له ما تقول فى الباذنجان قال أذناب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم قيل له أنه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح وصنع الحجاج وليمة احتفل فيها ثم قال لزاذان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فأقسم عليه فقال أولم عبد عند كسرى فأقام على رؤس الناس ألف وصيفة فى يد كل واحدة ابراق من ذهب فقال الحجاج أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب اليه إنى اخترت لعملها السكر السوسى والعسل الماردانى والزعفران الاصبهانى فأجاب والله العظيم ماعملت الا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحى ربك إلى النحل وقيل أن أباجهم بن عطية كان عينا لأبى مسلم الخولانى على المنصور فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوما حتى عطش فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله اياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك

تجنب سويق اللوز لا تقربنه ... فشرب اللوز أردى اباجهم

﴿ وقال أبو طالب المأمونى ﴾

فما حملت امرىء منطها ... ألذ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد يشبه أصابع النساء المنقوشة ودخل السائب على على رضى الله تعالى عنه فى يوم شاة فناوله قدحا فيه عسل وسمن ولبن فأباه فقال أما إنك لو شربته لم تزل دفئا شبعان سائر يومك وعن نافع بن أبى نعيم قال كان أبو طالب يعطى عليا قدحا من اللبن يصبه على اللات فكان على يشرب اللبن ويبول على اللات ﴿ وأما الزهد فى المآكل ﴾ فقد زهد فيه كثيرة من الاخيار مع القدرة عليه ومنهم من لا يقدر عليه قالت عائشة رضى الله تعالى عنها والذى بعث محمدا ﷺ بالحق ماكان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزا منخولا منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض قيل فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت كنا نقول أف أف وعن جابر رضى الله تعالى عنه رفعه نعم الادم الخل وكفى بالمرء شرفا يتسخط ماقرب اليه وقال عمر رضى الله تعالى عند مااجتمع عنه رسول الله ﷺ ادمان الا أكل أحدهما وتصدق بالآخر وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها ماكان يجتمع لونان فى لقمة فى فم رسول الله ﷺ أن كان لحما لم يكن خبزا وان كان خبزا لم يكن لحما وعن النبى ﷺ أنه قال ياعلى أبدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء وروى أن نبيا من الإنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب

فرق له مفوض وقال له الموت فى طلب النار خير من الحياة فى العار والرأى عندى أن تنطلق معى إلى مأواك الذى أخذ منك غصبا حتى أنظر اليه فلعلى أهتدى إلى مكيدة تخلص بها مأواك فانطلقا معا إلى ذلك الجحر فتأمله مفوض وقال لظالم اذهب معى فبت الليلة عندى لأنظر الليلتى هذه فيما يسنح من الرأى والمكيدة ففعلا ذلك وبات مفوض مفكرا وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته وطيب هوائه وحصانته ما اشتد به حرصه عليه وطفق يدبر فى حيلة اغتصابه ونفى مفوض عنه فلما أصبحا قال مفوض لظالم انى رأيت ذلك الجحر بعيد من الشجر والماء فاصرف نفسك عنه وهلم أعينك على احتفار جحر فى هذا المكان المشتهى فقال هذا غير ممكن لان لى نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة فى وطنه قال له انى أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبا ونربط منه حزمتين فاذا جاء الليل انطلقنا الى بعض هذه الخيام فأخذنا قبس نار واحتملنا الحطب والقبس إلى مسكنك فنحمل الحزمتين فى باب ونضرم النار فان خرجت الحية احترقت وان لزمت

مدح الفقراء ان شاء الله تعالى (وأما ماجاء فى آداب الاكل) فقد قال رسول الله ﷺ من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الاسماء بسم الله رب الارض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه وقال ﷺ من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ومن لبس ثوبا فقال الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ماتقدم من ذنبه . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها قال رسول الله ﷺ إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فان نسى فى أوراء فليقل بسم الله أوله وآخره وفى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله ﷺ إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وقال ﷺ الأكل فى السوق دناءة وعن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ زجر عن الشرب قائما قال فسألناه عن الاكل قائما فقال هو شر من الشرب وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال إذا أكلت فضم شفتيك ولا تلتفتن يمينا ولا شمالا ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة ولا تبصق فى الاماكن النظيفة ومن هذا مارواه الزهرى أن النبى ﷺ نهى عن النفخ فى الطعام والشراب وقال على رضى الله تعالى عنه نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارا وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ماعاب النبى ﷺ طعاما قط ان أشتهاه أكله والاتركه وقال عمرو بن هريرة عليكم بباكرة الغداء فان مباكرته تطيب النكهه وتعين على المروءة قيل وماإعانته على المروءة قال أن لا تتوق نفسك الى طعام غيرك وعن النبى ﷺ قال من أكل من سقط المائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده وولد ولده من الحمق وعنه ﷺ من لقط شيئا من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار وكان الحرث بن كلدة يقول إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة وقيل خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه وقال الحجاج لاعرابى يوما على سماطه ارفق بنفسك فقال وأنت ياحجاج اغضض من بصرك وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك فقال وانك تراعينى مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى لا أكلت لك طعاما أبدا ووضع معاوية بين يدى الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما دجاجة ففكها فقال معاوية هل بينك وبين أمها عداوة فقال الحسن فهل بينك وبين أمها قرابة أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما يوقر مجالس الملوك والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضى الله تعالى عنهما وحضر أعرابى على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدى مشوى فجعل الاعرابى يسرع فى أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد كان أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كان أمه أرضعتك (وأما ماجاء فى كثرة الأكل) فقد روى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه وعنه صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات وقال ﷺ مازين الله رجلا بزينة أفضل من عفاف بطنه وقال عمرو ابن عبيد مارأيت الحسن ضاحكا إلا مرة واحدة قال رجل من جلسائه ما آذانى طعام قط فقال آخر أنت لو كانت فى معدتك الحجارة لطحنتها وقال على كرم الله وجهه البطنة تذهب الفطنة وقال

الجحر قتلها الدخان فقال له ظالم هذا نعم الرأى فذهبا واحتطبا حزمتين ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظالم ثالثة الخيام فاخذ قبسا فعمد ظالم الى إحدى الحزمتين فأزالها الى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الاخرى الى باب مسكن مفوض فسدها سدا محكما وقنتر فى نفسه أو مفوضا إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول اليه لحصانته فاذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مارق وكان ظالم قد رأى فى منزل مفوض طعاما ادخره لنفسه فعول ظالم على أنه يقتات به إن حاصره مفوض وهو من داخل وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأى ثم ان مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب فظن أن ظالما قد حمل الحزمتين تخفيفا عنه وانه سبقه إلى مسكنه الذى فيه الحية اشفاقا على مفوض فشق ذلك عليه وظهر له من الرأى أن يبادر اليه ويلحقه ليحمل معه الحطب فوضع القبس بالقرب من الحطب ولم يشعر أن الباب مسدود به لشدة الظلمة فما بعد عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لحقا به فعاد وتأمل الباب فرأى الحطب قد صار نارا فعلم مكيدة ظالم ورآه قد احترق من داخل الجحر وحاق به مكره فقال هذا الباحث على حتفه بظلفه ثم أن مفوضا صبر حتى انطفأت النار فدخل جحره فأخرج جثة ظالم فألقاها واستوطن جحره آمنا فهذا المثل ضربته لك لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد فى بغيه ومخادعته عبد الملك وحيلته فى أخذ دار سلكه وتحصينها منه وهذا

كفل ظالم مع مفوض والله أعلم فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ فى ضرب أمثاله سر بذلك سرورا عظيما ثم اقبل عليه
فقال جزيت عنى خيرا وانى أريد أن تجعل بينى وبينك موعدا وتعرفنى مكانك لالقاك له بعد يومى هذا فقال
الشيخ وما تريد بذلك فقال له عبد الملك انى أريد مكافأتك على ما كان منك فقال له الشيخ انى أعطيت الله عهدا أن لا أقبل منه لبخيل فقال عبد الملك ومن أين علمت أنى بخيل فقال لانك أخرت صلتى مع القدرة فما عليك لو وصلتنى ببعض ما عليك فقال عبد الملك أقسم بالله لقد ذهبت ثم نزع سيفه وقال له اقبل منى هذا واحرص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ انى لا أقبل صلة ذاهل قد عىّ ورب الذى لا يذل ولا يبخل فهو حسبى فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم فى عينه وعلم بفضله فى دينه فقال له انا عبد الملك فارفع حوائجك إلى فقال الشيخ وانا ايضا عبد الملك فلم ترفع حوائجنا إلى من أنا وانت له عبدان فانطلق وعبد الملك وعمل برأى الشيخ فانجح الله قصده وانتصر على أعدائه فلما سمع الوليد ما اخبره به الكهل استرجح عقله واستظرف أدبه واستحسن محاضرته وسأله عن نفسه فتسمى له وتنسب فلم يعرفه
الوليد فاستحى منه وقال له من جهل مثلك فى رعيته ضاع فقال له الكهل يا أمير المؤمنين ان للملوك
لا تعرف الامن تعرف اليها ولزم ابوابها فقال له الوليد صدقت ثم امر له بصدقة معجلة وعهد اليه فى ملازمته فكان يتمتع

ابن المقفع كانت ملوك الاعاجم إذا رأت الرجل نهما شرها أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار وتقول العرب أقلل طعاما تحمد مناما وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا

لست بأكال كأكل العبد ولا بنوام كنوم الفهد

وأنشد الاصمعى لرجل من بنى فهد

إذا لم أزر إلا لآكل أكلة فلا رفعت كفى إلى طعامى
فما أكلة ان نلتها بغنيمة ولا جوعة ان جعتها بغرام

وقالت عائشة رضى الله عنها أراد رسول الله ﷺ أن يشترى غلاما فألقى بين يديه تمرا فأكل فأكثر فقال ﷺ ان كثرة الأكل شؤم وقالوا الواحدة خير من الجليس السوء والجليس السوء خير من الأكيل السوء وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال فقال اشكر فان الله قد رزق الاسلام والعافية قال أجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد ودعت أبا الحرث حبيبة له فحادثته ساعة فجاع فطلب الأكل فقالت له أما فى وجهى ما يشغلك عن الأكل قال جعلت فداك لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا

(وأما أخبار الاكلة) فقد قيل ان وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل فقال أكلت مائة رغيف بمكوك ملح * ومر ميسرة المذكور يوما بقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة فذبحوا له حماره وطبخوه وقدموه له فأكله كله فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له هو فى بطنك * وقال المعتمر بن سليمان قلت لهلال المازنى ما أكلة بلغتنى عنك قال جعت مرة ومعى بعير لى فنحرته وشويته وأكلته ولم أبق منه شيئا يسيرا حملته على ظهرى فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى فلم أقدر أصل اليها فقالت كيف تصل إلى وبيننا جمل فقلت له كم تكفيك هذه الاكلة فقال أربعة أيام وقال الاصمعى أن سليمان بن عبد الملك كان شرها نهما وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوى لا يصبر إلى أن يبرد ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها فقال الرشيد ويحك يا أصمعى ما أعلمك باخبار الناس أنى عرضت على جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طيبا حتى حدثتنى ثم أمر لى بجبة منها فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك * وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلى وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمنى قلت عند جدى كأعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيته به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه الا الفخذ قال يا أبا جعفر فقال إنى صائم فأكله ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شىء قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ثم قال يا شمردل أما عندك شىء قلت سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ماهو قال نيف وثلاثون قدرا قال ائتنى بقدر بدر فأتاه بها ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا وصف الخوان فقعد وأكل مع الناس وكان هلال بن الاسعر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ وكان غليظا عتلا * وقال اعرابى لرجل رآه سمينا أرى عليك قطيفة من

نسيج

نسج أضراسك ٭ وقال أبو الحسر الاعرابى كانت لى بنت تجلس معى على المائدة فتبرز كفا كأنها صلفة فى ذراع كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة الا خصتنى بها فكبرت وزوجتها وصرت أجلس على المائدة مع ابن لى فيبرز كفا كأنها كرنافة فو الله لن تسبق عينى إلى لقمة طيبة الا سبقت يده إليها وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة ٭ ويقال فلان يحاكى حوت يونس فى جودة الالتقام وعصا موسى فى سرعة الالتهام ٭ وقيل لأبى مرة أى الطعام أحب إليك قال لحم سمين وخبز سميد أضرب فيه ضرب ولى السوء فى مال اليتيم ٭ وقال صدقة بن عبيد المازنى أولم لى أبى لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور فكان أول من جاءنا هلال المازنى فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها ثم أخرج فأكلها حتى أتى على الجميع ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ فوضع طرفها فى شدقه وفرغها فى جوفه ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام ٭ وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات فخرج يوما يريد الكوفة فقال له رجل من بنى شيبان الفداء أصلح الله الأمير فنزل فذبح له عشرين طائرا من الاوز فأكلها ثم قدم الطعام فأكل ثم أتى بزنبيلين فى إحداهما تين وفى الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف فذكر ذلك للمهدى فقال دعوت يوما بالفيل وأمرت فأتى إليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين وألقى اليه تمام المائة فلم يأكله ٭ وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهرى انه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول ان معاوية بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولا يشبع ٭ ونزل رجل بصومعة راهب فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر اليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصدك قال الى الأردن قال لماذا قال بلغنى ان بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتى فانى قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب ان لى إليك حاجة قال وماهى قال إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك على

(وأما الممازحة على الطعام) فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه قال قالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان عندى رسول الله ﷺ وسودة فصنعت حريرة فجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لاأحبه فقلت والله لتأكلين أو لألطخن وجهك فقالت ماأنا بذائقته فأخذت من الصفحة شيئا فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها فتناولت من الصفحة شيئا فلطخت به وجهى وجعل رسول الله ﷺ يضحك ٭ واشترى غندر يوما سمكا وقال لأهله اصلحوه ٭ ونام فأكل عياله السمك ولطخوا يده فلما انتبه قال قدموا إلى السمك قالوا قد أكلت قال لا قالوا شم يدك ففعل فقال صدقتم ولكن ماشبعت ٭ ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم فقال لقد ذكرتمونى ضيف ابراهيم وقول الله تعالى فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ثم كلوا رحمكم الله فضحكوا وأكلوا والحكايات فى ذلك كثيرة

(وأما الضيافة وإطعام الطعام) فقد قال الله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وقال رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره وقال صلى الله

بأدبه وحكمته الى كان من أمر الوليد ماهو مشهور والله أعلم (ومما يخبرنه من عجائب سلوان المطاع) قيل لما عزم سابور ابن هرمز على الدخول إلى بلاد متنكر انها انصحاؤه وعقلاء وزرائه وحذروه من ذلك فعصاهم وكان يقال أوزر الناس وزراء الاحداث من الملوك وعشاق الفتيان من المشايخ فان سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيرا كان له ولأبيه من قبله وكان من أدهى الناس فى الحزم وسداد الرأى واختلاف الأديان ولغاتها وكان من المتبحرين فى العلوم والمبرزين بالمكايد فسلم إليه سابور جميع مايحتاج إليه فى سفره وأمر أن لايتجاوز فى السير ولا يبعد عنه بحيث يراعى جميع أحواله فى ليله ونهاره فتوجها نحو الشام ولبس ذلك الوزير زى الرهبان وتكلم بلسانهم وتعرف بصناعة الطب الجرائحى وكان معه الدهن الصينى الذى إذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة واندملت فكان ذلك الوزير فى مسير نحو بلاد الروم يداوى الجراحات بأدوية يضيف إليها يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ بسرعة وإذا عنى بأحد من ذوى الاقدار داواه بذاك الدهن صرفا فيبرأ ذلك الفور ولا يأخذ على ذلك أجرة فانتشر ذكره فى بلاد الروم وعقدت عليه الخناصر وأقبل عليه الناس وكان مع انفراده مع سابور يراعى جميع أحواله فلم يزالا كذلك حتى طاف جميع الشام وقصد القسطنطينية فقدماها فذهب الوزير الى البطرك وتفسير هذا الاسم أبو الآباء

فاستأذن عليه فأذنه له وسأله عن قصده فاخبره أنه هاجر اليه ليتشرف بخدمته ويدخل فى اتباعه ثم أهدى اليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه (١٨٢) وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته واختبره فوجده عالما بدينهم بل مبرزا فاعجب به غاية الاعجاب وجعل الوزير يتأمل احوال البطرك ليصحبه بما يلائمه وينفق عنده فوجده مائلا إلى الفكاهات معجبا بنوادر الاخلاق وكان الوزير فى ذلك غاية فأخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة فصار البطريق لم يطق عن الوزير صبرا لانه حلا لعينيه وحل بقلبه وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ على ذلك عوضا فعظم قدره فى الناس هذا وهو يتعاهد أحوال سابور فى كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة وحضر الناس اليها على طبقاتهم فأراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر وعلى رتبته فى قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه وتزيا بزى ظن أنه يستتر به ودخل دار قيصر مع حضر الوليمة وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من أن يطرق بلاده وتحسن له همته العالية وحدة الشبيبة ذلك صور سابور فى مجلسه وعلى ستور بيته وعلى فرشه وفى آلات أكيله

ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر فى مجلسه وأكل مع من حضر أتوا بالشراب فى كؤوس البللور والذهب والفضة والزجاج المحكم

عليه وسلم من أكل وذل عينين ينظر اليه ولم يواسه ابتلى بداء لادواء له وقال الحسن كنا نسمع أن احدى مواجب الرحمة اطعام الاخ المسلم الجائع وقيل لابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بم اتخذك الله خليلا قال بثلاث ماخيرت بين شيئين إلا اخترت الذى لله على غيره ولا اهممت بما تكفل لى به ولا تغديت ولا تعشيت الا مع ضيف ويقولون ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحاب من طعامه حلف لايحدثه عشرة أيام وقالوا المائدة مرزوقة أى من كان مضيافا وسع الله عليه وقالوا أول من سن القرى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأول من ثرد الثريد هشمه هاشم وأول من أفطر جيرانه على طعامه فى الاسلام عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما وهو أول من وضع موائده على الطريق وكان إذا خرج من بيته لايعود منه شىء فان لم يجد من يأكله تركه على الطريق وقيل لبعض الكرماء كيف اكتسبت مكارم الاخلاق والتأديب مع الاضياف فقال كانت الاسفار تحوجنى إلى أن أفد على الناس فما استحسنته من اخلاقهم اتبعه وما استقبحته اجتنبته

(وأما آداب المضيف) فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه فقد قيل البشاشة فى الوجه خير من القرى قالوا فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى رحمه الله هذا الكلام بابيات فقال

إذا المرء وافى منزلا منك قاصدا ... قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسما فى وجهه متهللا ... وقل مرحبا أهلا ويوما مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى ... عجولا ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم ... تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى ... فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

وقالت العرب تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة واطالة الحديث عند المؤاكلة وقال حاتم الطائى

سلى الطارق المعتر ياأم مالك ... اذا ما أتانى بين نارى ومجزرى
أأبسط وجهى انه أول القرى ... وأبذل معروفى له دون منكرى

(وقال آخر فى عبد الله بن جعفر) انك ياابن جعفر خير فتى وخيرهم لطارق إذا أتى

(ولله در القائل) الله يعلم أنه ماسرنى ... شىء كطارقة الضيوف النزل
مازلت بالترحيب حتى خلتنى ... ضيفا له والضيف رب المنزل

أخذه من قول الشاعر) ياضيفنا لو زرتنا لوجدتنا ... نحن الضيوف وأنت رب المنزل

(وما أحسن ماقال سيف الدولة بن حمدان

منزلنا رحب لمن زاره نحن سواء فيه والطارق وكل مافيه حلال له إلا الذى حرمه الخالق

(وقال الاصمعى) سألت عيينة بن وهب الدارمى عن مكارم الاخلاق فقال أو ما سمعت قول عاصم بن وائل

وانا لنقرى الضيف قبل ... ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

(وقال بعض الكرام) أضاحك ضيفى قبل أنزل رحله ... ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للاضياف أن تكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

(وقال آخر) عودت نفسى إذا ما الضيف نبهنى ... عقر العشار على عسر وايسار

(ومن آداب المضيف) أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل اكرام الضيف قال الشاعر

مطيعة

مطية الضيف عندى تلو صاحبها • لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل وامرأته قائمة • ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل اليه نفوسهم ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم ويبش عند قدومهم ويتألم عند وداعهم وأن لايحدث بما يروعهم به كما حكى بعضهم قال استدعانى إسحق بن إبراهيم الظاهرى إلى أكل هريسة فى بكرة نهار فدخلت فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا فاذا شعرة قد جاءت على لقمة قد غفل عنها طباخه فاستدعى خادمه فأسر اليه شيألم نعلمه فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة فكشف عن الصينية فاذا يد الطباخ مقطوعة تختلج فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لانعقل فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ولايعبس بوجهه ولا يظهر نكدا ولا ينهر أحدا ولا يشتمه بحضرتهم بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ماأمكن كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماطا وكان له ولد جميل الطلعة فكان الولد فى أول النهار يخدم القوم ويأنسون به ففى آخر النهار صعد الى السطح فسقط فمات لوقته فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لاتصرخ ولا تبكى الى أن تصبح فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال هو نائم فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم ان رأيتم أن تصلوا على ولدى فانه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته فقالوا له لم لاأخبرتنا حين سألناك فقال ماينبغى لعاقل أن ينغص على أضيافه فى التذاذهم ولا يكدر عليهم فى عيشهم فتعجبوا من صبره وتجلده ومكارم أخلاقه ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا وانصرفوا وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويرسل حجابه وقت الطعام ولا يمنع واردا • وقيل لبعض الأمراء الكرام لابأس بالحجاب لئلا يدخل من يعرفه الأمير ويحترز عن العدو فقال ان عدوا يأكل طعامنا ولا ينخدع يمكنه الله منا والأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام فان ذلك أول الشناعة عليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف إن كان من أهل ذلك وأن يرى أضيافه مكان الخلاء فقد قيل عن ملك الهند أنه قال إذا ضافك أحد فأره الكنيف فانى ابتليت به مرة فوضعته فى قلنسوتى وقالوا لابأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة وقصد النبى ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى وكذلك كانت عادة السلف رضى الله تعالى عنهم وكان لعون بن عبد الله المسعودى ثلثمائة وستون صديقا فكان يطوف عليهم فى السنة ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضى الله عنها فأكل طعامها وهى غائبة وكان الحسن رضى الله عنه يوما عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها فقال له هشام مابدا لك ياأباسعيد فى الورع فقال له يالكع اتل على آية الأكل فتلا ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم إلى قوله أو صديقكم فقال الصديق من استروحت اليه النفس واطمأن اليه القلب وعلى المضيف الكريم أن لايتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة مافى يده بل يحضر اليهم ماوجد فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا

وكان فى المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخصه فرأى عليه مخايل الرياسة ولمازاد فى تأمله وصل اليه دور الكأس فتأمل الصورة التى على الكأس وراجع النظر فى سابور فماشك أن الصورة التى على الكأس وضعت على مثاله وغلب على ظنه انه سابور فأمسك الكأس فى يده مساكا طويلا ثم قال رافعا صوته ان هذه الصورة التى على هـذا الكأس تخبرنى إخبارا عجيبا فقيل له وماالذى تخبرك فقال تخبرنى ان الذى هى مثال له معنا فى مجلسنا هذا ثم نظر الى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ظنه فبلغ ذلك قيصر فأدناه وقربه وسأله فأخبره أن سابور معه فى مجلسه وأشار اليه فأمر قيصر بالقبض عليه وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب ومن العلل لم تقبل فقال ذلك المتفرس أيها الملك لاتقبل قوله فانه سابور لامحالة فهدده قيصر بالقتل فاعترف أنه سابور فحبسه قيصر مكرما وأمر أن يعمل له من جلود البقر صورة بقرة تطبق عليها الجلود سبع طبقات ويتخذ لها باب وتجعل لها كوة لأجل المبال ويستقر سابور بها وتجمع يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة تمكنه معها تناول مايعمل له من طعام وشراب وغير ذلك فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد فارس ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من اليأس والشدة

محمولتها وصرف أمره إلى المطران وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة تحمل بين يديه فاذا نزل العسكر نزلت الصورة التى فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة وتضرب المطران قبة مجاورة لقبة سابور وسار قيصر محتفلا بجنوده وعساكره وقد عزم على خراب فارس ولما وجد السير قال وزير سابور للبطرك أيها الأب إنما استفدت بخدمتك الرغبة فى مصالح الأعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عن مجهود وجر منفعة إلى مضطر وقد علمت اجتهادى فى مداواة الجرحى وان نفسى تنازعنى إلى صحبة الملك قيصر فى سفره هـــذا لاغير فلعل الله تعالى يستنقذ بى نفسا صالحة أويسوقنى إلى مداواة جريح من العسكر ليتقدم قلبى بهذه المثوبات فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت إنى لاأستطيع فراقك فكيف تطالبنى بالسفر البعيد قال فلم يزل وزير سابور يتضرع إلى البطرك إلى أن استحى منه وسمح له بذلك وزوده وكتب معه إلى المطران يخبره برتبته عنده وأنه يحله فى أعلى المراتب ويستضىء برأيه إذا أشكل عليه أمر فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله فى قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده وصار الوزير يستميله بما يميل اليه ويطرفه فى كل ليلة بطرف الأخبار رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه ما يريد أن يعلمه به ويبطنه من الأسرار فكان سابور يجد بذلك راحة عظيمة وقدم

يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر ويقولون ماندرى أيهما أعظم وزرا الذى يحتقر ماقدم اليه أوالذى يحتقر ماعنده أن يقدمه وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف (وحكى) عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه كان نازلا عند الزعفرانى ببغداد فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعى منها يوما وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفرانى ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك وكانت سنة السلف رضى الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص مايشتهى ومن السنة أن يشيع المضيف إلى باب الدار وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لاينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل ثلاثة تضنى سراج لايضىء ورسول بطىء ومائدة ينتظر لها من يجىء ونزل الامام الشافعى رضى الله عنه بالإمام مالك رضى الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال لايرعك مارأيت منى لخدمة الضيف على المضيف فرض

اعرض طعامك وابذل لمن أكلا ... وأحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابرى العرض محتشما ... من القليل فلست الدهر محتفلا

ومن البخلاء من يعزم على الضيف ليعتذر له فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة قال أن يعتذر الضيف بالصوم ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زباديه ويشتهى أن تبقى على حالها ومنهم من يحضر طعامه فاذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس ويعتذر أن فى أصحابه من يحضر بالغداة عنده (وحكى) عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لايأكل العسل بلا خبز فقال له ترى أن تأكل عسلا بلا خبز قال نعم وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة فقال له البخيل مهلا ياأخى والله أنه يحرق القلب قال نعم صدقت ولكنه قلبك (وحكى) عن بعضهم أنه قال غلب على الجوع مرة فقلت امضى إلى دار فلان لاتغدى عنده لجئت إلى باب بيته فوجدت غلامه فقلت أين سيدك فقال والله لاقلت لك عليه الا أن أعطيتنى كسرة قال فرجعت هاربا ٭ ومن البخل تقديم الشىء اليسير وتفخيمه ٭ حكى عن بعض البخلاء أنه حلف يوما على صديقه وأحضر له خبزا وجبنا وقال له لاتستقل الجبن فان الرطل منه بثلاثة دراهم فقال له ضيفه أنا أجعله بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن فأين هؤلاء من الذى يقول :

قالت أما ترحل تبغى الغنى ... قلت فمن للطارق المعتم
قالت فهل عندك شىء له ... قلت نعم جهد الفتى المعدم
فكم وحق الله من ليـــلة ... قد أطعم الضيف ولم أطعم
أن الغنى بالنفس ياهـــذه ... ليس الغنى بالمـــال والدرهم

(وقال بعض البخلاء)

مسرى نحونا يبغى القرى طاوى الحشى ... لقد عملت فيه الظنون الكواذب
فبات له منا إلى الصـــبح شاتم ... يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فشتان مابين القائلين

(وأما آداب الضيف) فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف فى أمور منها أكل الطعام ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن ٭ فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته

وقدم له الطعام فقال الضيف لست بجائع وانما احتاج إلى مكان أبيت فيه فقال الاعرابى إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيرى فانى لا أرى أن تمد منى فى البلاد وتهجونى فيما بينى وبينك (وحكى) عن بعض التجار قال استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قماشا من تجارتى فبينما أنا بين يديه وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه فقال يافلان ماهذا الخلق العامى اجلس فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة فى لقمة والتفاحة فى لقمة ثم قدم الطعام وكنت جائعا فأكلت أكلا جيدا ثم انصرفت فلم أشعر فى اليوم الثانى إلى وقد جاءنى غلامه ببغلته فاستدعانى اليه فقال الى يافلان أنى قليل الأكل بطىء الهضم ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عنى قال فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلبى فحصل لى بقربى منه مال كثير وجاه عريض

ومن آداب الضيف أن لا يسأل صاحب المنزل عن شىء من داره سوى القبلة وموضع قضاء الحاجة وأن لا يطلع إلى ناحية الحريم وأن لا يخالفه إذا أجلسه فى مكان وأكرمه به وأن لا يمتنع من غسل يديه وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها فقد نقل فى بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيدا على أضيافه سيء الخلق بهم فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق وما أظن سوء أخلاقه الا لسوء أدب الاضياف ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره قال فقصدته وسلمت عليه فقال هل لك أن تكون ضيفى قلت نعم فسار بين يدى إلى أن جاء بباب داره فأذن لى فدخلت فأجلسنى فى صدر مجلسه فجلست حيث أجلسنى وأعطانى مسندا فاستندت اليه فأخرج لى شطرنجا وقبل أتتقن شيئا قلت نعم فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه وأنا آكل فلما فرغنا قدم طستا وأبريقا وأراد أن يسكب الماء على فلم أمنعه من ذلك وأراد الخروج من بين يدى بعد أن قدم نعلى فلم أرده عن ذلك فلما أراد الرجوع قلت ياسيدى أنشدك الله الافرجت عنى كربة قال وهى فأخبرته الخبر فقال والله مايحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم يصل الضيف إلى دارى فأجلسه فى الصدر فيأبى ذلك ثم اقدم اليه الطعام فلا أتحفه بشىء مستظرف إلا رده على ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ثم أريد أن أشيعه فلا يمكننى من ذلك فأقول فى نفسى لا يحكم الانسان على نفسه حتى فى بيته فعند ذلك اشتمه وألعنه بل وأضربه وفى معنى ذلك يقول بعضهم

لا ينبغى للضيف أن يتعرض ... ان كان ذا حزم وطبع لطيف
فالامر للانسان فى بيته ... ان شاء الله أن ينصف أوأن يحيف

(ومما) يعاب على الضيف أمور منها كثيرة الاكل المفرط الاان يكون بدويا فانها عادته ومنها ان يتبع طريق الشرهين كن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادى والامراق والحلوى وغير ذلك ومنها ان يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه ان يبكى وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير ومنها قبح المؤاكلة وقد عدفيها عيوب كثيرة فمنها المتشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرغ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والمحاس والمجنح والشطرنجى والمهندس والمتمنى والفضولى . فأما المتشاوف فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا نراه الا متطلعا لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام وأما العداد فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى

وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكايد رتبها عند ماقدم على المطران منها أنه امتنع عن مؤاكلة المطران وأخبره أنه لا يخلط بطعام البطرك غيره لأجل بركته فكان إذا حضر طعام المطران اخرج هو ذلك الزاد الذى معه وانفرد بالاكل وحده فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس فاكثر فيها القتل والسبى وتغرير المياه وقطع الأشجار وخراب القرى والحصون وهو مع ذلك يواصل السير ليستولى على دار ملك سابور وقبل أن يشعروا فيملكوا عليهم رجلا منهم ولم يكن للفرس هم الا الفرار من بين يديه والاعتصام بالمعقل والحصون فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار ولم يكن عندها قوة ولامنعة فى دفعه أكثر من ضبط الاسود والقتال عليها . وكل ذلك فهمه سابور من كنايات الوزير فى محاضراته للمطران ولكن لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر فى تلك الصور فلما علم سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف على فتح البلد عيل صبره وساء ظنه ويئس من الحياة فلما جاءه الموكل بطعامه قال له ان هذه الجامعة قد نالت منى منالا ضعفت قوتى عن احتماله فان كنتم تريدون بقاء نفسى فنفسوا عنى منها واجعلوا بينها وبين يدى وعنق خرقا من الحرير فجاء بالموكل بالطعام إلى المطران وأعلمه بالذى قال سابور فسمعه الوزير وعلم ان سابور قد جزع وساء ظنه وفطن

ويعد على أصابعه ويشير إليها وينسى نفسه والجراف هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبيدة ويجرف بها إلى الجانب الآخر والرشاف هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرتشفها فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك والنفاض هو الذي يجعل اللقمة في فيه وينفض أصابعه في الزبدية والقراض هو الذي يقرض اللقمة باطراف أسنانه حتى تهذبها ويضعها في الطعام بعد ذلك والبهات هو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم واللتات هو الذي يلت اللقمة بأطراف اللقمة قبل وضعها في الطعام والعوام هو الذي يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادي والقسام الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيه والخلل هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره والمذبذ هو الذي يحمل معه الطعام والمرنخ هو الذي يرنخ اللقمة في الامراق فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية والمرشش هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه والمفتش هو الذي يفتش اللحم بأصابعه والمنشف هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها والملبب هو الذي يملأ الطعام لبابا والصباغ هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده والنفاخ هو الذي ينفخ في الطعام والحامي هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه والمجنح هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس فلا يشق عليه الاكل والشطرنجي هو الذي يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها والمهندس هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا وهذه ههنا حتى يأتي قدامه ما يحب والمتمني هو الذي يقول ليتني لم يكن معي من يأكل والفضولي هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان قد بقي عندك في القدور شيء فاطعم الناس فان فيهم من لم يأكل ◦ ومن الاضياف من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه فيبقى الغلام واقفا والابريق في يده والناس ينتظرونه ومنهم من يغسل يديه بالاشنان مرة واحدة فاذا اجتمع الوسخ والدفر تسوك بهما ومنهم من يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة أولا فيقول كان ينبغي أن يكون باب المجلس من ههنا والايوان كان ينبغي أن يكون ههنا وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر وإن كان قد استحكم جوعه استحق من الطعام وذهل عن بقية الاضياف وشدة جوعهم ◦ ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم ◦ ولقد حكي عن مغن غير جيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة وماذاك إلا انه كان إذا سئل أين كنت قال كنت عند الناس وإذا قيل له أين أكلت قال أكلت في بطني وإذا قيل له أين شربت قال شربت في فمي ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا فيقول والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئا فأذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن في بيته شيء موجود وليت شعري إذا كان لا يأكل فلأي شيء حضر ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه شيئا فيقول ما الذي قال المولى لصاحبنا وهو لا يريد أن يعلمه ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق وانما ذلك في بيته لا في بيوت الناس ومنهم من يقول لصاحب الدعوة من يغني لنا فيقول فلان فيقول له غلطت لم لا دعوت فلانا ومنهم من يسأل صاحب البيت كيف قوتك في النكاح فيقول له أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي أو يقول مالي قوة طائلة في ذلك فيقول أنا والله كلما مر علي عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوقي ويلمن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته

لما أراد سابور فلما جن الليل وجلس اسامره المطران قال له قد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته مذ كذا وكذا ووددت أني كنت حدثت به البطرك قبل سفري فقال (١٨٦) له المطران اني أرغب إليك أن تحدثني الليلة أيها الراهب الحكيم فقال الوزير حبا وكرامة ثم اندفع يحدثه ويرفع صوته ليسمع سابور ويفهم الغرض يستأنس فقال اعلم أيها المطران أنه كان ببلادنا فتى وفتاة ليس في زمانهما أحسن منهما اسم الفتى عين أهله واسم الفتاة سيدة الناس وكانا زوجين مؤتلفين لا ينبغي أحدهما بالآخر بدلا ثم أن عين أهله جلس يوما مع أصحابه فتذاكروا النساء الى أن ذكر أحدهم امرأة أطنب في وصفها وبالغ وذكر أن اسمها سيدة الذهب فوقع في قلب عين أهله حبها فسأل الواصف عن منزلها فذكر أنها ببلد بالقرب من بلده ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها فانطلق إلى البلد التي هي ساكنتها وسأل عن منزلها فعرفه ولم يزل يتردد إلى بابها حتى رآها فرأى منظرا حسنا ولكن لم تكن بأحسن من امرأته بل ضرورات النفس حب التنقل في الأحوال ولازم عين أهله المعاودة إلى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلها وكان جافيا غليظ الطبع شديد البطش يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه ومزق ثيابه واستعان بجماعته عليه فاحتملوه إلى داخل دار الذئب وربطوه إلى سارية في الدار ووكل به عجوزا مقطوعة اليد جدعاء عوراء شوهاء فلما جن

بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوتهن لهن وكثرة إنعامه وإحسانه اليهن وماعليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ماهى فيه مع زوجها وربما كان ذلك سببا لفراقها منه ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته وإذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه ويقوم قائما يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات ويظن فى نفسه أنه يعشق وأن رسول صاحبة البيت لايبطىء عنه ومنهم من يقال له العب الشطرنج فيأباه ويشتغل بالدندنة فيقع فى الفضول ومنهم من يتآمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده ويظن أنه يدل عليهم ومنهم من يقول له صاحب البيت كل فيقول ما آكل الا أنا ورفيقى ومنهم من يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل فتح الله عليك ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن وأكثر الناس واقع فى ذلك نسأل الله تعالى ان يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رؤوف رحيم ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب السادس والثلاثون فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وماأشبه ذلك ﴾

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ الى الصفح والعفو بقوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قيل هو الرضا بلا عتب وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وقال تعالى ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى قال قال رسول الله ﷺ رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت ياجبريل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال مازال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود وقال الحسن بن أبى الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم فلايقوم إلا العافون عن الناس وتلا قوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقال على كرم الله وجهه أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره ويقول لقد حبب العفو حتى إنى أخاف أن لا أثاب عليه وكان يقول لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها وقال لو علم الناس حبى للعفو لما تقربوا إلى إلا بالجنايات وقال على كرم الله وجهه إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه وقال رضى الله تعالى عنه أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه وقال رضى الله عنه ان أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل وقال المنتصر لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ولذة التشفى يلحقها ذم الندم وقال ابن المعتز لاتشن وجه العفو بالتقريع به وقيل ماعفا عن الذنب من قرع به وقال رجل لرجل سبه إياك أعنى فقال له وعنك أعرض وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول ما أذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث ان كان فوقى عرفت له فضله وإن كان مثلى تفضلت عليه وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه وكان مشهورا بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته وكان يقول وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال وقيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم كنا نختلف اليه فى الحلم كما يختلف إلى الفقهاء فى الفقه ولقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاؤا به

عليه الليل أوقدت تلك العجوز النار بالقرب منه وجعلت تصطلى فذكر عين اهله ما كان فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز فبكى بكاء شديدا فأقبلت عليه العجوز وقالت له ماذنبك الذى أوجب هذا فقال عين أهله ماعلمت لى ذنبا فقالت العجوز هكذا قال الفرس للخنزير وكذب فقال عين أهله للعجوز وماالذى كذب فيه الفرس عند الخنزير فقالت له العجوز ذكروا أن فرسان كان لأحد الشجعان فكان يبالغ فى اكرامه ويحسن اليه ويعده لمهماته ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به فى صحبته كل يوم فيزيل لجامه وسرجه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى فى كل مرج مخصب حتى يرتفع النهار فيرده وهو على يده ثم انه خرج يوما الى المرج راكبا ونزل عنه فلما استقرت قدماه على الأرض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع وطلب أن يرعى فمنعه اللجام ورام أن يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يضجع فمنعه الركاب فبات بشر فلما أصبح ذهب يبتغى فرجا مماهو فاعترضه نهر فدخله ليقطعه إلى جهته الأخرى فاذا هو بعيد القعر فسبح فيه وكان حزامه ولببه من جلد فلما انقع فى دبغه فلما خرج أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا واشتد عليه فورم موضع اللبب والحزم واشتد به الضرر وقوى به الجوع ومضى عليه أيام فتزايد

مكتوفا فقال ذعرتم أخى أطلقوه واحملوا إلى أم ولدى ديته فانها ليست من قوامنا ثم أنشأ يقول

أقول للنفس تصبيرا وتعزية ⁂ احدى يدى أصابتنى ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه ⁂ هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر وقالوا ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام وقيل من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره ولم يحمد فى العالمين ذكره والعرب تقول لاسودد مع الانتقام والذى يجب العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لايجعل العقوبة شيمته وإن كان ولابد من الانتقام فليرفق فى انتقامه إلا أن يكون حدا من حدود الله تعالى وقال المنصور لجان عجز عن العذر ماهذا الوجود وعهدى بك خطيبا لسنا فقال ياأمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة والتوبة بالاستكانة والخضوع فرق له وعفا عنه وسعى إلى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعى ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على والتعصب لهم فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه قال ياأمير المؤمنين ذنبى أعظم من نقمتك وعفوك أعظم من ذنبى ثم قال

فهبنى مسيئا كالذى قلت ظالما ⁂ فعفوا جميلا كى يكون ذلك الفضل

فان لم أكن للعفو منك لسوء ما ⁂ أتيت به أهلا فأنت له أهل

فعفا عنه وأمر له بصلة وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنبا فقال له أنت الذى فعلت كذا وكذا قال نعم ياأمير المؤمنين أنا ذاك الذى أسرف على نفسه واتكل على عفوك فعفا عنه وخلى سبيله . وأحضر إلى الهادى رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب فقال ياأمير المؤمنين ان اقرارى يلزمنى ذنبا لم أفعله ويلحق بى جرما لم أقف عليه وانكارى رد عليك ومعارضة لك ولكنى أقول

فان كنت تبغى بالعقاب تشفيا ⁂ فلا تزهدن عند التجاوز فى الأجر

فقال لله درك من معتذر بحق أو باطل ماأمضى لسانك وأثبت جنانك وعفا عنه وخلى سبيله وركب يوما عمرو بن عاص رضى الله عنه له بغلة له شهباء ومر على قوم فقال بعضهم من يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف فقال واحد منهم أنا فقام وأخذ بعنان بغلته وقال أصلح الله الأمير أنت أكرم الناس خيلا فلم ركبت دابة اشهاب وجهها فقال انى لاأملى دابتى حتى تملنى ولاأمل رفيقى حتى يملنى فقال أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الام قال على الخبير سقطت أى النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب فأتى بها سوق عكاظ فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان ووهبها للعاص بن وائل فولدت وانجبت فان كان قد جعل لك جعلا فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة وقيل ان أمه كانت بغيا عند عبد الله ابن جدعان فوطئها فى طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل فولدت عمر فادعاه كلهم فحكمنا فيه أمه فقالت هو للعاص لأن العاص هو الذى كان ينفق عليها وقال كان أشبه بأبى سفيان . وكان الواثق يتشبه بالمأمون فى أخلاقه وحلمه وكان له المأمون الصغير نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال لست به فقالت السلام عليك أيها الأمير فقال لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقالت ليسعنا عدلكم فقال إذا لايبقى على وجه الأرض منكم أحد لأنكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضى الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضى الله عنه وسبيتم أهله ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم

ضعفه وعجز عن المشى فمر به خنزير فهم بقتله فرآه ضعيفا جدا فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه أضرار اللجام واللبب والحزام وسأله أن يصنع معه معروفا ويخلصه عما هو فيه فسأله الخنزير عن الذنب الذى أوقعه فى تلك العقوبة فزعم الفرس ان لاذنب له فقال له الخنزير كذبت ولو صدقت خلصتك مما أنت فيه ومن جهل ذنوبه وأصر عليها لم يرج فلاحه فحدثنى يافرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك فصدقه الفرس وأخبره بجميع أمره وكيف كان عند فارسه مكرما وكيف فارقه وما ألقى فى طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير فقال الخنزير قاتلك الله لقد كفرت النعم وأكثرت الذنوب منها خلافك لفارسك الذى بالغ فى الاحسان اليك وأعدك لمهماته ومنها كفرك احسانه ومنها تعديك على ماليس لك وهو السرج واللجام ومنها اساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذى لست من أهله ولا لك عليه القدرة ومنها اصرارك على ذنبك وكنت قادرا على العود إلى فارسك قبل أن يوهنك اللجام والجوع والحزام واللبب بالالم فقال الفرس للخنزير قد عرفت ذنبى فانطلق عنى ودعنى فانى استحق أضعاف ما أنا فيه فقال الخنزير بعد أن عرفت وعدت على نفسك باللوم واخترت لها العقوبة على جهلها تعين الشروع فى خلاصك ثم ان الخنزير قطع عذار اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس قال فلما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز قال له صدقت فما نطقت وضربتم

قد أدبتني فتأدبت ثم أعلمها بخبره ثم رغبها فى أن تمن عليه بالخلاص كما فعل الخنزير بالفرس فقالت العجوز الذى سألتنى لا يمكننى فله الآن ولعلى أجد لك فرجا ومخرجا عن قريب فعليك بالصبر وأمسكت العجوز عن مخاطبته

وضربتم على بن عبد الله ظلما بسياطكم فعدلنا لا يبقى منكم أحد فقالت فليسمنا عفوكم قال أما هذا فنعم وأمر برد أموالها عليها وبالغ فى الاحسان اليها * وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالحلم وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة وكان يقول انى لآنف أن يكون فى الأرض جهل لا يسعه حلمى وذنب لا يسعه عفوى وحاجة لا يسعها جودى وهذه مروءة عالية المرتبة وقال له رجل يوما ما أشبه استك باست أمك فقال ذاك الذى أعجب أبا سفيان منها وكتب معاوية إلى عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه يعتذر اليه من شىء جرى بينهما يقول من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب أما بعد يا بنى عبد المطلب فأنتم والله فروع قصى ولباب عبد مناف وصفوة هاشم فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله إلى أن يغيب فى الثرى فكتب اليه عقيل يقول :

صدقت وقلت حقا غير أنى * أرى أن لا أراك ولا ترانى
ولست أقول سوأ فى صديقى * ولكن أصد إذا جفانى

فركب اليه معاوية رضى الله عنه وناشده فى الصفح عنه واستعطفه حتى رجع (وحكى) عنه رضى الله عنه أنه لما ولى الخلافة وانتظمت اليه الأمور وامتلأت منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور وساعده فى مراده القدر المقدور استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين فلهمكوا فى القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى من كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض فقال امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب على تسمعهم كلاما كالصوارم مستحثة لهم يقول لو سمعه الجبان لقاتل والمدبر لاقابل والمسالم لحارب والفار لسكر والمتزلزل لاستقر فقال لهم معاوية رضى الله عنه أيكم يحفظ كلامها فقالوا كلنا نحفظه قال فما تشيرون على فيها قالوا نشير بقتلها فانها أهل لذلك فقال لهم معاوية رضى الله عنه بئسما أشرتم به وقبحا ما قلتم أيحسن أن يشتهر عنى أننى بعد ما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها انى إذا للئيم لا والله لا فعلت ذلك أبدا ثم دعا بكاتبه فكتب كتابا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ الى الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ومهد لها وطاء لينا ومركبا ذلولا فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها وقرأه عليها فقالت بعد قراءة الكتاب ما أنا بزائغة عن الطاعة فحملها فى هودج وجعل غشاءه خزا مبطنا ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ياخالة وكيف رأيت سيرك قالت خير مسيرك فقال هل تعلمين لم بعثت اليك قالت لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى قال ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال قالت نعم قال فما حملك على ذلك قالت يا أمير المؤمنين انه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر فقال صدقت فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت قالت لا والله قال لله أبوك فلقد سمعتك تقولين أيها الناس ان المصباح لا يضىء فى الشمس وان الكواكب لا تضىء مع القمر وان البغل لا يسبق الفرس ولا يقطع الحديد الا بالحديد ألا من استرشدنا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه ان الحق كان يطلب ضالة فأصابها فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فانه

قال فلما انتهى الوزير فى حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال انى أحس فى أعضائى فتورا وفى رأسى صادعا ولم اقدر الليلة على إتمام الحديث ولعلى أكون الليلة القابلة نشيطا إلى ذلك فنهض إلى مضجعه فجعل سابور يتأمل حديث الوزير ويتأمل الأمثال التى ضربها له ودسها فى المسامرة ففهم أن الوزير كنى عن سابور بعين أهله وكنى عن مملكته بسيدة الناس وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب وكنى عن قيصر بالذئب الذى ذكر انه بعل سيدة الذهب وكنى عن طموح نفس سابور الى مملكة الروم بطموح نفس عين أهله الى رؤية سيدة الذهب وكنى عن أخذ قيصر له بقبض الذئب على عين أهله وكنى عن نفسه وحاله وعجزه بالعجوز القطعاء وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه فى هذا الوقت كما قررت العجوز لعين أهله وأنه شاع فى خلاصه فاستروح سابور ريح الفرج فسكنت نفسه ووثق بوزيره

فلما كانت الليلة القابلة وتعشى المطران واخذ مقعده للمسامرة قال الوزير أيها الحكيم الراهب أخبرنى عن ما كان من أمر عين أهله وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا فقال الوزير سمعا وطاعة فشرع فى حديثه وقال ان عين أهله أقام على حالته عدة أيام وكل يوم فدخل

لا يستوى المحق والمبطل أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون فالبزال البزال والصبر الصبر ألا وان خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير الأمور عاقبة ائتوا الحرب غير ناكصين فهذا يوم له ما بعده يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك قالت لقد كان ذلك قال لقد شاركت عليا فى كل دم سفكه فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخبر ويسر جليسه فقال معاوية أوقد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه فقال لها معاوية والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلى من حبكم له فى حياته فاذكرى حوائجك تقض فقالت يا أمير المؤمنين انى آليت على نفسى أن لا أسأل أحدا بعد على حاجة فقال قد أشار على بعض من عرفك بقتلك فقالت لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته قال كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك فقالت يا أمير المؤمنين كرم منك ومثلك من قدر فعفا وتجاوز عمن أساء واعطى من غير مسألة قال عطاها كسوة ودراهم وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم وأعادها إلى وطنها سالمة وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضا عبيد يعملون فيها فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير فكتب عبد الله كتابا إلى معاوية يقول له فيه أما بعد يا معاوية ان عبيدك قد دخلوا فى الأرض فانههم عن ذلك وإلا كان لى ولك شأن والسلام فلما وقفا معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد فلما قرأه قال له معاوية يا بنى ماترى قال أرى أن تبعث إليه جيشا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه فقال بل غير ذلك خير منه يا بنى ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب الله بن عبد الله بن الزبير يقول فيه وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى ما ساءه والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه نزلت عن أرضى لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام فلما وقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه كتب إليه قد وقف على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه يا بنى من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال إليه القلوب فاذا ابتليت بشىء من هذه الأدواء فدواه بمثل هذا الدواء. ولما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر إليه فبينما هو كذلك إذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلا مع حرمه فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه يد فوضعت عينه على الرجل فقال له يا هذا فى قصرى وتحت جناحى تهتك حرمتى وأنت فى قبضتى ما حملك على هذا قال فبهت رجل وقال حلمك أوقعنى فقال له معاوية فان عفوت عنك تسترها على قال نعم فعفا عنه وخلى سبيله هذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى وهو عروض قول الشاعر

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم ... وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

وحكى عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال ما رأيت رجلا أربط جأشا وأثبت جنانا من رجل سعى به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية فأمرنى باحضاره فأحضرته إليه فقال له المنصور قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية فاخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيئا فقال يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية قال لا قال فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم

قال

عليه الذئب ويهدده بالقتل ويزيده قيدا ثم ان العجوز جاءته فى بعض الليالى وأضرمت لها بالقرب منه نارا وجلست تصطلى ثم أقبلت على عين أهله وقالت له ساعدنى على خلاصك بالصبر فقال لها عن أهله هان على الطليق مالقى الاسير فقالت العجوز حداثة سنك قصرت فهمك عن ادراك الحقائق أفتسمع حديثا لك فيه سلوة قال نعم فقالت العجوز ذكروا أن بعض التجار كان له ولد وكان مشغوفا به فاتحفه بعض معارفه بخشف غزال فعلق قلب الصبى بذلك الخشف الصغير فكان لا يفارقه وجعلوا فى جيده حليا نفيسا وربطوا له شاة ترضعه حتى اشتد ونجم قرناه فأعجبه بريقهما وسوادهما وقال لأهله ماهذا الذى ظهر فى رأس الخشف قالوا قرناه وقالوا له انهما سيكبران ويطولان فقال الغلام لأبيه إنى أحب أن أرى غزالا كبيرا له قرنان كاملان فأمر أبوه بعض الصيادين أن يصيد له غزالا كبيرا فأحضر له غزالا قد استكمل قوة ونموا فأعجب الغلام وحلى جيده أيضا فتأنس الغزال الكبير بالخشف الصغير للمجانسة الطبيعية فقال الخشف للغزال ما كنت أظن لى فى الأرض شكلا قبل أن أراك فقال له الغزال إن أشكالك كثيرة فقال الخشف وأين هى فأخبره الغزال بتوحشها وانفرادها فى فلوات الأرض وتناسلها فارتاح الخشف للملك وتمنى أن يراها فقال له الغزال هذه أمنية لا خير لك فيها لأنك نشأت فى رفاهية من العيش ولو تحصلت على ما تمنيت لندمت

قال لا قال فما مسئلتك عما فى يدى من ذلك قال فأطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال أن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فاجعله فى بيت أموالهم فقال يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه فان بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق وما يجب عليه شىء وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ثم قال هل لك من حاجة قال نعم حاجتى يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى فى اليك فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى يدى لبنى أمية مال ولا وديعة ولكن لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن وبين ذلك القول الذى ذكرته أولا فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فلما رآه قال هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى وخاف من طلبى له فسعى بى عند أمير المؤمنين قال فشدد المنصور على الغلام وخوفه فأقر بأنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذبا عليه وخوفا من أن يقع فى يده فقال له المنصور سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه فقال قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التى أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها اليه فقال له المنصور ما على ما فعلت من مزيد قال بلى يا أمير المؤمنين ان هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى وعفوك عنى ثم انصرف قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع ٭ وغضب الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع والسيف فبكى فقال له ما يبكيك فقال والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لانه لا بد منه وإنما بكيت أسفا على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط على فضحك وعفى عنه وقال ان الكريم إذا خادعته انخدع ٭ وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال أيها الأمير ان لى بك حرمة قال وما هى قال ان أبى جارك بالبصرة قال ومن أبوك قال يا مولاى انى نسيت اسم نفسى فكيف لا أنسى اسم أبى فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه ٭ وأمر الحجاج بقتل رجل فقال أسألك بالذى أنت غدا بين يديه أذل موقفا منى بين يديك إلا عفوت عنى فعفا عنه ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بنى تميم فقال والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب ما أحسنت فى العفو فقال الحجاج أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه وخلى سبيله ٭ وكان إبراهيم بن المهدى يقول والله ما عفا عنى المأمون تقربا إلى الله تعالى ولا صلة للرحم ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى ٭ وسئل الفضل عن الفتوة فقال الصفح عن عثرات الإخوان فى بعض الكتب المنزلة ان كثرة العفو زيادة فى العمر وأصله قوله تعالى وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض وقال يزيد بن مزيد أرسل الرشيد ليلا يدعونى فأوجست منه خيفة فقال له أنت القائل أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب أعناق بغاتها لا أم لك أى ركن وأى ثائر أنت قلت يا أمير المؤمنين ما قلت. هذا إنما قلت أنا عبد الدولة والثائر لها فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه ثم ضحك فقلت أحسن من هذا قولى

خلافة الله فى هرون ثابتة ٭ وفى بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال يا فضل أعطه مائة ألف درهم قبل أن يصبح ، وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال ما أقبح

فقال الخشف للغزال لابد من اللحاق باشكالى فلما رأى الغزال أن الخشف غير راجع لم يجد بدا من قضاء اربه لحرمة الالفة فرصدا وقتا قابلا وخرجا معه حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الخشف فرح ومرح ومر يعدو ولا يلتفت إلى ماوراءه فسقط فى اخدود ضيق قد قطعه السيل فانتظر أن يأتيه الغزال فتخلصه فلم يأته وأما ولد التاجر فانه تنكد لفقد الخشف والغزال وأشفق أبوه عليه فاستدعى كل من يعانى الصيد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الخشف والغزال ووعدهم بالمكافاة على ذلك وركب التاجر معهم وفرق أتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من يأتى من الصيادين وانطلق هو وعبيده حتى دخلوا الصحراء فرأوا على بعد رجلا منكبا على شىء بين يديه فأسرعوا نحوه فرأوا صيادا قد أوثق غزالا كبيرا وقد عزم على ذبحه فتأمله التاجر فاذا هو الغزال الكبير الذى لولده فخلصه من الصياد وأمر عبيده ففتشوه فوجدوا معه الحلى الذى كان على الغزال فسأله كيف ظفر به وأين وجده فقال انى بت فى هذه الصحراء ونصبت شركا ومكثت قريبا منه فلما أصبحت مر على الغزال ومعه خشف يعدو ويمرح فى جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الغزال يمشى حتى حصل على فيه فقنصته وقصدت به فلما بلغت هذا الموضع ظهر لى أنى مخطىء فى إدخال هذا الظبى إلى المدينة حيا لعلمى أنه إذا رؤى حيا طولبت بما كان عليه من الحلى فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما فهذا خبرى فقال له التاجر لقد جنى عليك

فى أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ووجهك هذا الذي يستضاء به فأتعلق باطوقك وأقول أى رب سل مصعبا لم قتلني فقال اطلقوه فلما أطلقوه قال أيها الأمير اجعل ما وهبت لى من حياتي فى خفض عيش قال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ... ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو

وتغيظ عبدالملك بن مروان على رجل فقال والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا فلما صار بين يديه قال رجاء بن حيوة يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ماأحب الله فعفا عنه وأمر له بصلة وقال الحسن ان أفضل رداء تردى به الإنسان الحلم وهو والله عليك أحسن من برد الحبر وفيه قال أبو تمام

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت فى أنه برد

ويقال الحليم سليم والسفيه كليم وقال محمد بن عجلان ماشيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم أن تكلم تكلم بعلم وان سكت سكت بحلم يقول الشيطان سكوته على اشد من كلامه (شعر)

إذا كنت تبغي شيمة غير شيمة ... طبعت عليها لم تطعك الضرائب

وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب * وفى التوراة اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيما أمحق وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي فان نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك * وكان ابن عون إذاغضب على انسان قال له بارك الله فيك وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندرعينها فقالوا ان غضب ابن عون فانه يغضب اليوم فقال للغلام غفر الله لك وقال رجل لرسول الله ﷺ أى شيء أشد قال غضب الله قال فما يباعدني من غضب الله قال أن لاتغضب ويقال من أطاع الغضب أضاع الارب قال أبو العتاهية

* ولم أرفى الأعداء حين اختبرتهم ... عدوا لعقل المرء اعدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضى الله عنه ليس الشديد بالشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بالمرء اثما أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عامل من عماله أن لاتعاقب عندغضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فاخرجه تعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز خمسة عشر سوطا * وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى اجمع لنا حسن الخلق فى كلمة واحدة قال ترك الغضب * وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف فأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول إذا اشتد غضبي فقم إلى بهذه الصحيفة وناولنيها وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فناولنيها وقال للثالث إذا ذهب غضبي فناولنيها وكان فى الأولى اقصر فما أنت وهذا الغضب انك لست باله انما انت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة احمل عباد الله على كتاب الله فانه لايصلحهم إلا ذاك روى أنه أنوشروان وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت

ليست الأحلام فى حال الرضا ... انما الأحلام فى حال الغضب

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ من كظم غيظه وهو قادر على ان ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره فى أى الحور شاء وروى ملاه الله أمنا

طمعك الخيبة فاذا عليك لو أطلقته وخلصت ماكان عليه من الحلى ثم ان التاجر أرسل الغزال إلى ولده مع أحد عبيده وقال للصياد ارجع معي فأرني الجهة التي رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به إلى تلك الجهة فسمع من قريب صوته فصاح به التاجر فعرف الخشف صوته فصوت فسمع التاجر الصوت فادركه فاذا هو فى ذلك الأخدود ملق فأخذوه ووهب التاجر للصياد مارضى به فصرفه ورجع التاجر بالخشف إلى ولده فكملت مسرة الغلام وجعل الخشف يتجنب الغزال الكبير إذا رآه ولا يألفه فتنغصت المسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الخشف والغزال فلم يقدروا على ذلك فبينما الخشف نائم فى كناسة إذ دخل عليه الغزال فايقظه وعاتبه على نفاره منه فقال الخشف أما أنت الذي غدرت وقد علمت احتياجي فى غربتي إلى معاونتك فقال له والله ماأخرني عن ذلك الا وقوعي فى شرك الصياد وقص عليه القصة فقبل عذره وعادا إلى الألفة كما كانا فلما سمع عين أهله خطاب العجوز فهم كنايتها عن عجزها فى تخليصه أمسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحديث سكت فقال له المطران أيها الحكيم الراهب ماهذا السكوت فقال الوزير قد عاودني ذلك الفتور الذي اجده فى اعطائي فقال المطران وايمانا لاتفعل فان ذلك يشق فقال على الوزير نعم افعل ذلك طلبا لمرضاتك ثم اندفع يحدثه قال وبات عين أهله تلك الليلة فى أضيق

الاحوال ولما أصبح دخل عليه الذئب فنال منه وهدد بالقتل وخرج من عنده فجعل يطلق نفسه بقية نهاره ويمنيها بالفرج فلما أقبل عليه الليل استوحش وانتظر أن تجلس اليه العجوز وتحادثه فلم تفعل فأيقن بقتله فى تلك الليلة

وإيمانا . وقال ابن السماك أذنب غلام لامرأة من قريش فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت ماتركت التقوى أحدا يشفى غيظه . وقال أبوذر لغلامه لم أرسلت الشاه على علف الفرس قال أردت أن أغيظك قال لاجمعن أجرا أنت حر لوجه الله تعالى واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم فقالوا السام عليك يامحمد فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها بل السام عليكم واللعنة فقال ياعائشة ان الله يحب الرفق فى الأمر كله فقالت ألم تسمع ماقالوا قال قد قلت وعليكم . ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابى يقال له حمزة سرق وقامت عليه البينة فهم عبد الملك بقطع يده فكتب اليه حمزة من السجن يقول (شعر)

يدى ياأمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مقاما يشينها

فلا خير فى الدنيا وكانت خبيثة ... إذا ماشمال فارقتها يمينها

قال فأبى عبدالملك الا قطعه فدخلت عليه أم حمزة وقالت ياأميرالمؤمنين بنى وكاسبى وواحدى فقال لها عبد الملك بئس الكاسب لك هـذا حد من حدود الله تعالى فقالت ياأمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفرالله منها فقال عبد الملك ادفعوه اليها وخلى سبيله (شعر)

إذا ماطاش حلمك عن عدو ... وهان عليك هجران الصديق

فلست إذا أخا عفووصفح ... ولالاخ على عهد وثيق

إذا زل الرفيق وأنت عنى ... بلا رفق بقيت بلا رفيق

إذا أنت اتخذت أخا جديدا ... لما أنكرت من خلق عتيق

فما تدرى لعلك مستجير ... من الرمضاء فر إلى الحريق

فكم من سالك لطريق أمن ... أتاه مايحاذره فى الطريق

وشتم رجل رجلا فقال له هذا لاتغرق فى شتمنا ودع للصلح موضعا فانى أبيت مشاتمة الرجال صغيرا فلن أحييها كبيرا وإنى لا أكافىء من عصى الله فى بأكثرمن أن أطيع الله فيه (وحكى) عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن غلاما له وقف يصب الماء على يديه فوقع الابريق من يدالغلام فى الطست فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفراليه نظر مغضب فقال يامولاى والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظى قال والعافين عن الناس قال قد عفوت عنك قال والله يحب المحسنين قال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى وقيل لما قدم نصربن منيع بين يدى الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال ياأميرالمؤمنين اسمع منى كلمات أقولها قال قل فأنشأ يقول

زعموا بأن الصقر صادف مرة ... عصفور برساقه التقدير

فتكلم العصفور تحت جناحه ... والصقر منقض عليه يطير

إنى لمثلك لاأتمم لقمة ... ولئن شويت فاننى لحقير

فتهاون الصقر المدل بصيده ... كرما وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله (قال الشاعر)

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزهم ... عنه فان جحود الذنب ذنبان

(وقال بعضهم)

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ... وتاب عما قد جناه واقترف

لقوله قل للذين كفروا ... ان ينتهوا يغفرلهم ماقدسلف

(وقال آخر)

إذا ذكرت أياديك التى سلفت ... مع قبح فعلى وزلاتى ومجترى

فأقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال للعجوز لم أحظ فى هذه الليلة بمؤانستك فقالت قد جرحت قلبى لقولك لى هان على الطليق مالقى الأسير ولو اعتبرت باطن حالى لعلمت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع لى أحدثك واعلم أيها الفتى أنى كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لى محبا فكنت معه فى أرغد عيش وولدت له أولادا كثيرة فغضب الملك على زوجى لأمر كان منه فقتله وقتل أولادى الذكور وباعنى أنا وبناتى فاشترانى هذا الفارس الذى عـدا عليك واحتملنى إلى هـذه البلدة وأساء إلى وكلفنى من العمل مالا أطيق ولى معه على هذه الحالة سبع سنين ثم فررت منه فظفر بى فقطع يدى وعاود عسفى ومعطرتى وقد عزمت على تخليصك الليلة وما أشك أنه بقاتلى وجل قصدى ذلك لأجل الراحة مما أنا فيه ولأجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج اليك وأنا فى غاية الحيرة من الفزع والجزع ثم إنها فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكينا لتقتل نفسها فقال لها عين أهله ان تركتك تقتلين نفسك فقد شاركتك فى دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومى اذهبى معى لكى تنجوا معا

أو نعطب معا فقالت ان كبر سنى وضعف بصرى يمنعانى من اتباعك فقالت لها عين أهله ان الليل متسع والموضع الذى أنا فيه قريب ولى قوة على حملك فقالت له العجوز اذا عزمت على هذا فانى لا أحوجك إلى حملى وخرجا معا فلم

يتقض الليل حتى بلغا حيث أمنا فجزاها عين أهله خيرا على ماصنعت واتخذها أما فهذا ما بلغنى من ذلك فقال المطران ما أعجب أحاديثك أيها الحكم ولقد وددت انى لا أفارقك أبدا ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ففهم أن الخشف مثل لسابور وأن الغزال الكبير مثل للوزير وأن خروج الخشف مع الغزال إلى الصحراء وحصول الخشف فى الاخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر وان نفار الخشف عن الغزال لسوء ظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به إلى المدينة ليلا وان المدينة قريبة منهما وأنه يحمله ان عجز عن المشى فأيقن سابور بالفرج ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ بها الطعام للمطران وبها الموكلون بقية سابور نائمون ينتظرون الطعام فتحيل إلى أن التى فى الطعام مرقدا قوى الفعل

ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ماجرت به العادة فلم تكن الا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير

أكاد أقتل نفسى ثم يدركنى علمى بانك مجبول على الكرم

وروى أن عمر رضى الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره فشتمه السكران فرجع عنه فقيل له ياأمير المؤمنين لما شتمك تركته قال انما تركته لانه أغضبنى فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسى فلا أحب أن أضرب مسلما لحمية نفسى وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول

وانا الكاتبونا وان أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلى سبيله وأكرمه * وقال الرشيد لاعرابى بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة قال بحلمه عن سفيهنا وعفوه عن مسيئنا وحمله عن ضعيفنا لامنان اذا وهب ولا حقود اذا غضب رحب الجنان سمح البنان ماضى اللسان قال فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال والله لو كانت هذه فى هذا الكلب لاستحق بها السودد * وقيل لمعن بن زائدة المؤخذ بالذنب من السودد قال لاولكن أحسن ما يكون الصفح عن عظم جرمه وقل شفعاؤه ولم يجد ناصرا وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وان عظمت منه على الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن اجابته نفسى وان لام لائم
وأما مثلى فان زل أوهفا تفضلت أن الحر بالفضل حاكم

وقال الاحنف بن قيس لابنه يابنى إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه فان أنصفك والا فاحذره (قال الشاعر)

إذا كنت مختصا لنفسك صاحبا فمن قبل ان تلقاه بالود أغضبه
فان كان حال القطيعة منصفا والا فقد جربته فتجنبه

ومن أمثال العرب احلم تسد (قال الشاعر)

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا حتى يذل وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة لاصفح ذل ولكن صفح اكرام

(وقال آخر) وجهول رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الاحنف أياكم ورأى الاوغاد قالوا وما رأى الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا * وقال رجل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه لأسبنك سبا يدخل معك قبرك فقال معك والله يدخل لامعى وقيل ان الاحنف سبه رجل وهو يماشيه فى الطرق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال له ياهذا ان كان قد بقى معك شىء فهات وقله ههنا فانى أخاف أن يسمعك فتيان الحى فيؤذوك ونحن لانحب الانتصار لانفسنا وقال لقمان لابنه يابنى ثلاثة لايعرفون الا عند ثلاثة لايعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا اخوك الا عند الحاجة اليه ومن الشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير

إذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليما أو أصابك جاهل

(وقال آخر) وإذا بغى باغ عليك بجهله ... فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

(وقال آخر) قل ما بدا لك من صدق ومن كذب ... حلمي أصم وأذني غير صماء

ويروى في بعض الأخبار أن ملكا من الملوك أمر أن يصنع له طعام وأحضر قوما من خاصته فلما مد السماط أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك فأمر بضرب عنقه فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له ويحك ماهذا فقال أيها الملك انما صنعت هذا شحا على عرضك وغيرة عليك لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده فتنسب إلى الظلم والجور فصنعت هذا الذنب لتعذر في قتلي وترفع عنك الملامة قال فأطرق الملك مليا ثم رفع اليه وقال ياقبيح الفعل ياحسن الاعتذار قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك أذهب فأنت حر لوجه الله تعالى

(وحكى) عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالانفاق على علمه والمشهود في الآفاق بعفوه وحلمه أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبا لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة لحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال السلام عليك ياأمير المؤمنون ورحمة الله وبركاته فقال المأمون لاسلم الله عليك ولاقرب دارك استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام فقال له إبراهيم مهلا ياأمير المؤمنين فان ولي الثأر محكم في القصاص والعفو اقرب للتقوى ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فان أخذت فبحقك وأن عفوت فبفضلك والفضل أولى بك ياأمير المؤمنين ثم قال هذه الابيات

ذنبي اليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بعفوك عنه
أن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال ياإبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى اعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل ولقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه لاتثريب عليك اليوم ثم أمر بفك قيوده وادخاله الحمام وازالة شعثه وخلع ورد أمواله جميعا اليه فقال فيه مخاطبا

رددت مالي ولم تبخل علي به ... وقبل ردك مالي حقنت دمي
فان جحدتك ما أوليت من كرم ... أني لبالؤم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث اليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد أيها الأمير أنشدك الله لا تقتلني فوالله اني لأعول أربعا وعشرين امرأة مالهن كاسب غيري فرق لهن واستحضرهن وإذا واحدة منهن كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا ابنته فاسمع ياحجاج مني ما أقول ثم قالت

أحجاج إما أن تمن بتركه ... علينا وإما أن تقتلنا معا
أحجاج لا تفجع به ان قتلته ... ثمانا وعشرا اثنتين وأربعا

إلى فتح باب البقرة واستخرج سيده أزال والجامعة عن عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتهيا معا إلى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير اليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك ثم عرفهم نفسه فابتدروا لهما وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم فاذا ضربت نواقيس النصارى الضرب الأول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم فاذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون بأجمعهم فامتثلوا أمره ثم أن سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم مما يلي الجهة التي فيها أخبية قيصر فلما ضربت النواقيس وضرب الثاني حملوا من كل وجهة وقصد سابور أخبية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهموهم وأخذ سابور قيصر أسيرا وغنم جميع ما في عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينج من جنوده إلا اليسير ثم عاد سابور إلى مدينته ودار مملكته فقسم تلك الغنائم بين أهل عسكره وأحسن إلى حفظة ملكه وفوض جميع اموره إلى الوزير ثم انه احضر قيصر فلاطفه واكرمه وقال له اني مبق عليك كما ابقيت علي ومجازيك على التضييق ولكن آخذك باصلاح ما افسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك من أسارى الفرس فضمن

له جميع ذلك ووفى به لقما أتم سابور ما أراد من ذلك كله أحسن إلى قيصر وأطرفه وجهزه إلى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد إلى طاعته انتهى (ومن لطائف المنقول قصة أرينب بنت اسحق زوج عبدالله بن سلام)

كان عبدالله بن سلام واليا بالعراق من قبل معاوية وكانت أرينب بنت اسحق زوجا له وهى من اجل نساء عصرها وأحسنهن أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد بن معاوية قد هام بجمالها وأدبها على السماع بما بلغه عنها من حسن الخلق والخلق وفتن بها فلما عيل صبره خص بسره خصيصا بمعاوية اسمه رفيف فذكر ذلك رفيف لمعاوية وذكر شدة شغف يزيد بها فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن امره فبث له شأنه فقال معاوية مهلا يا يزيد قال علام فأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل فقال معاوية وأين حجاك ومروءتك فقال له يزيد قد عيل الحجى وقذا الصبر قال له يا بنى ساعدنى على امرك بالكتمان والله بالغ امره وكانت أرينب بنت اسحق قد سار بذكر جمالها الركبان وضربت بها الأمثال فأخذ معاوية فى الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه وينال غرضه ومناه فكتب إلى عبد الله بن سلام يستحثه على الحضور لمصلحة عينها له وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو الدرداء صاحبا رسول الله ﷺ فلما قدم عليه عبد الله بن سلام الشام أحله معاوية منزلا حسنا ونقله اليه وبالغ فى اكرامه ثم قال لأبى هريرة وأبى الدرداء ان بنتى قد بلغت وأريد انكاحها وقد رضيت فمن

احجاج لاتترك عليه بناته وخالاته يندبنه الدهر اجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبدالملك وأمر له بصلة * ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أوشبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى الك وجه عند هذا الامير فاستأذن لى عليه فاستأذن له عمر فلما دخل قال هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين ان الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه وحين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله تعالى (وحكى أن رجلا زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له الف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك انها خط الفضل فشرع فى أن يزن له الالف دينار وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت قال لا قال جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل اعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة فأشرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا فى أمره فالتفت اليه الفضل وقال له طب نفسا وامض إلى سبيلك آمنا على نفسك فقبل الرجل يده وقال له سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة ثم اخذ المال ومضى فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الاخلاق الجميلة والجليلة ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم واكرمهم خلقا وأكثرهم تجاوزا وصفحا وأرحمهم للعثر عليه نجحا صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين وأما ما جاء فى العتاب فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على زلة وقد مدحه قوله فقالوا والعتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة وقد قال أبو الحسن بن منقذ (شعرا)

أسطو عليه وقلبى لو تمكن من ... يدى غلهما غيظا إلى عنق
وأستعير له من سطوتى ... وأين ذلا لهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم قال اياس بن معاوية خرجت فى سفر ومعى رجل من الاعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا وتعاتبا إلى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما انعما عيشا ان المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير فى شىء ثمرته العداوة وقال الشاعر

فدع ذكر العتاب فرب شر ... طويلا هاج أول العتاب

وقيل العتاب من حركات الشوق وانما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر

علامة ما بين المحبين فى الهوى ... عتابهم فى كل حق وباطل

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله يقول

عرضنا انفسنا عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا رفعناها لعزت ... لكن كل معروض مهان

(وقال آخر يعاتب صديقه)

وكتب إذا ما جئت ادنيت مجلسى ... زوجهك من البشاشة يقطر

فمن لي بالعين التي كنت مرة ... إلي بها في سالف الدهر تنظر

(وقال أبو الحسن بن منقذ)

أخلاقك الغر السجايا مالها ... حملت قذى الواشين وهي سلاف
ومرآة رأيك في عبيدك مالها ... صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه

اقرأ كتابك واعتبره قريبا ... فكفى بنفسك لي عليك حسيبا
أكذا يكون خطاب إخوان الصفا ... ان أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذري ان أجبت بمثله ... أو كنت بالعتب العنيف مجيبا
لكنني خفت انتقاص مودتي ... فيعد احساني إليك ذنوبا

(وقال آخر) أراك إذا ما قلت قولا قبلته ... وليس لأقوالي لديك قبول
وما ذاك إلا أن ظنك سيء ... بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلا قول الحماسي تائها ... بنفسك عجبا وهو منك قليل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فناولته اضاقة ثم ولي عملا فأثرى فقصده محمد مسلما فرأى منه تغيرا فكتب إليه

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الاثراء منك خلائقا ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

(وقال آخر في المعنى) دعوت الله أن تسمو وتعلو ... علو النجم في أفق السماء
فلما أن سموت بعدت عني ... فكان إذا على نفسي دعائي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرما وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال

عتبت على سلم فلما فقدته ... وصاحبت أقواما بكيت على سلم
رجعت إليه بعد تجريب غيره ... فكان كبرء بعد طول من السقم

(وقال مسلم بن الوليد) ويرجعني إليك إذا نأت بي ... دياري عنك تجربة الرجال

(وقال أبو الحسن القابسي)

إذا أنا عاتبت الملوم فانما ... أخط بأقلامي على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن ... مودته طبعا فصارت تكلفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الصديق أهون من فقده وما أحسن ما قيل في العتاب

وفي العتاب حياة بين أقوام ... وهو المحك لذي لبس وابيا

فلم شيء أحسن من معاتبة الأحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السابع والثلاثون في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم)

أرجع دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال جل ذكره وتقدس اسمه الذين يوفون بعهد

عبد الله بن سلام لدينه وشرفه وفضله وأدبه وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ولكن أرجو أن لا تخرج عن رأيي إن شاء الله تعالى فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذي قال لهما معاوية ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله ابن سلام وانكاحي إياك منه وحضاك على المسارعة إلى رضائي فقولي لهما عبد الله بن سلام كفء كريم غير أن تحته أرينب بنت اسحق وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ولست نفاعة حتى يفارقها وأما أبو الدرداء وأبو هريرة فانهما لما وصلا إلى عبد الله بن سلام أعلماه بما قال لهما معاوية فردهما خاطبين عنه فلما مثلا بين يدي معاوية قال اني كنت أعلمتكما اني جعلت لها في نفسها شورى فادخلا عليها وأعلماها بما رأيت لها فدخلا عليها وأعلماها بذلك فأبدت ما قرره أبوها عندهما من قبل فعادا إلى عبد الله بن سلام فأعلماه بذلك ففهم المراد وأشهدهما عليه بطلاق أرينب وبعثهما إليه خاطبين فلما دخلا على معاوية أعلماه بطلاق أرينب فاظهر معاوية كراهية ذلك وقال ما استحسنت طلاق زوجته ولا أحببته فانصرفا في عافية وغودا وكتب إلى ابنه يزيد يعلمه بما كان من طلاق عبد الله ابن سلام لأرينب بنت اسحق وعاد بعد ذلك أبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها وهو يقول

الله ولا ينقضون الميثاق وقال جل وعلا وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقال تعالى وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون * وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة يعظم صاحبه فى العيون وتصدق فيه خطرات الظنون ويقال الوعد بوجه والانجاز محاسنه والوعد سحابة والانجاز مطره وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لكل شىء رأس ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا

اقلت فى شىء نعم فأتمه ... فان نعم دين على الحر واجب
والافقل لا تستريح وترح بها ... لئلا يقول الناس انك كاذب

(وقال) آخر لا كلف الله نفسا فوق طاقتها ... ولا تجود يد الا بما تجد
فلا تعد عدة الا وفيت بها ... واحذر خلاف مقال للذى تعد

وقال اعرابى وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطال وتعليل وقال أعرابى أيضا العذر الجميل خير من المطل الطويل * ومدح بشار خالد ابن برمك فأمر له بعشرين الفا فابطأت عليه فقال لقائده أقمنى حيث يمر فاقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول

أظللت علينا منك يوما سحابة ... أضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع ... ولا غيثها يأتى فتروى عطاشها

فقال لا تبرح حتى تؤتى بها وقال صالح اللخمى

لئن جمع الآفات فالبخل شرها ... وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير فى وعد إذا كان كاذبا ... ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل

وقيل ماتت للهذلى أم ولد فامر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له ان أمير المؤمنين موجه اليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلى فقال المنصور وهو بالمدينة انى أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لى من يطوف بى فقال الهذلى أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص

يا بيت عاتكة الذى اتعزل ... حذر العدا وبه الفؤاد موكل
انى لامنحك الصدود واننى ... قسما اليك مع الصدود لأميل

فنكر المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فاذا فيها

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق اللسان يقول مالا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى فأنجزه له واعتذر اليه وقال الشاعر :

تعجيل وعد المرء اكرومة ... تنشر عنه أطيب الذكر
الحر لا يمطل معروفه ... ولا يليق المطل بالحر

لم يكن لى ان أكرهها وقد جعلت الشورى فى نفسها فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها ذلك وذكرت فضله وشرفه وكرمه ومروءته فقالت جف القلم بما هو كائن ولا أنكر شرفه وفضله وإنى سائلة عنه حتى اعرف دخيلة خبره ولا قوة إلا بالله فان يك صدر هذا اليوم ولى فان غدا لناظره قريب ثم تزايد حديث الناس بطلاق أرينب وخطبة ابنة معاوية واستحث عبد الله أبا الدرداء وأبا هريرة فاتياها فقال لها اصنعى ما أنت صانعة واستخيرى الله فقالت أرجو والحمد لله ان يكون الله قد اختار لى فانه لا يكل الى غيره وقد سبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من استشرته فيه فنهم الناهى عنه والآمر به فلما بلغه كلامها علم أنها حيلة وانه مخدوع وقال متعزيا ليس لأمر الله راد ولعل ما سرورا به لا يدوم لهم سروره قال وذاع أمره وفشا فى الناس وقالوا خدعه معاوية حتى طلق امرأته لغرض ابنه بئس ما صنع ثم أن معاوية بعد انقضاء أيامها المعلومة وجه أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما فقال ابو الدرداء إذا قدم العراق ما ينبغى لذى عقل أن يبدأ بشىء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة إذا دخل موضعا هو فيه فقصد الحسين رضى الله عنه فلما رآه قام اليه وصافحه اجلالا وقال

وقال آخر : ولقد وعدت وأنت أكرم واعد … لاخير فى وعد بغير تمام
أنعم على بما وعدت تكرما … فالمطل يذهب بهجة الانعام

وقال آخر : لعبدك وعد قد تقدم ذكره … فاوله حمـــد وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها … فمالك عن تأخير مكرمة عذر

وقال آخر : وميعاد الكريم عليه دين … فلا ترد الكريم على السلام
يذكره سـلامك ماعليه … ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر : شكاك لسانى ثم أمسكت نصفه … فنصف لسانى بامتداحك ينطق
فان لم تنجز ما وعدت تركتنى … وباقى لسانى بالمذمة مطلق

وقال آخر : باتت لوعدك عينى غير راقــدة … والليل حى الدياجى منبت السحر
هذا وقد بت من وعد على ثقة … فكيف لو بت من هجر على حذر

وقال آخر : نذكر بالرقاع إذا نسينا … ويأبى الله أن تنسى الكرام

(وما الوفاء بالعهود رعاية الذمم) فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع مايطرب السماع ويشنف المسامع كقضية الطائى وشرايك نديم النعمان بن المنذر وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن اليه وأغناه وكان هذا الطائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئا لصبيته وصغاره فبينما هو كذلك اذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه فلما رآه الطائى علم انه مقتول وان دمه مطلوب فقال حيا الله الملك ان لى صبية صغارا وأهلا جياعا وقد ارقت ماء وجهى فى حصول شىء من البلغة لهم وقد أقدمنى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والاهل وهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره فان رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل اليهم هذا القوت وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعا ثم اعود إلى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله غير انه قال لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فان لم ترجع قتلناه وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائى إلى شريك وقال له

يا شريك بن عدى … مامن الموت انهزام
من لاطفال ضعاف … عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار … وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم … أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جدلى … بضمان والتزام
ولك الله بأنى … راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى أصلح الله الملك على ضمانه فمر الطائى مسرعا وصار النعمان يقول لشريك ان صدر النهار قد ولى ولم يرجع وشريك يقول ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل فقال شريك هذا شخص قد لاح مقبلا وأرجوا أن يكون الطائى فان لم يكن فأمر الملك ممتثل قال فبينماهم كذلك وإذا بالطائى قد اشتد عدوه فى سيره مسرعا حتى وصل فقال خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى ثم وقف قائما وقال أيها الملك مر بأمرك فاطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال والله مارأيت أعجب منكما أنت ياطائى فما تركت لاحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ولاذكرا يفتخر به وأما أنت ياشريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى

لصحبته لجده ﷺ وقال آتى بك ياأبا الدرداء قال وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد أرينب بنت اسحق فرأيت على حقا أن لاأبدأ بشىء قبل تسلام عليك فشكره الحسين على ذلك وأثنى عليه وقال لقـــد ذكرت نكاحها وأردت الارسال اليها إذا انقضت عدتها وقد أتى الله بك فاخطب على بركة الله على وعليه وهى أمانة فى عنقك واعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعل ان شاء الله فلما دخل قال أيتها المرأة ان الله خلق الامور بقدرته وكونها بعزته وجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا فليس لاحد عن قدر الله مخلص فكان ماسبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله ابن سلام على غير قياس ولعل ذلك لايميرك وجعل الله فيه خيرا كثيرا وقد خطبك أمير هذه الامة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد ابن معاوية والحسين بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من أقر به من امته وسيد شباب اهل الجنة فاختارى أيهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت ياأبا الدرداء لوجاءنى هذا الامر وانت غائب لاشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك فأما إذا كنت أنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى فيه بعـــد الله اليك وجعلته فى يديك فاختر ارضاهما لربك والله شاهد عليك فاقض ولايصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا فقال ابو الدرداء ايتها المرأة انما على اعلامك ولك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله

عنك إنما أنا بنت أخيك ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما طوقتك به فقد وجب عليك أداء الأمانة فلم يجد بداً من القول فقال يابنية ابن بنت رسول الله صلى الله (٢٠٠) عليه وسلم أحب إلى فى ذلك وأرضى عندى والله أعلم وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه على شفتى الحسين فضعى شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه قالت قد اخترته ورضيته فتزوجها الحسين بن على عليهما السلام فساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية ما فعله أبو الدرداء فعظم عليه وقال من يرسل ذا بله وعمى ركب خلاف ما يهوى وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها ذهبا وكان معاوية قد أطرحه وقطع عنه جميع روادفه لقوله انه خدعه حتى طلق امرأته فلم يزل يجفوه حتى قل ما بيده فرجع إلى العراق فلما قدمها لقى الحسين فسلم عليه ثم قال لقد علمت ما كان من خبرى وخبر أرينب وكنت قبل فراقى إياها استودعتها مالا وكان الذى كان ولم أقبضه ووالله ان ظنى بها جميل فذاكرها فى أمرى فان الله يجزيك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف إلى أهله قال لها قدم عبيد الله بن سلام وهو كثير الثناء عليك فى دينك وحسن صحبتك فسرنى ذلك وأعجبنى وذكر أنه استودعك مالا فقالت صدق استودعنى مالا لاأدرى لمن هو وانه لمطبوع عليه بخاتمه وها هو ذا فادفعه اليه بطابعه فأثنى عليه الحسين خيرا وقال ألا أدخله عليك حتى

الكرماء فلا أكون أنا ألأم الثلاثة الا وانى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ونقضت عادتى كرامة لوفاء الطائى وكرم شريك فقال الطائى

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى ... فعددت قولهمو من الاضلال

انى امرؤ منى الوفاء سجية ... وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان ما حملك على الوفاء وفيه اتلاف نفسك فقال دينى فمن لا وفاء فيه لادين له فأحسن اليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرما إلى أهله وأناله ما تمناه (ومن ذلك) ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض اخوانه يوما فقال ياأمير المؤمنين ان عبدالله بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله فحصل عند المأمون شىء من كلام أخيه من جهة عبدالله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره فاستحضر شخصا وجعله فى زى الزهاد والنساك الغزاة ودسه الى عبد الله بن طاهر وقال له امض الى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوى واذكر مناقبه ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمد العلوى واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته وائتنى بما تسمع ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه فلما نزل من الركوب وجلس فى مجلسه خرج الحاجب اليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له لقد فهمت ما قصدته فهات ما عندك فقال ولى الأمان قال نعم فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد فقال له عبدالله أو تنصفنى فيما أقوله لك قال نعم قال فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة قال نعم قال فيجب على وأنا فى هذه الحالة التى تراها من الحكم والنعمة والولاية ولى خاتم فى المشرق وخاتم فى المغرب وأمرى فيما بينهما مطاع وقولى مقبول ثم انى التفت يمينا وشمالا فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضا على أفتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة وتقول اغدر وجانب الوفاء والله لودعوتنى إلى الجنة عيانا لما غدرت ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له فسكت الرجل فقال له عبد الله ما أخاف إلا على نفسك فارحل من هذا البلد فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسره ذلك وزاد فى إحسانه اليه وضاعف انعامه عليه (ومما) يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه فى تاريخه قال قال لى أبو الفتح المطيق كنا جلوسا عند كافور الاخشيدى وهو يومئذ صاحب مصر والشام وله من البسطة والمكنة ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا وقال امضوا الساعة إلى عقبة النجارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك فان كان حيا فاحضروه وان كان قد توفى فسلوا عن أولاده واكشفوا أمرهم قال فمضينا إلى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات وترك بنتين احداهما متزوجة والأخرى عاتق فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك فسير فى الحال واشترى لكل واحدة منهما دارا وأعطاهما مالا جزيلا وكسوة فاخرة وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقا وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك

وقال اتعلمون سبب هذا قلنا لا فقال اعلموا أنى مررت يوما بوالدهما المنجم وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب وأنا بحالة رثة فوقفت عليه فنظر إلى واستجلبنى وقال أنت تصير إلى رجل جليل القدر وتبلغ منه مبلغا كبيرا وتنال خيرا كثيرا ثم طلب منى شيئا فأعطيته درهمين كانا معى ولم يكن معى غيرهما فرما بهما إلى وقال أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين ثم قال وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه فاذكرنى إذا صرت إلى الذى وعدتك به ولا تنس فقلت له نعم فقال عاهدنى أنك تفى لى ولا يشغلك ذلك عن افتقادى فعاهدته ولم يأخذ منى الدرهمين ثم انى شغلت عنده بما تجدد لى من الامور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل على وقال لى أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك واتمام وعدك لا تغدر فيغدر بك فاستيقظت وفعلت ما رأيتم ثم زاد فى احسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما وعده والله أعلم

(ومما) أسفرت عنه وجوه الاوراق وأخبرت به الثقات فى الآفاق وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال فى الوفاء بالاتفاق حديث السموءل بن عاديا وتلخيص معناه أن امرىء القيس الكندى لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموءل دروعا وسلاحا وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموءل فقال السموءل لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع اليه منها شيئا فعاوده فأبى وقال أغدر بذمتى ولا أخون أماناتى ولا أترك الوفاء الواجب على فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموءل فى حصنه وامتنع به فحاصره ذلك وكان ولد السموءل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموءل فأشرف عليه من أعلى الحصن فلما رآه قال له ان ولدك قد أسرته وهاهو معى فان سلمت إلى الدروع والسلاح التى لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت اليك ولدك وان امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت فقال له السموءل ما كنت لأخفر ذمامى وأبطل وفائى فاصنع ماشئت فذبح ولده وهو ينظر ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا واحتسب السموءل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس سلم اليهم الدروع والسلاح ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب اليه من حياة ولده وبقائه فصارت الامثال فى الوفاء تضرب بالسموءل وإذا مدحوا أهل الوفاء فى الانام ذكر السموءل فى الأول وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتلقه بيديه وأعلى قيمة من جعله نصب عينيه واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه واستطلق الأيدى المقبوضة عنه بالاحسان اليه

(ومما) وضع فى بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقلته الأصاغر عن الأكابر وتداولته الألسنة من الاوائل والأواخر رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لى خذ معك فلانا وفلانا وسماهما أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقوله لك فانه قد بلغنى أن شيخا يحضر ليلا إلى دور البرامكة وينشد شعرا ويذكرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تردوا هذه الخرابات فاستتروا خلف بعض الجدران فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئا فائتونى به قال فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد وإذا شيخ وسيم له له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول

تبرئنى منه ثم لقى عبد الله فقال ما أنكرت مالك وزعمت أنه كما دفعته اليها بطابعك فادخل ياهذا اليها واستوف مالك منها بحيث تحصل البراءة من الطرفين فلما دخل عليها قال لها الحسين هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأخرجت اليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت له هذا مالك فشكر وأثنى وخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحثى لها من ذلك جانبا كبيرا وقال لها والله هذا قليل منى فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما ثم قال أشهد الله انها طالق ثلاثا اللهم أنت تعلم أنى لم أستنكحها رغبة فى مالها ولا فى احلالها لزوجها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها فى مهرها بعدما عرضته عليه وقال الذى أرجوه من الثواب خير لى فلما انقضت عدتها تزوجها عبد الله ابن سلام وعادا على ما كانا عليه من حسن الصحبة إلى أن فرق الموت بينهما هكذا نقله ابن بدرون فى تاريخه والله أعلم

(ومن غرائب المنقول وعجائبه) عن الامير بدر الدين أبى المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب أنه قال حكى الأمير شجاع الدين محمد الشيرازى متولى القاهرة فى الأيام الكاملية سنة ثلاث وستمائة قال بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الاشكال فقلنا له هؤلاء أولادك فقال نعم وكأنى بكم وقد

أنكرتم بياضهم وسوادى فقلنا له نعم قال هؤلاء أمهم افرنجية آخذتها فى أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب فقلنا وكيف
أخذتها قال حديثى بها عجيب قلنا أتحفنا به قال زرعت كتانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه
خمسمائة دينار ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك فحملته إلى القاهره فلم يصل إلى أكثر من ذلك فأشير على بحمله إلى الشام فحملته فما زاد على تلك القيمة شيئا فوصلت به إلى عكا فبعت بعضه بالأجل والبعض تركته عندى واكتريت حانوتا ابيع فيه على مهل إلى حيث انقضاء المدة فبينما أنا ابيع اذمرت بى امرأة افرنجيه ونساء الافرنج يمشون فى الاسواق بلا نقاب فأتت تشترى منى كتانا فرايت من جمالها ما بهرنى فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت إلى بعد أيام فبعتها وسامحتها اكثر من المرة الأولى فتكررت إلى وعلمت انى أحبها فقلت للعجوز التى معها اننى قد تلفت بحبها واريد منك الحيلة فقالت لها ذلك فقالت تروح ارواحنا الثلاثة انا وأنت وهو فقلت لها قد سمحت بروحى فى حبها واتفق الحال على أن ادفع خمسين دينار صورية فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت نحن الليلة عندك فمضيت وجهزت ماقدرت عليه من مأكول ومشروب
وشمع وحلاوة فجاءت الافرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل ولم يبق غير النوم فقلت فى نفسى اما تستحى يتداولونى
من الله وأنت غريب تعصى الله مع نصرانية اللهم انى اشهدك انى قد عففت عنها فى هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت

ولما رأيت السيف جندل جعفرا ... ونادى مناد للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى ... عليهم وقلت الآن لاتنفع الدنيا

مع ابيات اطالها وردها فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له أجب امير المؤمنين ففزع فزعا شديدا وقال دعونى حتى أوصى وصية فانى لاأوقع بعدها بحياة ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح واخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه ثم سرنا به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين زجره وقال له من أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله فى خرائب دورهم وما تقوله فيها قال الخادم ونحن وقوف نسمع فقال ياأمير المؤمنين ان للبرامكة عندى ايادى خطيرة أفتأذن لى ان احدثك حديثى معهم قال قل ياامير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ورؤس أهلى اشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية وليس معنا مايباع ولا مايوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثويبات لى كنت قد اعددتها لاستمنع بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة فاذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زى وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت فى القوم ولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتى وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا داريحيى بن خالد ودخلت معهم وإذا غلام أمرد عذاراه خداه قد اقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون فى وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من الف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قدقرن بهامثلها من العنبر السلطانى فوضعوه بين يدى الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضى تكلم وزوج بنتى عائشة من ابن عمى هذا فخطب القاضى وزوجه وشهد أولئك الجماعة واقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله ياأمير المؤمنين ملء كمى ونظرت فاذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثناعشر رجلا فخرج الينا مائة واثناعشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها الف دينار ووضعوا بين يدى كل رجل منا صينية فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لاأجسر على أخذ الصينيه فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية فى يدى وقمت وجعلت التفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها فبينما انا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم ائتنى بذلك الرجل فرددت اليه فامر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى ثم امرنى بالجلوس فجلست فقال لى ممن الرجل فقصصت عليه قصتى فقال للخادم ائتنى بولد موسى فأتى به فقال له يابنى هذا رجل غريب فخذه اليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى على يدى وأدخلنى إلى دار من د ره فأكرمنى غاية الاكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس ان الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين فاقبضه اليك واكرمه ففعل ذلك واكرمنى غاية الاكرام فلما كان من الغد تسلمنى اخوه احمد ثم لم أزل فى أيدى القوم

يتداولونى عشرة أيام لاأعرف خبرعيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لى قم فاخرج إلى عيالك بسلام فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة انا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الأخير قال مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلى ألف ألف درهم وعشر آلاف دينار ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لايعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالايفى دخلهما به فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل اقصد خرابات القوم فاندبهم واذكر حسن صنيعهم إلى واشكرهم على إحسانهم فقال المأمون على بعمرو بن مسعدة فلما أتى به قال ياعمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم ياأمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته فى ضيعته قال كذا وكذا قال رد له كل ما استأديته منه فى مدته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال فعلا نحيب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له ياهذا قد أحسنا اليك فلم تبكى قال ياأمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة إذ لولم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى أتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل مافعل فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين قال إبراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك وإياهم فاشكر ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكره وقيل اذ أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه والى أوطانه وتشوقه الى إخوانه وكثرة بكائه على مامضى من زمانه قال الشاعر

سقى الله أطلال الوفاء بكفه ◦ فقد درست أعلامه ومنازله

(وقال آخر) أشدد يديك بمن بلوت وفاءه ◦ ان الوفاء من الرجل غزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمى كنت جالسا فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير وكنا نخوض فى الفقه مرة وفى المذاكرة مرة وفى أشعار العرب وأمثال الناس مرة فكنت لاأجد عند أحدما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم وحسن استماعه إذا حدث وحلاوة لفظه اذا حدث فخلوت معه ليلة فقلت له والله إنى لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك وإقبالك على جليسك فقال إن تعش قليلا فسترى العيون طامحة الى الأعناق ونحوى متطاولة فاذا صار الأمر الى فلعلك ان تنقل الى ركابك فلأملأن يديك فلما أفضت اليه الخلافة توجهت اليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر فلما رآنى أعرض عنى فقلت لعله لم يعرفنى أو عرفنى وأظهر لى نكره فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن أخرج الحاجب فقال أين مالك بن عمارة فقمت فأخذ بيدى وأدخلنى عليه فمد إلى يده وقال إنك تراءيت لى فى موضع لايجوز فيه الا ما رأيت فأما الآن فمرحبا وأهلا كيف وكنت بعدى فأخبرته فقال لى اتذكر ما كنت قلت لك قلت نعم فقال والله ماهو بميراث وعيناه ولا أثر رويناه ولكنى أخبرك بخصال منى سمت بها نفسى إلى الموضع الذى ترى ماخنت

فنامت إلى الصبح وقامت فى السحر وهى غضبى ومضت ومضيت أنا إلى حانوتى فجلست فيه وإذا هى قد عبرت على هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر فهلكت فقلت فى نفسى من هو أنت حتى تترك هذه البارعة فى حسنها ثم لحقت العجوز وقلت ارجعى فقالت وحق المسيح ما أرجع اليك الا بمائة دينار فقلت نعم رضيت فوزنت مائة دينار فلما حضرت الجارية عندى لحقتنى الفكرة الاولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ثم مضت ومضيت الى موضعى ثم عبرت بعد ذلك على وكانت مستعربة فقالت وحق المسيح مابقت تفرح بى عندك الا بخمسمائة دينار أو تموت كمدا فارتعدت لذلك وعزمت انى أصرف عليها ثمن الكتان جميعه فبينما أنا كذلك والمنادى ينادى معاشر المسلمين ان الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين الى جمعة فانقطعت عنى وأخذت أنا فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على مابقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفى قلبى من الافرنجية مافيه فوصلت الى دمشق وبعت البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومن الله بكسب وفر وأخذت أتجر فى الجوارى عسى أن يذهب مابقلبى من الافرنجية فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ماجرى من وقعة حطين وأخذه جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل باذن الله تعالى فطلب منى جارية للملك الناصر فأخذت جارية حسناء فاشتريت له منى بمائة

دينار فأوصلوا إلى تسعين ديناراً وبقيت عشرة دنانير فلم يلتقوها فى الخزانة ذلك اليوم لانه انفق جميع الاموال فشاوروه على ذلك فقال امضوا به إلى الخزانة التى فيها السبي من نساء الافرانج فخيروه فى واحدة منها يأخذها بالعشرة الدنانير التى له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتى الافرنجية فقلت اعطونى هاتيك فأخذتها ومضيت إلى خيمتى وخلوت بها وقلت لها أتعرفينى قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر الذى جرى لى معك ماجرى وأخذت منى الذهب وقلت ما بقيت تبصرنى الا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فاسلمت وحسن إسلامها فقلت والله وصلت اليها الا بأمر القاضى فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ماجرى فعجب وعقد لى عليها وباتت تلك الليلة عندى فحملت منى ثم رحل العسكر وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الاسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيراً من الرجال والنساء ولم يبق الا التى عندى فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندى وطلبت منى فحضرت وقد تغير لونى وأحضرتها معى بين يدى مولانا السلطان الملك الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين إلى بلادك أو الى زوجك فقد فككنا اسرك واسر غيرك فقالت يامولاى السلطان انا قد اسلمت وحبلت وها بطنى كما تروه

داود قط ولا شمت بمصيبة عدو قط ولا أعرضت عن محدث حتى حديثه ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتى وقد فعل ثم عاد بغلام فقال له ياغلام بوئه منزلا فى الدار فأخذ الغلام بيدى وأفرد لى منزلا حسنا فكنت فى ألذ حال وانعم بال وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه فيرفع منزلتى ويقبل على ويحادثنى ويسألنى مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة فتغديت يوما عنده فما تفرق الناس نهضت قائما فقال على رسلك فقعدت فقال أى الامرين أحب اليك المقام عندنا مع النصفة فى المعاشرة والرجوع إلى أهلك ولك الكرامه فقلت ياأمير المؤمنين فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين وأعود اليهم فان أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الاهل والولد فقال لا بل أرى لك الرجوع اليهم والخيار لك بعد زيارتنا وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك أترانى قد ملأت يديك فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً إذا شئت صحبتك السلامة (ومن بولاء جلالة أمير المؤمنين وأمضاه طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة فقال له المنصور لله درك فلم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً * وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكى قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمسا عن متون غمامة متحيرين ننظر اليها فقال لها يزيد المهلب ياأمة الله هل لك فى أمير المؤمنين بعلا فنظرت الينا ثم انشأت تقول

فان تسألانى عن هواى فانه ... يحول بهذا القبر يا فتيان
وانى لأستحييه والتراب بيننا ... كما كنت أستحييه وهو يرانى

(ومن ذلك) ماروى عن نائلة بنت الفرافصة بن الاخوص الكلبى زوج عثمان رضى الله عنهما أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها وخطبها معاوية فردته وقالت ما يعجب الرجل منى قالوا ثناياك فكسرت ثناياها وبعثت بها إلى معاوية فكان ذلك مما رغب قريشا فى نكاح نساء بنى كلب * ولما احسن (ذلك) ماروى عن أبى بكار الاعمى وكان قد انقطع إلى آل برمك قال مسرور الكبير لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الاعمى يغنيه ويقول

فلا تحزن فكل فتى سيأتى ... عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت فى هذا والله قد أتيتك ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه فقال أبو بكار ناشدتك الله إلا ما ألحقتنى به فقلت له ما الذى حملك على هذا فقال أغنانى عن الناس فقلت حتى استأمر الرشيد ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار فقال هذا رجل فيه مصطنع أضممه اليك وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه اليه وكان يحيى بن خالد اذا أكد فى يمينه قال لا والذى جعل الوفاء أعز ما يرى قال أبو فراس بن حمدان الشاعر *

بمن يثق الانسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس الا اقلهم ... ذئابا على أجسادهن ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب فقال كان رحمه الله تعالى يعمل كذا وكذا فقال المنصور عليك لعنة الله تطأ بساطى وتترحم على عدوى فقال ان نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى فقال له المنصور ارجع ياشيخ فانى اشهد انك لوفى حافظ للخير ثم أمر له بمال فاخذه ثم قال والله

مصحب

مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته الف الف وقال له انج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين وقال والله لا ينتفع به أحد بعدك ه ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان ابن الحكم قالت زوجته ان لهدبة عندي وديعة فامهله حتى آتيك بها فقال اسرعي فان الناس قد كثروا وكان مـــروان قد جلس لهم بارزا عن داره فمضت إلى السوق وأتت إلى قصاب فقالت أعطني شفرتك وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك فأخذتها وقربت من حائط وارسلت ملحفتها على وجهها ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس فقالت أتراني ياهدبة متزوجة بعدما ترى فقال الآن طابت نفسى بالموت فجزاك الله من حليلة وفيه خيرا (ولنجعل) لهذا الباب من القضايا ختاما هو أجزها كلاما وأحسنها نظاما وأبينها حكما وأحكاما وهى قضية جمعت الأمرين وفاء وغدرا وعرفا ونكرا وخيرا وشرا ونفعا وضرا واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعده ففاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجا ولم يلق له من ضيق العذر مخرجا وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم وكان مطلعا على أحوال أحمد بن طولون عارفا بأموره عالما بوروده وصدوره فقال ما معناه أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه فأخذه اليه فلما مات أحمد بن طولون أحضر الأمير ابو الجيش اليه وقال له أنت عندى بمكانة أرعاك بها ولكن عادتى انى آخذ العهد على كل من أصرفه فى شيء انه لا يخوننى فعاهده ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن اليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن اليه واعتمد فى أمور بيوته عليه فقال له يوما يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتنى بها فمضى أحمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب فلما رآياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى احمد وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره فقال لها معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى وأخذ العهد على ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الامير وسلمها اليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للامير فأقامت أياما تجد من الأمير ما غيره عليها ثم انفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها وكان أولا مشغولا بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الخائبة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة الممجدة السعيدة المسعدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب أضرابها وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره فكبر عليها اعراضه عنها ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الأمير وقد

وما بقيت الأفرنج تتشفع بى فقال لها الرسول أيما أحب اليك هذا المسلم أو زوجك الأفرنجي فلان فأعادت عبارتها الأولى فقال الرسول لمن معه من الافرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول خذ زوجتك فولعت بها فطلبني ثانيا وقال أن أمها أرسلت معو وديعة وقالت أن ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة فقبلت الكسوة ومضيت إلى الدار وفتحت القماش فاذا هو قماشى بعينه قد سيرته لها أمها ووجد الصرتين الذهب الخمسين دينارا والمائة دينار كما هو بربطتى لم يتغيرا وهؤلاء الأولاد منها وهى التى صنعت لكم هذا الطعام (ومن لطائف المنقول عن المستجاد) قال الواقدى كان ابراهيم ابن المهدى قد ادعى الخلافة لنفسه بالرى وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندى ما حكاه إلى قال لما دخل المأمون الرى فى طلبي وجعل لمن أتاه بى مائة الف درهم خفت على نفسى وتحيرت فى أمرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فوقفت فى شارع غير نافذ وقلت إنا لله وإنا اليه راجعون أن عدت على أثرى يرتاب فى أمرى فرأيت فى صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب دار فتقدمت اليه هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح الباب فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة ثم أغلق الباب على ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة فى وأنه خرج ليدل على فبقيت على مثل النار فبينما أنا كذلك إذا اقبل

جمال عليه كل مايحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديدة وجرة نظيفة وكيزان جدد لحط عن الحال ثم التفت إلي وقال جعلني الله
فداك أنا رجل حجام وأنا أعلم أنك تتقرب مني لما أتولاه من معيشتي فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان

ارتدت من المكاتبة بجلبات نكرها وأعلنت بالبكاء بين يديه لاتمام كيدها ومكرها وقالت أن أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظا وغضبا وهم في الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله فتأنى في فعله واستحضر خادما يعتمد عليه وقال له إذا أرسلت اليك إنسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى ثم أن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في شربه لم يخاطره شيء ولا هجس هاجس في قلبه فلما مثل بين يدي الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التدبير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغني وبقية الندماء والخواص فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض في حاجة للأمير أمرني باحضارها في هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل على الأمير فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكا فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لاحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال ماهذا فقص عليه خبره وقعوده من المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وماكان من انفاذ الطبق وإرساله مع الفراش وإنه لا علم عنده غير ماذكره قال أتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ماجرى عليه فقال ايها الأمير إن الذي نم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الأعراض عن أعلام الأمير بذلك وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وماجرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فأقرت بصحة ماذكره أحمد فأعطاه أياها وأمره بقتلها ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه وضاعف احسانه اليه وجعل أزمة جميع مايتعلق به بيديه ٭ فانظر رحمك الله آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب وتنجي من قبضة التلف بعد امضاء القواضب ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده وهو بشر مثله وليس في الحقيقة بعبده واطلع الله عز وجل على صدق نيته دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا ممسك له من بعده وقالوا ليس شيء أوفى من القمرية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب الثامن والثلاثون في كتمان السر وتحصينه وذم افشائه)

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك الآية فلما أفشى عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت أخوته فحل به ماحل ٭ ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى فأوحى إلى عبده ماأوحى وقوله تعالى وماهو على الغيب بضنين أي

في حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قدر ما أذكر إني اكلت مثلها فلما قضيت أربي من الطعام قال هل لك في شراب فإنه يسلي الهم فقلت ماأكره ذلك رغبة في مؤانسته فأتى بقطر ميز جديد لم تمسه يد وجاءني بدست شراب مطينة وقال لي روق لنفسك فروقت شرابا في غاية الجودة وأحضر لي قدحا جديدا وفاكهة وابقالا مختلفة في طسوت فخار جدد ثم قال بعد ذلك اتأذن لي جعلت فداك أن أقعد ناحية وآتي بشراب فأشربه سرورا بك فقلت له افعل فشربت وشرب ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عودا مصفحا ثم قال ياسيدي ليس من قدري أن أسألك في الغناء ولكن قد وجبت على مروءتك حرمتي فإن رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأي فقلت ومن أين لك إني أحسن الغناء فقال ياسبحان الله مولانا أشهر من ذلك أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دله عليك مائة ألف درهم فلما قال ذلك عظم في عيني وثبتت مروءته عندي فتناولت العود وأصلحته وغنيت وقد مر بخاطري فراق أهلي وولدي بهتهم

وعيسى الذي أهدى ليوسف أهله ... وأعزه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا ... والله رب العالمين قدير

بحتهم وفى الحديث استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار لأن احراز الاموال منيعة بالأبواب والأقفال واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وحمل الأسرار اثقل من حمل الأموال فان الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشى به ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب مالايلحقه من حمل الأثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل إنسان مفتاح سره * ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها وأما الأسرار فانها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطوته وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقيل كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعا وقيل انفرد بسرك لاتودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وقال كعب بن سعد الغنوى

ولست بمبد للرجال سريرتى * ولا أنا عن أسرارهم بسؤل

وقال أبو مسلم صاحب الدولة :

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت * عنه ملوك بنى مروان إذ جهدوا * مازلت أسعى عليهم فى ديارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا * حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأسر رجل إلى صديقه حديثا ثم قال له أفهمت قال بل جهلت ثم قال له أحفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمانك للسر قال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر وقال المهلب أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ماأسر اليه ومن أحسن ماقيل فى كتمان السر قول الشاعر :

ولها سرائر فى الضمير طويتها * نسى الضمير بانها فى طيه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوى فقال :

انى كتمت حديث ليلى لم أبح * يوما بظاهره ولا بخفيه * وحفظت عهد ودادها متمسكا فى حبها برشاده أو غيه * ولها سرائر فى الضمير طويتها * نسى الضمير بأنها فى طيه

وقيل كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال وكما أنه لاخير فى آنية لاتمسك مافيها فكذلك لاخير فى إنسان لايمسك سره قال :

ومستودعى سرا كتمت مكانه * عن الحسن خوفا أن يتم به
وخفت عليه من هوى النفس شهوة * فأودعته من حيث لايبلغ الحسن

وقال قيس بن الحطيم :

أجود بمكنون التلاد واننى * بسرى عمن سالنى لضنين
وإن ضيع الاقوام سرى فاننى * كتوم الأسرار المشير أمين

فاستولى عليه الطرب المفرط وطاب عيشه كثيرا ومن شدة طربه وسروره. قال لى ياسيدى أتأذن لى أن أغنى ماسنح بخاطرى وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة فقلت هذا زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود وغنى

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا
فقالوا لنا ماأقصر الليل عندنا
وذاك لان النوم يغشى عيونهم
سريعا ولايغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى
جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما
نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فوالله لقد أحسست بالبيت قد سار بى وذهب عنى كل ما كان بى من الهلع وسألته أن يغنى فغنى

تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليل
وماضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
وانا لقوم لانرى القتل سبة
إذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلنى من الطرب مالا مزيد عليه إلى أن عاجلنى السكر فلم أستيقظ إلا بعد المغرب فعاودنى فكرى فى نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه فقمت وغسلت وجهى وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير لها قيمة فرميت بها اليه وقلت له استودعتك الله فانى ماض من عندك وأسألك أن تصرف مافى

هذه الخريطة فى بعض مهماتك ولك عندى المزيد ان آمنت من خوفى فاعادها على منكدا وقال ياسيدى ان الصعاليك منالاقدر لهم عندكم أآخذ على ماوهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندى ثمنا والله لئن راجعتنى فى ذلك لاقتلن نفسى فاعدت الخريطة إلى كمى وقد أثقلنى حملها فلما انتهيت إلى باب داره قال لى ياسيدى ان هذا المكان أخفى لك من غيره وليس فى مؤنتك على ثقل فاقم عندى إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته ان ينفق من تلك الخريطة ولم يفعل فاقمت عنده أياما على تلك الحالة فى ألذ عيش فتذممت من الاقامة فى مؤنته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالا وقمت فتزييت بزى النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف امر شديد وجئت لاعبر الجسر فاذا أنا بموضع مرشوش بماء فبصرنى جندى ممن كان يخدمنى فعرفنى فقال هذه حاجة المأمون فتعلق بى فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما فى ذلك الزلق فصار عبرة وتبادر الناس اليه فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت صار عا فوجدت باب دار وامرأة واقفة فى دهليز فقلت يا سيدة النساء احقنى دمى فانى رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتنى إلى غرفة مفروشة وقدمت لى طعاما لو قالت ليهدأ روعك فما علم بك مخلوق وإذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب واذا بصاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدوخ

(وقال جعفر بن عثمان)

ياذا الذى أودعنى سره	لا ترج أن تسمعه منى
لم أجره قط على فكرتى	كأنه لم يجر فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عنه ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاه فلمته إذا كان صدرى به ضيق وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر الرجل بسره فاذا حدث به أحدا قال اكتمه على قال الشاعر

إذا المرء أفشى سره بلسانه	ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه	فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال آخر

إذا ما ضاق صدرك عن حديث	وأفشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من أشفى حديثى	وسرى عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس لاتودع سرك إلى طالبه فالطالب للسر مذيع ولاتودع مالك عند من يستدعيه فالطالب للوديعة خائن . وقيل لاعرابى ما بلغ من حفظك للسر قال افرقه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه وأنساه كانى لم اسمعه وكان يقال أحزم الناس من لايفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه وقال حكيم قلوب الأحرار قبور الاسرار وقيل الطمأنينة إلى كل احد قبل الاختبار حمق وقال بعضهم

إذا ماغفرت الذنب يوما لصاحب	فلست معيدا ماحييت له ذكرا
إذا ما صاحب خان عهده	وعندى له سر مذيعا له سرا

واين هذا من قول القائل

ولاتودع الاسرار أذنى فانما	تصب ماء فى اناء مثلم

أو للقائل

ولا أكتم الاسرار لكن اذيعها	ولاأدع الاسرار تعلوا على قلبى
وان قليل العقل من بات ليلة	تقلبه الاسرار جنبا إلى جنب

وقال آخر

وانك كلما استودعت سرا	أنم من النسيم على الرياض

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

أناس أمناهم فنموا حديثنا	فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

(والله در المتنبى حيث قال)

وللسر منى موضع لا يناله	نديم ولا يفضى شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب التاسع والثلاثون فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول)

(الفصل الأول فى الغدر والخيانة قال رسول الله ﷺ أعجل الأشياء عقوبة البغى وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ المكر والخديعة والخيانة فى النار قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على انفسكم وقال تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه وقال تعالى ولايحيق المكر السىء إلا بأهله وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر وضاقت عليه موارد الهلكات فسيحات المصادر وطوقه غدره طوق خزى فهو على فكه غير

غير قادر وأوقعه في خطة خسف وورطة حنف فماله من قوة ولا ناصر ويشهد لصحة هذه الاسباب ما أحاطت به علوم ذوي الالباب من قصة ثعلبة بن حاطب الانصاري وتلخيص معناها أن ثعلبة هذه كان من أنصار النبي ﷺ فجاء يوما وقال يارسول الله ادع الله يرزقني مالا فقال له رسول الله ﷺ ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى فقال يارسول الله أدع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله ﷺ يا ثعلبة أمالك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال يارسول الله أدع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق نبيا لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله ﷺ اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ ثعلبة غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنموا كما ينموا الدود وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد فلما كثرت الغنم وتنحى صار يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي بقية الصلوات في غنمه فكثرت ونمت حتى بعد المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة قالوا يارسول الله اتخذ غنما ما يسعها واد فقال رسول الله ﷺ ياويح ثعلبة فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة كيف يأخذانها وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل آخر من بني سليم فخذا صدقتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ما هذه إلا جزية أو ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياه قال ماهذا قال خذاه فان نفسي به طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه إلا جزية أو ما هذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيا قال فذهبا من عنده وأقبلا على رسول الله ﷺ فلما رآهما قال قبل أن يتكلما يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة فجعل ثعلبة يحثوا التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله ﷺ هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئا ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الانصار فاقبل صدقتي فقال أبو بكر رضي الله عنه لم يقبلها رسول الله ﷺ منك ولا أقبلها أنا فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه فأنا لا أقبلها وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله

الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت ياهذا ما دهاك فقال ظفرت بالمغني وانفلت مني فأخبرها بالحال فأخرجت خرقا وعصبته بها وفرشت له ونام عليلا وطلعت إلي وقالت أظنك صاحب القصه فقلت نعم قالت لا بأس عليك ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثا ثم قالت اني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينم بك فانج لنفسك فسألتها المهلة إلى الليل ففعلت فلما دخل الليل لبست زي النساء وخرجت من عندها فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة فظننت خيرا فما شعرت إلا بابراهيم الموصلي نفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتني اليه فرأيت الموت عيانا وحملت بالزي الذي أنا فيه إلى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني اليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له على رسلك يا أمير المؤمنين إن ولي الثار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ثم أنشدت

ذنبي اليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بحلمك عنه
ان لم اكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فرفع إلي رأسه فبدرته وقلت

عنه فسأله أن يقبل صدقته فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما فانا
لا أقبلها ثم مات ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه . فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال
أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره وأعقبه نفاقا يخزيه يوم فاقته وفقره فأي خزي أرجح
من ترك الوفاء بالميثاق وأي سوء أقبح من غدر يساق إلى النفاق وأي عار أفضح من نقض العهد
إذا عدت مساوي الاخلاق وكان يقال لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره
عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم قال الشاعر

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا ... اليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

ولما حلف محمد الامين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد طالبه جعفر بن يحيى أن يقول خذلني الله
ان خذلته فقال ذلك ثلاث مرات فقال الفضل بن الربيع قال لي الامين في ذلك الوقت عند خروجه
من بيت الله يا أبا العباس أجد في نفسي أن أمري لا يتم فقلت له ولم ذلك أعز الله الامير قال لاني كنت
أحلف وانا انوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره (وورد) في أخبار العرب ان الضيزن بن معاوية
ابن قضاعة كان ملكا بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام
فأغار على مدينة سابور ذي الاكتاف فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقا كثيرا ثم ان
سابور جمع جيوشا وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء ثم ان النضيرة
بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض وكانت اجمل اهل دهرها وكذلك كانوا
يفعلون بنسائهم إذا حضن وكان سابور من أجمل اهل زمانه فرآها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت
اليه تقول ما تجعل لي ان دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي فقال أحكمك فقالت عليك
بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فانها تقعد على حائط المدينة فتتداعى
المدينة كلها وكان ذلك طلسما لا يهدمها الا هو ففعل ذلك فقالت له وانا أسقي الحرس الخمر فاذا
صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها عنوة وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة
وأعرس بها فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش
النعام فالتمس ما كان يؤذيها فاذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها وأثرت فيها وقيل كان ينظر
إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها ثم أن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها قيل انه أمر رجلا فركب
فرسا جموحا وضفر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعا قطعه الله ما أغدره . وتقول العرب
جزاني جزاء سنمار وهو أن أزدجر بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له
ولد سأل عن منزل صحيح مريء فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على
أرض العرب وأمره أن يبني له جوسقا فامتثل أمره وبنى له جوسقا كأحسن ما يكون وكان الذي بنى
الجوسق رجلا يقال له سنمار فرغ من بنائه فلما تعجبوا من حسنه فقال لو علمت انكم توفوني اجرته لبنيته
بناء يدور مع الشمس حيث دارت فقالوا وانك لتبني أحسن من هذا ولم يبنه ثم أمر به فطرح من أعلى
الجوسق فتقطع فكانت العرب تقول جزاني جزاء سنمار . وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله
غدر بعلي رضي الله عنه وقتله وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله وابو لؤلؤة
غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله . وجعل المنصور
العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه فقال عيسى

آتيت ذنبا عظيما ... وأنت للعفو أهل
فان عفوت فمن ... وان جزيت فعدل
فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة
من سماته ثم أقبل على ابنه العباس وأخيه أبي اسحق وجميع من حضر من خاصته فقال ما ترون في أمره فكل أشار
بقتله الا انهم اختلفوا
في القتلة كيف تكون
فقال المأمون لأحمد بن
أبي خالد ما تقول يا أحمد
فقال يا أمير المؤمنين أن
تقتله وجدنا مثلك قتل
مثله وإن عفوت عنه لم
نجد مثلك عفا عن مثله
فنكس المأمون رأسه
وجعل ينكت في الأرض
وأنشد متمثلا

قومي هم قتلوا أميم أخي
فاذا رميت يصيبني سهمي

فكشفت المقنعة عن
رأسي وكبرت تكبيرة
عظيمة وقلت عفا والله
عني أمير المؤمنين فقال
المأمون لا بأس عليك
يا عم فقلت ذنبي يا أمير
المؤمنين أعظم من أن
أتفوه معه بعذر وعفوك
أعظم من أن أنطق معه
بشكر ولكن أقول

ان الذي خلق المكارم حازها
في صلب آدم للامام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة
وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
ما ان عصيتك والغواة تمدني
أسبابها الا بنية طائع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله
عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت اطفالا كأفراخ القطا
وحنين والدة بلب جازع

فقال المأمون لا تثريب
عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت

رددت به إلى ولم تبخل علي به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي

فلو بذلت دمي أبغي رضاك والمال حتى أسل النعل من قدمي ما كان ذلك سوى عارية رجعت
فان جحدتك ما أوليت من كرم إني إلى اللوم أولى منك بالكرم فقال المأمون

أينسى بنو العباس ذبي عنهم بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها فتحت لهم شرق البلاد وغربها
فذل معاديها وعز نصيرها أقطع أرحاما على عزيزة وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر في مستقره وأوسق أوساقا من الغد غيرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يلاقى كما لاقى مجيرا أم عامر أعد لها لما استجارت ببيته
أحاليب ألبان اللقاح الدرائر وأسمنها حتى إذا ما تمكنت بقرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يجود بمعروف على غير شاكر

(وحكى) بعضهم قال دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب فقالت أتدري ماهذا فقلت لا قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيرا وأدخلناه بيتنا وربيناه فلما كبر فعل بشاتي ماترى وأنشدت

بقرت شويهتي وفجعت قلبي وأنت لشاتنا ابن ربيب غذيت بدرها ونشأت معها
فمن أنباك أن أباك ذيب إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

اللهم انا نعوذ بك من البغي وأهله ومن الغادر وفعله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الفصل الثاني في السرقة والسراق) قيل مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال ما هذا قيل السلطان يقطع سارقا فقال لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر وأمر الاسكندر بصلب سارق فقال ايها الملك اني فعلت مافعلت وأنا كاره فقال وتصلب أيضا وأنت كاره . وسرق مدني قميصا فأعطاه لابنه يبيعه فسرق فجاء له فقال بكم بعته قال برأس المال وقال أكتل مسلمي وكان اصافانكا

واني لأستحي من الله أن أرى أجرجر حبلا ليس فيه بعير
وان أسأل المرء المدني بعيره وإجمال ربي في البلاد كثير

(قال الفرزدق) وان أبا الكرشاء ليس بسارق ولكن متى مايسرق القوم يأكل

وكان لعمرو بن دويرية البجلي أخ قد كلف ببنت عم له فتسور عليها الدار ذات ليلة فأخذه أخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري وجعلوه سارقا فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه

أخالد قد والله أوطئت عشوة وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقر بما لم يأته المرء أنه رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية

(الفصل الثالث فيما جاء في العداوة والبغضاء) قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى والقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وقال تعالى ان الشيطان للإنسان

اليك لو لم تعرها كنت لم تلم إن من الكلام دارا وهذه منه وخلع عليه وقال ياعم ان أبا اسحق والعباس أشارا بقتلك فقلت أنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ماخفت بما رجوت فقال المأمون ياعم أمنت حقدي بحياة عذرك وقد عفوت عنك ولم أجرعك مرارة امتنان الشافعين ثم سجد المأمون طويلا ورفع رأسه وقال ياعم أتدري لم سجدت قلت شكرا لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكرا لله الذي ألهمني العفو عنك فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورة أمري وماجرى لي مع الحجام والجندي والمرأة والمولاة التي نمت علي فأمر المأمون باحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة فقال لها ماحملك على ما فعلت مع سيدك فقالت الرغبة في المال فقال لها هل لك ولد أو زوج قالت لا فأمر بضربها مائتي سوط وخلد سجنها ثم قال احضروا الجندي وامرأته والحجام فاحضروا فسأل الجندي عن السبب الذي حمله ما فعل فقال الرغبة في المال فقال المأمون أنت يجب ان تكون حجاما ووكل به ما يلزمه الجلوس في دكان الحجام ليتعلم الحجامة واكرم زوجته وأدخلها إلى القصر وقال هذه امرأة عاقلة تصلح المهمات ثم قال للحجام

لقد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة فى اكرامك وسلم اليه دار الجندى بما فيها وخلع عليه وأنعم عليه برزقه وزيادة ألف دينار فى كل سنة ولم يزل فى تلك النعمة إلى أن مات (ومما يضارع ذلك) أنه لما أفضت الخلافة إلى بنى العباس اختفت رجال بنى أمية ومنهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك وكان إبراهيم رجلا عالما عاملا أديبا كاملا وهو فى سن الشبيبة فأخذ له أمانا من السفاح فقال له يوما حدثنى عما مر بك فى اختفائك قال كنت يا أمير المؤمنين مختفيا بالحيرة فى منزل بشارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود وقد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدنى فخرجت من الدار متنكرا حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفى عنده فبقيت فى حيرة فاذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها فاذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه فقال من أنت وما حاجتك فقلت رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك فأدخلنى منزله ثم صيرنى فى حجرة تلى حرمه وكنت عنده فى ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألنى عن شىء من حالى إلا أنه يركب فى كل يوم فقلت له يوما أراك تدمن الركوب ففيم ذلك قال ابراهيم سليمان قتل أبى صبرا وقد بلغنى أنه مختف فأنا أطلبه لأدرك منه ثأرى فكثر

عدو مبين وقال تعالى إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال تعالى إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال رسول الله ﷺ أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه العداوة تتورث وقال زياد بن عبد الله

فلو أنى بليت بهاشمى ... خؤولته بنو عبد المدان
صبرت على عداوته ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

وبث رجل فى وجه أبى عبيدة مكروها فانشأ يقول

فلو أن اللحمى إذا وهى لعبت به ... سباع كرام أو ضباع أو ذؤب
لهون وجدى أو لسلى مصيبتى ... ولكنما أزدى بلحمى أكلب

وقيل لكسرى أى الناس أحب اليك أن يكون عاقلا قال عدوى قيل وكيف ذلك قال لأنه إذا كان عاقلا كنت منه فى عافية وأمن وقيل كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن فان مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفى وبطن وقالوا إياك أن تعادى من إذا شاء طرح ثيابه ودخل مع الملك فى لحافه وقال أبو العتاهية

تنح عن القبيح ولا ترده ... ومن أوليته حسنا فزده
ستلقى من عدوك كل كيد ... إذا كاد العدو ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب فقتل اخوها وزوجها وهى حبلى بهجرس بن كليب فلما كبر وشب قال

أصاب أبى خالد وما أنا بالذى ... أميل وأمرى بين خالى ووالدى
وأورث جساس بن مرة غصة ... اذا ما اعترتنى حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك يا للرجال لقلب ماله جلد ... كيف العزاء وثارى عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال

ألم ترنى ثأرت ابى كليبا ... وقد يرجى المرشح للدخول
غسلت العار عن جسم أبى بكر ... بجساس بن مرة ذى البتول

(بيت) سن العداوة آباء لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء ابناء

ويقال دار عدوك لأحد امرين إما لصداقة تؤمنك أو لفرصة تمكنك وكتب سويد الى مصعب

فبلغ مصعبا عنى رسولى ... وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلم ان اكثر من تناجى ... وان ضحكوا اليك هم الاعادى

ويقال فلان كثير المزاق مر المزاق وقال الحجاج لخارجى والله إنى لأبغضك قال أدخل الله الجنة أشدنا بغضا لصاحبه ه ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فانكروا عليه وقال بعضهم أن امه تركية وقد علمت فى أخلاقهم ما علمت قال أن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات وكانت أم قباذ تركية أوقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم فقيل هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك فقال ان قصره من رجليه ولا يكاد يرى الا جالسا أو راكبا فلا يستبين ذلك فيه فقيل هو بغيض فى الناس فقال أواه هلك ابنى هرمز فقد قيل إذا كان فى الإنسان خير واحد ولم يكن فى ذلك الخير المحبة فى الناس فلا خير فيه وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب

البغض في الناس فلا عيب فيه

ولست براء عيب ذي الود كله ... ولا بعض مافيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدى المساواة

وفي المعنى قيل: وعين البغض تبرد كل عيب ... وعين الحب لاتجد العيوبا

وعن أبي حيان قال قال لقمان نقلت الصخر وحملت الحديد فلم أر شيئا أثقل من الدين وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم ار شيئا ألذ من العافية وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصا إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد اللهم انا نعوذ بك من تتابع الاثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم وقيل لأيوب عليه السلام أي شيء كان عليك في بلائك اشد قال شماتة الأعداء. وانشد الجاحظ

تقول العاذلات تسل عنها ... وداو غليل قلبك بالسلوا

وكيف ونظره منها اختلاسا ... ألذ من الشماتة بالعدو

وقال ابن أبي عيينة المهلبي: كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ مارأيت سنانا أنفذ من شماتة الأعداء وقيل لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف فقال رجل منهم

أبلغ أبا بكر إذا ماجئته ... أن البغايا من بني مرام

أظهرن في موت النبي شماتة ... وخضبن أيديهن بالعلام

فاقطع هديت أكفهن بصارم ... كالبرق أومض في متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه الى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن ويقال فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ولا يؤمل صلاحا الا في فسادك ولا رفعه الا في سقوط حالك وقال حكيم لاتأمن عدوك وان كان ضعيفا فان القناة قد تقتل وان عدمت السنا قال الشاعر

فلا تأمن عدوك لو تراه ... أقل إذا نظرت من القراد

فان الحراب ينشأ من جبان ... وان النار تضرم من رماد

(بيت مفرد) فمن لم يكن منكم مسيئا فانه ... يشد على كف المسيء فيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب

كفاية الله خير من توقينا ... وعادة الله في الماضين تكفينا

كاد الاعادي فلا والله ماتركوا ... قولا وفعلا وتلقينا للتهجينا

ولم نزد نحن في سر وفي علن ... على مقالتنا يا ربنا اكفينا

فكان ذاك ورد الله حاسدنا ... بغيظه لم ينل تقريرا فينا

(الفصل الرابع في الحسد) قال تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال رسول الله ﷺ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي رضي الله عنه الحاسد مغتاظ على من لاذنب له وقيل الحسود غضبا على القدر ويقال ثلاثة لاتهنأ لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق وقيل بئس الشعار الحسد وقيل لبعضهم ما بال فلان يبغضك قال لأنه شقيقي في النسب وجاري في البلد وشريكي في الصناعة فذكر جميع دواعي الحسد وقال اعرابي الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود وهو مأخوذ من الحديث قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله وقال الفقيه ابو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود أولاها غم لاينقطع الثانية

وأنّى تعجبني وقلت القدر ساقني الى حتفي في منزل من يطلب دمي وكرهت الحياة فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرني فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه فقلت له ياهذا قد وجب على حقك ومن حقك أن أدلك على خصمك وأقرب اليك الخطوة قال وما ذاك قلت انا ابراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثأرك فقال اني أحسبك رجلا قد مضه الاختفاء فأحببت الموت فقلت لا والله ولكن أقول لك الحق يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقي تغير لونه واحمرت عيناه واطرق مليا ثم قال اما انت فستلقى أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره واما أنا فغير مخفر ذمتي فاخرج عني فلست آمن عليك من نفسي واعطاني الف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين (ومن لطائف مانقلته من المستجاد) حدث أبو الحسن بن صالح البلخي بمصر قال أخبرني بعض عمال شيوخنا عن شيبة بن محمد الدمشقي قال كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة ابن بشر من بني أسد مشهور بالمروءة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى اخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها يا بنت العم قد رأيت من اخواني تغيرا وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ثم اغلق بابه عليه واقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقي حائرا في حاله فكان عكرمة

مصيبة لايؤجر عليها الثالثة مذمة لايحمد عليها الرابعة سخط الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق (ومن ذلك) ماحكى أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوى وحسده وقال فى نفسه ان لم أحتل على هذا البدوى فى قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدنى منه فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوى منه قال له احذر أن تقترب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك فانه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال ياأمير المؤمنين ان البدوى يقول عنك للناس ان أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال ان الذى قاله الوزير عن هذا البدوى صحيح فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول له فيه إذا وصل إليك كتابى هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوى ودفع اليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان واتتنى بالجواب فامتثل البدوى مارسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال أين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان فقال الوزير فى نفسه ان هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له يابدوى ماتقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك ويعطيك ألفى دينار فقال أنت الكبير وأنت الحاكم مهما رأيته من الرأى أفعل قال اعطنى الكتاب فدفعه اليه فأعطاه الوزير الفى دينار وسار بالكتاب الى المكان الذى هو قاصده فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى وسأل عن الوزير فأخبر بأن أياما ماظهر وان البدوى بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوى فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له أنت قلت عنى للناس أنى أبخر فقال معاذ الله ياأمير المؤمنين أنى أتحدث بما ليس لى به علم وإنما كان ذلك مكرا منه وحسدا وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وماجرى له معه فقال أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ماأعدله بدأ بصاحبه فقتله ثم خلع على البدوى واتخذه وزير وراح بحسده لقال المغيرة شاعر آل المهلب

آل المهلب قوم ان مدحتهم * كانوا الأكارم آباء وأجدادا
ان العرانين تلقاها محسدة * ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضى الله عنه يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار شهادة القراء مقبولة فى كل شىء إلا شهادة بعضهم على بعض فانهم أشد تحاسدا من التيوس وعن أنس رضى الله تعالى عنه رفعه ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال منصور الفقيه

منافسة الفتى فيما يزول * على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه * وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عزوجل الحاسد عدو نعمتى متسخط لفعلى غير راض بقسمتى التى قسمت لعبادى قال الشاعر

ألا يا حاسدا لى على نعمتى * أتدرى على ماأسأت الأدب

أسأت

الفياض واليا على الجزيرة فبينما هو فى مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ ذكر خزيمة بن بشر فقال عكرمة ماحاله فقالوا صار فى أسوأ الأحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته فقال عكرمة الفياض وما سمى الفياض إلا للافراط فى الكرم فما وجد خزيمة ابن بشر مواسيا ولا مكافئا فامسك عن ذلك فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس واحد ثم أمر باسراج دابته وخرج سرا من أهله فركب ومعه غلام واحد يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة فقال له أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك قال له ماجئت فى هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفنى قال خزيمة فما أقيله أو تخبرنى من أنت قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدنى قال لا ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها أبشرى فقد أتى والله بالفرج فلو كان فى هذا فلوس كانت كثيرة قومى فاسرجى فقالت لاسبيل إلى السراج فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير ورجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفردا فارتابت وشقت جيبها ولطمت خدها فلما رآها على تلك الحالة قال لها مادهاك يابنة العم قالت سوء فعلك بابنة عمك أمير الجزيرة يخرج

أسأت على الله فى حكمه ... لأنك لم ترض لى ماوهب

فأخزاك ربى بأن زادنى ... وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى رأيت اعرابيا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنه فقلت له ماأطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت وقالوا لايخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح وقال ابن مسعود رضى الله عنه ألا لاتعادوا نعم الله قيل ومن يعادى نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقيل لعبد الله بن عروة لم لزمت البدو وتركت قومك فقال وهل بقى الاحاسد على نعمة أوشامت على نكبة وقال الشاعر

ياطالب العيش فى أمن وفى دعة ... رغدا بلا قترصفوا بلا رنق

خلص فؤادك من غل ومن حسد ... فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

(وقال آخر) اصبر على حسد الحسو ... د فان صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها ... ان لم تجد ماتأكله

وفى نوابغ الحكم الحسد حسك من تعلق به هلك ولبعضهم

انى حسدت فزاد الله فى حسدى ... لاعاش من عاش يوما غير محسود

(وقال نصر بن سيار)

انى نشأت وحسادى ذووا عدد ... ياذا المعارج لاتنقص لهم عددا

ان تحسدونى على مابى لمابهم ... فمثل مابى مما يجلب الحسدا

وكان عمر رضى الله عنه يقول نعوذ بالله من كل قدر وافق ارادة حاسد وقيل لارسطاطاليس مابال الحسود أشد غما قال لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الأربعون فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان ﴾

(الفصل الأول فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس) قد أثنى الله تعالى على الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ووصف المجاهدين فقال تعالى ان يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه فضل الجزاء والرأى فى الحرب أمام الشجاعة قال رسول الله ﷺ الحرب خدعة وقال ﷺ مامن قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم فى سبيله أوقطرة دمع فى جوف ليل من خشيته وسمع رجل عبدالله بن قيس رضى الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ ان الجنة تحت ظلال السيوف فقال ياأبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله قال نعم فرجع إلى أصحابه فقال أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد اعلم ان عليك عيونا من الله ترعاك وتراك فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ولا تغسل الشهداء من دمائهم فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر الله أكبر خربت خيبر انا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وعنه رفعه لغدوة فى سبيل الله أوروحة خير من الدنيا ومافيها وعن ابن مسعود رفعه أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور

بعد هدأة من الليل منفردا عن غلمانه فى سر من أهله إلا زوجة أوسرية فقال لقد علم الله ماخرجت لواحدة منهما قالت لابد أن تعلمنى قال فاكتميه إذا قالت أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها قال أتحبين أن أحلف لك قالت لاقد سكن قلبي ثم أصبح خزيمة صالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان ابن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا لمروءته وكان الخليفة به عارفا فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال ياخزيمة ماأبطأك عنا فقال سوء الحال ياأمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة إلينا قال ضعفى قال فمن أنهضك قال لم أشعر ياأمير المؤمنين بعد هدأة من الليل الا ورجل يطرق بابى وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لأنه كان متنكرا وما سمعت منه الا جابر عثرات الكرام قال فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال لوعرفناه لأعناه على مروءته ثم قال على بقناة فأتى بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه وأمره بالتوجه إلى الجزيرة فخرج خزيمة متوجها إليها فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعا إلى أن دخلا البلد فنزل خزيمة فى دار الامارة وأمر أن يؤخذ عكرمة وان يحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبه خزيمة بالمال فقال مالى

خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل وقيل أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدرا فلم يزل متحسرا يقول أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه فلما كان يوم أحد قال واها لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته الربيع بنت النضر فما عرفت أخى إلا ببنانه وعن فضالة بن عبيد رفعه كل ميت يختم عمله إلا المرابط فانه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر وعن سهل بن حنيف رفعه من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة

(الفصل الثانى فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها) اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس قال الحكماء وأصل الخير كله فى ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه الوجه الأول إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران وتكالحت الأحداق بالأحداق برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى هل من مبارز والثانى إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه والثالث إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب فى وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم يقوى قلوب أصحابه ويرجى الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن الفارين كالمستغفر من وراء المستغفلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه فى كتابه سراج الملوك قال كان شيوخ الجند يحكون لنا فى بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا فى المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته الرأس فقالوا انه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا إسلام فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم فكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا أقواما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها ليروها قالوا ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلا ولا يغفل عنه وإن كان حقيرا فكم برغوث أسهر ليلا ومنع الرقاد ملكا جليلا قال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رماك ... وإن كان فى ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب ... لاتعجز عما تنال الإبر

واعلم أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا ولنصف منها أشياء نذكرها أولا ما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبى ﷺ القوة حين مر على أناس يرمون فقال ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى وأفضل العدة أن تقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف ونهى عن منكر وأمثال ذلك والشأن كل الشأن فى استجادة القواد وانتخاب الأمراء وأصحاب الألوية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغى أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ثابت الجأش صارم القلب صادم البأس

إلى شيء منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل إليه أنى لست ممن يصون ماله لعرضه فاصنع ماشئت فأمر به فكبل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهرا فأضناه ثقل الحديد وأضر به وبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضى الساعة إلى باب هذا الأمير فقولى إن عندى نصيحة فاذا طلبت منك قولى لاأبوحها إلا للأمير خزيمة فاذا دخلت عليه سليه الخلوة فاذا فعل فقولى له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك فى مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوأتاه جابر عثرات الكرام غريمى قالت نعم فأمر من وقته بدابته فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض فى قاع الحبس متغيرا قد أضناه الضر فلما نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله فرفع رأسه اليه وقال ماأعقب هذا منك قال كريم فعالك وسوء مكافأتى قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وأن توضع فى رجليه فقال عكرمة ماذا تريد قال أريد أن ينالنى من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لاتفعل فخرجا جميعا إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنه من ذلك قال وماتريد قال أغير من حالك وحيائى

من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فاخليت ودخلا جميعا ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرج فخلع عليه وحمل اليه مالا كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له فاعتذر

اليها وتذمم من ذلك ثم سأله أن يسير معه إلى امير المؤمنين وهو يومئذ يقيم بالرملة فأنعم له بذلك فساروا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فاخبره بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال والى الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ما هذا الا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم ماوراءك ياخزيمة قال خير يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فاحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك الى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له في الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال ياعكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف اليها من التحف والظرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال له أمر خزيمة اليك ان شئت أبقيته وان شئت عزلته قال بل اردده الى عمله ياأمير المؤمنين ثم انصرفا جميعا ولم يزالا لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته (ويضارع ذلك من المستجاد أيضا) ماروى عن أبي موسى

ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الاقران وقارع الابطال عارفا بمواضع الفرس خبيراً بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب فانه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعا كأنهم مثله فانه ان رأى لهم اخراج الكتائب وجها والارد الغنم إلى الزريبة * واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء. وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الاسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركي وغارة الذئب وسمن نغير وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء * وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد ينحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفىء النار والسحاب يحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقي الريح بجناحيه والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فأشد الناس خلق ربك الهم اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن * ومن الحيل في الحرب أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه وليستعلم أخبارهم ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم فيدس اليهم ويمدهم وعدا جميلا ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا وسامهم اما الغدر بصاحبهم واما الاعتزال وقت اللقاء ويكتب على السهام أخبار مزورة ويرمى بها في جيوشهم واعلم أن الحيلة لاترد القضاء والقدر وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالا عليها وإذا أذن الله تعالى في حول البلاء كانت الآفة في الحيلة وقال الحكماء إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوي ببقاء مدته فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال في القلب فإنه إذا انكسر الجنان كانت العيون ناظرة إلى القلب فاذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنا للجناحين يأوي اليه كل منهزم وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان ومثال ذلك أن الطائر اذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين واذا انكسر الرأس ذهب الجناحان وقل عسكر انكسر قلبه فأفلح أو تراجع اللهم الا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلي القلب قصدا وتعمدا حتى اذا توسط العدو واشتغل بنهبه انطبق الجناحان فقد فعل ذلك رجال من اهل الحروب ويقال حبب الى عدوك الفرار بان لاتتبعهم اذا انهزموا ويقال الشجاع محبب حتى الى عدوه والجبان مبغض حتى الى أمه * ولما أقبل كسرى بن هرمز الى محاربة بهرام قال له صاحبه أما تستعد قال عدتي ثبات قلبي واصابة رأيي ونصل سيفي ونصرة خالقي * وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه ادرع وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطيئة

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت باطهار

فقال يزيد انما ذاك اذا حاربنا أكفاءنا وأما مثل هذا ونظرائه فلا فقام اليه مسلمة فقبله بين عينيه وقيل لما مات ملك الفرس أراد أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان فوفد عليهم بهرام جور فقال اعمدوا إلى اسد بن جائعين فاطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا فقدنا منهما فاهو يا نحوه فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلهما جميعا ثم شد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم (وقيل) لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوما وهو مردف حظية له كان يعشقها فعرضت له ظباء فقال في أي موضع تريدين أن أضع هذا

محمد بن الفضل يعقوب كاتب عيسى بن جعفر قال حدثني أبي قال كنت أتردد إلى زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وأخدمها فتوجهت إلى خدمتها يوما فقالت اقعد حتى أحدثك حديثا كان بالامس يكتب على الآماق كنت امس عند الخيزران ومن عادتي أن اجلس بازئها وفي الصدر مجلس للمهدي يجلس فيه وهو يقصدنا في كل وقت فيجلس قليلا ثم ينهض فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواريها فقالت أعز الله السيدة بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة وليس وراء ماهي عليه من سوء الحال غاية تستأذن عليك وقد سألتها عن اسمها فامتنعت من ان تخبرني فالتفتت الى الخيزران وقالت ما تريدين فقلت أدخلها فإنه لابد من فائدة أو ثواب فدخلت امرأة من أجمل النساء لا تتوارى بشيء فوقفت بجنب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة ثم قالت أنا مزنة بنت مروان بن محمد الأموي فقالت الخيزران لاحياك الله ولا قربك فالحمد لله الذي ازال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين ياعدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك في الاذن في دفن ابراهيم بن محمد فوثبت عليهن واسمعتهن مالا اسمعن وأمرت فأخرجن على تلك الحالة

فضحكت مزنة فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ثم قالت يابنت العم اي شيء أعجبك من حسن صنيع الله في

السهم فقالت أريد أن تشبه ذكرانها بالاناث واناثها بالذكران فرمى ظبيا ذكرا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة فرمى أصل الاذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه . ويقال أن من أعظم المكايد في الحرب الكمين وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندا منشورا ويسمع صوت الطبل فحينئذ يكون همه خلاص نفسه وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الابطال ولا تنس قول الشاعر

والناس الف منهم كواحد ... وواحد كالألف أن أمر عنى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ماترى فيه العجب فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين الف مقاتل خيل ورجل فحدثني من حضر الوقعة من الاجناد قال لما دنا اللقاء قال الطاغية بن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفون ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان فعد سبعة رجال فقال له انظر من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول ما أبيضك من يوم ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فني أكثر العسكرين ولم يفر واحد منهم قال فلما كان وقت العصر ونظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا جملة وداخلونا مداخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين اصحابنا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فيعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على اربعين الف مقاتل ولم يحضره من الشجعان المعدودين الى خمسة عشر نفرا وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد (وحكى) سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه قال سمعت أستاذنا القاضي أبا وليد يحيي قال بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته اذ وقف على نشز من الارض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المصحفي فقال له كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا كبيرا فقال له المنصور ترى هل يكون في هذا الجيش الف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة فسكت ابن المصحفي فقال له المنصور ما سكوتك أليس في هذا الجيش الف مقاتل قال لا فتعجب المنصور ثم قال فهل فيها خمسمائة مقاتل من الابطال المعدودين قال لا فاختنق المنصور ثم قال فيهم مائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون رجلا من الابطال قال لا فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم وتصادف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادي هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادي ويقول هل من مبارز ثلاثة لواحد

فبرز

على المفوق حتى أردت ان تأسى بى فيه والله انى فعلت بنسائك ما فعلت فاسلبنى الله لك ذليلة جائعة عريانة وكان ذلك مقدار
شكرك لله تعالى على ما أولاك بى ثم قالت السلام عليكم ثم ولت مسرعة فصاحت بها الخيزران
فرجعت قالت زينب فنهضت اليها الخيزران لتعانقها فقالت ليس فى ذلك موضع مع الحال التى أنا عليها فقالت الخيزران لها فالحمام اذا وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام فدخلت وطلبت ماشطة ترمى ما على وجهها من الشعر فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت ثم خرجت الينا فعانقتها الخيزران واجلستها فى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى ثم قالت لها الخيزران هل لك فى الطعام فقالت والله ما فيكن أحوج منى اليه فعجلوه فأتى بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة إلى أن اكتفت ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك مما تعتنين به قالت ما خارج هذه الدار من بينى وبينه نسب فقالت إذا كان الأمر هكذا فقومى حتى تختارى لنفسك مقصورة من مقاصيرنا وتحولى لها جميع ما تحتاجين اليه ثم لا نفترق إلى الموت فقامت
ودارت بها فى المقاصير فاختارت أوسعها وأنزهها ولم تبرح حتى حولت اليها جميع ما تحتاج اليه من الفرش والكسوة قالت
زينب ثم تركناها وخرجنا عنها فقالت الخيزران هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها الضر وليس يغسل ما فى قلبها إلا المال

فبرز اليه رجل من المسلمين فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت أن تكون كسرة فقيل
للمنصور ما لها إلا ابن المصحفى فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب
منذ اليوم فقال لقد رأيته فما الذى تريد قال أن تكفى المسلمين شره قال الآن يكفى المسلمون شره إن
شاء الله تعالى ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس فشهرت أوراكها
هزالا وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع فقال له ابن
المصحفى ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فما الذى تريد أن تكفى المسلمين
شره قال حبا وكرامة ثم انه وضع القربة بالارض وبرز اليه غير مكترث به فتجاولا ساعة فلم ير الناس
الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ما هناك وإذا برأس العلج يلعب بها فى يده ثم ألقى الرأس
بين يدى المنصور فقال له ابن المصحفى عن هؤلاء الرجال أخبرتك قال فرد ابن المصحفى إلى
منزلته وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين (حكى) أنه كان للعرب
فارس يقال له ابن فتحون وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه وكان المستعين يكرمه
ويعظمه ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه
الشجاعة وتخشى لقاءه فيحكى أن للرومى كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له ويلك لم لا تشرب
هل رأيت ابن فتحون فى الماء فحسده نظراؤه على كثرة العطاء إلى بلاد الروم فتقابل المسلمون
عند المستعين فابعده ومنعه من عطائه ثم ان المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتقابل المسلمون
والمشركون صفوفا ثم برز علج إلى وسط الميدان ونادى وقال هل من مبارز فبرز اليه فارس
من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى فصاح المشركون سرورا وانكسرت نفوس المسلمين
وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين وينادى هل من إثنين لواحد فخرج اليه فارس من
المسلمين فقتله الرومى فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكلب يجول بين
الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج اليه وبقى الناس فى
حيرة فقيل للسلطان ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به وقال يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع
هذا العلج فقال ها هو بعينى قال فما الحيلة فيه قال الساعة أكفى المسلمين شره فلبس قميص كتان
واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويلا وفى طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه
فتعجب منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون
وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شىء منه فى السرج ثم انقلب فى سرجه
وحمل على العلج وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه وجاء به يجره حتى
ألقاه بين يدى المستعين فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون فاعتذر اليه
وأكرمه وأحسن اليه وبالغ فى الأنعام عليه ورده إلى أحسن أحواله وكان من أعز الناس اليه وينبغى
لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها فإن عدوه قد يستعلم حيلته وألوان خيله ورايته ولا يلزم
خيمته ليلا ولا نهارا وليبدل زيه ويغير خيمته كى لا يلتمس عدوه غرة منه وإذا سكن الحرب فلا يمشى
فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره فإن عيون عدوه متجسسة عليه وبهذا الوجه كسر المسلمون
جيوش أفريقية عند فتحها وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكره
يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبى السرح وهو نائم فى قبته فخرج فيمن وثق به من

فحولوا اليها خمسمائة ألف درهم فحملت اليها وفى أثناء ذلك وافى المهدى فسألنا عن الخبر فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها
به فوثب مغضبا وقال للخيزران هذا مقدار شكر الله على أنعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التى هى
عليها فوالله لولا محلك
منى لحلفت أن لا أكلمك
أبدا فقالت الخيزران
يا أمير المؤمنين قد اعتذرت
اليها ضيت وفعلت معها
كذا وكذا فلما علم المهدى
ذلك قال لخادم كان معه
احمل اليها مائة بدرة
وادخل اليها وأبلغها
منى السلام وقل لها والله
ما سررت فى عمرى
كسرورى اليوم وقد وجب
على أمير المؤمنين اكرامك
ولولا احتشامك لحضر
اليك مسلما عليك وقاضيا
لحقك فمضى الخادم
بالمال والرسالة فأقبلت
على الفور فسلمت على
المهدى بالخلافة وشكرت
صنعه وبالغت فى الثناء
على الخيزران عنده وقالت
ما على أمير المؤمنين
حشمة أنا فى عدد
حرمه ثم قامت إلى منزلها
فخلفتها عند الخيزران
وهى تنصرف فى المنازل
والجوارى كتصرف
الخيزران فأرخها عندك
إنها من أحسن النوادر
(وروى) عن عبد
الرحمن بن عمر الفهرى عن
رجال سماهم أمر المأمون
أن يحمل اليه عشرة من
أهل البصرة كانوا قد
رموا بالزندقة فحملوا فرآهم أحد الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع
هؤلاء الا لوليمة فدخل معهم ومضى بهم الموكلون إلى البحر وأطلعوهم فى زورق قد أعد لهم فقال الطفيلى لا شك أنها نزهة فسعد

رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح وبمثل هذا قهر الب أرسلان ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت جيوشا يقل أن يجمع لغيرهم مثلها وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق ومصر وخراسان وديار بكر ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين واضطربت لها ممالك أهل الاسلام فاحتشد للقائهم الملك الب أرسلان وهو الذى يسمى الملك العادل وجمع جموعه بمدينة أصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين وقالوا لالب أرسلان غدا يتراءى الجمعان فبات المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الله الذى خلقهم وما المسلمون فيهم الا أكلة جائع فبقى المسلمين وجلين لما دهمهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو فامر الب أرسلان أن يعد المسلمون فبلغوا اثنى عشر ألفا فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الاسود فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى فتشاوروا برهة ثم اجتمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الاسلام وأهله وتأهبوا أهبة اللقاء وقالوا لالب أرسلان بسم الله نحمل عليهم فقال لالب أرسلان يا معشر أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمين يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وعلمنا المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم أدراك وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحد منكم أو يفعل كفعلى ويتبع أثرى ويضرب بسيفه ويرمى سهمه حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها ووصلوا إلى الملك فقتلوا من كان دونه وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم وأتوا بالملك أسيرا بين يدى ألب أرسلان والحبل فى عنقه فقال له ألب أرسلان ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى قال وهل تشك أننى كنت أقتلك فقال له ألب أرسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه فكان يقاد والحبل فى عنقه وينادى عليه من يشترى ملك الروم وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادوا عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئا حتى باعوه من إنسان بكلب فأخذه الذى ينادى عليه وأخذ الكلب وأتى بهما إلى ألب أرسلان وقال قد طفت به جميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل أحد فيه شيئا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب فقال قد أنصفت أن الكلب خير منه ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك باطلاقه وذهب إلى القسطنطينية فعزلته الروم وكحلوه بالنار * فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا فى الحرب من الحيلة والمكيدة اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين وانصر المسلمين نصرا عزيزا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

منهم فى الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر وساروا بهم إلى أن دخلوا بغداد وحلوا حتى دخلوا على المأمون فلما مثلوا بين يديه أمر بضرب اعناقهم فاستدعوهم بأسمائهم حتى لم يبق إلا الطفيلي وهو خارج عن العدة فقال لهم المأمون من هذا قالوا واللّه ما ندري ياأمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون ما قصتك قال ياأمير المؤمنين امرأتي طالق ان كنت أعرف من أقوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم انما رأيتهم مجتمعين فظننت انهم يدعون إلى وليمة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفل ان احل صاحبه هذا المحل لقد سلم هـــذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب قال ابراهيم ابن المهدى هبه لي واجدثك بحديث عن نفسى فى التطفل عجيب قال المأمون قد وهبته لك هات حديثك قال ياأمير المؤمنين خرجت يوما متنكرا التنزه فانتهى بى المشي إلى موضع شممت منه روائح طعام وأبازير قدفاحت فتاقت نفسي اليها ووقفت ياأمير المؤمنين لاأقدر على المضى فرفعت بصرى واذا بشباك ومن خلفه كنف ومعصم مارأيت أحسن منهما فوقفت حائرا ونسيت روائح الطعام بذلك الكتف والمعصم واخذت فى أعمال الحيلة فاذا خياط من ذلك الموضع فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت لمن هذه الدار قال

(الباب الحادى والأربعون فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الخشناء وأخبارهم وذم الجبن)

(الطبقة الأولى الذين ادركوا الجاهلية والإسلام) حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه عم رسول الله ﷺ أسد الله وأسد رسوله ﷺ قتل فى غزوة أحد رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر ان يقتل به سبعين رجلا من قريش وكبر عليه فى الصلاة سبعين تكبيرة * أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ ومؤيدا بالتأييد الالهى كاشف الكروب ومجليها ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولاخلاف روى عنه رضى الله عنه أنه قال والذى نفس ابن ابى طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موتة على فراش وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض وقال رضى الله عنه لمعاوية قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانبا واخرج إلى ليعلم أينا المران على قلبه والمغطى على بصره وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخا يوم بدر وذلك السيف معى وبذلك القلب ألقى عدوى وقيل له كرم الله وجهه اذا جالت الخيل فأين نطلبك قال حيث تركتمونى وقيل له كيف كنت تقتل الأبطال قال لانى كنت ألقى الرجل فاقدر أنى اقتله ويقدر هو أنى قتلته فأكون أنا ونفسه عونا عليه وقال مصعب بن الزبير كان على رضى الله عنه حذرا فى الحروب شديد الروغان لايكاد احد يتمكن منه وكانت درعه صدرا لاظهرا لها فقيل له أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك فقال اذا مكنت عدوى من ظهرى بلا أبقى الله عليه أن أبقى على قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله تعالى عليه غدره وهو فى صلاة الصبح وسبب ذلك ان عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله تروج بقطاع بيت علقمة وكانت خارجية فقالت له لا أقنع الا بصداق اسميه وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وامه وان تقتل على بن أبى طالب فقال لها لك ما سألت الا على بن أبى طالب وكيف لى به قالت تغتاله فان سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك وان أصبت دخلت الجنة فقال

ثلاث آلاف وعبد وقينة   وضرب على بالحسام المخذم

فلا مهر أعلى من على وان علا   ولا فتك إلا دون فتك بن ملجم

قيل انه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس وذلك فى تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين كفن رضى الله عنه فى ثلاثة أثواب ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد قالوا ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم فاحتضنوه وقام المنيرة بن نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب فأخذه فأومأ على رضى الله عنه إلى المغيرة ان صل بالناس فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان فدخل على على فقالوا يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة ان شاء الله تعالى فقال لا تفعلوا انما النفس بالنفس قال ثم ان الحسين رضى الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال الحمد لله على ما احببنا وكرهنا وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ وانى احتسب عند الله عز وجل مصابى بأفضل الآباء رسول الله القائل ﷺ من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبة فى فانها أعظم المصائب والله الذى لا إله

لرجل من التجار قلت ما اسمه قال فلان بن فلان فقلت هو ممن يشرب الخمر قال نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس
ينادم إلا للتجار فبينما نحن فى الكلام إذا أقبل رجلان نبيلان راكبان فأعلمنى أنهما أخص الناس بصحبته
وأعلمنى باسميهما فحركت دابتى فلقيتهما وقلت جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب الدار معهما لم يشك انى منهما فرحب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ثم جىء بالمائدة فقلت فى نفسى هذه الألوان قد من الله على ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ثم نقلنا الى مجلس المنادمة فرأيت مجلسا محفوفا باللطائف وجعل صاحب المجلس يتلطف بى ويقبل على فى الحديث لظنه انى ضيف لأضيافه وهم على مثل ذلك حتى شربنا اقداحا اذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتى بعود فأخذته وجسته فاذا هى حاذقة واندفعت تقول

أليس عجيبا أن بيتا يضمنى ... وإياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس ... وتقطيع انفاس على النار تضرم
اشارة أفواه وغمز حواجب ... وتكسير أجفان وكف يسلم

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلى فطربت لحذقها وحسن شعرها الذى غنت به لحسدتها وقلت قد بقى عليك ياجارية شىء فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون البغضاء

صراع

الأهوال الذى أنزل على عبده الفرقان لقد قبض فى هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ فو الله لا أقول اليوم إلا حقا لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد والشجر والدواب ولقد قبض فى الليلة التى رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام إلى السماء وقبض فيها موسى ابن عمران ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه فى السرية ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه وماترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادما لأهله الا أن أمور الله تعالى تجرى على أحوالها فما احسنها من الله وأسوأها من أنفسكم الا ان قريشا أعطت أزمتها شياطينها فقادتها بأعنتها إلى النار فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد عن النفاق أعوانا رفع الكتاب وجف القلم وأمور تقضى فى كتاب قد خلا ثم أطرق الحسن فبكى الناس بكاء شديدا ثم نزل لجرد سيفه ودعا بابن ملجم فأقبل يخطر واضعا شعره على أذنيه حتى قام بين يديه فقال ياحسن انى ماعاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به عاهدت الله تعالى على أن اقتل أباك وقد قتلته فان تخلنى أقتل معاوية فان انا قتلته أضع يدى على يدك وان أقتل فهو الذى تريد فقال الحسن رضى الله عنه أما والله لاسبيل الى بقائك ثم قام اليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ثم أسرع بالسيف فيه فقتله * ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى رضى الله عنه سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور وفارس مشهور فى الجاهلية والإسلام قتل مالك بن نويرة وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله وكان الفتح لخالد يوم اليمامة وهو الذى فتح دمشق وأكثر بلاد الشام وله وقائع عظيمة فى الروم أيد الله بها الإسلام مات على فراشه وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا ازحفا ومافى جسدى موضع شبر الا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية وها أنا أموت على فراشى لانامت عين الجبان وكان ينشد ويرتجز ويقول :

لاترعبونا بالسيوف المبرقه ... ان السهام بالردى مفرقه
والحرب دونها العقال مطلقه ... وخالد من دينه على ثقه

رضى الله عنه * الزبير بن العوام رضى الله عنه حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لايمارى وشهم لايحاول قتله عمرو بن جرموز اغتاله وهو فى الصلاة * عمرو بن معديكرب الزبيدى فارس من فرسان الجاهلية وله مواقف مذكورة ومواطن مشهورة واسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام وشهد حروب الترس وكان له فيها افعال عظيمة واحوال جسيمة وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رآه قال الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا روى عنه رضى الله عنه انه سأله يوما فقال له يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب قال فعن أيها تسأل قال ما تقول فى السهام قال منها مايخطىء ويصيب قال فما تقول فى الرمح قال اخوك وربما خانك قال فما تقول فى الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول فى السيف قال ذلك العدة عند الشدة وقيل انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه انى عابر على هذا الجسر قال أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عرفنى القوم وأنا قائم بينهم وان بطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم ثم انغمس فجعل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم والله ما نظن انكم تدركونه حيا لخلوه فانتهوا اليه وقد

صرع على فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا ابو ثور كدتم والله تفقدونني فقالوا أين فرسك فقال رمى بنشابة فشار وشب فصرعني ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فاطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون الف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وقتل عمرو بنهاوند فى وقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين وفيه يقول العباس بن مرداس

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطىء زبيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

• طلحة الأسدى رضى الله عنه كان من أكابر الشجعان جاهلية واسلاما ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعا عظيما فعل خالد بن الوليد جمعه وكان يتشكن ثم عاد الى الاسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح . المقداد بن الأسود رضى الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوى الجنان رابط الجأش وله فى الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه . سعد بن ابي وقاص الزهرى الانصارى رضى الله عنه كان فارسا بطلا راميا وهو اول من رمى فى سبيل الله بسهم ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف انفته . ابو دجانة الانصارى رضى الله عنه الذى خرج يتبختر بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام انها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى هذا الموضع . المثنى بن حارثة الشيبانى رضى الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس . أبو عبيد بن مسعود الثقفى رضى الله عنه قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية . عمار بن ياسر رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذى قال فيه رسول الله ﷺ الحق يدور مع عمار حيث دار وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية فقتل بصفين مع على رضى الله عنه . هاشم ابن عتبة رضى الله عنه من أكابر الشجعان صاحب راية على رضى عنه بصفين . مالك بن الحرث النخعى الأشتر رضى الله عنه مات مسموما فى شربة من عسل فقال معاوية ان لله جنودا منها العسل والقعقاع بن عمرو طاعن الفيل فى عشية القادسية رضى الله عنه

(الطبقة الثانية) عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنه قاتل جرجير ملك افريقية الذى كان يرى أنه اشجع أهل عصره قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة صف لى عبد الله بن الزبير فقال والله مارأيت جلدا قط ركب على لحم ولا لحما على عصب ولا عصبا على عظم مثل جلده ولحمه وعصبه ولارأيت نفسا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه ولقد قام يوما إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ماخشع له بصره ولاقطع له قراءته ولاركع دون الركوع الذى كان يركع قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة وسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج الا إلى الله تصير الأمور . أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب بن الحنيفة رضى الله عنه كان أبوه يلقيه فى الوقائع ويتقى به المظالم وهو شديد البأس ثابت الجنان قيل له يوما ما بال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقحمك الحروب دون الحسن والحسين رضى الله عنهما فقال لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه فكان يتقى عينيه بيديه وقيل أن اباه على رضى الله عنه اشترى درعا فاستطالها فأراد ان يقطع منها فقال له محمد ياأبت علم موضع القطع فعلم على موضع منها فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها وبالأخرى

فى مجالسكم فندمت على ماكان منى ورأيت القوم قد أنكروا على ذلك فقيت فى نفسى فانى جملع ماالملت فقلت ثم اعود قالوا نعم فأحضروا عود فأصلحت ماأردت فيه ثم اندفعت فغنيت
هذا محبك مطوى على كمده
صب مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته
مما به ويد أخرى على كبده
يامن رأى كلفا مستبعدا دنفا
كانت منيته فى عينه ويده
فوثبت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها وقالت المعذرة اليك ياسيدى والله ماعلمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة ثم اخذ القوم فى اكرامى وتبجيلى بعد ماطربوا غاية الطرب وسألنى كل منهم الغناء فغنيت لهم نوبات مطربة فغلب القوم السكر وغابت عقولهم فخلوا إلى منازلهم وبقى صاحب المنزل فشرب معى اقداحا ثم قال ياسيدى ذهب مامضى من عمرى مجانا إذ لم أعرف مثلك فبالله يامولاى من انت لا أعرف نديمى الذى من على به فى هذه الليلة فأخذت أدارى وهو يقسم على فاعلمته فوثب قائما وقال قد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك ولقد أسدى إلى الزمان يدا لاأقوم بشكرها . ومتى طمعت أن تزورنى الخلافة فى منزلى وتنادمنى ليلتى وماهذا الا فى المنام فاقسمت عليه أن يجلس فجلس واخذ يسألنى عن السبب فى حضورى عنده بألطف معنى فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها وماسترت منها شيئا ثم قلت أما الطعام فقد نلت منه بغيتى

فقال والكف والمعصم ان شاء الله ثم قال يافلانة قولى لفلانة تنزل ثم جعل يستدعى واحدة بعد واحدة يعرضها على وأنا
لأرى صاحبتى إلى أن قال والله مابقى إلا أمى وأختى ووالله لتنزلان فعجبت من كرمه وسعة صدره
فقلت جعلت فداءك تبدأ بالأخت قال حبا وكرامة ثم نزلت اخته فارانى يدها فاذاهى التى رأيتها فقالت هذه الحاجة فأمر غلمانه لوقته فأحضروا الشهود وأحضروا بدرتين فلما حضر الشهود قال لهم هذا سيدى ابراهيم ابن المهدى يخطب أختى فلانة وأشهدكم انى قد زوجتها له وامهرتها عنه عشرين الف درهم فقلت قبلت ذلك ورضيت فشهدوا علينا فدفع البدرة الواحدة إلى اخته والأخرى فرقها على الشهود ثم قال ياسيدى امهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك فأحشمنى ما رأيت من كرمه وندمت ان أخلو بها فى داره ثم قلت بل أحضر عمارتى وأحملها إلى منزلى فقال افعل ماشئت فأحضرت عمارتى وحملتها إلى منزلى فوحقك ياأمير المؤمنين لقد حمل إلى من الجهاز ماضاقت عنه بيوتى على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدى أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل وقال لله دره ماسمعت قط بمثلها وأمر لإبراهيم باحضار الرجل لمشاهده فاحضره بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصيره من جملة خواصه ومحاضريه (ومن غريب المنقول) ان فتى من ذوى النعم قعدبه زمانه وكانت له جارية حسناء محسنة فى الغناء

على موضع العلامة ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى أخذه أبوه وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته واذ حدث بها الحديث غضب مات حتف انفه بشعب رضوى * عبد الله بن حازم السلمى رضى الله عنه والى خراسان شجيع مصر وفارسها فى عصره قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة * وكيع بن أبى سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره شجاع فاتك أهوج ولى خراسان قيل لما قتل عبد الله بن حازم ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه * مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد جاد بماله وبنفسه قتله عبد الله بن زياد فى الحروب التى كانت فى بينه وبين عبد الملك بن مروان * عمير بن الحباب السلمى فارس الاسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس * مسلمة بن عبد الملك بن مروان لحل بنى أمية وفارسها ووالى حروبها قيل انه جلس يوما ليقضى بين الناس بمصر فكلمته امرأة فما يقبل عليها فقالت مارأيت أقل حياء من هذا قط فكشف عن ساقه فاذا فيها أثر تسع طعنات فقال لها هل ترين اثر هذا الطعن والله لو أخرت رجلى قيد شبر مما أصابتنى واحدة منهن وما يمنعنى من تأخيرها الا الحياء وأنت تنحلينى قلته * المعتصم بطل شجاع فارس صنديد لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلبا قال ابن أبى داود كان المعتصم يقول لى ياأبا عبد الله عض على ساعدى بأكثر قوتك فأقول والله ياأمير المؤمنين ماتطيب نفسى بذلك فيقول انه لايضرنى فأروم ذلك فاذا هو لاتعمل فيه الأسنة فكيف تعمل فيه الاسنان ويقال انه طعنه بعض الخوارج وعليه درع فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقا فى العنق * إبراهيم بن الاشتر النخعى كان من الشجعان المعدودين حارب عبيد الله بن زياد وهو فى اربعة آلاف وعبد الله فى سبعين الفا فكسر وقتله بيده وهزم به جيشه * عبد الله بن الحر الجعفى شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة وأخباره فى الشجاعة مشهورة * جحدر بن ربيعة العكلى كان بطلا شجاعا فاتكا مغيرا شاعرا قهر أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج ابن يوسف فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ويأمره بالتجرد له حتى يقتله أو يحمله اليه أسيرا فوجه العامل اليه فتية من بنى حنظلة وجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدرا وأتوا به أسيرا فتوجه الفتية فى طلبه حتى إذا كانوا قريبا منه أرسلوا يقولون له انهم يريدون الانقطاع اليه والارتفاق به فوثق بذلك منهم وسكن إلى قولهم فبينما هو معهم يوما إذ اوثبوا عليه فشدوه وثاقا وقدموا به على العامل فوجه به إلى الحجاج معهم فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له أنت جحدر قال نعم اصلح الله الامير قال ما جرأك على ما بلغنى عنك قال أصلح الله الامير كلب الزمان وجفوة السلطان وجراءة الجنان قال وما بلغ من امرك قال لو ابتلانى الامير وجعلنى من الفرسان لرأى منى ما يعجبه قال فتعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه ثم قال ياجحدر انى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم فان قتلك كفانا مؤنتك وان قتلته عفونا عنك قال اصلح الله الامير قرب الفرج ان شاء الله تعالى فامر به فصفد بالحديد ثم كتب إلى عامله ان يرد له اسدا ويحمله اليه فتحيل العامل وارتاد له اسدا كان كاسرا خبيثا قد أفنى عامة المواشى فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه فى تابوت وسحبوه على عجل فلما قدموا به على الحجاج امر به فألقى فى الحاجر ولم يطعم شيئا ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب ثم أمر بجحدر أن ينزلوه اليه فأعطوه سيفا وانزلوه اليه مقيدا واشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الاسد ماهو صانع

بجحدر

فضاق بها الخناق واشتد بهما الحال فى عدم مايقتاتان به فقال لها قد ترين ماقد صرنا اليه من هذه الحالة السيئة ووالله لموتى وأنت معى أحسن وأهون على ماذكره لك فان رأيت أن أبيعك لمن يحسن اليك ويفضل عنك

بجحدر فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب وتمطى وزعق زعقة دوىت منها الجباب وارتاعت أهل الأرض فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول :

ليث وليث فى مجال ضنك * كلاهما ذو قوة وسفك * وصولة وبطشة وفتك

ان يكشف الله قناع الشك * فأنت لى فى قبضتى وملكى

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك وقال لله درك ماأنجباك ثم أمر به فأخرج من الحاجز وفك عنه قيوده وقال له اخترماأن تقيم معنافنكرمك ونقرب منزلتك واما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك أن تضمن لنا أن لاتحدث بها حدثا ولا تؤذى بها أحدافقال بل اختار صحبتك أيها الأمير فجعل من سماره وخواصه ثم لايلبث أن ولاه على اليمامه وكان من أمره ما كان *المهلب بن أبى صفرة كان من الشجعان ومن الأبطال المعدوده وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنا وكان المهلب يقول ماشهد معى حربا إلا رأيت البشرى فى وجهه وحمل عليه بعض الشجعان وفى يديه شجرة فلمارآها نكس رأسه على قربوس السرج وحمل من تحتها فبراها بسيفه وكان المهلب يقول أشجع الناس ثلاثة ابن الكلبية واحمر قريش وراكب البغلة فابن الكلبية مصعب بن الزبير وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر مالقى خيلا قط إلا فرقها وراكب البغلة عباس بن الحصين ما كان قط فى كربة إلا فرجها وهو من فرسان الاسلام وكان للمهلب فى الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين وكان سيدا كريما مات حتف أنفه كذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم

مات المغيرة بعد طول تعرض * للقتل بين أسنة وصفائح

فنهم أبو بلال مرداس خرج فى أربعين فهزم ألفين *وشبيب الخارجى الذى غرق فى الفرات نذرت امرأته غزالة أن تصلى فى جامع الكوفة ركعتين تقرأ فى الأولى البقرة وفى الثانية آل عمران فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها والحجاج فى الكوفة فى خمسين ألفا *ومنهم قطرى بن الفجاءة كان رأس الخوارج وخاطبوه بأمير المؤمنين وعظموه وبجلوه وأشعاره فى الشجاعة تدل على مكانه منها قتل فى بعض وقائع الخوارج (الطبقة الثالثة) معن بن زائدة الشيبانى قتله الخوارج بسجستان فى أيام المهدى *ابن الوليد بن طريف الشيبانى قتله يزيد بن مزيد *عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه انه كان يتصيد فتتبع حمار وحش ومازال يركض إلى أن حاذاه فجمع رجليه) وثب من على فرسه) وصار على ظهر حمار الوحش وصار يحز عنقه بسيف أوسكين فى يده حتى قتله *أبو دلف القاسم ابن عيسى العجلى فارس بطل شاعر نديم جامع تفرق فى غيره بطعن فارسين رديفين فانفذ الرمح من ظهريهما وحمل برمحه أربعة نفر وفيه يقول بكر النطاح

قالوا وينظم فارسين بطعنه * يوم اللقاء ولايراه جليلا

لا تعجبوا لو كان مد قناته * ميلا إذا نظم الفوارس ميلا

وسأله يوما رجل شيئا فقال له أتسأل وجدك القائل

ماأنت فيه وانفرد أنا بما لعله يصير الى من الثمن ولعلك تخلصين عند من تتوصلين إلى نفعى معه فقالت والله لموتى على تلك الحالة معك آثر عندى من انتقالى الى غيرك ولو كان خليفة ولكن اصنع مابدا لك قال فخرج وعرضها للبيع فأشار عليه أحد أصدقائه ممن له رأى ان يحملها الى ابن معمر أمير العراق فحملها اليه فلما عرضت عليه استحسنها فقال لمولاها كم كان شراؤها عليك قال مائة ألف درهم وقد أنفقت عليها مالا كثيرا حتى صارت فى رتبة الاستاذين قال أما ماأنفقت عليها فغير محتسب لك به لانك أنفقته فى لذاتك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسفاط من الثياب وعشرة رؤس من الرقيق أرضيت قال نعم أرضى الله الامير فأمر بالمال فأحضر وأمر قهرمانة بادخال الجارية إلى الحرام فأمسكت بجانب الستر وبكت وقالت هنيئا لك المال

الذى قد أفدته *ولم تبق فى كفى غير التفكر أقول لنفسى وهى فى كرباتها

أقل فقد بان الحبيب أوأكثرى * اذا لم يكن للامر عندك موضع

لم تجدى بدا من الصبر فاصبرى

فبكى مولاها وأجاب قائلا   ولو قعود الدهر بى عنك لم يكن   يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى
أروح بهم من فراقك موجع أناجى به قلبا قليل التصبر   عليك سلامى لا زيارة بيننا
ولا قرب إلا أن يشاء ابن معمر

ومن يفتقر منا يعش بحسامه   ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وأنا لنلهو بالسيوف كما لهت   فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

فخرج الرجل فجرد سيفه فلم يصادفه فى طريقه إلا وكيل لأبى دلف ومعه مال جزيل فاستلبه منه وقتله فبلغ الخبر أبا دلف فقال دعوه فانى علمته على نفسى* بكر بن النطاح بطل شجاع فارس له أشعار مشهورة وأخبار مذكورة (ومما جاء فى مدح السيف) قال رسول الله ﷺ الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف وكان صمصام عمرو وأشهر سيوف العرب وممن تمثل به نهشل فقال:

أخ ماجد ما خاننى يوم مشهد   كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال

خليلى لم أخنه ولم يخنى   إذا ما صاب أوساط العظام
خليلى لم أهبه من قلاه   ولكن المواهب للكرام
حبوت به كريما من قريش   فسر به وصين عن اللئام
وودعت الصفى صفى نفسى   على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبدالله القسرى بمال جزيل لهشام وكان قد كتب إليه فيه فلم يزل عند بنى مروان ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدى فلم يجدوه فجد الهادى فى طلبه حتى ظفر به وكان مكتوبا عليه هذا البيت

ذكر على ذكر يصول بصارم   ذكر يمان فى يمين يمانى

وقال ابن الرومى

لم أر شيئا حاضرا نفعه   للمرء كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهم حاجاته   والسيف يحميه من الحيف

(وقال زيد بن على رضى الله عنهما)

السيف يعرف عزمى عند هزته   والرمح بى خبر والله لى وزر
أنا لنأمل ما كانت أوائلنا   من قبل تأمله ان ساعد القدر

(وقال عبدالله بن طاهر)

يبيت ضجيعى السيف طورا وتارة * يعض بهامات الرجال مضاربه * أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا * وفوق رضاه اننى أنا صاحبه * وليس أخو العلياء الا فتى له * بها كلف ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبدالملك بن مروان بعد قتل أخيه عبدالمطلب فطلب منه سيف الزبير وقال له رده على فانه السيف الذى أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين فقال له عبد الملك أو تعرفه قال بماذا قال أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك أعرفه بقول الشاعر

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

(وقال الأجدع الهمدانى)

لقد علمت نسوان همدان أننى   لهن غداة الروع غير خذول
وأبذل فى الهيجاء وجهى وأننى   له فى سوى الهيجاء غير بذول

(وقال آخر)

عشرون ألف فتى ما منهم أحد   الا كألف فتى مقدامة بطل
راحت مزاودهم مملوءة أملا   ففرغوها وأوكوها من الأجل

(ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد) قال نزل بنو ثعلب فى بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة

فقال له ابن معمر قد شئت فخذها بارك الله لك فيها وفيما وصل إليك منا فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حسنت حاله (ومما جنيته من ثمرات الأوراق) أن الحجاج لما ولى قتل عبدالله بن الزبير ودخل إلى عبد الملك بن مروان ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما قدم على عبدالملك سلم عليه بالخلافة وقال قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز فى الشرف والأبوة وكمال المروءة والأدب وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة وهو إبراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبيد الله فافعل به يا أمير المؤمنين ما يستحق أن يفعل بمثله فى أبوته وشرفه فقال عبدالملك يا أبا محمد أذكرتنا حقا واجبا ائذنوا لإبراهيم فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس فى صدر المجلس وقال له عبدالملك ان أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفه منك من الأبوة والشرف فلا تدع حاجة فى خاصة أمرك وعامته الا سألتها فقال ابراهيم أما الحوائج التى تبتغى بها الزلفى ونرجو بها الثواب فما كان فى
لله خالصا ولنبيه ﷺ ولكن لك يا أمير المؤمنين عندى نصيحة لا أجد بدا من ذكرى اياها قال أهى دون أبى محمد قال نعم

قال ثم يا حجاج فنهض الحجاج خجلا لا يبصر أين يضع رجله ثم قال عبد الملك قل يا ابن طلحة فقال تالله يا أمير المؤمنين إنك عمدت إلى الحجاج فى ظنه وتعديه على الحق وإصغائه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء المهاجرين والانصار يسومهم الخسف ويطاهم العسف بطعام أهل الشام ومن لا رؤية له فى إقامة الحق ولا إزاحة الباطل قال فأطرق عبد الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال كذبت يا ابن طلحة ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك قم فربما ظن الخير بغير أهله قال فقمت وأنا ما أبصر طريقا قال وأتبعنى حرسيا وقال اشدد يدك به قال إبراهيم فمازلت جالسا حتى دعا الحجاج فمازالا يتناجيان طويلا حتى ساء ظنى ولا أشك أنه فى أمرى ثم دعا بى فلقينى الحجاج فى الصحن خارجا فقبل بين عينى وقال أحسن الله جزاءك قال فقلت فى نفسى أنه يهزأ بى ودخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسى الأول ثم قال يا ابن طلحة هل أطلع على نصيحتك أحد فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ولا أوردت إلا الله ورسوله والمسلمين وأمير المؤمنين علم ذلك فقال عبد الملك قد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت لها وأعلمته أنك استقللت ذلك وسألتنى له ولاية كبيرة وقررت له أن ذلك بسؤالك ليلزمه من حقك ما لا يبدله من القيام به فاخرج معه غير ذام لصحبته (ومن لطائف المنقول) عن القاضى أبى الحسين ابن عبد المحسن بن التنوخي رحمه الله تعالى أن الاسكندر لما انتهى إلى الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره فقال

فى فناء خبائها وهى آخذة بيد غلام فلما رأيت مثله فى حسنه وجماله له ذؤابتان كالسبج المنظوم وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الأسماع وترتاح له القلوب وأكثر ما أسمع منها أى بنى وهو يبتسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فرد على السلام فوقفت أنظر اليهما فقالت ياحضرى ما حاجتك فقلت الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام فقالت ياحضرى أن شئت سقت اليك من خبره ما هو أحسن من منظره فقلت قد شئت يرحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل أن أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فربى كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء وحر الهجير حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحى الخيلاء فأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحى فى طلب ثارهم وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى إذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ونحن آمنوا وادعون ما هو إلى أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها وهو يسألنى عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الأسد وأمر باسراج فرسه ولبس لأمة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم فطعن أدناهم منه فرمى به ولحق أبعدهم منه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغيرا لا مدد وراءه فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعوا الله عز وجل له السلامة حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به أو لأهلكن دونه فانصرفت اليه الأقران وتمايلت نحوه الفرسان وتميزت الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الأسنة وعطفوا عليه الأعنة فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل وجعل لا يحمل على ناحية الا حطمها ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته وفرح الناس بسلامته فوالله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا وأحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيان الحى هذه الابيات

تأملن فعلى هل رأيتن مثله ... إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حقه ونصيبه ... من السمهرى اللدن والمرهف العضب

أنا ابن أبى هند قيس بن مالك ... سليل المعالى والمكارم والحسب

أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف ... وطرف قوى الظهر والجوف والجنب

وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ ... جبال الرواسى لانحطمن إلى الترب

وعرض نقى أتقى أن أعيبه ... وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب

فان لم أقاتل دونكن وأحتمى

لكن وأحميكن بالطعن والضرب فلا صدق اللاتى مشين إلى أبى يهنينه بالفارس البطل الندب

(وقال الشاعر) آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... فى الحادثات إذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والآخريات رجوم

(وقال آخر) فوارس قوالون للخيل اندامى ... وليس على غير الرؤس مجال

بأيديهم سمر العوالى كأنما ... تشب على غير اطرافهن ذيال

(وقال آخر) قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم ... شمسا وخلت وجوههم أقمارا

لا يعدلون برفدهم عن سائل ... عدل الزمان عليهم أو جارا

وإذ الصريخ دعاهم للملة ... بذلوا النفوس وفارقوا الاعمارا

ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ يكفيك أن يقال فى وصف الجبان أن أحس بعصفور طار فؤاده وإن طنت بعوضة طال سهاده يفزع من صرير الباب ويقلق من طنين الذباب أن نظرت إليه شزرا أغمى عليه شهرا يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح قال الشاعر

إذا صوت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد الناب عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت رضى الله عنه من الجبناء روى عن ابن الزبير أنه قال كان حسان فى قاع أطم مع النساء يوم الخندق فأتاهم فى ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ياحسان أن هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود فانزل إليه فاقتله فقال يغفر الله لك يابنت عبد المطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قال فاعتجرت صفية ثم أخذت عمودا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ورجعت إلى الحصن فقالت ياحسان قم إليه فاسلبه فإنه ما منعنى من سلبه إلا أنه رجل فقال مالى بسلبه من حاجة

(وقيل) كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته اضاقة وفاقة فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك فى زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدرى أين هى وبالغ الحجاج ذلك فأمر مناديا أن ينادى برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها فلم يلبث أن أتى له بها فقال لها الحجاج ياعدوة الله كنت عندى من أحب الناس إلى فاخترت لك ابن عمى شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت إنك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت ياسيدى اسمع قصتى ثم اصنع بى ماشئت قال هاتى ولا تخفى شيئا قالت كنت للفتى القرشى فاحتاج إلى ثمنى فحملنى إلى الكوفة فلما قربنا منها دنا منى فوقع على فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه ثم أقبل على وما برد ما عنده ثم قضى حاجته وأن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام إلى فلما علا بطنى وقعت فارة من السقف فضرب ثم غشى عليه فمكث زمانا طويلا

له رسول ملك الصين يستأذن عليك فقال ائذن له فلما دخل عليه وقف بين يديه وسلم وقال أن رأى الملك أن يخلى مجلسه فليفعل فأمر الاسكندر من بخدمه بالانصراف ولم يبق غير حاجبه فقال له رسول الذى جئت به لا يحتمل أن يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شىء من السلاح فوضع الاسكندر بين يديه سيفا مجردا وقال له قل ماشئت ثم أخرج جميع ماعنده فلما خلا المكان قال له الرسول أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسألك عما تريده فإن كان مما يمكن الانقياد إليه ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه وغنيت أنا وأنت عن الحرب فقال له الاسكندر وما الذى أمنك منى قال علمى بأنك رجل عاقل وليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بدخل ومتى قتلتنى أقاموا غيرى ولم يسلموا اليك البلد ثم تنسب أنت إلى غير الجميل وضد الحزم فأطرق الاسكندر مفكرا فى مقاله وعلم أنه رجل عاقل فقال له أريد ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلا ونصف ارتفاعه فى كل سنة قال أجبتك قال فكيف تكون حالك قال أكون قتيلا أو محاربا قال فإن قنعت منك بارتفاع سنتين كيف حالك قال أصلح مما تقدم ذكره قال فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة قال يكون مضرا لى ومذهبا لجميع لذاتى قال فإن اقتصرت منك على السدس قال يكون السدس موفرا والباقى للجيش ولأسباب الملك

وأنا

وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعا منك فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا قالت على أن لا تردني إليه قال لك ذلك (وحدث) جار لأبي حنيفة النميري قال كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق وكان يسميه لعاب المنية فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته وقد سمع حسا في داره وهو يقول أيها المغتر بنا المجتري علينا بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية الذي سمعت به أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ثم فتح الباب على رجل فإذا كلب قد خرج فقال الحمد لله الذي مسخك كلبا وكفانا حربا * وخرج المعتصم يوما إلى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه أفيك خير يا رجل قال لا فضحك المعتصم وقال قبح الله الجبان ورأى الاسكندر سياله لا يزال ينهزم فقال له يا رجل اما أن تغير فعلك واما أن تغير اسمك * ووقع في بعض العساكر ضجة فوثب خراساني إلى دابته ليلجمها فصير اللجام في الذنب من الدهش وقال يخاطب الفرس هب جبهتك عرضت فناصيتك كيف طالت (وخرج) أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس وكان مرداس في أربعين رجلا فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك وذمه ابن أبي زياد فقال لأن يذمني ابن أبي زياد حيا أحب إلي من أن يمدحني ميتا وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك فكبر ذلك عليه فشكاهم إلى ابن أبي زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه وفي ذلك يقول بعضهم شعرا

يقول جبان القول في حال سكره ... وقد شرب الصهباء هل من مبارزة
وأين الخيول الاعوجيات في الوغى ... أنازل منهم كل ليث مناهز
ففي السكر قيس وابن معدي وعامر ... وفي الصحو تلقاه كبعض العجائز

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين

﴿الباب الثاني والأربعون في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول﴾

(الفصل الأول في المدح والثناء) المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتا حميدا وهذا يصح من المولى في حق عبده فقال قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ وإنك لعلى خلق عظيم وقال تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون إلى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الانسان بما فيه من الاخلاق الحميدة وأما قوله ﷺ إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب فقد قال العتبي هو المدح الباطل والكذب وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبلغنا انه حثا في وجه مادح ترابا وقد مدح هو صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم وفي حثو التراب معنيان أحدهما التغليظ في الرد عليه والثاني كأنه يقال له بكفيك التراب وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون ومدح سارية الدئلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سارية الذي

قال قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف فلما أصبح وطلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض واختلط بجيش الاسكندر فارتعد وتواثبت أصحابه فركبوا واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك إذ ظهر ملك الصين وعليه التاج فلما رأى الاسكندر ترجل فقال له الاسكندر أغدرت قال لا والله قال فما هذا الجيش قال أردت أن أعلمك اني لم أطعك من ضعف ولا من قلة وما غاب عنك من الجيش أكثر لكني رأيت العالم الأكبر مقبلا عليك ممكنا لك فعلمت انه من حارب العالم الأكبر غلب فأردت طاعته بطاعتك والذلة لأمره بالذلة لأمرك فقال الاسكندر ليس مثلك يؤخذ منه شيء فما رأيت بيني وبينك أحدا يستحق التفضيل والوصف بالفضل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك فقال ملك الصين أما إذ فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الاسكندر أتبعه ملك الصين من الهدايا والتحف بضعف ما كان قدره عليه (ومن غريب المنقول عن أبي الفرج الأصبهاني) أنه قال أخبرني عمي عن أبيه الكلبي عن أبيه قال أخبرني شيخ من بني نبهان قال أصابت بني نبهان سنة ذهبت بالأموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة وقال كونوا قريبا من الملك يصبكم من خيره حتى أرجع إليكم ومضى على وجهه يسوق راحلته سبعة أيام حتى انتهى إلى عطن ابل عند تطفيل الشمس فاذا خباء عظيم وقبة

أمره عمر رضي الله عنه على السرية وناداه في خطبته بقوله يا سارية الجبل فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله

فما حملت من ناقة فوق ظهرها ... أبر وأوفى في ذمة من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه قوله

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهة تنبيك بالخبر

(ولما) حججت وزرته ﷺ تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الشريف وأنا مكشوف الرأس وأبكي من جملتها

ياسيد السادات جئتك قاصدا ... أرجو رضاك وأحتمي بحماكا ... والله ياخير الخلائق ان لي
قلباً مشوقا لا يروم سواكا ... وبحق جاهك انني بك مغرم ... والله يعلم انني أهواكا
أنت الذي لولاك ماخلق امرؤ ... كلا ولا خلق الورى لولاكا ... أنت الذي من نورك البدر اكتسى
والشمس مشرقة بنور بهاكا ... أنت الذي لما رفعت إلى السما ... بك قد سمت وتزينت لسراكا
أنت الذي ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباكا ... أنت الذي فينا سألت شفاعة
أنت الذي ناداك تكن لسواكا ... أنت الذي لما توسل آدم ... من ذنبه بك فاز وهو أباكا
وبك الخليل دعا فعادت ناره ... بردا وقد خمدت بنور سناكا ... ودعاك أيوب لضر مسه
فأزيل عنه الضر حين دعاكا ... وبك المسيح أتى بشيرا مخبراً ... بصفات حسنك مادحا لعلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسلا ... بك في القيامة مرتج لنداكا ... والانبياء وكل خلق في الورى
والرسل والاملاك تحت لواكا ... لك معجزات اعجزت كل الورى ... وفضائل جلت فليس تحاكى
نطق الذراع بسمه لك معلنا ... والضب قد لباك حين أتاكا ... والذئب جاءك والغزالة قد أتت
بك تستجير وتحتمي بحماكا ... وكذا الوحوش أتت اليك وسلمت ... وشكا البعير اليك حين رآكا
ودعوت أشجاراً أتتك مطيعة ... وسعت إليك مجيبة لنداكا ... والماء فاض براحتيك وسبحت
صم الحصى بالفضل في يمناكا ... وعليك ظللت الغمامة في الورى ... والجذع حن إلى كريم لقاكا
وكذاك لا أثر لمشيك في الثرى ... والصخر قد غاصت به قدماكا ... وشفيت ذا العاهات من أمراضه
وملأت كل الأرض من جدواكا ... ورددت عين قتادة بعد العمى ... وابن الحصين شفيته بشفاكا
وكذا حبيب وابن عفرا عندما ... جرحا شفيتهما بلمس يداكا ... وعلى من رمد به داويته
في خيبر فشفي بطيب لماكا ... وسألت ربك في ابن جابر بعدما ... قد مات أحياه وقد أرضاكا
ومسست شاة لأم معبد بعدما ... نشفت فدرت من شفا رقياكا ... ودعوت عام المحل ربك معلنا
فانهل قطر السحب عند دعاكا ... ودعوت كل الخلق فانقادوا إلى ... دعواك طوعا سامعين نداكا
وخفضت دين الكفر ياعلم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناكا ... أعداك عادوا في القليب بجهلهم
صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا ... في يوم بدر قد أتتك ملائك ... من عند ربك قاتلت أعداكا
والفتح جاءك يوم فتحك مكة ... والنصر في الاحزاب قد وافاكا * ... هود ويونس من بهاك تجملا

بن أدم قال فقلت في نفسي ما لهذا الخباء بد من أهل وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من أبل فنظرت في الخباء فاذا شيخ كبير قد أوهاه الكبر وهو (٢٣٠) شبه النسر فجلست خلفه فلما انصرم النهار أقبل فارس لم أر أعظم من شكله وفي خدمته أسودان يمشيان بين جنبيه وإذا مائة من الابل معها فحلها فبرك الفحل وبركن حوله فقال لأحد عبيده احلب فلان فحلبها ثم وضع اللبن بين يدي الشيخ فكرع منه وأخذه وقدمه إلي فشربت نصفه ثم أمر بشاة وأكلنا منها وشويت وأكلنا منها جميعا فامهلت حتى إذا ناموا وحكم عليهم النوم ثرت إلى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بي وتبعته الابل فمشيت إلى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحدا ولما تعالى النهار التفت فاذا أنا بخيال كأنه طائر فما زال يدنو حتى تبينته فاذا هو فارس على فرس وإذا هو صاحبي بالامس فعقلت الفحل وعمدت إلى كنانتي فقال احلل عقاله فقلت كلا لقد خلفت خلفي عيالا جياعا بالحيرة قال فانك ميت حل عقاله لا أم لك وانصب لي خطامه واجعل فيه خمس عقد وقل لي أين تحب أن أضع سهمي فقلت في هذا الموضع فكأنما وضعه بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم فرددت نبلي وحططت قوسي ووقفت مستسلما فدنا مني وأخذ القوس والسيف ثم أردفني خلفه وقد عرف أني الذي شربت اللبن عنده وأكلت اللحم

وجمال يوسف من ضياء سناكا　　قد فقت ياطه جميع الانبياء　　نورا فسبحان الذى سواكا
والله ياياسين مثلك لم يكن　　فى العالمين وحق من نباكا　　عن وصفك الشعراء يامدثر
عجزوا وكلوا عن صفات علاكا　　انجيل عيسى قد أتى بك مخبرا　　وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا
ماذا يقول المادحون وماعسى　　أن يجمع الكتاب من معناكا　　والله لوان البحار مدادهم
والعشب أقلام جعلن لذاكا　　لم تقدر الثقلان تجمع ذرة　　أبدا وما استطاعوا الادراكا
لى فيك قلب مغرم ياسيدى　　وحشاشة محشوة بهواكا　　فاذا سكت ففيك صمتى كله
وإذا نطقت فمادح علياكا　　وإذا سمعت عنك قولا طيبا　　وإذا نظرت فلا أرى إلاكا
يامالكى كن شافعى من فاقتى　　انى فقير فى الورى لغناكا　　يا أكرم الثقلين ياكنز الورى
جدلى بجودك وارضنى برضاكا　　أنا طامع فى الجود منك ولم يكن　　لابن الخطيب من الانام سواكا
فعساك تشفع فيه عند حسابه　　فلقد غدا مستمسكا بعراكا　　ولأنت أكرم شافع ومشفع
ومن النجا لحماك نال وفاكا　　فاجعل قرائى شفاعة لى فى غد　　فعسى أرى فى الحشر تحت لواكا

صلى عليك الله ياخير الورى　　ما حن مشتاق إلى مثواكا
وعلى صحابتك الكرام جميعهم　　والتابعين وكل من والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى واثنى عليه وقد قال ﷺ أنا سيد ولد آدم ولا فخر والله لو أن البحار مداد والاشجار أقلام وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعون النزر اليسير من بعض صفاته ولنكلوا عن الاتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له ياهذا انه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه فقال مامدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرا فقال له هشام وهذا أحسن من المدح ووصله وأكرمه وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر وأيقنت انى حيث انتهى من القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ووكلت الاخبار عنك إلى علم الناس بك وقال الحرث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب

فتى دهره شطران فيما ينوبه　　ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فلا من بغاث الخير فى عينه قذى　　ولا من ذئير الحرب فى أذنه وقر

وقال اعرابى لرجل لايذم بلد انت تأويه ولا يشتكى زمان انت فيه وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العتكى فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال يا أمير المؤمنين ان الحجاج سيفك الذى لا ينبو وسهمك الذى لايطيش وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه وقال رجل لآخر أنت بستان الدنيا فقال له وانت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان وقال رجل لابى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة وانت والله عين الدنيا فقال له وانت والله نور تلك العين وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى

قوم إذا نزل الغريب بدارهم　　تركوه رب صواهل وقيان
وإذا دعوتهم ليوم كريهة　　سدوا شعاع الشمس بالفرسان

(وقال أوس بن حاتم الطائى)

فان تنحكى مارية الخير حاتما　　فما مثله فيه ولا فى الاعاجم

فقال كيف ظنك بى فقلت أحسن ظن فقال ابشر انه لن ينالك شر وقد كنت ضيف مهلهل فقلت أزيد الخيل أنت قال نعم أنا زيد الخيل فلما انتهينا إلى منزله قال لو كانت هذه الابل لى لسلمتها اليك ولكنها لابنة مهلهل فأقم عندى فأقمت عنده أياما فشن الغارة على بنى نمير فأصاب مائة بعير فقال هذه أحب اليك أم تلك قلت هذه قال دونكها وبعث معى خفراء من ماء إلى ماء إلى أن وردت الحيرة فلقينى نبطى فقال يا اعرابى احتفظ بمالك فقد قرب مخرج النبى صلى الله عليه وسلم الذى يملك هذه الأرض ويطرد اهلها حتى أن أحدكم ليبتاع البستان بثمن بعير قال فاحتملت بأهلى إلى النبط حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا على يديه وما مضت إلا أيام حتى اشتريت بثمن بعير من ابلى بستانا بالحيرة والله أعلم (ونقل عن الواقدى) قال كان لى صديقان أحدهما هاشمى والآخر نبطى فكنا فى الصداقة كنفس واحدة فنالتنى ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتى أما نحن فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد تقطع قلبى عليهم رحمة لانهم يرون صبيان جيراننا وقد تزينوا فى عيدهم وهم فرحون ولا بأس بالاحتيال فيما نصرفه فى كسوتهم قال فكتبت إلى صديقى الهاشمى أسأله التوسعة على بشىء فوجه إلى كيسا فيه الف درهم فما استقر قراره حتى كتب إلى صديقى الآخر يشكو إلى مثل ما شكوته إلى الهاشمى فوجهت اليه

بالكيس على حاله وخرجت إلى المسجد وأنا مستح من امرأتي فلما دخلت عليها لم تعنفني لعلمها بالحال فبينما أنا كذلك إذا أقبل صديقي الهاشمي ومعه

الكيس بختمه فقال أصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك فأعلمته بالخبر

فتى لا يزال الدهر أكبر همه فكاك أسير أو معونة غارم

(وقال ابن حمدون في آل مهلب)

آل المهلب معشر أمجاد ورثوا المكارم والوفاء فسادوا شاد المهلب ما بنى آباؤه

وأتى بنوه ما بناه فشادوا وكذاك من طابت مغارس نبته وبنى له الآباء والاجداد

وكان الفرزدق هجاه لعمر بن هبيرة فالماسجن ونقب له السجن وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق

ولما رأيت الأرض قدسد ظهرها ولم يبق إلا بطنها لك مخرجا

دعوت الذي ناداه يونس بعدما ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا

فقال بن هبيرة مارأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميرا ومدحني أسيرا وقال سرى بن عبد الرحمن الرفاه في خالد بن حاتم : ياواحد العرب الذي دانت له قحطان قاطبة وساد نزارا

انى لا أرجو ان لقيتك سالما ان لا أعالج بعدك الأسفارا

(وقال كعب بن مالك الأنصارى في آل هاشم)

يا آل هاشم الإله حباكم ما ليس يبلغه اللسان المفصل

قوم لأصلهم السيادة كلها قدماً وفرعهم النبي المرسل

(وقال الحسين بن دعبل الخزاعي)

ملك الامور بجوده وحسامه شرفا يقود عدوه بزمامه

فأطاع أمر الجود في أمواله وأطاع أمر الله في أحكامه

(وقال آخر) يلقى السيوف بصدره وبنحره ويقيم هامته مقام المغفر

ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا فعقرت ركن المجد ان لم تعقر

وإذا تراءى شخص ضيف مقبل متسربل أثواب محل أغبر

أومى إلى الكوماء هذا طارق نحرتنى الاعداء ان لم تنحر

(وقال شاعر بني تميم) إذا لبسوا عمائمهم طووها على كرم وان سفروا أناروا

يبيع ويشترى لهم سواهم ولكن بالطعان هم تجار

إذ ما كنت جار بني تميم فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون من ذا الذي يقول

لعمري ما رماح بني نمير بطائشة الصدور ولا قصار

قالوا زياد الأعجم قالت أشهدكم ان له الثلث من مالي وكان مالا كثيرا وأثنى رجل على رجل فقال هو أفصح أهل زمانه إذا حدث وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحات إذا خولف يعطى صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة وعلى المعالى مقصورة كالذهب الابريز الذى يعز كل أوان والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان هو النجم المضيء للحيران والمنهل البارد العذب للعطشان وقال الحسن بن هانىء : إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وان جرت الالفاظ يوما بمدحة لغيرك انسانا فانت الذى نعنى

(وله في الفضل بن الربيع)

لقد نزلت أبا العباس منزلة مان ترى خلفها الأبصار مطرحا

فقال انك وجهت إلى ولا أملك إلا مابعثت إليك وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إلى كيسى بختمه فأخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقى أثلاثا ونما الخبر إلى المأمون فأحضرنى وسألنى عن الخبر فشرحته له فأمر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا (ويضارع ذلك ما هو منقول عن الاصمعى) قال قصدت في بعض الايام رجلا كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابا فمنعنى من الدخول إليه ثم قال والله يا أصمعى ما أوقفنى على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله وقصور يده فكتبت رقعة فيها. إذا كان الكريم له حجاب ، فما فضل الكريم على اللئيم ثم قلت له أوصل رقعتى إليه ففعل وعاد ظهرها إذا كان الكريم قليل مال .. تحجب بالحجاب عن الغريم ، ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر فلما رآنى قال من أين يا أصمعى قلت من عند رجل من أكرم الأحياء حاشى أمير المؤمنين وكانت ،

قال ومن هو فدفعت إليه الورقة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال هذا من بيت مالى ولابد لى من الرجل

وكان بالدهر عينا غير غافلة ... بجود كفك تأسو كل ما جرحا

(وقال زياد الاعجم فى محمد بن القاسم الثقفى)

ان المنابر اصبحت مختالة ... بمحمد بن القاسم بن محمد

قاد الجيوش لسبع عشر حجة ... يا قرب سورة سودد من مولد

(ومن بدائع مدائح المتنبى قوله)

ليت المدائح تستوفى مناقبه ... فما كليب وأهل الاعصر الاول

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ... فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فان وجدت لسانا قائلا فقل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه خلعا سنية حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه لجمعهم وقال يالله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض ان أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل فى قصيدته بخمسين بيتا فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيره ثم قال

أنى امنت من الزمان وصرفه ... لما علقت من الأمير حبالا

لو يستطيع الناس من اجلاله ... جعلوا له حر الوجوه نعالا

ان المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت اليك سباسبا ورمالا

فان وردن بنا وردن خفائفا ... وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ووفد ابو نواس على الخطيب بمصر فاذا له وعنده الشعراء فأنشد الشعراء واشعارهم فلما فرغوا قال ابو نواس انشد أيها الامير قصيدة هى كعصا موسى تلقف ما صنعوا قال انشد فأنشده قصيدته التى منها قوله

إذا لم تزر ارض الخصيب ركابنا ... فأى فتى بعد الخصيب تزور

فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم ان الدائرة تدور

فما فاته جود ولا ضل دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب طربا وامر له بألف دينار ووصيف ووصيفة (وحكى) ان ابا دلف سار يوما مع اخيه معقل فرأيا امرأتين يتماشيان فقالت احداهما للاخرى هذا ابو دلف قالت نعم الذى يقول فيه الشاعر

انما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

فبكى ابو دلف حتى جرت دموعه فقال له معقل مالك يا أخى تبكى فقال لانى لم اقض حق الذى قال هذا قال اولم نعطه مائة ألف درهم قال والله ما فى نفسى حسرة الا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار ويقال هذه المدح فاين المنحة قال بعضهم

إذا ما المدح صار بلا نوال ... من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فاجازه بألف دينار ثم مات محمد بن نصر وقام ولده مقامه فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها

تباعدت عنكم حرمة لازهادة ... وسرت اليكم حين مسنى الضر

فجاء ابو نصر بالف تصرمت ... وانى عليم ان سيخلفها نصر

فلما فرغ من انشادها قال نصر والله لو قال سيضعفها نصر لاضعفتها له واعطاه الف دينار فى طبق فضة ومدح بعض الشعراء وقيل هو البديع الهمدانى انسانا فقال

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبا ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت ... والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

(وقال آخر) اخو كرم يقضى الورى بساطه ... إلى روض مجد بالسماح مجود

فقلت والله يا أمير المؤمنين أنى استحى أن أروعه برسلك فقال لبعض خاصته امض الاصمعى فاذا أراك الرجل قل له أجب أمير المؤمنين من غير ازعاج قال فلما حضر الرجل بين يدى المأمون قال له أما أنت الذى وقفت لنا بالامس وشكوت رقة الحال فان الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا اليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الاصمعى ببيت واحد فدفعتها اليه فقال نعم يا أمير المؤمنين والله ما كذبت فيما شكوت لامير المؤمنين رقة من الحال لكن استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدى كما أعادنى أمير المؤمنين فقال له المأمون لله أنت فما ولدت العرب اكرم منك ثم بالغ فى اكرامه وجعله من جلة ندمائه (ومن لطائف المنقول) ما هو المنقول عن الربيع أنه قال ما رأيت رجلا أثبت ولا أربط جأشا من رجل رفع الى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية فامرنى باحضاره فاحضرته ودخلت اليه فقال له المنصور قد رفع الينا خبر الودائع والاموال التى لبنى أمية عندك فاخرج لنا منها فقال يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبنى امية قال لا قال فوصى قال لا قال فما سؤالك عما فى يدى من ذلك قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال ان بنى امية ظلموا المسلمين فيها وانا وكيل المسلمين فى حقهم فأريد ان آخذ اموال المسلمين واجعلها فى بيت مالهم فقال يا امير المؤمنين تحتاج فى ذلك الى اقام

البينة العادلة على أن الذى فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين فان بنى أمية كان لهم أموال فهى أموال المسلمين قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إلىّ وقال صدق الرجل ياربيع ماوجب عليه عندنا شىء ثم بش فى وجهه فقال هل لك من حاجة فقال نعم ياأمير المؤمنين حاجتى أن تنفذ كتابى مع البريد الى أهلى ليسكنوا الى سلامتى فقد راعهم اشخاصى وقد بقيت لى حاجة أخرى ياأمير المؤمنين قال ماهى قال تجمع بينى وبين من سعى بى اليك فوالله مالبنى أمية عندى ولا فى يدى وديعة ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى ورأيت ماقلته أقرب الى الخلاص والنجاة فقال ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فقال هذا غلامى ضرب على ثلاثة آلاف من مالى وأبق فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وأبق منه وكذب عليه خوفا من الوقوع فى يده فقال المنصور للرجل نسألك أن تصفح عنه فقال ياأمير المؤمنين صفحت عن جرمه وابرأته من المال واعطيته ثلاثة آلاف دينار اخرى فقال المنصور ما على مافعلت مزيد فى الكرم قال بلى ياأمير المؤمنين هذا حق كلامك وانصرف

...... وكم لجباه الراغبين لديه من | مجال سجود فى مجالس جود

ويقال فلان رفيق الجود ودخيله وزميل الكرم ونزيله وغرة الدهر وتحجيله مواهبه الانواء وصدره الدهناء عونه موقوف على اللهيف وغوثه مبذول للضعيف يطفو بجوده على موجوده وهمته على قدرته ينابيع الجود تتفجر من أنامله وربيع السماح يضحك عن فواضله ان طلبت كريما فى جوده مت قبل وجوده أو ماجدا فى أخلاقه مت ولم تلاقه باسل تعود الاقدام حيث تزل الاقدام وشجاع ترى الاحجام عارا لا تمحوه الايام له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفى كدورته خلق كنسيم الاسحار على صفحات الانهار واطيب من زمن الورد فى الايام وأبهج من نور البدر فى الظلام خلق يجمع الاهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة فى مودته هو ملح الأرض إذا فسدت وعمارة الدنيا إذا خربت يحل دقائق الاشكال ويزيل جلائل الاشكال البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته كانما أوحى التوفيق إلى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره فهو يبعث بالكلام ويقوده بألين زمام حتى كان الالفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره والمعانى تتغاير فى الامتثال لاوامره يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل كلامه يشتد مرة حتى يقول الصخر أو أيبس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس فهو إذا أنشأ وشى وإذا عبر حبر وإذا أوجز أعجز تاهت به الايام وباهت فى يمينه الاقلام له أدب لو تصور شخصا لكان بالقلوب مختصا قال الشاعر

له خلق على الايام يصفو | كما تصفو على الزمن العقار

(وقال آخر) لو كان يحوى الروضة ناضر خلقه | ما كان يذبل نوره بشتائه
أو قابل الافلاك طالع سعده | ماصار نحس فى نجوم سمائه

(وقال آخر) ووجهك فى الغياهب مشرق | وكفك فى شهب السنين غمام
عجيب لبدر لايزال أمامه | سحاب ولا يغشاه منه ظلام
وأعجب من هذا غمام إذا سطا | تلظى مكان البرق منه حسام

(وقال الحسين بن مطير الاسدى)

له يوم بؤس فيه للناس ابؤس * ويوم نعيم فيه للناس أنعم * فيمطر يوم الجود من كفه الندى ويمطر يوم البؤس من كفه الدم * لو أن يوم البؤس خلى عقابه * على الناس لم يصبح على الارض مجرم

ولو أن الجود خلى يمينه | عن المال يصبح على الارض معدم

(وللشيخ جمال الدين بن نباتة)

والله ما عجبى لقدك انه | قدر على باغى مداه بعيد
الا لكونك لست تشكو وحشة | فى هذه الدنيا وأنت وحيد

(ولصفى الدين الحلى) انى فتثنينى صفاتك مظهرا | عيا وكم أعيت صفاتك خاطبا
لو أننى والخلق جمعا ألسن | تثنى عليك لما قضينا الواجبا

(وللشيخ برهان الدين القيراطى)

اوصافكم تجرى أحاديثها | مجرى النجوم الزهر فى الآفق
كما احاديث الندى عنكم | تسندها الركبان من طرق

(وللشيخ

وكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول ما رأيت مثل هذا الرجل ياربيع (رحلة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه)

قال الشيخ الامام العالم المقرى أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الأردبيلى المالكى بالجامع العتيق بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله ابن فتح المعروف بابن الحبشى سنة ثلاثين وخمسمائة أخبرنا الشريف القاضى الموسوى أبو اسمعيل موسى بن الحسين بن اسمعيل بن على الحسينى المقرى فى سنة اربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال أخبرنا الشيخ أبو العباس أحمد بن ابراهيم الفارسى فى ربيع الأول سنة احدى وخمسين واربعمائة قال أخبرنا يحيى بن عبد الله الرجل الصالح ويحيى بن موسى المعدل بمصر قال حدثنا ابو الحسن احمد بن محمد الواعظ المصرى الكرازة قال حدثنى أبو الفرج عبد الرازق حمدان البطين قال حدثنى أبو بكر محمد بن المثنى قال حدثنى الربيع بن سليمان قال سمعت الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه يقول فارقت مكة وانا ابن أربع عشر سنة لا نبات بعارضى من الأبطح الى ذى طوى وعلى بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا على السلام ووثب إلى شيخ كان فيهم قال سألتك بالله الا ماحضرت طعامنا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه قال كنت اعلم انهم احضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم فرايت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت

(وللشيخ جمال الدين بن نباتة)

روت عنك أخبار المعالى محاسنا ... كفت بلسان الحال ألسن الحمد

فوجهك عن بشر وكفك عن عطا ... وخلقك عن سهل ورأيك عن سعد

(وقال غيره) من زار بابك لم تبرح جوارحه ... تروى أحاديث ماأوليت من منن

فالعين عن قرة والكف عن صلة ... والقلب عن جابر والسمع عن حسن

(ولأبى فراس بن حمدان)

لئن خلق الأنام لحب كاس ... ومزمار وطنبور وعــود

فلم يخلق بنو حمدان إلا ... لمجد أو لبأس أو لجود

(وقال آخر) ان الهبات التى جاد الكرام بها ... مطروقة وندى كفيك مبتكر

مازالت تسبق حتى قال حاسدكم ... له طريق إلى العليــاء مقتصر

(ولمحمد بن مناذر فى آل برمك)

أتانا بنو الاملاك من آل برمك ... فياطيب أخبار وأحسن منظر

لهم رحلة فى كل عام إلى الندا ... وأخرى إلى البيت العتيق المنور

اذ نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فــا خلقت الا لجود أكفهم ... وأقدامهم الا لسعى ومظفر

إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه ... وناهيك من راع له ومدبر

ولما عزل ابراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد

ليت شعرى أى قوم أجدبوا ... فأغيثوا بك من بعد العجف

نظر الله لهم من بيننا ... وحرمناك بذنب قد سلف

يا أبا إسحق سر فى دعة ... وامض مصحوبا فما منك خلف

انما أنت ربيع باكر ... حيثما صرفه الله انصرف

(وقال آخر) لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا فى شعاع الشمس وارتفعوا ... الى السماء فأنتم سادة الناس

للحسين بن مطير الأسدى فى المهدى

لو يعبد الناس يامهدى أفضلهم ... ماكان فى الناس الا أنت معبود

أضحت يمينك من جود مصورة ... لابل يمينك منها صور الجود

لو أن من نوره مثقال خردلة ... فى السود طرا اذا لابيضت السود

(وقال آخر) أوليتنى نعما وفضلا زائدا ... وبررتنى حتى رأيتك والدا

أقسمت لوجاز السجود المنعم ... ماكنت الا راكعا لك ساجدا

وقال آخر ثناؤك فى الدنيا من المسك أعطر ... وحظك فى الدنيا جزيل موفر

وكفك بحر والأنامل أنهر ... رعى الله كفا فيه بحر وأنهر

اعيذك بالرحمن من كل حاسد ... فلا زالت الحساد تبغى وتصغر

لسانى قصير فى مديحك سيدى ... لانى فقير والفقير مقصر

(الفصل الثانى من هذا الباب فى شكر النعمة) اما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب وهو ان يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل وان لا نعمة على الخلق من اهل السموات والأرض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك والدليل على ان الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أيقنوا أنه من الله وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد

كأخذهم كي لا يستبقع عليهم مأكلي والشيخ ينظر إلي ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثنيت فأقبل عليه على الشيخ وقال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي ثم أقبلت عليه وقلت يا عم لم استدللت علي قال أما في الحضر فبالزي وأما في النسب فبأكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك في قريش خصوصا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله تعالى والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيدنى أصبح مالك ابن أنس رضي الله تعالى عنه قال الشافعي رضي الله عنه فقلت واشوقاه إلى مالك فقال لي قد بل الله شوقك انظر إلى هذا البعير الأورق فإنه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك فما كان غير بعد حتى قطروا بعضها إلى بعض وأركبوني البعير الأورق وأخذ القوم في السير وأخذت أنا في الدرس فختمت من مكة إلى المدينة ست عشر ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر في مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر فسلمت على النبي ﷺ ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس السلام متزرا ببردة متوشحا بأخرى قلت حدثني نافع بن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده الى قبر رسول الله ﷺ

روى أن داود عليه السلام قال إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتني وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر . ولمحمود الوراق

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... على له مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر الا بفضله ... وان طالت الأيام واتصل العمر

إذا مس بالسراء عم سرورها ... وان مس بالضراء أعقبها الأجر

فما منهما الا له فيه نعمة ... تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وفي مناجاة موسى عليه السلام الهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف أشكرك فقال اعلم أن ذلك مني فكانت معرفته بذلك شكرا لي وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه وأما بنعمة ربك فحدث وروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فان ذكرها شكر . وأما الشكر الذي في الجوارح فقد قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا الآية فجعل العمل شكرا وروى أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه فقيل له يا رسول الله تفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا لله شكورا وقال أبو هرون دخلت على أبي حازم فقلت له يرحمك الله ما شكر العينين قال إذا رأيت بهما خيرا ذكرته واذا رأيت بهما شرا سترته قلت فما شكر الأذنين قال إذا سمعت بهما خيرا حفظته وإذا سمعت بهما شرا نسيته وفي حكمة ادريس عليه الصلاة والسلام لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخلق مثل ما صنع الخالق اليه فاذا اردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر فاذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان علمنا أنه قد أخل بالشكر أما إنه لا يزكي ماله أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه من كسوة عريان أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي ﷺ لو صدق السائل ما أفلح من رده وقال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الاحسان وقال بعض الحكماء من أعطى أربعا لم يمنع من أربع من اعطى الشكر لا يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وقال المغيرة بن شعبة أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعم اذا كفرت لا زوال لها اذا شكرت وكان الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها كلما شكرت تجد نعمة ذلك بالشكر أعظم منا عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة الى ما هو أعظم منها وروى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على زبيعة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان فأعتق رقبة شكر الله تعالى اذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم ويروى ان نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام يا نبي الله انا على قدري اشكر الله منك وكان راكبا على فرس ذلول نخر ساجدا لله تعالى ثم قال لولا اني اجلك لسألتك عن ان تنزع مني ما أعطيتني وقال صدقة بن يسار بينما داود عليه السلام في محرابه اذ مرت بدودة فتفكر في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فأنطقها الله تعالى له فقالت له يا داود تعجبك نفسك وأنا على ما قدر ما آتاني الله تعالى أذكر الله واشكر له منك على ما آتاك وقال علي رضي الله عنه احذروا نفار النعم فما كل شارد مردود عنه عليه

قال الشافعي رضي الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى حديثا كتبته بريق على يدى والإمام

مالك رضي الله عنه ينظر إلى من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرنى مالك أن أنصرف فلم يرنى انصرفت فأشار إلى فدنوت منه فنظر إلى ساعة ثم قال أحرمى أنت قلت حرمى قال أمكى أنت قلت مكى قال أقرشى أنت قلت قرشى قال كملت أوصافك لكن فيك اساءة أدب قلت وما الذى رأيت من سوء أدبى قال رأيتك وأنا وأملى ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ماتقول فجذب مالك يدى اليه فقال ماأرى عليها شيئا فقلت ان الريق لايثبت على اليد ولكن فهمت جميع ماحدثت به منذ جلست وحفظته الى حين قطعت فتعجب الإمام مالك من ذلك فقال أعد على ولو حديثا واحدا قال الشافعي رضي الله عنه) فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدى الى القبر كاشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال خذ بيد سيدك اليك وسألنى النهوض معه) قال الشافعي رحمه الله فقمت غير ممتنع إلى مادعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلنى الغلام الى خلوة فى الدار وقال لى القبلة فى البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا

السلام إذا وصلت اليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر وقيل إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر وقال حكيم الشكر ثلاث منازل ضمير القلب ونشر اللسان ومكافأة اليد قال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة كان يقال ماأنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقا على الله تعالى أن يزيلها عنه وأنشد أبو العباس ارة فى المعنى

أعارك ماله لتقوم فيه ... بواجبه وتقضى على بعض حقه

فلم تقصد لطاعته ولكن ... قويت على معاصيه برزقه

(وقال آخر) ولو أن لى فى كل منبت شعرة ... لسانا يطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حنلب الراوية إذا قل الشكر خسر المن وروى إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان وسئل بعض الحكماء ماأضيع الاشياء قال مطر الجود فى أرض سبخة لايجف ثراها ولاينبت مرعاها وسراج يوقد فى الشمس وجارية حسناء يزف إلى أعمى وصنيعة تسدى إلى من يشكرها قال عبد الأعلى بن حماد دخلت إلى المتوكل فقال ياأبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فدافعته الأمور فقلت ياأمير المؤمنين بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة وأنشدته

لأشكرن لك معروفا هممت به ... فان همك بالمعروف معروف

ولا أتومك أن لم يمضه قدر ... فالشر بالقدر المحتوم مصروف

(قال أبو فرس بن حمدان)

وما نعمة مكفورة قد صنعتها ... الى غيرذى شكر بما نعنى اخرى

سآتى جميلا ماحييت فانى ... إذا لم أفد شكرا أفدت به أجرا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من امتطى الشكر بلغ به المزيد وقيل من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد وقال ابن السماك النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة فاذا فقدت عرفت وقيل من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها وكان يقال اذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة وقال حكيم لاتصطنعوا ثلاثة اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة والفاحش فإنه يرى أن الذى صنعت اليه انما هو لمخافة فحشه والأحمق فإنه لايعرف قدر ما أسديت اليه وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشد فقال ماعسيت أن تقول بعد قولك المسلمة

أمسلمة ياخير كل خليفة ... ويافارس الدنيا وياجبل الأرض

شكرتك ان الشكر دين على الفتى ... وما كل من أوليته يقضى

وأحييت لى ذكرى وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وسمعه الرشيد فقال هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه ولم يضع نفسه وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له ثم قال نصر اللهم انى أنعمت على بنى بسام فلم يشكروا اللهم اقتلهم فقتلوا كلهم وعن ابن الحسين رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الاجر مايعطى الصائم القائم ان الله شاكر يحب الشاكرين وعن محمد بن على ما أنعم الله على عبد نعمة فلم انها من الله الاكتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها ولاأذنب عبد ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه ان شاء غفر له وإن شاء آخذه قبل أن يستغفره الاغفر الله له قبل أن يستغفره واولى رجل اعرابيا

خيراً فقال لا أبلاك الله ببلاء يعجزه عن صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك وأنشد بعضهم وأجاد

سأشكر لا أنى أجازيك منعما ... بشكرى ولكن كى يزداد لك الشكر
وذكر أياما لدى اصطنعتها ... وآخر مايبقى على الشاكر الذكر

(وقال آخر) أوليتنى نعما أبوح بشكرها ... وكفيتنى كل الامور بأسرها
فلأشكرنك ماحييت وان أمت ... فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(وقال آخر) أيارب أحسنت عودا وبدأة ... إلى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة ... فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

وقال محمود الوراق الهى لك الحمد الذى أنت أهله ... على نعم ماكنت قط لها أهلا
ان زدت تقصيراً تزدنى تفضلا ... كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

وقد أحسن نصيب فى صف الثناء والشكر بقوله

فعاجوا واثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(وقال رجل من غطفان)

الشكر أفضل ماحاولت ملتمسا ... به الزيادة عند الله والناس

وقيل شكر المنعم عليك وانعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة

(الفصل الثالث من هذا الباب فى المكافأة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تقدروا فادعوا له ولما قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يخدمهم بنفسه فقيل له يارسول الله لو تركتنا كفيناك فقال كانوا لاصحابى مكرمين وقيل أتى رجل من الانصار إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال

اذكر صنيعى إذا فاجاك ذو سفه ... يوم السفينة والصديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته ادن منى فدنا منه فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال ألا ان هذا ردعنى سفيها من قومه يوم السفينة ثم حمل على نجيب وزاد فى عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ جزاء الاحسان إلا الاحسان وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة يدى عندك بيضاء قال وماهى قال كبت بك فرسك فتقدمت اليك قبل غلمانك فأخذت بعضك وأركبتك وأسقيتك ماء قال فأين كنت الى الآن قال حجبت عن الوصول اليك قال قد أمرنا لك بمائتى الف درهم وبما يملكه الحاجب اذ حجبك عنا (وقال) قطرى بن الفجاءة لخارجى أسره الحجاج على من عليه فأطلقه عاود قتال عدو الله هيهات شديدا مطلقها وأرق رقبة معتقها ثم قال

أقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول اذا وقفت ازاءه ... فى الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار على لا انى اذا ... لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام ان صنائعا ... غرست لدى لحنظلت نخلاته

واجتاز الشافعى رحمه الله تعالى بمصر فى سوق الحدادين فسقط سوطه فقام انسان فأخذه ومسحه وناوله اياه فقال لغلامه كم معك قال عشرة دنانير قال ادفعها اليه واعتذر له واستنشد عبد الملك عامر الشعبى فأنشده لغير ماشاعر حتى أنشد الحسان

بيت الخلاء (وقال الشافعى رضى الله عنه) فالبث مالك رضى الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملا طبقا فوضعه من يده وسلم على الإمام ثم قال لعبد اغسل علينا فوثب الغلام إلى الاناء أراد أن يغسل على أولا فصاح عليه مالك وقال الغسل فى أول الطعام لرب البيت وفى آخر الطعام للضيف (وقال الشافعى رضى الله عنه) فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضى الله عنه وسألته عن شرحه فقال انه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدى بالغسل وفى آخر الطعام ينظر من يدخل فيأكل منه (فقال الشافعى رضى الله عنه) فكشف الإمام رضى الله عنه الطبق فكان فيه صحفتان فى أحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لى يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت لاعذر على من أحسن انما العذر على من أساء (قال الشافعى رضى الله عنه) فأقبل مالك يسألنى عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عنى وقال حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتى فلما كان فى الثلث الأخير من الليل قرع على مالك الباب فقال لى الصلاة يرحمك الله فرأيته حامل إناء فيه ماء فتبشع على ذلك فقال لى لايرعك مارأيته لخدمة الضيف فرض (قال الشافعى رضى الله عنه) فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع

الامام مالك فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لايعرف بعضهم بعضا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا فى
مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤس الجبال لجلس مالك فى مجلسه بالامس وناولنى الموطأ

من سره شرف الحياة فلم يزل   فى عصبة من صالحى الانصار   البائعين نفوسهم لنبيهم
بالمشرفى وبالقنا الخطار   الناظرين بأعين محمرة   كالجمر غير كليلة الأبصار

فقام أنصارى فقال ياأمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على ستون من الابل كما أعطينا حسنا يوم قالها فقال عبد الملك وله عندى ستون الفا وستون من الابل وعن على كرم الله وجهه أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم وقال المدائنى رأيت رجلا يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ثم رأيته ماشيا فى سفر فسألته عن ذلك فقال ركبت حيث يمشى الناس فكان حقا على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس

(ومما جاء فى المكافأة) ماحكى عن الحسن بن سهل قال كنت يوما عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لاحكام أمر من أمور الرشيد فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبى خالد الاحول فنظر يحيى اليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال يابنى أن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثا فاذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدثك به فلما فرغ من شغله وطعم قال له ابنه الفضل أعزك الله ياأبى أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الاحول قال نعم يابنى لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيرا لايملك شيئا فاشتد بى الامر إلى أن قال لى من فى منزلى أنا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ماعندنا شىء نقتات به فبكيت يابنى لذلك بكاء شديدا وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكرا ثم تذكرت منديلا كان عندى فقلت لهم ماحال المنديل فقالوا هو باق عندنا فقلت أدفعوه لى فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابى وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهما فدفعتها إلى أهلى وقلت انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى فاذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم راكبا فلما رآنى سلم على وقال كيف حالك فقلت ياأباخالد ماحال رجل يبيع من منزله بالامس منديلا بسبعة عشر درهما فنظر إلى نظرا شديدا وما أجابنى جوابا فرجعت إلى أهلى كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد فقالوا بئس والله مافعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لامر جليل فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلا فما يراك بعد اليوم الا بهذه العين فقلت قد قضى الامر الآن بما لايمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة فلما بلغت الباب استقبلنى رجل فقال لى قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين فلم التفت لقوله فاستقبلنى آخر فقال لى كمقالة الأول ثم استقبلنى حاجب أبى خالد فقال لى أين تكون قد أمرنى أبو خالد باجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج فلما رآنى دعانى وأمر لى بمركوب فركبت وسرت معه إلى منزله فلما نزل قال على بفلان وفلان الحناطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر الف الف درهم قالا نعم قال ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما قالا بلى قال هو هذا الرجل الذى اشترط شركته لكما ثم قال لى قم معهما فلما خرجنا قالا لى ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنىء فدخلنا مسجدا فقالا لى انك تحتاج فى هذا الامر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شىء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به وتسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبذلان لى فقالا مائة

عليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه (وقال الشافعى رضى الله عنه) فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الانس الذى كان بيننا أينا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجتهم للزيارة واسماع الموطأ (قال الشافعى) فأمليت عليهم حفظا منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم قال الربيع أحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم قال الشافعى رضى الله عنه فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيرا سألته عن اسمه فأخبرنى وسألته عن بلده فقال العراق فقلت أى العراق فقال لى الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم فى نص الكتاب والمفتى باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبى حنيفة رضى الله عنه (وقال الشافعى رضى الله عنه) فقلت ومتى عزمتم تظعنون فقال لى فى غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة فى طلب العلم بغير استئذان العجوز فأعود اليها أو ارحل فى طلب العلم فقال لى العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم

أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلبه (قال الشافعي رضي عنه) فلما أزمعت على السفر زودني الإمام

مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته

إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت بم تكتري وليس معك ولا معي شيء فقال لي انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذا قرع على قارع الباب فخرجت اليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكترى لي باربعة دنانير ودفع إلى باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الخلق حتى وصلت إلى الكوفة يوم أربع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت إليه ناصحا فقلت له أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا صلاتي قط وخرج متعجبا ينفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال أعلمتماني صلاتي من عيب فقالا اللهم لا قال في مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا اذهب اليه فقل له بم تدخل في الصلاة

السفر

الف درهم فقلت لا أفعل فما زال يزيدني وأنا لا أرضى إلى أن قال ثلثمائة الف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشار أبا خالد قال ذلك فرجعت اليه وأخبرته فدعاهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر قال نعم قال اذهبا فاقبضاه المال الساعة ثم قال لي أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به فما زالت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار ثم قال لولده الفضل يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاؤه قال حق لعمري وجب عليك له فقال والله يا ولدي ما أحد له مكافأة غير أني أعزل نفسي وأوليه ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة ومن ذلك ما حكي عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوما مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآني قال لي يا عباس قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا اليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به إلى غد في واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال أنا من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيرا أفمن أنت من أهلها قال وعمن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لي معه قضية فقال ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى ان الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثني أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك فقال دونك الدار ففتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا هو هنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة ان شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيرا فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكانا في داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ على المواثيق بالرجوع اليه فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثرا فرجعت اليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية فقال علام تعزم فقلت عزمت على التوجه إلى بغداد فقال القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك فقلت له انك تفضلت علي هذه المدة ولك علي عهد الله اني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت قال فدعا غلاما له أسود وقال له أسرج الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية في النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاء في السحر وقال لي يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوبا ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة

قال الشافعي رضي الله عنه) فقال لي يا من عاب صلاتي ثم تدخل في الصلاة فقلت بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا اذهب إليه فقل له ما الفرضان وما السنة فأتى إلي فقال ما الفرضان وما السنة فقلت له أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الاحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إلي أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالا اذهب إليه وقل له أجب الشيخين (قال الشافعي رحمه الله تعالى). فلما أتاني علمت أني مسئول عن شيء من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما إلي فلما سلما علي قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن وقال أحرمي أنت فقلت نعم فقال اعربي أم مولى فقلت عربي فقال من أي العرب فقلت من ولد المطلب قال من ولد من قلت من ولد شافع قال رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسئلة في الطهارة ومسئلة في الزكاة ومسئلة في البيوع والفرائض والرهان والحج والايلاء ومن كل باب في الفقه مسئلة وجعل بين كل مسئلتين بياضا ودفع إلي الدرج

وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ (قال الشافعي رضي الله عنه) فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام واجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك إليك (قال الشافعي رضي الله تعالى عنه) ثم سألني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد أن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل الا راكبا (قال) الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له قدم فقدم إلي ببغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي باطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل علي محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال لا يروعك يا عبد الله ما رأيت فما إلا هو من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض واني أخرج زكاتها في كل عام بأسر بها الصديق وأكبت بها العدو (قال الشافعي رضي الله تعالى عنه) فما بت حتى كساني محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فأخرج إلي الكتاب الاوسط تأليف الإمام أبي حنيفة فنظرت في أوله وفي آخره ثم ابتدأت الكتاب في ليلتي أتحفظه فما أصبحت إلا قد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشيء من ذلك وكان المشهور بالكوفة فالفتوى والمجيب في النوازل فأنا قاعد عن يمينه في بعض الأيام إذ سئل عن مسئلة أجاب فيها وقال هكذا قال أبو حنيفة فقلت وهمت في الجواب في هذه المسئلة والجواب من قول الرجل كذا وكذا وهذه المسئلة تحتها المسئلة الفلانية وفوقها المسئلة الفلانية في الكتاب الفلاني فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلته

السفرة ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ثم قدم بغلا لحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إلي نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم إلي الفرس الذي كان جهزه وقال اركب وهذا الغلام الاسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري وركب معي يشيعني وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث قال فقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف ذلك قال أنا ذلك الرجل وإنما الضر الذي أنا فيه غير عليك حالي وما كنت تعرفني [illegible] يذكر تفاصيل الاسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذي أصارك إلى ما أرى فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي وبعث أمير المؤمنين بجيوش فاصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري وهو نازل عند فلان فان رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد فان أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس قلت يصنع الله خيرا ثم أحضر حدادا في الليل ففك قيوده وأزال ما كان فيه من الانكال وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سير من أحضر إليه غلامه فلما رآه جعل يبكي ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال علي بالفرس الفلاني والفرس الفلاني

فرجع عن جوابه إلى ما قلت ولم يخرج إلى كتابا بعد هذا (قال الشافعي) أستاذنته فى الرحيل فقال ما كنت لآذن لك بالرحيل عنى وبذل لى فى مشاطرة نعمته ما لذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتى إلا فى السفر قال فامر غلامه أن يأتى بكل ما فى خزانته من بيضاء وحمراء فدفع إلى ما كان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الاعاجم وألقى الرجال حتى صرت ابن احدى وعشرين سنة ثم دخلت العراق فى خلافة هرون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بى غلام فلاطفنى وقال لى ما اسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن ادريس الشافعى فقال مطلبى فقلت أجل فكتب ذلك فى لوح كان فى كمه وخلى سبيلى فأويت إلى بعض المساجد أفكر فى عاقبة ما فعل حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد وأقبلوا يتأملون وجه كل رجل حتى أتوا إلى فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة ثم أقبلوا على وقالوا أجب أمير المؤمنين فقمت غير ممتنع فلما بصرت بأمير المؤمنين سلمت عليه سلاما بينا فاستحسن الالفاظ ورد على الجواب ثم قال تزعم انك من بنى هاشم فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم فى كتاب الله باطل فقال أبن لى عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لى الرشيد ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة الا فى رجل من ولد المطلب هل لك أن أولك قضاء المسلمين وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيه حكمك وحكمى على ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واجتمعت عليه الامة فقلت يا أمير المؤمنين لو سألتنى أن أفتح باب القضاء بالغداة واغلقه بالعشى بنعمتك هذه مافعلت ذلك أبدا فبكى الرشيد وقال تقبل من عرض الدنيا شيء قلت يكون معجلا فأمر لى بألف دينار فما برحت من مقامى حتى قبضتها ثم سألنى الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى فلما لم تسع المروءة أن كنت مسئولا غير المقاسمة فيما أنعم الله به على تخرج لى قسم كأقسامهم ثم عدت إلى المسجد الذى كنت فيه فى ليلتى فتقدم يصلى بنا غلام صلاة الفجر فى جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو ولم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج فقلت له بعد السلام أفسدت علينا وعلى نفسك أعد فأعاد مسرعا وأعدنا ثم قلت له أحضر بياضا أعمل لك باب السهو فى الصلاة والخروج منها فسارع إلى ذلك ففتح الله عز وجل على فألفت له كتابا من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزءا يعرف بكتاب الزعفران وهو الذى وضعته بالعراق حتى تكامل فى ثلاث سنين وولانى الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحجاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى فى قبته فلما أشرت إليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف وأشار إلى بالكلام فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز أجاب بخير ثم عاودته إلى السؤال عن مالك فقال لى أشرح لك أو أختصر قلت فى الاختصار البلاغة فقال فى صحة جسم وله ثلثمائة جارية يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود إليها إلى سنة فقد اختصرت لك خبره (قال الشافعى رضى الله تعالى عنه) فاشتهيت أن أراه

والبغل الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا كذا ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل وأحضر بدرة عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الانبار فقلت له ان ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم وان أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرد وأقتل فقال انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى فقلت والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فان احتجت إلى حضورى حضرت فقال لصاحب الشرطة ان كان الامر على ما يقول فليكن فى موضع كذا فإن أنا سلمت فى غداة أعلمته وان أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد فى اخراجه من بغداد قال الرجل فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنا قال العباس فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون فى طلبى ويقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل فسكت فقال ويحك أين الرجل فقلت يا أمير المؤمنين اسمع منى فقال لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقه فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ماهرب ولكن اسمع حديثى وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله فى أمرى قال قل فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته إنى اريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين أما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت وأما أن يقتلنى فأفيه بنفسى وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين

فى حال غناه كما رأيته فى حال فقره فقلت له أما عندك من المال مايصلح للسفر فقال انك لتوحشنى خاصة وأهل العراق عامة وجميع مالى فيه لك فقلت له فبم تعيش قال بالجاه ثم نظر إلى وحكمنى فى ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومصر فأتيت حران ودخلتها يوم الجمعه فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر راسى شعثا فدعوت المزين فلما بدأ بدأ براسى وأخذ القليل من شعرى دخل قوم من أعيان البلد فدعوه إلى خدمتهم فسارع اليهم وتركنى فلما قضوا ماأرادوا منه عاد إلى فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت اليه أكثر ماكان معى من الدنانير وقلت له خذ هذه وإذا وقف بك غريب لاتحتقره فنظر لى متعجبا فاجتمع على باب الحمام خلق كثير فلما خرجت عاتبنى الناس فبينما أنا كذلك اذ خرج بعض من كان فى الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابى لهم فانحدر عن البغلة بعد أن استوى عليها وقال لى انت الشافعى فقلت نعم فمد الركاب مما يلينى وقال بحق الله اركب ومضى فى الغلام مطرقا بين يدى حتى أتيت إلى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت فى منزله فأظهر البشاشة ثم دعا بالغسل فغسل علينا ثم حضرت المائدة فسمى وحسبت يدى فقال مالك ياعبد الله فقلت له طعامك حرام على حتى أعرف من أين هذه المعرفة فقال أنا ممن سمع منك الكتاب الذى وضعته ببغداد وأنت لى أستاذ (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت العلم بين أهل العقل رحم متصلة فأكلت بفرحة إذ لم يعرف الله تعالى الا بينى وبين أبناء جنسى وأقمت ضيفه ثلاثا فلما كان بعد ثلاث قال ان لى حول حران اربع ضياع مابها احسن منها أشهد الله ان اخترت المقام فانها هدية منى اليك فقلت فبم تعيش قال بمافى صناديق تلك وأشار اليها وهى اربعون الف درهم وقال أتجر بها فقلت ليس إلى هذا قصدت ولاخرجت من بلدى لغير طلب العلم فالمال إذا إلى من شأن المسافر فقبضت الاربعين الفا وودعته وخرجت من مدينة حران وبين يدى أحمال ثم تلقانى الرجال وأصحاب الحديث منهم أحمد بن حنبل وسفيان ابن عيينة الأوزاعى فاجزت كل واحد منهم على قدر ماقسم له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى الاعشرة دنانير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتى وصلت إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم بعد سبعة وعشرين يوما بعد صلاة العصر فصليت العصر ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر مكتوب عليها لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الشافعى رضى الله عنه) وحوله أربعمائة أوقد يزيدون وبينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضى الله عنه قد دخل من باب النبى ﷺ وقد فاح عطره فى المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذيوله منهم أربعة فلما وصل قام اليه من كان قاعدا وجلس على الكرسى فألقى مسئلة فى جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعنى الصبر فقمت قائما فى سور الحلقة فرأيت انسانا فقلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فاضرب عنه مالك وقبل على اصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم

فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لاجزاك الله عن نفسك خيرا انه فعل بك مافعل من غير معرفة ونكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لاغير هلا عرفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له فقلت ياأمير المؤمنين انه ههنا قد حلف أن يبرح حتى يعرف سلامتى فان احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منه اعظم من الاولى اذهب الآن اليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى حتى أتولى مكافأته قال العباس فأتيت اليه وقلت له ابزل خوفك ان امير المؤمنين قال وكيت فقال الحمد لله الذى لايحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدثه حتى حضر الغذاء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة افراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به واطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى ياعباس هذا كتاب صديقك والله تعالى اعلم (ومن عجائب هذا الاسلوب وغرائبه) ماأورده محمد بن القاسم الانبارى رحمه الله تعالى ان سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها واشتغل بها فلم تطلب نفسى فدخلت وقت القائلة فلم يأخذنى النوم فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال فقلت ماهذا فقال ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد قلت امسكها

وأصاب الرجل ففرح الجاهل باصابته فلما ألقى السؤال الثانى أقبل على الجاهل يطلب منى الجواب فقلت له الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت اليه مالك فبادر إلى أصحابى واستخبرهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل (قال الشافعى رضى الله عنه) فلما ألقى السؤال الثالث قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فأعرض مالك عنه وأقبل على اصحابه فخالفوا فقال أخطأتم وأصاب الرجل ثم قال للرجل ادخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجلس بين يديه فقال له مالك قرأت الموطا قال لا قال فنظرت ابن جريج قال لا قال فلقيت جعفر بن محمد الصادق قال لا قال فهذا العلم من أين قال إلى جانبى غلام شاب يقول لى قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول قال فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضى الله عنه فقال للجاهل قم فأمر صاحبك الدخول الينا وقال الشافعى رضى الله عنه فدخلت فاذا أنا من مالك بالموضع الذى كان الجاهل فيه جالسا بين يديه فتأملنى ساعة وقال أنت الشافعى فقلت نعم فضمنى إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال أتمم هذا الباب الذى نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل الذى هو لك المنسوب إلى (قال الشافعى رضى الله عنه) فألقيت أربعمائة مسئلة فى جراح العمد فما أجابنى أحد بجواب واحتججت أن آتى بأربعمائة جواب فقلت الأول كذا وكذا الثانى كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيده إلى فلما تقدم وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال مم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعت الآخرة بالدنيا قلت هو والله ذلك قال طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خرسان وهدايا مصر والهدايا تجىء من اقاصى الدنيا وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الهداية ويرد الصدقة وان لى ثلثمائة خلعة من زق خرسان وقباطى مصر وعندى عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية منى اليك وفى صناديق تلك خمسة الاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك منى نصفها قلت انك موروث

معك واتبعنى فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ثم رجعت إلى باب الانبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة على الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه قال نعم ثم دخل واحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يلتمس فقلت ماتريد ياهذا قال إياك أريد قلت فما حاجتك فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال شممت منك رائحة طيبة فظننت انك من أهل النعم فأردت أن أحدثك بشىء فقلت قل قال ألا ترى إلى باب هذا القصر قلت نعم قال هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كان فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقا لأبى فقلت ومن أبوك قال فلان بن فلان فعرفته فاذا هو كان من أصدق الناس إلى فقلت له ياهذا ان الله تعالى قد أتاك بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له إذا كان الغد فسر إلى منزلى ثم مضيت وقلت ماأحدث أمير المؤمنين بشىء اظرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألفى دينار فاحضرت فقال ادفعها الى الأعمى فنهضت لاقوم فقال اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفا فحدثنى ساعة وقال امض إلى منزلك فمضيت إلى منزلى فاذا بخادم معه خمسون ألفا وقال يقول لك امير المؤمنين اقض بها دينك قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ على الاعمى وأتانى رسول المهدى يدعونى فجئته فقال قد فكرت البارحة فى أمرك فقلت يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضا وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال فقبضتها وانصرفت فجاءنى الاعمى فدفعت اليه الالفى دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على احسان ابيك وكافأنى على اسداء المعروف اليك ثم أعطيته شيأ آخر من مالى فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم (ومما هو أوضح حسنا وأرجح معنى) ماحكاه القاضى يحيى ابن اكثم رحمة الله عليه قال دخلت يوما على الخليفة هرون الرشيد المهدى وهو مطرق مفكر فقال لى اتعرف قائل هذا البيت

الخير أبقى وان طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت ياأمير المؤمنين ان لهذا البيت شأنا مع عبيد بن الابرص فقال على بعبيد فلما حضر بين يديه قال له اخبرنى عن قضية هذا البيت فقال ياأمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجا فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لى رجل من القوم

تقدم يوما بالناس فتقدمت الى أول القافلة فاذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى الى ما أصنع فى أمره فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى فعارضنا ثانيا فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه فقلت أفدى هذا العالم بنفسى وأتقرب الى الله تعالى بخلاص هذا القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفى وتقدمت فلما رآنى قربت منه سكن وبقيت متوقعا منه وثبة يبلعنى فيها فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة فى فيه وصببت الماء كما يصب فى الإناء فلما فرغت القربة تسيب فى الرمل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة الظلمة مدلهمة فأخذت شيأ من الماء وعدلت الى ناحية من الطريق فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتنى عينى فنمت مكانى فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا وبقيت منفردا لم أر أحدا ولم أهتد إلى ما أفعله وأخذتنى حيرة وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخص المضل مركبه ... ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه ... وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيبه ... عند الصباح فى الفلا تسيبه

فنظرت فاذا أنا ببكر قائم عندى وبكرى الى جانبى فأنخته وركبته وجنبت بكرى فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت الى بكرى وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن هموم تضل المدلج الهادى
ألا تخبرنا بالله خالقنا ... من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميدا فقد بلغتنا مننا ... بوركت من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكرى إلى وهو يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا ... والله يكشف ضر الحائر الصادى
جدت بالماء لما ضن حامله ... تكرما منك لم تمنن بانكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أمن به ... فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

تعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

(تم الجزء الأول من الكتاب المستطرف ويليه الجزء الثانى
أوله الباب الثالث والأربعون)

وأنا موروث فلا يبيت جميع ماوعدتنى به الاتحت خاتمى ليجرى ملكى عليه فان حضرنى أجلى كان لورثتى دون ورثتك وان حضرك أجلك كان لى دون ورثتك فتبسم وجهى وقال أبيت الا العلم فقلت لا يستعمل أحسن منه ومابت الا وجميع ماوعدنى به تحت ختمى فلما كان فى غداة غد صليت الفجر فى جماعة وانصرفت الى المنزل أنا وهو وكل واحدمنا يده فى يد صاحبه إذ رأيت كراعا على بابه من جياد خراسان وبغالا من مصر فقلت ما رأيت كراعا أحسن من هذ افقال هو هدية منى اليك ياأبا عبدالله فقلت له دع لك منها دابة فقال انى أستحى من الله أن أطأ قرية فيها نبى الله ﷺ بحافر دابة) قال الشافعى) رضى الله عنه فعلمت أن ورع الامام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثة ثم ارتحلت الى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم ألفنت من يعلم بخبرى فلما وصلت الى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتنى الى صدرها وضمتنى بعدها عجوز كنت آلفها ادعوها خالتى وقالت

ليس اسك اجتاحت المنا يا كل فؤاد عليك أم

فهرست ما فى النصف الأول من كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف من الأبواب والفصول المعروف جميعها فى ديباجة الكتاب وهى أربعة وثمانون بابا منها فى هذا النصف اثنان وأربعون كما هو موضح بهذه الفهرست المجعولة للاستدلال على أى باب من الأبواب أو فصل من الفصول فى أى صحيفة من صحائف هذا النصف

صحيفة

صحيفة

(فهرست كتاب ثمرات الاوراق الموشى به الجزء الاولى من كتاب المستطرف)

{ تمت }